الرواية الفائزة بجائزة أورويل

أصدقائي

هشام مطر

الحائز على جائزة البوليتزر

The Booker Prize 2024 Longlisted

ترجمة: زوينة آل تويه

دار الشروق

مؤثرةٌ وعميقةٌ، لا تخلو من تشويقٍ هادئ... من يقرأون لهشام مطر لأول مرة، سيجدون في «أصدقائي» تأملًا أدبيًا بديعًا في المواضيع التي اختار أن يكتب عنها طوال حياته.. أمّا قراؤه الذين يعرفون أعماله، فإن أثر أعماله فيهم سيتضاعف كثيرًا.

نيويورك تايمز

احتفاءٌ عميقٌ بقدرة الصداقة على مؤازرتنا، وبالسُّبُل التي نصوغ بها أنفسنا وفق الآثار التي يتركها فينا أولئك القلة من الأشخاص الذين يضعهم القدر في طريقنا.

واشنطن بوست

رواية زاخرة بالحياة، وبالغة الإتقان؛ عن الوطن والغربة، والعائلة والصداقة، والفقد والولادة من جديد. إنها مثل سيمفونية آسرة، تتشابك فيها الحيوات والولاءات.

آيريش تايمز

هذا كتابٌ عن الغربة، والعنف، والحزن، غير أنه قبل كل شيء -كما يخبرنا عنوانه- تأمُّلٌ في الصداقة.

الجارديان

رواية عميقة، إنسانية، وآسرة. هذا الكتاب الرائع هو كتابٌ عن الحب، والأخوة، والعائلة، والوطن، والغربة. سوف يحصد العديد من الجوائز بجدارة.

صنداي إندبندنت

أصدقائي

Copyright © Hisham Matar 2024

أصدقائي

هشام مطر

ترجمة: روينة آل توبة

مراجعة: إبراهيم الشريف

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

الطبعة العربية الأولى ٢٠٢٦

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

تصميم الغلاف: هاني صالح

صورة المؤلف: ديانا مطر

رقم الإيداع ٢٠٢٥/٣٤٣٠٠
ISBN 978-977-09-4022-8

دار الشروق
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر

/dar elshorouk /Darelshorouk

مطر، هشام
أصدقائي / هشام مطر
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٥
٥١٨ ص، ٢٠ سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٤٠٢٢٨
رقم الإيداع ٢٠٢٥/٣٤٣٠٠
١- القصص العربية أ- العنوان ٨١٣

هشام مطر

أصدقائي

ترجمة: زوينة آل تويّه

مراجعة: إبراهيم الشريف

دار الشروق

إهداء

إلى صديقتي الناشرة الراحلة سوزان كامل
التي آمنت بهذا الكتاب قبل كتابة كلمة واحدة
بوقت طويل وأعانتني ذكراها على كتابته..

١

يستحيل، بالطبع، أن نتأكَّد ممَّا تكنُّه الصدور، وحتى ممَّا تكنُّه صدورنا أو صدور مَن نعرفهم، وربما خصوصًا صدور مَن نعرفهم حق المعرفة، لكنني، وأنا واقفٌ هنا في طابق محطة كِنجز كروس العلوي، حيث يمكنني مراقبة صديقي القديم حسام زُوَّة وهو يشقُّ طريقه في بهو المحطة، أشعر بأني أرى ما في نفسه، وأفهمه فهمًا دقيقًا أكثر من ذي قبل، كأن صداقتنا طيلة عَقْدَين عرف خلالهما أحدُنا الآخر، كانت بحثًا على الدوام، والآن، على نحوٍ لا يخلو من مفارقة، مباشرةً بعد وداعنا، بدأت صورته تنجلي لي أخيرًا. وربما هذه هي طبيعة الأمور، فحين تنتهي صداقةٌ بلا سبب أو تَفْتُر أو تذوب فحسب ولا يعود لها وجود، يبدو التغيير الذي نخبُرُه في تلك اللحظة حتميًّا، قَدَرًا كان يدنو طوال الوقت، مثل شخصٍ يسير نحونا من بعيد ولا نتعرَّف إليه إلَّا بعد فوات الأوان على الالتفات عنه. لم يكن لقلبي جارٌ أقرب منه. وأنا أنظر إليه وهو يمشي نحو القطار المتجه إلى باريس، تلك المدينة التي التقينا فيها أول مرة منذ زمن بعيد وبأغرب السُّبُل، أُوقِنُ بأنه

يحمل بين ضلوع قفصه الصدري، عبئًا لا يُرَى، عبئًا أخال أنني أستطيع تمييزه من هذا البُعْد.

عندما كان يقيم هنا في لندن، قلَّما مضى أسبوع دون أن نتمشَّى معًا في الحديقة أو بمحاذاة النهر. وأحيانًا كنَّا نخوض في جدال يمسُّ، عادةً، مسألة أدبية مغمورة، وكان جدالًا، ككلِ جدالٍ ربما، يخفي اختلافات أعمق. كنت في بعض الأحيان أُقْدِم على فعل يراودني الندم عليه، فلطالما ساءني فعله. كنتُ أنقر صدره بسبابتي ثم أضع كفِّي هناك، لحظةً خاطفة، كأنني أثبِّتُ ما ظننتُ أني وضعته هناك، وأتنبَّه، مرة أخرى، لهيئة ضلوعه الناتئة، لعظامه البارزة بروزًا غريبًا، كأنها تترقَّب دومًا هجومًا ما.

إنه لا يعلم أنني ما زلت هنا. يظنُّ أنني قد انصرفت وسارعت إلى موعد العشاء الذي أخبرته بأنني قد تأخرت عليه. لستُ واثقًا من سبب كذبي عليه.

سألني: «مع مَن ستتعشى؟».

أجبتُ: «ليس أحدًا تعرفه».

عندئذ نظر إليَّ كأننا قد افترقنا منذ زمن وكأن الحاضر كان ماضيًا، أنا واقفٌ على الشاطئ وهو على ظهر السفينة المبحرة إلى المستقبل.

أستطيع أنْ أرى أنَّ ذلك العبء في صدره قد أمال كتفيه قليلًا إلى الخلف، وأدَّى إلى تقدُّم وركيه إلى الأمام للحفاظ على اتزانه

ومنعه من السقوط على وجهه إنْ دُفِع أقل دفعٍ فحسب. إلَّا أنه يظهر، من هذه المسافة، رجلًا قد ملك قراره، يتقدَّم عازمًا على ولوج حياته الجديدة.

تلك السنوات الماضية منذ عام ٢٠١١، منذ الثورة الليبية وكل ما أعقبها ـ الإخفاقات والفرص الضائعة التي لا حصر لها، الاختطافات والاغتيالات، الحروب الأهلية، الأحياء الكاملة التي سُوِّيت بالأرض، حكم الميليشيات ـ تلك السنوات غيَّرت حسام. وقد ظهر دليل ذلك في وقفته، بل في هيئته كذلك: رعشة اليدين الطفيفة التي يمكن ملاحظتها كلما رفع سيجارة إلى فمه، الشَّكُّ المحيط بعينيه، مسحة الحذر فيهما، ووجهه الذي بدا كأرضٍ عرضةٍ لطقس رديء.

بعد بدء الثورة بمدة يسيرة، عاد إلى الوطن فامتدت مسافة بيننا، وربما كان ذلك أمرًا طبيعيًّا. خلال المرات القليلة التي زار فيها لندن كان كلٌّ منَّا مرتاحًا برفقة الآخر، وإن لم تملأ الحماسة قلبينا. إنني موقنٌ بأنه هو أيضًا قد لاحظ هذا التغيير. في بعض الأحيان كان يمكث معي في شقتي الأستوديو فينام على الأريكة ونتشارك الغرفة نفسها، حيث يمكننا الحديث في الظلام إلى أن يغلب أحدنا النوم. إلَّا أنه، في أكثر الأوقات، كان يقيم في غرفة بفندق صغير في بادنجتن. كنَّا نلتقي هناك وكان الحيُّ المنتظم حول محطة القطار، الذي يملأ الشوارع المحيطة بإحساس بالترحال، يشعرنا كأننا زائران، ويعمِّق الإحساس بأن صداقتنا

قد أصبحت نسخة لما كانت عليه مرةً حينما عاش حسام هنا وتقاسمنا المدينة مثلما يتقاسم عمَّال كادحون الأدوات. لكنه الآن، كلما تكلَّم أشاح بنظره، وبدا كمن يفكِّر بصوتٍ عالٍ أو ينخرط في حديث بينه وبين نفسه. وكنت كلما رويت له قصة لاحظتُ أنني أميل إلى الأمام قليلًا ولمستُ شيئًا من مسحة عناد في صوتي كأنني أحاول إقناعه برأي غير معقول. لا أحد أقدر على اختلاق الأكاذيب ولا أحوج إليها من أناسٍ يتمنَّوْن عدم الافتراق للأبد.

٢

مساء البارحة وصل حسام من بنغازي. سهرنا نتحدَّث حتى الفجر. نام على الأريكة ولم يستيقظ إلَّا في أول الأصيل. كان علينا المغادرة في الحال إلى محطة سانت بانكراس، حيث سيقلّه القطار إلى باريس ليبيت ليلتين هناك، ثم يطير إلى سان فرانسسكو. كانت لندن المكان الذي عاش فيه. قالت الرسالة النصية التي أرسلها من بنغازي: «يجب أن أراك قبل أن أذهب إلى الأبد، إلى الأبد». قبل واحد وعشرين عامًا، عندما كان صغير السِّنّ بما يكفي لتغذية وهم بناء النفس، كانت باريس البلاد التي أقام فيها مدةً من الزمان. «أريد أن أراها مرةً أخيرة». قال هذا بالأمس ونحن ندخل الشقة.

كنتُ قد ذهبت لإحضاره من المطار، وطوال الطريق إلى الشقة، في مترو الأنفاق المتجه من هيثرو إلى شيبردز بُش، تحدَّث بالإنجليزية، وكان أغلب حديثه عن حياته الجديدة في أمريكا. لم يقل شيئًا عن السنوات الخمس الأخيرة التي قضاها في ليبيا، وقد كان ذلك كل ما أمِلتُ أن أسمع عنه.

«إنه جنون. أنا مندهش مثلك. أقصد أن أُخطِّط للعيش، مدةً غير معلومة، في بلاد لم أزرها من قبل، في منزل لم أره من قبل، اشتراه أبي بسبب نزوة خلال رحلة عمل أيامَ شبابه قبل ولادتي بوقت طويل. وها أنا الآن عازمٌ على تربية طفلتي هناك، في أمريكا». بعد مدة من الصمت انطلق القطار خلالها في النفق، قال مشيرًا إلى أبيه الراحل: «المسكين».

بينما كنا نجتاز المحطات وأبواب القطار تُفتَح وتُغلَق ويغادر ركَّاب ويصعد آخرون جُدُد، قال لي ما قاله من قبل عن وقوع أبيه في حُبِّ شمال كاليفورنيا.

«خطَّط للذهاب إلى هناك كل صيف، وما كان إلَّا أن مُنِع من السفر تمامًا ما تبقَّى من حياته».

هنا ضحك، فشعرتُ بأنني مضطرٌّ إلى مشاركته الضحك.

عبر ممر القطار جلست قبالتنا عائلة شابة. كان الرجل أسود ووسيمًا، وفي عينيه نظرة تحدٍّ طفيفة. كانت المرأة بيضاء البشرة شقراء الشعر، تتحدث بما يشبه الهمس إلى ابنها الجالس بجوارها. بدا الصبي في نحو التاسعة من عمره، تعلوه كرةٌ من الشعر المجعَّد تضاعِفُ حجمَ رأسه وتلتقط أطرافُها الضوءَ في درجات من البني والذهبي. من حين لآخر كانت أمُّه تمرِّر أصابعها بين خُصَل شعره. وقف الصبي مقابلنا واضعًا يديه على ركبتَيْ والدَيه. تمايل قليلًا والقطار يتحرك. كان في هيئتهم شيءٌ استعراضي إلى حدٍّ ما. كانوا يعرفون أنهم عائلة جميلة. استقرَّت

عيون ثلاثتهم علينا وبدوا كأنهم ينتبهون إلى ما كان يقوله حسام. كثيرًا ما كان له هذا التأثير في الآخرين.

تابع قائلًا: «هل تستطيع أن تتخيَّل منزلًا اشتريته في لحظة اندفاع، لتعيش باقي عمرك غير قادر على رؤيته؟ حتى في أصعب الأوقات رفض تأجيره. إلى أن أصبحت بوينت رِيس - تلك كانت البلدة المجاورة - رمزية، مثالًا ساخرًا على المفقود والمستحيل، كانت أطلنطس عائلتي».

صعد بنا القطار فوق الأرض وامتلأت العربة بالضوء. نظرت العائلة الجميلة إلى المشهد العابر خارج النافذة خلفنا.

بعد أن شحن حسام أمتعته كلها إلى كاليفورنيا سيستطيع السفر خفيفًا. عرفتُ الحقيبة القديمة. صغيرة، زرقاء، وبالية. كانت هي نفسها التي استعملها عندما عاد من باريس، وبعد ذلك أيضًا حين كان يذهب برفقة كلير، حبيبته، للسباحة في نهر دارت بِبلدة دفِن، فقد أحبًا فعل ذلك من حينٍ لآخر. رؤية الحقيبة المألوفة أثارت حنيني إلى تلك الأيام الخوالي عندما كان حسام يعيش في لندن، ولمدةٍ من الزمان في الشقة التي كانت تحت شقتي، التي شغلت الطابق الأرضي كلَّه في المنزل الواقع بين منزلين، وكان يحوي حديقة مهملة في فنائه الخلفي. كانت غرفتي تقع فوق غرفة معيشة شقته مباشرة، وفي ليالٍ كثيرة كنت أنام على همهمات صوته هو وكلير الخافتة.

حدث الأمر على نحوٍ طبيعي. عاد حسام حينها إلى لندن وكانت الشقة الواقعة في الطابق السفلي متاحة. في البداية تردَّد، وحرصتُ على عدم الإلحاح. سعرُ الإيجار المنخفض حسم المسألة. بعد مدة قصيرة، انتقلت كلير معه. كانت إيرلندية، لطيفة، وذكية، ذات طبع صارم يخبرك بوضوح بألَّا تخشى عليها، وبأن آخر ما تريده هو قلقك. أتذكَّر مرةً لمَّا انتظرناها في مقهى وتأخرت. ظل حسام يتفقَّد هاتفه. سألته إذا كان قلقًا. بدا متحيِّرًا حقًّا وقال: «قلق؟ إنني لا أقلق على كلير أبدًا». كانا قد التقيا في كلية ترينيتي بدبلن، حيث درس حسام الأدب الإنجليزي وكلير التاريخ. أحبَّت تذكيرنا بأنها هي أيضًا مغتربة هنا.

استرسل حسام في الحديث، على نحو حميم الآن، مائلًا نحوي، لكن متابعًا الكلام بالإنجليزية: «لكنني أقول لك، طيلة هذه الأسابيع الماضية القليلة ونحن نحزم الأمتعة ونستعد للانتقال، كان الوالد، رحمه الله، حاضرًا في بالي. أعلم أن ما أقوله يبدو جنونًا، لكنني متأكد من أنه كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي، أن ابنه الضَّال ـ الابن الذي، مثلما قال لأمي، كان مُقَدَّرًا له أن يحقِّق أشياء عظيمة أو أن يفشل فشلًا ذريعًا ـ قد يدير ظهره يومًا ما لكل شيء ويذهب إلى أمريكا، البلاد التي لا يعود الناس منها».

بلغنا محطتنا، وبينما كنا نمشي إلى عنوان المكان الذي سكنه ذات مرة، علّق على بعض التغييرات التي حدثت منذ آخر مرة أتى

للزيارة: المخبز القديم الذي استولى عليه متجر كبير، محاولات التحسين التي طالت منطقة شيبردز بُش جرين؛ المنطقة العشبية مثلثة الشكل الكبيرة تلك التي طالما أحاطت بها حركةَ المرور من كل صوب.

صَمَتَ لمَّا وصلنا إلى الشارعِ المألوف الذي كان على جانبيه صفَّان من البيوت. سارعتُ بإخراج المفاتيح، وطالما فعلت ذلك، وطيلة الأعوام التي عشتها هنا لم أنسَ المفاتيح في الداخل ولم أضيِّعها هي أو محفظتي ولو مرة. ها هي ردهة البيت المشتركة التي لم تتغيَّر، مع رسائل البريد المتناثرة على السجادة باهتة اللون، الأضواء التي تنطفئ قبل وصولك إلى بسطة الدرج العلوية.

«لكنَّ باريس»، قال فجأةً ونحن نصعد السلالم، «تلك حقًّا الحنين الخالص».

وضع حقيبته في المطبخ وتوجَّه مباشرةً إلى الحمَّام تاركًا الباب مفتوحًا على مصراعيه. غسل وجهه ويديه بالصابون متابعًا حديثه عن خططه، عن أنه يريد أن يمشي في الطرقات المألوفة كلها، ويعود إلى زيارة حديقة جاردان سوفاج سانت فنسنت حيث أخذني مرةً. ومع تقدُّم المساء، ظهر على وجهه تعبيرٌ جديد. وهو جالس في مطبخي وحقيبته الصغيرة إلى جانبه، لم يبدُ أنه كان جالسًا قرب أمتعته فحسب، بل إلى جوار قلبه، متحمِّلًا المسافات بين ليبيا وأمريكا، بين حياته السابقة والمستقبل. الآن

وهو في لندن، في المكان المتوسط بين وجهتين، وقد سمع بنفسه ما يرويه لي عن خططه، وأحسَّ، بلا شك، بقلة حماستي، لعل حقيقة ما كان مقبلًا عليه انكشفت فجأةً: الوهم بأنه يستطيع الذهاب إلى أمريكا كأنها كانت كوكبًا آخر، ولن يقدر أيٌّ من الأشباح القديمة على اللِّحاق به. من الواضح أن هذه الرحلة إلى مدينتيه السابقتين كان باعثُها، بوجهٍ ما، أسفَه على انقضاء الحياة التي نَعِم بها يومًا قبل أن يتغيَّر كل شيء، قبل عودة الرياح الليبية، التي طوَّحت بنا شمالًا، لتجرف أبناءها إلى الوطن.

في أيام الربيع العربي الحماسية، عندما كان يحاول إقناعي بالعودة إلى بنغازي برفقته، قال: «نحن في تيَّار لا مفرَّ منه. إن حماقة الاعتقاد بتحرُّرنا من التاريخ تعادل حماقة الاعتقاد بتحرُّرنا من الجاذبية».

٣

لم أكَدْ أنام الليلة الماضية. استيقظ حسام متأخرًا، بَلَعَ قهوته، وغادرنا الشقة دون أن نرتبها، كأننا قد نعود في أي وقت ونتابع نومنا.

ركبنا الحافلة رقم ٩٤ إلى ماربل آرتش ومن هناك غيَّرنا لنركب الحافلة رقم ٣٠. جلسنا في الطابق العلوي، هو قرب النافذة ينظر خارجها وأنا أراقبه. فكَّرت في كل الحدود التي تخطاها منذ أن عاش هنا آخر مرة. بعد غياب دام أكثر من ثلاثة عقود، عاد أخيرًا إلى وطنه ليرى أهله. أحبَّ قريبته مَلَك التي قال لي عنها في إيميل: «ظهرت كأنها قدري». انضم إلى الثورة ووجد نفسه حاملًا بندقية، مشاركًا في عدَّة معارك مهمة، حتى بلغ سِرْت، مسقط رأس الدكتاتور. هناك، شارك هو وجماعة من رفاقه المحاربين المنهكين في مواجهة كانت الأكثر مفصلية ضد قوات النظام. بعد غارة جوية، تعقَّبوا الجائزة الكبرى: معمَّر القذافي، العقيد نفسه، أو مثلما أشار إليه حسام في الإيميل الذي أرسله إليَّ بعد ساعات قليلة، في الثانية صباحًا بتوقيته: «أصلُ عذابنا»، كان مختبئًا في أنبوب في الرمال. استطرد حسام

في وصفه: «كان مضطربًا كعمٍّ عجوز هزيل. وألم يكن كذلك بالنسبة إلينا، قريبًا معتوهًا أكثر منه سياسيًّا؟».

قرأتُ الإيميل حال وصوله، في نحو الثالثة صباحًا بتوقيتي. في تلك الأيام، كثيرًا ما استعصى النوم عليَّ. تخيَّلت حسام في غرفته المستعارة في بيتٍ بمِصراتة، الهاتف ينير وجهه بضوء أزرق. أخبرني بأن مصراتة، التي تقع على بعد ١٥٠ ميلًا شمال غرب سِرت، كانت المكان الذي جرَّ إليه هو والآخرون جثمان الدكتاتور.

بعد ذلك بأيام، عندما عاد حسام إلى أهله في بنغازي، أرسل رسالة نصيَّة:

أتذكُر فايثن؟
كان مهووسًا بإثبات بُنُوَّتِه لأبيه. «أينما ولَّى الفتى الحائر وجهه/ رأى العالم حوله يحترق.../ ثم ليبيا أوَّلاً، جفَّفت الحرارةُ مياهَهَا/ فغدت صحراءَ قاحلة».
وفق أوفيد، احترقت بلادنا بسبب نزاع بين أبٍ وابنه.
في هذه الأشهر الماضية، أشهر القتال الذي لا ينتهي، وليالي الأرق، والتَّنقُّل الدائم، كثيرًا ما وجدتُني أفكِّر في هذه القصة. فقط لنجده بعد ذلك، أبانا المجنون، مختبئًا في أنبوب مَجَارٍ في الصحراء القاحلة نفسها.

بعد ذلك لم يمضِ وقت طويل حتى تزوج حسام ملك. أنجب الزوجان طفلة. عمل حسام في وزارة الثقافة الجديدة،

وعندما انهار كل شيء وبدأت الجماعات المختلفة المتنافسة على السُّلطة يوجِّه بعضُها البنادقَ إلى بعضها الآخر، انسحب حسام من الحياة العامة، وذات يوم، بعد عودته إلى ليبيا بخمس سنوات، قرَّر هو وملك الهجرة إلى أمريكا ومعهما أنجليكا، ابنتهما ذات الأعوام الأربعة.

٤

«هبطنا في سان فرانسسكو وسرعان ما أحببتها»، أرسلت ملك هذه الرسالة النصية إلى حسام الليلة الماضية، حين كنت وإياه على وشك تناول العشاء. قرأ لي باقي الرسالة ثم أضاف، قائلًا لنفسه أكثر من قوله لي، وهو ينظر إلى الهاتف: «إنها ظهيرة هناك. أتساءل عمَّا ستأكلان للغداء».

في غضون ثلاثة أيام من الآن، سيُجمَع شمله بهما، وسينطلقون في رحلة بالسيارة، مدتها ساعتان، شمالًا إلى بوينت رِيس. كان كل شيء يجري على قدمٍ وساق.

حين كنا في الحافلة ذكَّرني قائلًا: «لم أزر أمريكا من قبل قطُّ، لكنني كنت أراها في فكري طيلة هذه الأسابيع الماضية. شمال كاليفورنيا. أعرف أشجار السَّرو. لكن كيف تبدو رائحة الخشب الأحمر؟».

بعد حين، عندما انعطفت الحافلة إلى شارع ماريلبون، سألني: «أتعتقد أنها فكرة صائبة؟ أمريكا، أعني، العيش فيها؟».

أردت أن ألزم الصمت، أن أكون محايدًا، من باب اللطف، وأيضًا من باب الثأر للأوقات التي كان يقول لي فيها ما يجدر

بي فعله، وكيف يجدر بي أن أحيا «حياة أحفل وأنشط» ـ كما عبَّر ذات مرة ـ وأن أعود إلى ليبيا.

أخيرًا قلت: «إنه مكان جيد لتنشئة طفل»، وإن كنت لا أعرف إذا كانت أمريكا مكانًا جيدًا للأطفال أم لا، ولا حتى كيف يمكن تصوُّر مكان كهذا، وأي عناصر وصفاتٍ تكوِّنه. تابعت قائلًا: «خصوصًا كاليفورنيا، ولاية الشمس المشرقة».

ضحك وقال: «بالله عليك، لا تذهب إلى فلوريدا معتقدًا أنك ستجدني هناك. ستزورني، أليس كذلك؟ أقصد أنني أعرف أنك لا تحب الطيران».

لم أركب طائرة إلَّا مرة واحدة فِي حياتي، من بنغازي إلى لندن، وكان ذلك في سبتمبر عام ١٩٨٣. في عام ٢٠١١، بعد ثورة ١٧ فبراير بوقت قصير، لمَّا فكَّرت في العودة إلى الوطن، خطَّطتُ للسفر برًّا. قال حسام إنه سيرافقني «لنطأ الأرض العتيقة في اللحظة نفسها». كانت الرحلة ستستمر ثلاثة أيام، وتلزم ركوب قطارات عدة وعبَّارة إلى صقلية، وأخرى إلى مالطة ومن هناك تحملنا عوَّامة تصل إلى طرابلس في سويعات فقط. تخيَّلت الأمر كلَّه، ورأيت الساحل القديم وهو يدنو، الريح تملأ آذاننا حتى يصعب علينا سماع ما يقوله أحدنا للآخر.

قلت: «ذلك صحيح. ولاية الشمس المشرقة هي فلوريدا. سأحب أن أزورك في كاليفورنيا».

بدا أنه صدَّقني. قال محاولًا أن يكون صوته مشجِّعًا: «من يدري، لعلك تحبها كثيرًا إلى حدٍّ أن تقرِّر البقاء فيها. تذكرة ذهاب فقط. سنكون جارَين مرة أخرى. وستحظى أنجليكا بوجود عمِّها بقربها».

رأيتُني أركب الطائرة وفي جيبي حبوب منوِّمة.

وصلنا إلى محطة سانت بانكراس وكان عندنا متسع من الوقت. اقترحت أن نذهب للجلوس في المقهى الواقع في طابق محطة كِنجز كروس الأوسط. قلت له: «أقل هياجًا». كان السبب الحقيقي هو أنني أردت أن أكون محاطًا بالمسافرين، بالناس الذاهبين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو العائدين إلى بيوتهم، فقد بدوا أكثر استقرارًا وبدت مباهجهم أكثر تواضعًا. في زياراتي المنتظمة إلى المكتبة البريطانية المجاورة، كنت آتي إلى هنا، إلى هذا المقهى نفسه، قبل أن أتجه إلى شقتي، لأتأمل حينًا من الوقت، هذا المشهد الرتيب الذي يصبح أكثر إثارة حين يركض شخصٌ ليعانق شخصًا آخر، أو يمسح دموعه حين يتجه الآخر إلى القطار.

طلبنا قهوتنا ولم نجلس متقابلين، بل في جانب واحد من الطاولة الدائرية الصغيرة، مثل عجوزين نرقب العالم يمر أمامنا، أو ننتظر مصطفى، ثالث مثلَّثنا، أن يظهر بأعجوبة وينضم إلينا. إلَّا أن مصطفى كان في ليبيا ومن المستبعد أن يتركها. ذهب صديقاي الحميمان في جهتين متعاكستين: عاد مصطفى إلى الماضي، واتجه حسام إلى المستقبل.

شككتُ في أن حسام أيضًا، وحقيبته الصغيرة إلى جانبه، شعر بأنه محبوس قليلًا، متحمِّس لترك هذه اللحظة وراءه والانطلاق في رحلته. شربنا قهوتنا الإسبريسو وتعانقنا، وفكَّرت أننا ربما نتعانق لآخر مرة.

التقينا في عام ١٩٩٥، لمَّا كان في الخامسة والثلاثين من عمره وكنت في التاسعة والعشرين، ومع أن كلًّا منَّا يعرف الآخر منذ واحد وعشرين عامًا، أدهشني حين سمعته يهمس قائلًا: «صديقي الحقيقي الوحيد»، متلفِّظًا بالكلمات سريعًا وبإحساس عميق، كأنما كان ذلك اعترافًا قيل على مضض، كأن الكلام، في تلك اللحظة وبخلاف قوانين الخطاب العامة، قد خرج سابقًا الفكر، وكان هو، مثلما كنت تمامًا، يفهم تلك الكلمات أول مرة، ولعله قد لاحظ، مثلما لاحظتُ أيضًا، ما خلَّفته وراءها من أثرٍ بهيجٍ وحزينٍ في وقت واحد، لا لأنها قيلت وقتَ توادعنا فحسب، بل لأنها أيضًا جعلت تلك الطبيعة المتناقضة لصداقتنا أكثر مدعاة للأسف، صداقتنا التي تميَّزت بعاطفة وإخلاص شديدين، ولكن كذلك بالغياب والرِّيبة، وتميَّزت برباطٍ قويٍّ وطبيعي، ولكن أيضًا بصمتٍ لا يُسبَر غوره، لطالما بدا، حتى حين كنا معًا متجاورَين، عصيًّا على أن يُعبَر. لا أشك في أنني مسؤول مثله عن هذه الفجوة بيننا، إلَّا أنني، مع ذلك، أستمر في اتهامه هو بيني وبين نفسي، معتقدًا أن جزءًا من نفسه اختار أن يبقى متحفِّظًا. أستطيع إدراك ابتعاده حتى في أصخب الأوقات. لكن الآن، أصبحت كلماته تلك الحُكْمَ النهائي.

ثم، مباشرةً قبل أن ينصرف، قال: «ابقَ هنا»، قاصِدًا، حسبما أعتقد، أنني لا ينبغي أن أسير معه. لكنَّ طريقة تلفُّظه بهاتَين الكلمتين ردَّدت صدى ذلك الوقت حينما عاد إلى ليبيا ورفضتُ مرافقته، غير راغبٍ في العودة إلى الوطن أو غير قادرٍ على ذلك؛ «خالد المتردِّد»، مثلما اعتاد هو ومصطفى مناداتي في فورة أيام الثورة تلك لمَّا صار صديقاي الليبيان الوحيدان رَجُلَيْ أفعال لا أقوال.

«ابقَ هنا»، قال مرة أخرى، وبدا قوله هذه المرة أقرب إلى طلب تعهُّد، كأن ما كان يقوله في الحقيقة هو: عِدْني بأن تكون هنا دائمًا.

وها أنا ذا هنا، ما زلت في كِنجز كروس، أراقبه وهو يقطع بهو المحطة المزدحم، بمسحة اللا مبالاة تلك، كأنه إذا اصطدم بشخص آخر، قد يمر خلاله مباشرة فحسب.

الحق به، أقول لنفسي.

أبقى حيث أنا، في هذا المعطف وفي هذه الدقيقة، في حين يندفع الزمن من حولي. عُمْر صداقتنا كلُّه تحويه هذه اللحظة.

لندن، المدينة التي أحاول جعلها وطنًا طيلة العقود الثلاثة الماضية، تفكِّر باليقينيات. تستمتع بالتصنيف. هنا يزعم الخط الفاصل بين الطريق والرصيف، بين شخص وآخر، أنه واضح كحقيقة علمية. حتى الظلال تُخصَّص لها أماكنها، ولندن مدينة ظلال، مدينةٌ خُلِقت للظلال، لأناس مثلي يمكنهم العيش فيها عُمْرًا

بأكمله لكنهم يظلُّون غير مرئيين كأشباح. أرى ضوءها وحَجَرها، قبضتيها مُحكَمَتَي الإغلاق وحدائقها المفتوحة للمتسكعين، أفواهها الجائعة وفدادين أسرارها التي لا يمكن البوح بها، عضلة تنقبض حولي. إنني أرقب صديقي القديم، والمسافة تتسع بيننا، من داخل قبضة المدينة.

اذهب، اركض وراءه.

أو اركض إلى منضدة التذاكر وفاجئه في القطار.

أو اركب عربة مختلفة، وبعد وصول القطار إلى باريس بسويعات هاتفه وقل إنك أدركت القطار التالي، ورتِّب للقائه في المقهى القديم الواقع في زاوية ساحة كار دو لوديون، حيث أمضيتما أصائل وأماسِيَّ كثيرة يتعرَّف فيها أحدكما إلى الآخر قبل إحدى وعشرين سنة خلت، لمَّا التقيتما أول مرة. افترِقا في المكان الذي بدأ فيه كل شيء.

غير أنني أبقى في مكاني، فرصتي تفلت مني، وعزلتي تدنو كبناء ضخم يطبق عليَّ. يضغط بأحجاره الباردة على ظهري. الآن، حسامٌ نقطة في غابة من الرؤوس. ربما، إذا تبعته، سأصبح حُرًّا. أو ضائعًا وبلا مِرساة. يلزم المرء الكثير من التدريب ليتعلَّم كيف يعيش.

اذهبْ، أسمعُ الأمر، وهذه المرة أركض. لقد وصلتُ إلى السلالم، أقفز ثلاث درجات كل مرة، مُربِكًا مَن حولي، مسافرون يروحون ويجيئون من أماكن ستبقى مفتوحة لهم. أشقّ

طريقي في الحشد وأعجب من سرعتي في قطع المسافة. ها هو ذا، ظهره البريء قريب جدًّا حتى إنني إذا مددتُ يدِي، أستطيع أن أضعها على كتفه. أسمح للمسافة بأن تتسع بيننا قليلًا وأنا أتبعه إلى خارج المحطة. يقف، ينتظر إشارة المرور حتى يقطع الطريق متجهًا إلى محطة سانت بانكراس. إذا التفت الآن فكيف سأفسِّر له الأمر؟ لكن منذ متى شعرت بحاجتي إلى التفسير له؟ على أي حال، يبدو عليه أنه رحل فعلًا، إنه الآن في مكان آخر، مسحور بخططه التي وضعها لنفسه، «للالتزام بالتفاصيل أخيرًا»، كما قال الليلة الماضية ونحن نأكل في مطبخي، جالسين إلى المائدة الصغيرة قرب النافذة المطلَّة على ما كان ذات مرة حديقته وحدائق الجيران. شجَّعته متبسِّمًا، وابتسم براحة أكبر عندما أراني صورة ابنته في هاتفه. نور، لكنه يدعوها أنجليكا. بدت صغيرة ومَهِيبَة، لم تكن سِمَتُها سِمَةَ من يمتلك العالم، بل كانت كأنها، بتأثير ضربة سحرية ما، قد صارت هي العالم. ضحك وعانقني.

سألته دونما تفكير: «لماذا أنجليكا؟».

قال ووجهه يتورَّد فخرًا: «ولِمَ لا؟».

قلت: «حقًّا لِمَ لا».

تتغيَّر إشارة المرور وأتبعه إلى محطة سانت بانكراس. عندما يصل إلى منضدة إجراءات السفر أتريَّث أنا عند مسافة قريبة. يعبر الحاجز، وقبل أن يختفي في المنعطف ينظر خلفه.

لا يبدو أنه يراني، يستأنف طريقه. أو لعله رآني، والخواء الذي في عينيه هو الخواء الذي نحمله جميعًا في أعماقنا نحو أولئك الذين نحبهم.

أذهب لأقف عند شاشة الرحلات المغادرة. قد يتأخر قطاره أو يُلغَى حتى. بعد إعلانات كثيرة تنادي المسافرين للركوب، اللحظة الحسنة تمر. أتخيَّله يركب القطار، الأبواب تُغلَق وراءه، والعربات الثقيلة تمضي.

٥

أغادر محطة سانت بانكراس وأتجه غربًا على طريق يوستن. إنها السادسة مساء بتاريخ ١٨ نوفمبر عام ٢٠١٦، وقد غَرُبَت شمس الخريف المتأخرة. الشفقُ يصقل السماءَ بزرقة داكنة. الشوارع أنور وأكثر حيوية، فيبدو الضوء كأنه لا يأتي من السماء، بل يرتفع عاليًا في هيئة أشعة أرضية تتلاشى في الغيوم متلوّنةً بلونٍ ورديّ. إنه يوم الجمعة. الرصيف يغصُّ بالمارَّة، رؤوسهم تشكِّل نهرًا داكنًا ومتموِّجًا. الشارع مزدحم بالسيارات والهواء مثقل برائحة معدنية حزينة. وفي الخلفية ما زال ممكنًا تمييز الرائحة اللطيفة لأوراق الشجر المتساقطة. أقرِّر أن أمشي. لعل رحلة الأميال الخمسة أو الستة إلى البيت ترهقني بما يكفي لأنام.

فجأةً أفرح لأن حسام قد غادر. ثمَّة أوهام مُطمَئِنة في كون المرء وحيدًا. قد أكون وصلتُ توًّا، ترجَّلتُ من القطار أول مرة، زائرًا، رجلًا يقضي «عطلة في المدينة» كما يدعوها قطاع السياحة، أو يبدأ من جديد، داخلًا شوارع خاليةً تمامًا من الذكريات.

في مارس ١٩٨٠، قبل لقائي حسام زوَّة بسنوات كثيرة، أو حتى قبل أن أعرف أنه كان شخصًا حقيقيًا، كنت قد سمعتُ

به في هيئة الإذاعة البريطانية، بي بي سي العربية، وأصغيت، مفتونًا تمامًا، وأنا جالس إلى طاولة مطبخنا في بنغازي، إلى قصة قصيرة كان هو من كتبها. ما زاد من قوة القصة أنها قُرِئت بصوت المذيع والصحفي ذائع الصيت محمد مصطفى رمضان، ابن مدينتنا والمذيع النجم في إذاعة بي بي سي. كنت في الرابعة عشرة من عمري، وكنا نحن الأربعة ـ والديَّ، وشقيقتي سعاد ابنة الثالثة عشرة، وأنا ـ قد فرغنا توًّا من الغداء وما زلنا جالسين حول طاولة المطبخ نأكل برتقالًا. كان موسمَ البرتقال وقد عَبِق المطبخ بعطره. على الطاولة تكوَّمت قشور البرتقال الملتفَّة بعد أن قشَّرتها أمي في شكل دُوَّامة متصلة. كان المذياع يهمس في الخلف، وقد ضُبِط، كما كان دائمًا، على إذاعة بي بي سي العربية. دقَّت أجراس بِج بن بقتامة. كحال كثيرٍ من الناس في العالم العربي والمستعمرات السابقة حينئذ، سمعتُ لندن قبل أن أراها بزمن طويل. تخيَّلت برج ساعتها الشهير منتصبًا في وسطها، وحوله تصطف المدينة بأسرها، بمبانيها وساحاتها وشوارعها، كأنها في طواف.

«هنا لندن». قال محمد مصطفى رمضان الكلمتين اللتين طالما أعقبتا الدَّقَّات واستهلَّتا ساعة الأخبار.

عرفت أمي صوته فذهبت وعلَّت صوت المذياع. كنا نَعُدُّ محمد مصطفى رمضان واحدًا منَّا وفينا، واتفقنا على أن صوته أحلى بفضل النبرة البنغازية الخفيفة. لكنَّ والديَّ لم يتمكنا من معرفة

موقع عائلته، حتى في بنيان مدينتنا الاجتماعي الصغير والمألوف، وهو ما زاد من غموض اسمه غير المعتاد، المكوَّن من ثلاثة أسماء أُولى. وقد رجَّح الغموضُ زعمَ أبي أنه كان اسمًا مستعارًا اتخذه الصحفي الجريء تجنُّبًا لاكتشافه. لكن، مع أن محمد مصطفى رمضان كان يشغل منصبًا بارزًا في إذاعة بي بي سي، وهو ما أثار سخط النظام الدكتاتوري، وكان يكتب عمودًا أسبوعيًا في صحيفة العرب حيث اعتاد فضح ممارسات القمع التي كان يرتكبها النظام الليبي والأنظمة العربية الأخرى، فإن ما كان يوشك على فعله لم يفعله أحد من قبل ولا منذ ذلك الحين في إذاعة بي بي سي، ويبقى ما فعله، خصوصًا في ضوء الأحداث المأسوية التي أعقبته، أشدَّ أفعاله تحدِّيًا. مؤكَّدٌ أن ذلك كان طورًا من الزمن لم يعد بعده أيُّ شيء مثلما كان، لا له ولا لي، حتى إن لم أعرف هذا حينها.

عندما أنظر إلى الوراء محاولًا ـ كما أسعى الآن ـ تحديد لقائي الأول بحسام، يعود عقلي إلى ذلك الأصيل المصيري في مطبخ أهلي في بنغازي ـ في البيت الذي لم يعد له وجود، فقد استحالت كل طوبة من طوبه العتيق ركامًا، لكنني ما زلت أتخيَّله بوضوح في عقلي، وأدخله كأنه مكان حقيقي ـ حيث أصغيت وأهلي إلى قصةٍ لم أعد قادرًا على عدم سماعها بعد ذلك أبدًا، قصةٍ أرى اليوم أنها وجَّهت حياتي إلى اللحظة الحالية.

بدأ محمد مصطفى رمضان بالقول: «قرَّرتُ وزملائي، إذا سمحت لنا أيها المستمع الكريم، أن نفعل شيئًا لم يفعله أحد من قبل».

رفع أبي صوت المذياع أكثر، ومع أننا كنا جميعًا نصغي بانتباه طلب منا راجيًا أن نسكت، الأمر الذي أضحك أمي فكرَّر طلبه.

«لقد عزمنا، قبل قراءة الأخبار مثلما جرت العادة، على أن نشارككم قصة قصيرة. أجل. نصٌّ من الأدب المتخيَّل. إننا ندرك أن هذا أمرٌ غريبٌ جدًّا. لكننا نسترشد الرأي القائل إن عمل الخيال أحيانًا أصدق من الحقائق».

هنا، لا ندري أكان هذا لبعث أثر درامي أم لأن أحدهم كان يحاول ثنيه عن رأيه، صمت محمد مصطفى رمضان ربما أربع ثوانٍ أو خمسًا بدت دهرًا.

تابع قائلًا: «الكاتب شابٌّ ليبي وطالب في كلية ترينيتي بدبلن، الجامعة الإيرلندية الرصينة التي درس فيها أوسكر وايلد وصمويل بِكيت». ثم نطق الاسم ببطء، وحذر، كأن حروفه كانت من زجاج مكسور: «حسام زوَّة».

هنا صَمَتَ مرة أخرى.

قالت أمي: «لم أسمع به من قبل». سألت أبي إن كان قد سمع به لكنه هزَّ رأسه نافيًا.

تابع محمد مصطفى رمضان قائلًا: «ومن باب الشفافية يجدر بي الإفصاح بأن السيد زوة ليس من وطني فحسب، بل إنه صديق كذلك. يشرِّفني أن أدعوه بالصديق. إلَّا أنني أطمئنك، عزيزي المستمع، بأنني لست متحيِّزًا بسبب هذه الصداقة. نُشِرت القصة اليوم في صحيفة لن نسمِّيها، صحيفة، أنا واثق، أنكم تعرفونها».

«العرب»، قالت أمي مخمِّنةً اسم الصحيفة.

طَرَفَ أبي بعينه ببطءٍ ليقول إنه يعلم ذلك.

قال محمد مصطفى رمضان: «تُحَرَّر وتُطبَع هنا في لندن».

قالت أمي: «أرأيت؟».

«غير أنها، بسبب توجهها الحُرّ والصريح، محظورة في جميع الدول العربية تقريبًا. هذا هو حال حاضرنا، حاضرنا البائس».

تكرَّرت كلمة «حاضرنا» مرتين وحامت فوق رؤوسنا لحظةً.

أعلن محمد مصطفى رمضان عنوان القصة: «الممنوح والمأخوذ»، وشرع يقرأ. حدَّق أبي إلى الفراغ بتركيز بالغ. رفعت سعاد عينيها من حين لآخر ناظرة في اتجاهي أو إلى أمي أو إلى أبي. أبقت أمي عينيها عليَّ.

قبل أن يلبس الرجل جوربيه استلقى على ظهره في منتصف الغرفة وحاول أن يتذكَّر المكان الذي ينبغي أن يكون فيه. مشت قطةٌ حول جسده. أحسَّ بأرنبة أنفها الرطبة تمسُّ إبهام قدمه اليسرى. بدأت بلعقها. لم يكن الإحساس مزعجًا. شعر بأنفاسها السريعة لمَّا بدأت تقضم جلده الناعم برفق، بحنان تقريبًا. رفاهية الحياة الحديثة، قال لنفسه وهو يفكِّر في أن راحات الجوارب القطنية والأحذية والنعال قد جعلت قدميه وجبةً شهيَّة. إلَّا أن القطة بعد ذلك عضَّته خارقةً جلده. كان الوخز حادًّا ودقيقًا، لكنه بدأ ينحسر لمَّا لعقت القطة الدم كلَّه. توقفت قليلًا ثم خرخرت واستراحت

ثم خرخرت مرة أخرى. أحسَّ برضا غير متوقَّع بسعادتها. فكَّر أنه يجدر به هو أيضًا أن يغمض عينيه قليلًا. حين أفاق، كانت القطة ما تزال تتنفس قرب قدمه بإيقاع كإيقاع الساعة. لعقت الموضع الموجوع مرة أخرى، ثم انصرفت إلى مخلبها تغمره باللَّعق وتحكُّه بأسنانها وتقضمه حتى نَظُف. وقفت بلا حراك، مواجهةً قدمه، قبل أن تغرس أسنانها مرة أخرى في إبهامه وتنزع منها قطعة لحم. رفع بصره ولم تُظهِر عيناها غضبًا ولا ندمًا، بل حدَّقتا إليه مباشرة. نكَّس رأسه. كان الألم لا يُحتمَل وشديدًا، ومع ذلك، فكَّر الرجل أنَّ «لا يُحتمَل» لم تكن العبارة الصحيحة. إذا كان هناك ألم فقد كان محتملًا احتمالًا يدعو للعجب. ظل مستلقيًا على أرض غرفته والقطة تعمل بجِدٍّ وهدوء. كلما لعقت الجرح وسكَنت الألم نزعت قطعة لحم أخرى حتى أتت على الإبهام كلِّها. ثم انتقلت إلى الإصبع التالية.

الشيء الغريب كان، أن الرجل، حينما كانت القطة تأكل، قد بدأ يرى بوضوح، كأنَّ فيلمًا يُعْرَض أمامه، تاريخَ أصابع قدميه، منذ حياتها في الرحم إلى اليوم الحاضر، مغامراتها ومِحَنَها، التي كانت مغامراته ومِحَنه، لكنها، عُرِضت هنا في مقادير بطولية ساخرة، فشعر وهو يؤكَل بأنه كان يُرثَى أيضًا، وإن كان بسخرية. أصبح مشهد حياته المروَّع هذا أكثر تخديرًا كلما واصلت القطة مكيدتها الشيطانية. كانت تعمل بعزيمة لا مِراء فيها. استمرت في الأكل حتى أتت على ساقَي الرجل وذراعيه وهو مستمر في المشاهدة والعجب

> من قصة حياة أطرافه، من الذكريات الضائعة التي استعادها الآن مرة واحدة كأنما علقت في شبكة، في سردٍ مُطنَبٍ لحياة متواضعة. مع أن شهية القطة بدت بلا نهاية، لا سيَّما لمخلوق بحجمها، إلا أنها لم تندفع ولم تتعجَّل لتشبع، وبان في آخر الأمر أن هذه الثقة كانت سلاحها الأجرأ. والآن لم يبقَ من الرجل إلَّا الرأس والجذع. رأسه، الذي خلص إلى أنه كان الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الاستغناء عنه حقًّا، ظلَّ سليمًا تمامًا. دنت القطة رويدًا، وتوقفت عند أذنه اليسرى، كأنها توشك أن تبلغه شيئًا عظيم الأهمية. عوضًا عن ذلك، سمع صوته.

حتى هذا الموضع من القصة قرأ محمد مصطفى رمضان قراءة رصينة بنبرة مذيع الأخبار المحايدة، لكنَّ رعشة خفيفة دخلت إلى حنجرته، كريشة علقت في نفق. توقف ثم أعاد قراءة السطر الأخير: «عوضًا عن ذلك، سمع صوته». لم ينفع الأمر، لم يتمكن من تحرير نفسه من الانفعال.

> فتح فمه وقال: «لا». الكلمة ملأت الغرفة. بدت واضحة وضوحًا عجيبًا. أدرك أنه لم يكن يتكلَّم نيابةً عن نفسه فحسب. رفعت القطة رأسها وذهبت، تاركة الرجل ليستأنف حياته أخيرًا.

كانت القصة قصيرة جدًّا ولا أظن أن محمد مصطفى رمضان استغرق في قراءتها أكثر من دقيقة. لم أكن واثقًا مما تعنيه القصة. لقد شعرت بأني مريض بها. في الأيام والأسابيع التالية، حاولت

أن أصرفها عن تفكيري، لكنها بقيت هناك دائمًا، في الأعماق، لتظهر في أكثر اللحظات غير المتوقَّعة: حين أكون بانتظار حافلة المدرسة في الظلمة، في تلك الساعة الحائرة، عندما يكون اليوم قد بدأ والصبح لم يشرق بعد، أو عندما كان يحين دوري لكنس الفناء الواقع في وسط البيت مثل سِرٍّ مكشوف، عاريًا تحت السماء لكنه مستور عن الجيران، فيمكنك خلع ثيابك دون علم أحد. وجدتُني أفكِّر في وصف حسام زوة لهزيمةٍ كانت نصرًا أيضًا. في لحظات كهذه، لم أكن أستطيع تجاهل جو القصة الخانق الذي تجلَّى بفظاعةٍ شديدة في امتناع الرجل - على نحو غير مفهوم - عن الاعتراض، الأمر الذي يصير أكثر إزعاجًا عندما تتكشَّف فعالية الاحتجاج حين يأتي أخيرًا. دخلت القصة في أحلامي، حيث رأيتني أحيانًا مثل الرجل الذي كان بلا أطراف، بحاجة دائمة إلى من يرعاني. إن أكثر ما أتذكَّره من تلك الأحلام هو الشعور الضاري بعجزي. إنَّ هذا، إضافةً إلى ما حدث لمحمد مصطفى رمضان بعد قراءته القصة بوقت قصير، قد أرعبني. صرتُ أدرك، بطرقٍ صامتة وخاصة، تمام الإدراك هشاشةَ كلّ ما كنتُ أُعِزُّهُ: أهلي، إحساسي بنفسي، المستقبل الذي سمحت لنفسي بالتَّطلُّع إليه.

٦

لقد أثار الغموض الذي لفَّ هُوِية حسام زوة اهتمامَ والديَّ، خصوصًا أبي. كان مؤرِّخًا، جزءًا من الرعيل الأول الذي التحق بالجامعة بعد الاستقلال، أي أنه، بالنظر إلى القيود التي فرضها الاحتلال الإيطالي على الليبيين، كان بين الأوائل في البلاد الذين حظوا بتعليم عالٍ. وقد تابع دراسته ونال شهادة الدكتوراة في جامعة القاهرة.

وأنا أكبر، بدا لي أبي شخصًا واثقًا، يؤمن بالزمن، بمبادرة الإنسان إلى قياسه، لكنه آمن أيضًا بتفوق الزمن على شؤون الإنسان، بأن الجميع، بأفعالهم وشخصياتهم، لن يرضخوا للزمن فحسب، بل إنه سيكشفهم كذلك، بأنَّ طبيعة الأشياء الحقيقية مخفيَّة ووظيفة الأيام هي أن تنزع عنها الحُجُب.

بعد ١٩٦٩، عامِ تولِّي القذافي الحكم، بهدوءٍ رفض أبي المناصب الأكاديمية والوظائف المربحة في اللجان التي كانت ترعاها الدولة وانقطع إلى عملٍ لم يكن يليق بمَلَكاته ولا بطموحه: أصبح معلِّم تاريخ عامٍّ في مدرسة متواضعة بحيٍّ فقير من أحياء بنغازي. في آخر الأمر، ترقَّى إلى مدير مدرسة. لم يقبل بذلك

إلَّا لأن رفضه كان سيثير الشكوك. أذكر حين سمعته مرةً يروي لأمي عن خلاف طال أمده بين المعلمين كان يحاول تسويته، ثم توقَّف قليلًا قبل أن يفوِّض أمره للحكم بأنه: «من الأفضل دائمًا تقريبًا ترك الأمور كما هي. معظم المشكلات لها عادةُ حلِّ نفسها بنفسها». هذه كانت أيضًا نصيحته لشقيقتي سعاد ولي أنا في أكثر من مناسبة. لم يكن أمرًا واردًا أبدًا أن نسجِّل في مدرسته خشية أن يعرِّضه ذلك لتُهَم المعاملة الخاصة. لكن، مع كل هذا الحذر، كانت تخيِّم عليه من حين لآخر سحابة من الذعر الغامض، فيصبح مقتنعًا بأن شخصًا ما في مكانٍ ما يخطِّط لتشويه سمعته.

كان مهووسًا بتاريخ البلاد العربية السياسي، مع التركيز على صعود القوميَّة التي أحب وصفها بـ«هدية رحيل المستعمرين». كان يُعِدُّ بحثه في الظلال، في وقت فراغه، دون أن ينشر كلمة منه أبدًا. نهجه هذا أحال مهنته هواية وملاذًا. من الأرض إلى السقف اصطفَّت على جدران مكتبه في البيت كتبٌ في موضوعات مثل الإمبراطورية العثمانية، الغزو الإيطالي لليبيا، الانتداب البريطاني على فلسطين. أكداس من الكتب صُفَّت في هيئة أعمدة على الأرض، وارتفعت دون ثبات مثل مدينة من مدن اليمن القديمة ذات الأبراج.

حينئذٍ كنت أرى أبي رجلًا يعيش حياته مقتنعًا بأن العالم ليس بحاجة إليه. أحيانًا لم أكن أتهمه بعدم الشجاعة، بل بما هو أسوأ: عدم الإيمان. بعد أكثر من ثلاث سنوات على سماعنا معًا قصة حسام زوة القصيرة، ذهبت إلى بريطانيا للدراسة، وكما هو حال

الانطباعات الخاطئة كلها، حملت معي هذا الظل المشوّه الذي تصوَّرته عن والدي. جلبته معي عندما وصلت أمام السفارة الليبية في ساحة سانت جيمس، في قلب لندن، لأشارك في أول مظاهرة سياسية حضرتها. قلت لنفسي حينها، ها قد عرفتَ الآن أنك لست هو. وحتى بعد دقائق قلائل، لمَّا دوَّى صوت الرصاص وعمَّت الفوضى، فكَّرت في أبي، الرجل الذي ما فتئ يعتقد أنه «من الأفضل دائمًا تقريبًا ترك الأمور كما هي»، فكَّرت فيه بوصفه الخلفية الساكنة والصامتة وعديمة اللون التي يجب أن تُبنى عليها حياتي ومنها تنطلق.

لكن، قبل ذلك كله، وبعد ذلك البث الإذاعي، شرع أبي يبحث في هوية المؤلف الغامض، وهكذا كانت أوَّل الأشياء التي عرفتها عن حسام زوة قد عرفتها بفضل أبي.

«آل زوَّة عائلة معروفة»، قال لنا أبي. «عمل سيدي رجب زوة عند الملك إدريس، كان المستشارَ الخاص لجلالة الملك، ولُقِّب بلقب «الرادار» لفِرَاسَتِه. قيل إنه لم تكن هناك فكرة تخطر ببال إدريس إلَّا وقد توقَّعها سيدي رجب أوَّلًا. كان يفهم تمام الفهم كراهية الملك للسياسة، وطبعه المنزوي، وتفضيله الحلول الهادئة. كمصير ملكنا المنكوب، عانى آل زوة لمَّا وصل القذافي إلى الحكم. جُمِّدت أملاكهم. مُنِعوا من السفر. إلَّا أن ابنًا لهم نفد بجلده في الوقت المناسب». وتابع أبي: «كان يدرس في إنجلترا حين جاءت الأوامر فبَقِيَ هناك. قد يكون هو الكاتب».

حاولنا أن نتخيَّله غير قادر على العودة إلى الوطن. أتذكَّر أمي

وهي تحدّق إلى الفراغ وتقول، لا لأحد بعينه: «كابوس». ثم تصوَّرناه ذاهبًا إلى إيرلندا للدراسة في الجامعة.

ذات أصيل بعد عدة أيام، قال أبي إنه يحمل إلينا أخبارًا مهمة. «اكتشفت أين يعيش آل زوة ولن تصدِّقوا ذلك. إنهم يعيشون في قلب البلاد ببنغازي وبيتهم على ناصية الشارع الموازي لشارعنا».

أتذكَّر كم تحمَّسنا لذلك. فورًا بعد الغداء، دون علم أحد، ذهبت لأبحث عن البيت. أبطأتُ خطواتي لمَّا اقتربت منه. كانت تلك ساعة الأصيل التي تبدأ فيها الحرارة بالانخفاض لترتفع إلى السماء الزرقاء الشاسعة تاركة الهواء تحتها أخفَّ خفَّةً ملحوظة. وقفت نوافذ الطابق الثاني مفتوحة على مصاريعها. استطعتُ أن أرى الظل يتحرك على السقف الأبيض من حين لآخر، والضوء يرتدُّ عن شيء ما، وسمعتُ أصواتًا خافتة لأدوات المائدة، خطوات الأحذية الثقيلة على البلاط، أصوات النساء. كان غريبًا لذهني الصبي أنْ أفكِّر أنَّ قصة عجيبة كتلك القصة قد انبعثت من مخيِّلة شخص ترعرع في بيت عادي كذلك البيت.

بعد سنوات، عندما عاد حسام، كان هذا هو البيت الذي أتى إليه، حيث سيعيش ومنه سيخرج لزيارة والديَّ اللذين سرعان ما أصبح مقرَّبًا إليهما، مالئًا بعض ما تركتُه من خواء في حياتهما.

لكن، بينما كنت حينها أتطلَّع إلى المستقبل، وإن بغموضٍ وتجريد، كان أبي مشغولًا أكثر بالماضي. كلما اكتشف أكثر عن آل زوة زاد اهتمامه بهم.

بعد مرور أسبوع أو نحو ذلك على بحثه أعلن قائلًا: «عائلة مثيرة للفضول. إنهم شرفاء ومحتالون في الوقت نفسه، بيتٌ أدانته جميع الجهات المتناحرة ونسبته إليها. آل زوة مثل ليبيا نفسها، بطريقة ما. تصعب معرفة من يساندون أو ما حقيقتهم».

واصلنا قضاء الأصائل في الجلوس حول طاولة المطبخ. تلك القصة التي لم تكن لها علاقة بالماضي ـ حسبما فهمت ـ ألقت بنا في تاريخ بلادنا. جلب أبي مجلدات ليقرأ لنا منها. كثيرًا ما لبثنا هناك حتى وقت العشاء دون أن يتذمَّر أحدٌ منَّا. علمنا أن آل زوة كانوا بين أوائل الملتحقين بالمقاومة عندما غزت إيطاليا ليبيا في عام ١٩١١، وقاتلوا ببسالة طيلة خمسة عشر عامًا، إلى أن حضروا العرض العسكري للترحيب ببنيتو موسوليني في زيارته الأولى عام ١٩٢٦، دون تفسير موقفهم.

قال أبي: «جلس الإيطالي على ظهر حصانه، في حين تقدَّم رجال العشائر في موكب، ملوِّحين بسيوفهم في الشمس»، ثم أضاف أبي: «وبالسخافة التي لا بدَّ أن يحملها كل فعل فيه تقليد، أدّوا التحية الفاشية التي بدت بأيديهم السمراء مثيرة للسخرية، كأنهم يهزؤون بالإمبراطور الغازي». تابع قائلًا: «وفوق ذلك، لم يهدأ فحل موسوليني، الذي كان عربيًّا صغيرًا شديد الاضطراب. كل بضع ثوانٍ، كان يضرب بحوافره ويؤرجح ذيله من جانب إلى آخر، دافعًا «الإيطالي الصغير»، كما كان يحلو لليبيين أن يشيروا إلى موسوليني، في هذا الاتجاه وذاك. رفض آل زوة الانضمام

إلى الموكب أو حتى التَّرجُّل. جلسوا على صهوات خيولهم السوداء، القوية واللامعة، التي وقفت ساكنة كالحجر بخلاف حصان موسوليني. راقبوا المشهد كلّه كأنه أقيم لأجلهم وما جاء الإيطالي الغازي إلى ليبيا إلا لتسليتهم». قال لنا أبي: «وجه موسوليني، المرفوع وعليه تعبير الازدراء الشهير ذاك الذي وصفه أحد المؤرخين بأنه «مغناج على نحوٍ غريب»، كان حائرًا ومفتونًا. في أثناء الإعداد لزيارته، أُخبِر موسوليني عن آل زوة، وعن حملاتهم المؤثرة ضد جيشه، وعن شجاعتهم، ولكن أيضًا عن استعدادهم لتبديل ولاءاتهم. خُطِّط لعقد اجتماع. وقد وثّقه أحد مساعدي موسوليني في سيرته. كتب: «ينتمي هؤلاء الرجال إلى عشيرة عريقة. لم يحيُّوا الدُّوتشي. كانوا ساكنين وصامتين، ينتظروننا أن نبادر بالخطوة الأولى. لا أستطيع أن أنكر أنني وجدت في هؤلاء الرجال المتوحشين نبلًا جامحًا». ثم كتب الضابط الإيطالي أنه بعد انتهاء الاجتماع «وبعد خروجهم بوقت طويل، بقيت رائحة كانت قوية في البداية، ثم رقَّت وتحولت إلى رائحة عطرة مبهجة. قيل لنا إنها كانت نوعًا محليًّا من المسك. في اليوم التالي جُلِبت زجاجة منه للدُّوتشي، لكن الاختلاف بين ذلك العطر والعطر الذي وضعه آل زوة كان مثل الفجوة الحزينة بين رائحة الياسمين في أول إزهاره ورائحته بعد أيام حين تُستَنفَد وتصبح مفرطة الحلاوة ومثقلة بالذبول».

كان أبي راضيًا جدًّا بهذا، وقد أثنينا عليه جميعًا لعثوره على الاقتباس.

قال: «الترجمة ترجمتي، إلَّا أنها دقيقة جدًّا».

قالت أمي وقد بدت فخورة ومبتهجة: «برافو».

أثبت آل زوة أنهم كانوا متعاونين نافعين، ناقلين معلومات استخباراتية في غاية الدقة حتى إنه في عام ١٩٣١، بعد لقائهم بنيتو موسوليني بخمس سنوات، أُلقِيَ القبض على عمر المختار، قائد المقاومة الليبية ـ الرجل الذي كانوا موالين له حتى ذلك الحين ـ وشُنِق علنًا. كافأ موسوليني آل زوة بسخاء. أصبحوا أثرياء جدًّا وبدأوا ينسجون شعارهم بخيوط من ذهب على حافات طاقيَّاتهم. وجد أبي صورة لشعارهم مطبوعة في أحد الكتب في مكتبته. تُظهِر الصورة شجرة زيتون وهلالًا فوقه ثلاث نجمات.

قالت سعاد: «ذلك فظيع!».

قالت أمي: «خونة!».

قال أبي: «ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. بعد عشر سنوات، عندما رأى آل زوة كيف كان أداء البريطانيين في الحرب حوَّلوا ولاءهم مرة أخرى، «مثلما تتبع أزهار عباد الشمسِ الشمسَ»، حسب الوصف الشاعري لأحد مؤرِّخينا، وانحازوا هذه المرة إلى السنوسيين زاعمين أن اسم عشيرتهم مشتق من الزوايا، وهي مراكز التعليم والرعاية التي أنشأها السنوسيُّون وقاموا على إدارتها منذ القرن التاسع عشر، من طبرق إلى لاجوس. وفوق ذلك قال أبي: «كان توقيتهم مثاليًّا، لأن قائد السنوسيين أصبح ملك المملكة الليبية المتحدة في عام ١٩٥١».

قالت أمي وعقدت ذراعيها: «إنهم بلا مبادئ».

ابتسم أبي، كأننا كنا طلابه وكان يتوقع منّا ردًا كهذا. «في كل مرة...» حاول المتابعة لكن أمي قاطعته.

قالت: «رجال يمكن شراؤهم».

هنا، كان لا بد من حدوث شيء. كان على أحدنا أن يُعِدَّ الشاي أو يختلق سببًا لكي يستمر الصمت ـ الصمت الذي احتجنا إليه جميعًا ـ مدةً أطول قليلًا. سحبت أمي سيجارة. أشعلها أبي لها ثم أشعل أخرى لنفسه. ذهبتُ لأجلب مَنْفَضَة.

قال أبي، مخاطبًا أمي بالأخص الآن: «لكن، في كل مرة، كانوا يوقِّتون مناوراتهم توقيتًا دقيقًا حتى يبدو من الصعب الزعم أن دافعهم كان انتهاز الفرص فحسب. انضموا إلى الإيطاليين عندما كانت المقاومة الليبية ما تزال قوية، ثم انضموا إلى السنوسيين عندما لم يكن مؤكَّدًا أن إيطاليا وحليفتها ألمانيا ستخسران الحرب».

قالت مرة أخرى: «خونة!».

«ربما. لزموا الصمت ولم يقدموا تبريرًا قطُّ».

قالت له: «وماذا بعد؟».

«لم يشعروا قطّ بأنهم ملزمون بتوضيح أنفسهم ولا بتوضيح مساعدتهم في سفك دماء الفصائل المعارِضة».

«ذلك أسوأ».

«ربما»، قال لها مرة أخرى. «لكنَّ ذلك، كما يشهد التاريخ، إستراتيجية فعَّالة، لأن أفعالهم أصبحت تشبه نمطًا لا تحرِّكه الإيديولوجيا، ولا المزاج ولا الأخلاق، ولا المبادئ...».

قالت: «واضح أنهم عديمو المبادئ».

«... بقدر ما يرشده نظام طبيعي، نظام واثق ولا يحتاج إلى تبرير، كهبَّة ريح في عاصفة».

قالت له: «لماذا تقول ذلك؟ توقف عن محاولة الحديث كشاعر. تكلَّم بوضوح. أيديهم ملطخة بالدماء. يستحقون الشنق».

بوجنتين محمرَّتين ابتسم أبي بطريقته تلك عندما يوشك أن يحوِّل الحديث. قال: «يا أولاد، أمُّكُما راديكالية. راديكالية جميلة جدًّا، لكنها مع ذلك راديكالية». دغدغها فضحكت ضحكة غير صادقة.

اختار الملك إدريس والدَ حسام، الرادار، ليرافق ابن أخيه ووريث العرش، ولي العهد الأمير الحسن، في أول زيارة رسمية للسنوسيين إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٢.

«هبطا في واشنطن»، قال لنا أبي وهو يفتح الأطلس على خارطة للولايات المتحدة. «ثم»، قال مشيرًا إلى الطريق بسبابته: «سافرا إلى كولورادو. من هناك ذهبا إلى سان فرانسسكو حيث زارا جامعة كاليفورنيا في بيركلي».

كان عندئذٍ ـ كما عَلِمتُ لاحقًا ـ أن اشترى والد حسام البيت الواقع قرب بوينت رِيس. مؤخرًا، خلال أصيل من أصائل الأحد

الطويلة التي بت أقضيها في المكتبة البريطانية، عثرت على صورة فوتوغرافية داخل كتاب لم يكن حتى عن بلادي بل عن موضوع غير متوقَّع، عن التعليم العالي في إفريقيا بعد الاستعمار، ظهر فيها الشاب سِيدي رجب زوة في بدلته واضعًا نظارة شمسية عصرية، وهو يمشي إلى جانب الأمير الحسن، الذي كان يرتدي ملابس ليبية أنيقة وطاقية، في شارع يوكلِد أفنيو ببيركلي. صوَّرتُ الصورة بهاتفي وكبَّرتها حتى ملأ وجهُ والد حسام الشاشةَ كلَّها. نتوء عظام وجهه هو الملمح الوحيد الذي ذكَّرني بحسام. أرسلتها إلى حسام في بنغازي وفي الحال أجاب برسالة نصية:

قال: «رائع! أين وجدت هذه؟».

ثم بعد ساعات عديدة كتب: «وجهه هو أكثر ما يؤثِّر فيَّ. ما يبدو عليه من افتراض متفائل بأنه سيأخذ زوجته والأطفال الذين سينجبونهما لقضاء العُطَل هناك».

بعد ذلك بقليل، أرسل إليَّ رسالة نصية أخرى: «عجيبٌ كيف أن معظم الناس يعدون إنجاب الأطفال أمرًا مسلَّمًا به وأنهم سيقضون معهم أصيافًا كثيرة؟».

٧

ثمَّة لحظات، لحظاتٌ كهذه، عندما يغلبني شوقٌ مبهم، شوقٌ يصير أعنف لأنه يفتقر إلى هدفٍ مُحدَّد. الحيلة التي يلعبها الزمن هي أن يهدهدنا حتى نعتقد أن كل شيء يدوم إلى الأبد، ومع أن شيئًا لا يدوم، نستمر في ذلك الحلم. وكما في حُلْم، لا علاقة لشكل أيامي بما سمحتُ لنفسي، بطريقةٍ ما ودون أن أنتبه، بأن أتوقعه منها.

أتابع السير على طريق يوستن كأنني وصلتُ توًّا، وكأن سنواتي الاثنتين والثلاثين التي عشتها هنا يمكن جمعها في راحة يد. ما زال هناك وقت. أستطيع أن أعود وأقضي بقية أيامي ودونيَ السماء نفسها التي وُلِدتُ تحتها. لعلني بعد ذلك أنسى كل ما حدث، أو لا أفكر فيه كثيرًا. أو لعلني أصير واحدًا من أولئك العائدين، الذين أتذكرهم منذ الطفولة، رجال عاشوا حيوات أخرى في أماكن أخرى ويصرُّون، حتى بعد عودتهم بسنوات، على الاستسلام ـ حين تأخذهم الأريحية ـ للذكريات وسرد قصصٍ وأحداث يتذكرونها جزئيًّا، لتسلية سامعيهم الذين يستمتعون بها أحيانًا، وأحيانًا أخرى يضطرون إلى احتمال

قصصهم الطويلة بصبرٍ حذر كصبرِ أولئك الذين يعرفون أنه لا ينبغي لهم إيقاظ سائرٍ في نومه بغتةً.

قَدِم محمد مصطفى رمضان إلى لندن في عام ١٩٦٦، عام ميلادي، ليعمل في البي بي سي. وصفته صحيفة إنجليزية بأنه «يوزِّع بحماسة منشورات معارضة لحكومة بلاده». كثيرًا ما تصورته وهو يمشي في هذه الشوارع نفسها التي أمشي فيها الآن، كشخصٍ، مثلي أنا، يمضي إلى الأمام وهو يلتفت إلى الوراء، عُرْضَة للاصطدام بشيء ما في أي لحظة. كان سيعتقد، مثلما اعتقدت أنا عندما وصلتُ أول مرة، أنه آمِنٌ تحت درع الغربة. لكن، في اللحظة نفسها عندما كنتُ وعائلتي نستمع إليه وهو يقرأ «الممنوح والمأخوذ»، وفي الأسابيع التالية لمَّا كان أبي يُسَلِّينا بالقصص عن آل زوة، تبيَّن أن الحاضر كان يتقدَّم ويوشك على الارتطام بصحفي البي بي سي، الرجل الذي، كلما تكلَّم في المذياع، بدا كأنه يتحدث إليك وحدك فقط.

كانت الحكومة الليبية من الحكومات الرائدة فيما أصبح يُعرَف بـ«قتل الكلمة»، الحملة الشيطانية التي شنَّتها عدَّة أنظمة عربية في سبعينيات القرن العشرين. وقد تسارعت وتيرتها في الثمانينيات وما زالت تُمارَس حتى اليوم من حين لآخر، ومن ثم لا يمكن القول إنها انتهت. كان غرضها الرئيس التخلص من الصحفيين الجريئين بأساليب باهرة في كثير من الأحيان: إطلاق النار عليهم في وسط الشوارع، أو في أثناء الغداء في مطعم مزدحم، أو اختطافهم لتعذيبهم وقتلهم، وترك أجسادهم

المشوَّهة عبرةً لمن يجرؤ على انتقاد أولئك الذين يحكموننا. لقد ظلت تفاصيل مثل هذه الهجمات عالقة في الذاكرة حقًا. لطَّخت العقل بالدم. بدأ الصحفيون والمحرِّرون والناشرون العرب بالفرار. معظمهم قصد لندن. في النهاية، نُقِلَت صحافة شعبٍ برمتها إلى الخارج، حتى أصبحت الغالبية العظمى من الصحف والمجلات العربية حينها تُكتَب وتُحَرَّر وتُطبَع في لندن. شعراء وروائيون لحقوا بالرَّكب. ومع أن بعضهم اغتُيِل هنا، بقيت المدينة مركزًا للنخبة المثقفة العربية المغتربة حتى نهاية التسعينيات. لا يمكن القول إنها ازدهرت هنا. بل بالعكس، ذبلت وهَرِمَت وتعبت. لقد كانت لندن، بوجهٍ ما، المكان الذي جاء إليه الكُتَّاب العرب ليموتوا.

عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وأعيش في بنغازي، بلا نيَّة مغادرة الوطن، لم تكن فكرة العيش في لندن بقية حياتي لتخطر ببالي البتَّة. كان عندي انطباع غامض، أوحته لي، جزئيًا، دقَّات بِج بن، وهو أن العاصمة الإنجليزية كانت مكانًا كئيبًا، وأن هذا التَّجمُّع للكُتَّاب العرب هناك ـ الذي ضمَّ مؤلفين كان والداي يحترمونهم احترامًا كبيرًا، كالروائي السوداني الطيب صالح، والشاعر السوري نزار قباني، والصحفي اللبناني سليم اللوزي - كان يحدث ليلًا، بعد غروب الشمس بوقت طويل. تخيَّلت أنَّ لندن كانت جاثمةً على حافة هاوية مرعبة، مكانًا محفوفًا بالخطر لكنه أتاح رؤية واسعة، وهو ما جعل الأمر يبدو، أحيانًا، لعقلي الصبي أن هؤلاء المغتربين العرب أبعدتهم الشجاعة أكثر من الخوف.

بعد سنوات، حينما ذكرت هذا لحسام، اعتقد أن ذلك النوع من الشجاعة تحديدًا كان هو المشكلة. قال: «الغربة للكاتب سجن، بَتْرٌ من الأصل، ومن ثَمَّ، أشجاعًا كان الكاتب أم غير ذلك، فهو يموت أمام أعيننا». ثم بدا خبثٌ في عينَيْ حسام وقال: «يلعن دين الغربة»، وكان لذلك وقعٌ جيد، كفرقعة سوط، فقاله مرة أخرى وضحك. كلانا ضحك. ومنذ ذلك الحين، أصبحت «يلعن دين الغربة» لازمةً، قولًا متكرِّرًا خاصًّا بنا، نضيفه كأنها دعاء: «بالهناء والشفاء ويلعن دين الغربة»، «تصبح على خير ويلعن دين الغربة»، «سفرًا آمنًا ويلعن دين الغربة».

بعد قراءة محمد مصطفى رمضان قصة حسام القصيرة بأسابيع قليلة، توقف صوته الرخيم الدافئ في منتصف نشرة الأخبار المسائية. «الصحفي والناشر المقيم في لندن، سليم اللوزي، تجاهل النصيحة بعدم العودة إلى وطنه لبنان، وسافر إلى بيروت لحضور جنازة والدته. ولم يُرَ منذ ذلك الحين».

كان والداي يعرفان من يكون سليم اللوزي. قرآ روايته «المهاجرون» وأُعجِبا بها. وفي الأيام القليلة التالية تابعا القصة من كثب. سواء أكان ذلك بسبب الإهمال، أم لهول الصدمة، أم لرغبتهما المتعمَّدة في أن يكشفا لي ولسعاد حقيقة العالم الذي سنرثه، لم يفكِّرا في حمايتنا من الحقائق المروِّعة التي بدأت في الظهور.

اختُطِف سليم اللوزي من المطار لحظةَ هبوط الطائرة التي أقلَّته. في الأسبوع التالي أخبرنا محمد مصطفى رمضان

في بثّ إذاعي: «بعد عشرة أيام، عُثِر على جسده على مشارف بيروت. وقد أظهرت الأدلة أنه عُذِّب».

سرعان ما عرفنا أن هذا كان وصفًا قاصرًا. كُسِرت ذراع الكاتب اليمنى في مواضع عدَّة. اليد التي في نهاية الذراع، يده الكاتبة، بُتِرت وسُلِخ جلدها. مكثتُ أيامًا بعد ذلك أنظر إلى يدِي محاولًا تخيُّل أوردتها وأنسجتها وعظامها وقد عُرِّيت. خيَّم صمتٌ حذِر على بيتنا. وجدت رواية اللوزي في رف مكتبة أبي. أخذتها إلى غرفتي وشرعت أقرأ.

يبدأ الكتاب: «لم أكن أريد قصة، ولا جريمة قتل قطعًا، ولا سيَّما موت إنسان أكاد أعرفه. كنت صحفيًّا قادمًا من بيروت لقضاء عطلة في أوروبا وأنشد السلام الذي كان يعني لي الشواطئ (الأجمل)، والمطاعم (الأفخر)، وفوق ذلك الفتيات (الكثير من الفتيات). كانت عندي أسابيع قلائل لأمضيها بعيدًا عن البحث في حياة الآخرين وسياساتهم المتشابكة. كانت الفكرة هي أن أعيش حياتي الخاصة مرة واحدة»[1].

---

(١) اقتبس الكاتب هاتين الفقرتين من النسخة الإنجليزية لرواية اللوزي (The Emigres, Salim el Lozi (1977), Allen & Busby, London). وبالعودة إلى رواية «المهاجرون» العربية (مطابع الشروق، بيروت، دون تاريخ، دون طبعة) يتبيَّن اختلاف الفقرتين من النسخة الإنجليزية اختلافًا شديدًا عما ورد في النسخة العربية. غياب اسم مترجم أو مترجمة عن النسخة الإنجليزية قد يوحي بأن سليم اللوزي ربما ترجم روايته بنفسه إلى الإنجليزيّة.. (المترجمة).

تابعتُ القراءة، وكنت أشعر بيُسْرٍ غريب فيها. الجُمَل، التي صارت منسلخةً عن الرجل الذي كتبها، بدت معلَّقة، خفيفة جدًّا في خطوها حتى إنني لم أكد ألاحظ تقدمي في الصفحات. أحسستُ بأن الكتاب الذي كنت أحمله - كتاب رجل ميِّت - لم يعلم بعد بالنبأ الحزين. نظرت إلى صورة الكاتب على الغلاف الخلفي. كان الوجه الممتلئ الباسم الموفور الصحة ينتمي إلى رجلٍ يشبه كثيرًا سارد الرواية الذي لم يتحرَّج من السعي وراء متعته. بعد صفحات قليلة، كان هناك هذا السطر الذي شعرت بالحاجة إلى قراءته مرارًا حتى استقر في ذاكرتي: «غير أن الكُتَّاب لم يكونوا سادة أنفسهم قطّ، وكنت أعلم أنني يومًا ما سأحتاج إلى كتابة شيء... سيخبر أخيرًا بقية الجنس البشري بما كان عليه حقًّا ذلك الجزء مني، المضطرب، المصارع، المتقلّب، المحب للسلام، والعنيد، خصوصًا في الغربة؛ الغربة بوصفها مقياس حرارة عصرنا».

في الأيام القلائل التالية، وإذ كنتُ أعيش في رواية «المهاجرون»، واصلنا، نحن الأربعة، متابعة قصة تشويه كاتبها وقتله، القصة التي واظبت على نقلها هيئة الإذاعة البريطانية والإعلام الليبي الرسمي، كل منهما يحرِّكه دافع مختلف.

٨

أتابع السير على شارع يوستن وأصل إلى حيث تماثيل الكارياتيد الأربعة، نساء قويات يحملن على رؤوسهن سقف الرواق المفضي إلى سرداب كنيسة سانت بانكراس الجديدة، عذارى بلدة كارياي اليونانية القديمة، أتباع أرتميس، وَرْكُ كل واحدة منهن فيها انثناء. يحملن شعلة مطفأة بيد وبالأخرى إبريقًا خاليًا. إنهن حارسات الموتى. أقف تحتهن. عيونهن الواسعة، الملساء كقشور البيض، تحدِّق إليَّ من الأعلى بنظرات فارغة.

يجب أن أستمر في التقدُّم. الحياة فعل.

أتابع السير على شارع يوستن وأنعطف شمالًا سالكًا الطرق الخلفية حتى أصل إلى حديقة ريجنتس. أمشي بمحاذاة حافتها الجنوبية. الهواء هنا لا يتحرَّك، لكنه باردٌ وممتدٌّ ومتَّسِع. فجأةً، يزقزق طائر أسود، تكتكاته المتكرِّرة تشكِّل خطًّا واحدًا يتوقف بغتةً مثلما بدأ. عدا ذلك، المكان هادئ. أخطو على غصن فيتقصَّف، يعلق الصوتُ في الهواء لحظة. أفكِّر: يلعن دين الغربة، وأسمعني أضحك. الأشجار، العملاقة الخجلى، ساكنة

تمامًا، وتلوح ضخمة في أحشاء الحديقة المظلمة. أستطيع تسلُّق السياج بيُسر، لكنني لا أجرؤ. تلاشى الشفق تمامًا الآن. تبدّدت السُّحب، فجعلت من السماء السوداء هاوية. أنا خائف من هذه الأمواج. الليل هذه الليلة ليس جزءًا من اليوم، ولا فصلًا في الزمن، بل جهة مجهولة. «لماذا يهبط الليل؟» يعاودني السؤال القديم الآن. اعتاد أن يباغتني بقوة عمليّة عندما كنت صبيًّا وكان نظام الأشياء موضع تساؤل. كنت أسأل هذا السؤال لإطالة اليوم قليلًا، شاعرًا بلا جدواه حتى وأنا أكرّره، مراقبًا وجه أمي الذي كان، حسب مزاجها، مشتّتًا أو مستمتعًا أو منزعجًا قليلًا. ومع أن السؤال توقف، ظل اللغز مُلِحًّا. ما زال يأتيني كلما استيقظت في جوف الليل، حينما يكون الوقت مبكّرًا جدًّا ومتأخّرًا جدًّا في آنٍ واحد، فأحدّق، بعماءٍ، إلى الظلام الذي يبدو شاسعًا ولا قرار له كالتاريخ. أقتنع حينها أنني عارٍ تمامًا رغم تدثّري ببطانية، أنّ الليل، دون أن أعرف كيف أو لأي غرض، قد جرّدني وعرّاني. أتقلّب، أنكمش لأخفي الحقيقة، لألوذَ بذلك الموت الصغير الحلو في النوم، راجيًا أن يأتي الضوء. وحتى اليوم، في سِنّ الخمسين، وعمري نصفُ قرنٍ من الزمن، يبرز ذلك السؤال، مجدّدًا الشك في أن الليل، حتى حين تتباطأ مدينة مثل لندن، إلى جانب حفاظه على دورته الطبيعية، له غرضه السِّرّيُّ الخاص.

أنعطف إلى الزاوية التي تعانق الحديقة وأرى اللمعان البرونزي للقبة الرابضة بين الأشجار، وبقربها يشمخ عمود

مئذنتها الرملية. في ١١ إبريل ١٩٨٠، بعد وقت قصير من العثور على جسد سليم اللوزي مقطَّع الأوصال على مشارف بيروت، أبكر محمد مصطفى رمضان في الخروج من عمله وسار على هذا الرصيف نفسه، كما أتخيَّل، لحضور صلاة الجمعة في الجامع المركزي عند حديقة ريجنتس. كان قد خطَّط لملاقاة زوجته نادية وابنتهما حنان ذات العامين عند مدخل الجامع. كان محمد في الأربعين من عمره، وفي ذلك الحين كان قد عاش في لندن أربعة عشر عامًا. ربما كان ما يزال يتخيَّل نفسه عائدًا إلى الوطن يومًا، أو ربما كان قد أسلم نفسه بصمت لحياةٍ يعيشها في الخارج إلى الأبد. كان يحمل معه نُسَخًا من عدد صحيفة العرب لذلك اليوم ليوزِّعها مجّانًا بعد الصلاة. تضمنت الصحيفة مقالته الأخيرة، التي شبَّه فيها النظام الليبي الدكتاتوري بقوةٍ محتلَّة، تماثل الفاشيِّين الإيطاليين الذين حكموا ليبيا ذات يوم. وهو يقترب، وجد رجلين يتلكَّآن بتوتر عند البوابة، وكانا يرتديان بنطالَيْ جينزٍ ضيقين جدًّا. بدا أنهما كانا في نصف عمره تقريبًا. لم يكن يعرف هذا، لكن اسميهما كانا نجيب القاسمي وبالحسن المصري. كانا قد وصلا مؤخرًا، كلٌّ على حدة، من طرابلس. فيما بعد علمتُ من حسام - الذي أصبح مهووسًا بهذه التفاصيل - أن القاسمي اكترى شقة في بناية برينسس كورت بحيّ كوينز واي، في حين استأجر المصري شقة في كورنوول جاردنز بجنوب كنسنجتن. لم يكن أيٌّ من الرجلين يعرف محمد مصطفى رمضان ولم يلتقياه من قبل قطّ. ليس واضحًا

حتى إذا كانا قد استمعا إليه في المذياع. كان معهما صورة وعنوان مكان عمله. بعد وصولهما إلى مطار هيثرو ببضعة أيام، حملا على عاتقهما الانتظار طوال اليوم على الشارع المقابل لمبنى هيئة إذاعة البي بي سي في بورتلند بليس. عندما شاهدا رجلهما يغادر المبنى، كانت الإثارة أشبه بدعابة خاصة، غمرتهما بوهج سِرِّيّ من الإحساس بالتفوُّق. كان محمد مصطفى رمضان غافلاً عن هذا كلِّه تمامًا. عندما وصل إلى الجامع، رأى الرجلين. كم كانا يبدوان صغيرَي السن ومتوترين وغريبين. لاحظتهما نادية أيضًا. سبَّبا لها القلق. همست بشيء في أذنه وأومأ برأسه نافد الصبر قليلًا، ربما بالطريقة نفسها التي كان يفعلها حين تطلب منه ألَّا ينسى القيام بعمل منزلي ما. حمل ابنتهما بين ذراعيه وقبَّلها. لم يكن هناك وقت. كان عليهما أن يدخلا ويتوضَّآ. بسرعةٍ اتفقا على مكان اللقاء بعد الصلاة. نادية أخذت حنان منه وحملتها وعبرت الساحة لتدخل قسم النساء. راقبهما محمد حتى اختفتا. توقف لحظةً، ربما مفكِّرًا في خياراته، ودخل الجامع. هبط السلالم إلى المُتَوَضَّأ. لعله تساءل عما إذا كان هناك باب خلفي، أو طريق للخروج إلى الحديقة، يمكنه الاختفاء منه بسهولة. كان متيقنًا أن نادية كانت ستوافق، فيما بعد، على أن الاحتراز كان حكيمًا، مع أنه لم يكن له داعٍ قطعًا. لتعويضها عن الانتظار، ربما كان سيصطحبها إلى السينما، ويتوقفان في الطريق لأكل البيتزا، ثم الآيس كريم وهما يمشيان عائدين إلى البيت. لكنه سيقول لنفسه حاسرًا كُمَّيه عن ذراعيه: مهلًا، فعقلك يشطح

بك. لكل أجلٍ كتاب. وعلى أية حال، لن يجرؤوا. ليس هنا. ليس في لندن. جفَّف وجهه، ارتقى السلالم ببطء ووجدهما في الأعلى، التوتر بادٍ عليهما، متظاهرَين بعدم الانتظار. لمح نظرة خوف على وجهيهما فأراحه ذلك بنحوٍ ما. تذكَّر والده، عندما كان خلال اللحظات المتوترة قبل ذبح أضحية العيد يذكِّره، كعادته، بأصل تلك الشَّعيرة. امتحن الله نبيَّه إبراهيم برؤيا مفزعة، يأمره فيها بذبح ابنه والتضحية به. يثبت الأب استعداده لذبح ابنه والابن استعداده للموت حتى يثبت أبوه طاعته لله. لكن، عندما يوشك إبراهيم أن يقطع عنق ابنه يكافئه الله بإيقاف الذبح، ويمنح الأب والابن رضاه في هيئة حَمَل. تذكَّر نظرة الخوف والتَّوجُّس في عينَيْ أبيه كلما روى له القصة التي طالما دفعته إلى أن يمسك عليه لسانه ولا يسأل أباه السؤال الذي كان يستحوذ على تفكيره: لماذا يكافئنا الله على الطاعة المطلقة ـ بصرف النظر عن العواقب ـ وقد أنعم علينا بالعقل ومنحنا القدرة بل المسؤولية كذلك لكي نتخذ قراراتنا بأنفسنا؟ لقد أدرك الآن أن القصة قد أخافت والده أيضًا. ثم فكَّر؛ كم كان الرجلان صغيرين! كان جسداهما صغيرين، وكذلك إرادتهما. قال لنفسه؛ من الصعب قتل إنسان. أصعب بكثير مما يظن المرء. وتلك حقيقة تبعث على الأمل: أن الحياة تنصر الحياة. ثم فكَّر في أبيه مرة أخرى. أو هكذا أتخيَّل.

أنا الآن في الجامع. أمشي عابرًا ساحته البيضاء الكبيرة، التي تتوهَّج بلون رمادي في الليل. أجد الأبواب مفتوحة. أهبط

السلالم نفسها. أتوضأ. أصعد السلالم، أخلع حذائي وأدخل القاعة الكبيرة المفروشة بالسجاد، وسقفها يرتفع فوقي. ربما، لمَّا دخل محمد مصطفى رمضان إلى هنا في ذلك الأصيل، وضع أمامه مباشرةً نُسَخ صحيفة العرب التي كان يحملها، بحيث كان كلما سجد ليمسَّ جبينُه الأرضَ مكرِّرًا ثلاث مرات «سبحان ربي الأعلى» رآها وتنشَّق تلك الرائحة العزيزة والمألوفة للصحف المطبوعة حديثًا. ذكَّرَته باستراحات الغداء والأصائل الكسلى، اللحظات المسروقة في أثناء التنقل بالمواصلات، وأيام الأحد المفتوحة البطيئة. تلك الرائحة أيضًا كانت الأمل بأنَّ الكلمة ما إن تُطَبع لا يمكن محوها أبدًا، وأنَّ الزمن قد يأتي ويذهب، لكنَّ الحقيقة الموثَّقة تعني أن العالم لا يمكنه الاستمرار في التظاهر بأن شيئًا لم يحدث. ولعله كان قد أدرك حينها، بوضوح أكثر من ذي قبل وبقناعة جليَّة، أن هذا كان هو الأمل الباذخ الذي سكن مركز حياته، الذي أحياها وأنعشها. وأن هذا كان سيأتي بشعورٍ بالعرفان، وبفهمٍ، ربما لأول مرة، أنه كان بين المحظوظين الذين عاشوا حياتهم وأيامهم ودقائقهم لهدف. أتخيَّله جالسًا في الصفوف الخلفية، حتى إذا انتهت الصلاة وألقى السلام والوداع على المَلَكين، أحدهما عن شماله يحصي خطاياه، والآخر عن يمينه يسجِّل حسناته، استطاع أن ينسلَّ تاركًا الصحف وراءه. كان سيجد نادية وحنان، وبسرعة يوقف سيارة أجرة، ويختفون في لندن، مدينة الشوارع التي لا تنتهي. لكن، لعل عبث خطة كهذه كان قد تسلَّل إليه فعلًا. ستستغرق نادية وحنان وقتًا طويلًا

حتى تظهرا. ولحظةَ فكَّر فيهما غمره شعور بالحزن والفخر. لن يركض. سيمشي مطمئن البال. وجد حذاءه. كان قد زال عنه دفء قدميه، لكن الجلد الناعم كان مريحًا. الأجساد تزاحمت من حوله. رجال أعناقهم معطَّرة، معطَّرة للصلاة. السماء فوقه أخيرًا. تعتاد عيناه النور الساطع. راحة التَّفرُّغ المفعمة بالأمل، وعطلة نهاية الأسبوع تتفتَّحان أمامه أخيرًا. كل ذلك القلق كان بلا معنى. لم يكن سوى إرهاق عقل مُجْهَد. استنشق الهواء. فكَّر في العودة لجلب الصحف. تصوَّرها منتشرة على شكل مروحة على السجاد، تدوسها الأقدام العابرة. قرر عدم العودة. فكَّر: ستجد الكلمات طريقها.

أول الانفجارات الصغيرة المدوِّيَة. اكتُشِف فيما بعد أن المسدسين كانا صغيرين بما يكفي ليسعا جيب بنطال جينز. ثم الانفجار الثاني.

الجميع، كل الأجساد العطرة من حوله، تراجعت وتفرَّقت إلى الخارج، متَّسعةً كموجة أو كمشهدٍ مُسرَّع لتفتح وردة. وهناك تمامًا، في المركز، كان جسد الرجل صاحب الصوت المتفرِّد، المذيع الذي كان يشعرك بأنه يتحدث إليك، إليك وحدك.

٩

بنبرة انتصار أعلنت مذيعة أخبار في التلفزيون الليبي الحكومي نبأ موت محمد مصطفى رمضان: «كلبٌ ضالٌ يلقى نهايته العادلة».

شغَّلنا المذياع وسمعنا رجلًا يؤكِّد النبأ المروِّع بصوت مجهد كئيب.

بكت أمي، وبكت سعاد، وبكيتُ أنا أيضًا وراء باب الحمام الموصد. لم يكد أبي يقول كلمة في الأيام القليلة التالية.

ثم شيئًا فشيئًا بدأ الأمر. نحن، الأشخاص الأربعة أنفسهم، الذين أُعجِبنا بمحمد مصطفى رمضان، وذرفنا الدموع حزنًا عليه، وما زلنا نكابد ألمنا، بدأنا نحاول فهم هذا الفعل الذي لا معنى له، وفي ظل الغياب التام للعدالة، لم نكن نسعى إلى تبرير مقتله، بل كنا فقط نبحث عن أسبابه. ورويدًا رويدًا، مثل مدٍّ متصاعد، ألقينا ببعض اللوم على كتفي الرجل الميت.

قالت أمي: «كان ينبغي أن يكون أذكى».

حاولت سعاد الاعتراض: «كيف تقولين شيئًا كهذا؟».

قالت لها أمي: «حسنًا، لأنه لم يكن صبيًا ساذجًا. كان يعلم ما يفعل».

سيطرت على أمي حينها قوةٌ غريبة. بدت مقتنعة تمامًا بكلماتها. في تحوُّلٍ مفاجئ، تخلَّصت من مسحة الحزن الوديع التي رافقتها في الأيام الماضية.

سألتُها: «أتعنين أنه استحق ما حصل له؟».

«لا»، قالت وبدت مجهدة قليلًا لاضطرارها إلى شرح موقفها. أشعلت سيجارة، وأدارت مقعدها قليلًا نحو أبي، ونفضت بظهر كفها موضعًا نظيفًا جدًا على حجرها. زفرت سحابة دخان كبيرة. ضمَّت نسيج ثوبها بعضه إلى بعض كاشفةً ركبتيها القويتين اللتين أثارتا دهشتي حينها، كأنهما ليستا ركبتيها، بل ركبتي امرأة أصغر سنًا.

أخيرًا قالت: «طبعًا لم يستحق ذلك، لكن...».

قال أبي بصوت رقيق لكنه مشحونٌ على نحو غريب: «لا، لم يستحق ذلك. ما تقصده أمُّكُما أنه ربما كان بإمكانه تجنُّب ما حصل». سكت قبل أن يضيف، مخاطبًا أمي: «لكن من بوسعه أن يعرف؟».

قالت له: «حسنًا، لا يمكنك أن تذهب بنفسك إلى الأسد وتقول له، وجهًا لوجه، إنه فاسد».

لم يكن مهمًّا أن أحدًا منًا لم يقتنع، حتى أمي. فقد تخيَّلتْ عقولنا أن الفقيد كان يمكنه الحذر، وتجنُّب لفت الأنظار، وكتمان آرائه، والسير بمحاذاة الحائط، وإيجاد طُرُق ليكون راضيًا. وفي الأيام

القليلة التالية بدأت تتشكَّل. في عقلي ذي الأربعة عشر عامًا، هذه النسخة الأخرى الخجول لهذا الصحفي والمذيع. هنّأتُهُ على بقائه حيًّا، على تصرُّفه بمسؤولية، وعلى كونه نِعْمَ الزوج ونِعْمَ الأب. لكنَّ هذه النسخة من محمد مصطفى رمضان كانت أقل حيوية إلى حدٍّ ما، وأقل سهولة في الفهم أو الثقة.

قرأ الأخبار في المذياع بنبرة تخلو من العاطفة، دون ذلك العزم الفخور، وتلك الحماسة المستقلة والسَّخيَّة التي كانت تصل موجات الأثير مباشرةً بعد أن يعلن المذيع الإنجليزي بوقار: «هنا لندن. سيُذاع على هذه الموجة الآن بثنا الصباحي باللغة العربية»، في الصبح الباكر، وأنا أرتدي ثيابي استعدادًا للمدرسة، حيث السماء في الخارج ما تزال مظلمة، والمذيع الليبي يلقي التحية بصوت مهيب لكنه ودود معلنًا بداية اليوم. تخيَّلت أن تلك السِّمة لن تكون موجودة في ذلك الرجل لو نجا. والأهم لي، أنه لم يكن ليتحدَّى أعراف هيئة الإذاعة البريطانية وقواعدها ويقرأ «الممنوح والمأخوذ»، القصة القصيرة التي ألقت بظلالها على حياتي زمنًا طويلًا، والتي كتبها مؤلف ليبي مجهول كان صديقَه وسيصبح بعد ذلك بخمسة عشر عامًا صديقي، رجل رفضه النظام الليبي، كما سأعلم فيما بعد، وقال بطل قصته الكلمة الوحيدة التي ما كان بوسع أيٍّ منًّا أن يقولها في ذلك الحين، والتي عندما قرأها محمد مصطفى رمضان كانت قد أُعيدتْ إلينا ولو مؤقتًا: «لا».

١٠

في تلك الأيام كان أبي مشترِكًا في جملة من المجلات الأدبية والأكاديمية العالمية. كانت تعبر حدودًا وبحارًا قبل أن يودعها ساعي البريد صندوقَ بريدنا. كثيرًا ما كُنّا نمازح أبي.

فتقول سعاد: «انظروا، لقد وصلت مجلة «الدراسات الإفريقية الحديثة» توًّا من كيمبردج».

وتضيف أمي قائلة: «هذا لا شيء، فعندي هنا مجلة «دراسات الشرق الأدنى» التي قطعت الطريق كلَّه من شيكاجو».

في الأشهر التي أعقبت قراءة قصة حسام زوة القصيرة والاغتيالات المروِّعة التي طالت سليم اللوزي ومحمد مصطفى رمضان، وفي غمرةِ ما خلَّفته هذه الوقائع من قلق واضح في البيت، بدأتُ أتصفَّح هذه المجلات عديمة اللون مُعَلِّلًا النفس بالعثور على دليل بطريقة ما، أو معلومة قيِّمة قد تدفع حياتي قُدُمًا، إلى غايةٍ أو وجهة لم أكن أعرفها.

في مجلة «الأدب العالمي المكتوب بالإنجليزية»، وهي مجلة تُعنى بوضوح بالكتابات «ما بعد الاستعمارية»، وجدتُ

مقالة عنوانها «عواقب المعنى في خيانات الترجمة» كتبها البروفيسور هنري ولبروك الذي تذكر سيرته المكوَّنة من سطرٍ واحد أنه يدرِّس الأدب الإنجليزي في جامعة إدنبره، مُرَكِّزًا على أدب ما بعد الاستعمار. جهدتُ في قراءة المقالة بإنجليزيتي المبتدئة، واحتجت إلى البحث عن معاني كثير من الكلمات حتى إن القاموس لم يكن يفارقني. كتب البروفيسور ولبروك عن «الغياب الممنهج لتطابق القصد واللفظ»، وأنَّ «الترجمة، أيَّ فعلِ ترجمة ـ من لغة إلى أخرى، من شعورٍ إلى كلمة تعبِّر عنه ـ يُغيِّر المعنى لا محالة». وقد زعم قائلًا: «حتى التأويل الأمين يخسر قدرًا من المعنى، يطرحه، تمامًا كما يتآكل جرف بفعل طقس قاسٍ». ثم أردف قائلًا: «إن هذا يُدخِل دلالات جديدة، طوعًا أو كرهًا».

في ذلك الأصيل الصامت عندما غفا والداي وأختي، لبثتُ عند طاولة المطبخ، أترجم ببطءٍ مقالة ولبروك، شاعرًا بخيبة الأمل لعجزي عن فهمها فهمًا تامًّا أو عن فهم سبب افتتان كاتبها بالخسارة عوضًا عن قلقه منها، ليقيم الحُجَّة على ذلك بقوله: «حتى إنْ أصبنا في النظر إلى مثل هذه العيوب كأمثلة على الخسارة أو التشويه، يمكننا أن نقبل بها أيضًا بسبب تعبيرها الذي يصعب التحكم به. أي أن الخسارة، على ما بها من سوء، تحمل شيئًا حسنًا، بل إنها تبشِّر بالخير، فهي تثبت أن كل ما نلمسه يتغيَّر، ومهما بدت حياتنا ضعيفة أو غير مهمة أو فقيرة أو مقيَّدة أو غير حُرَّة، فمن المحال أن نمرَّ على هذه الأرض دون ترك أثر».

بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات، تقدمتُ بطلب دراسة الأدب الإنجليزي في جامعة إدنبره. قُبِل طلبي، والمثير للدهشة أني نلت بعثة حكومية على رغم امتناع والديَّ من البحث عن قريب لنا من أهل النفوذ قد يساعدني على تسيير طلبي.

عندما ودَّعني أبي في المطار، لم يعانقني عناقه السهل المعتاد، بل عانقني بقوة.

«إيَّاك أن تنخدع»، قال، وقد نبعت الكلمات من أعماق قلبه.

«لن يحصل هذا»، قلت مفترضًا أنه يقصد الإغراءات المعتادة التي قد تخدع مراهقًا.

أمسك بيدي بإحكام، وضغطها أكثر مما فعل يومًا. أخافتني تلك القوة. أشعرتني كأنني على حافة السقوط. صارت حدقتا عينيه صغيرتين ومظلمتين، وببطء، وبصوت لم يكد يُسمَع، قال: «إيّ. يا. ك. أن. تن. خَ. دِع».

بعد إقلاع الطائرة بوقت طويل، وأنا جالس على مقعدي، يلفُّني المعطف الذي أعطاني إياه، لم أتوقف عن التفكير فيما قصده بتلك الكلمات. كانت تلك أول مرة أسافر فيها بالطائرة، أول مرة أعبر فيها حدود بلدي، ولذا فإن كلمات أبي - والقلق الذي غشي وجهه كشجيرات عصفت بها ريح - قد اقترنت في عقلي بالرحيل عن الوطن. وحتى عندما حاولت إقناع نفسي بأنه لم يقصد إلّا تحذيري من شطحات الشباب، كنت أعلم أنه كان يعني شيئًا آخر. استذكرتُ الأيام التي سبقت رحيلي وكيف

بدا لي أن حزن أمي وسعاد فاق موقف الوداع. حينما قلت هذا لسعاد أجابت: «أنت لا تفهم الأمر، أليس كذلك؟» ونظرت إليَّ كأنني غريب.

لم أفهم الأمر، وبقيت كذلك وقتًا طويلًا. أسأت فهم قلقهم. لم ينبع ذلك من الخوف والشوق وحدهما، بل أيضًا من شيء كان ينبغي أن يكون شديد الوضوح؛ وهو أنك إذا خرجت من ليبيا في عام ١٩٨٣ فقليلةٌ هي الأسباب التي قد تدفعك إلى العودة.

١١

عندما وصلت إلى إدنبره، كنت حُرًّا من جميع الهموم. فتنتني جِدَّةُ الأشياء، والعمارة والوجوه غير المألوفة، الطريقة التي كان يتحرك بها الناس والسُّحُب. وصلت إلى البيت حيث سأقيم، وبعد إتمام الإجراءات مع صاحبته دخلت غرفتي وأغلقت الباب. كانت الغرفة ـ فيها سرير مفرد، ومنضدة صغيرة تحت النافذة، وخزانة تسع متاع شخص واحد ـ مكانًا طالما توقَّعته. ومع أن الغرفة في مدينة أجنبية، كانت مألوفة على نحو عجيب، فكأنني كنت في المستقبل وما هذا إلَّا ذكرى. أخرجت أمتعتي.

طُرِق الباب ودخل طالب ليبي دمث من دفعة بعثتي الدراسية وعرَّفني بنفسه. «سعد، من زوارة»، ومن فوره سألني عما إذا كنت قد زرت مدينته الساحلية الصغيرة الواقعة في أقصى شمال غرب البلاد.

قلت: «لا، للأسف»، وحذوتُ حذوه معرِّفًا بنفسي: «خالد، من بنغازي».

قال: «أوه، نعم، سبق أن زرتُها. باهي، فاتك الكثير. زوارة عاصمة من عواصم العالم الكبرى، وهي بمكانة لندن وباريس ونيويورك». وضحك مسرورًا بمزحته.

جلس على طرف سريري. اتكأت على المنضدة، ولمّا لم أعرف ما أقول، سألته عن اهتماماته.

قال: «اهتمامات؟ يا له من سؤال غريب. لقد حرَّرتُ نفسي منها تمامًا. كل همّي، يا عزيزي خالد، هو الاستمتاع بحياتي، وقضاء بضع سنوات في الخارج، بعيدًا عن زوارة ما أمكن».

ضحكتُ. نظر إليّ ثم ضحك هو أيضًا.

قال: «أترى، لقد أسلمت نفسي لحقيقة أنني أعيش في عالم مليء بالرجال غير العقلانيين، والشيء العقلاني الوحيد الذي يمكن فعله في هذا الموقف هو تجنُّب مخططاتهم قدر ما نستطيع».

قلت: «يا لها من فكرة ممتازة».

قال: «تجنَّب مخططاتهم واستمتع، ولهذا يجب أن تأتي معي فورًا وتقابل الآخرين».

تناولت معطفي وتبعته معتقدًا أن كل فرد في جماعتنا سيكون ليِّن المعشر كسعد. بدلا من ذلك، كانوا، بلا استثناء تقريبًا، بخلافه تمامًا، عابسين وكئيبين، وقد طبع سلوكهم ذلك الشكّ الحذِر الذي يصيب بعض بني جِلْدَتي الذكور عندما يغادرون الوطن. ما حيَّرني هو أن سعد لم يكن عنده شيء إلا الثناء عليهم جميعًا.

حين أحسَّ بافتقاري إلى الحماسة قال: «ادَّخرت الأفضل للنهاية. مصطفى التوني. سترى. أنتما الاثنان ستتفقان. لأنني

أستطيع أن أرى، يا عزيزي خالد، أستطيع أن أرى، من توّي، أي نوع من الناس أنت».

تبعتُه في ممرات كثيرة حتى وصلنا إلى المقصف. هناك كان مصطفى متكِئًا على عمود، وقد بدا ضَجِرًا جدًّا كبناء مهجور. بدا شارد الذهن في تأمل أو حسرة شخصية. أذكر أنني حينها فكّرتُ أنه ضحّى في سبيلِ المجيء إلى هنا، فقد بدا عليه ما لقيه من سوء معاملة، إضافةً إلى ظهوره بمظهر المهجور. شعره المقصوص قصيرًا ـ بخلاف موضة ذلك الوقت ـ ووجهه الحليق وجسده النحيل، كل ذلك جعله يبدو حَذِرًا ومكتفيًا بنفسه. فكّرتُ؛ لعله حنَّ إلى الوطن، أو لعله ترك هناك أمرًا لم يُحسَم. عندما رآنا نقترب نظر إلينا بلا اكتراث. حتى بعد أن أمسك بيدي وكررنا التحيات المعهودة الفارغة من المعنى، لم أستطع أن أجزم إذا كان قد سمعني حقًّا. لاحظت لهجته البنغازية وقد خالطتها نغمة خفيفة من كلام الأحياء الشعبية. ولكن، ما إن ذكرت اسمي كاملًا ـ خالد عبد الهادي ـ حتى بدا أن مصطفى قد عاد من حيث كان. سألني إن كنت أعرف الأستاذ كمال عبد الهادي، المدير؟

قلت: «هو أبي».

عانقني.

أفلت سعد ضحكة. قال وهو يَكِز كتفي: «ألم أقل لك؟»، وقال لمصطفى: «قلت له إنكما ستتفقان».

قال له مصطفى: «درست العامين الأخيرين في مدرسة والده. والده رجل فاضل. معلّم فاضل». ثم نظر إليَّ وقال: «وكان أحيانًا خفيف الدم»، وضحك.

في ذلك الحين كانت الدولة ترسل الطلاب الحاصلين على البعثات الدراسية إلى الخارج في جماعات صغيرة، يرتبط كل منها بواحدٍ أو اثنين من «الأنتينًا»[1]، أي طالب أو طالبيْن كان عملهما التَّجسُّس على الآخرين. أطلقنا اسمًا آخر على «الأنتينا» وهو «الكَتَبة»، لأنهم لم يأتوا للدراسة فحسب، بل أيضًا لكتابة تقارير عن بقيتنا. وقد تجلّت فعالية هذا النهج تحديدًا في غموضه. إنك تبقى على حذر وبحاجة إلى التبرئة لأنك لا تستطيع أن تكون متأكدًا تمامًا مما قد يورِّطك في مشكلة ويفسد معجزة حظك السعيد بالدراسة في الخارج. أقلية صغيرة أخرى أيضًا كانت «القُرَّاء»، وهم طلاب أتوا للدراسة فعلًا. في جماعتنا، كنت أنا ومصطفى «القارئَين» الوحيدَين، ولهذا اعتقد سعد أننا سنتفق. أما البقية، تلك الأغلبية السعيدة التي ينتمي إليها سعد، فلم يأتوا لفعل شيء، وهذا أقل الأنشطة الثلاثة جدلًا، فلم يكن بحاجة إلى تبرير.

بعد أن أصبحنا جميعًا نعرف بعضنا بعضًا أكثر قال له مصطفى: «إنك لتشفق علينا نحن المخلوقات المسكينة المصابة

(١) أنتينا من Antenna، أي السلك الهوائي الموجود في أجهزة المذياع والاتصال اللا سلكي التي كان يستعملها أعضاء المخابرات والجهات الأمنية في ليبيا ومنها اكتسبوا لقب «الأنتينا» (م).

بتلك الحالة النادرة التي تجبر المرء على الذهاب إلى رفّ كتب واختيار كتاب وقراءته من البداية إلى النهاية دون سبب عدا الاستمتاع بالقراءة».

إلَّا أنني، حتى في ذلك الحين، شعرت بأنني ومصطفى نختلف في القراءة. أقبل هو على قراءة الكتب بأدوات حادة. كان يهمُّه إن كان يوافق المؤلف، أو إن كان يرى أن المؤلف ملتزم بمبادئه. وكان يبحث في آراء المؤلف السياسية، وفي آرائه في موضوعات شتَّى، وتأخذه حماسة تظهر في عينيه كلما اعتقد أنه حدَّد موقف الكاتب الأخلاقي. ما كان غريبًا هو أن طريقته هذه، سواء أأوصلته إلى حكم بالتبرئة أم بالإدانة، كانت تلهمه الرد نفسه، راحة متحمِّسة ومثيرة، وحينها فقط يبدو أنه يستطيع إغلاق الكتاب ونسيان كل شيء عنه.

كنت أكتب إلى أهلي كل أسبوع. الرسائل التي تصلني كانت تُفتَح في الطريق، بلا شكٍّ مثلما يحدث للرسائل التي أُرسِلها. لم يُبذَل جهد لإخفاء ذلك. كانت المظاريف تُمزَّق ثم يُعَاد إغلاقها بشريط لاصق شفاف لا يثبت، يلتصق بعضه ببعض في مواضع، وأحيانًا كانت المظاريف تصل غير ملصقة. أمَّا صفحات الرسالة فكثيرًا ما كانت متغضِّنة، أو يظهر عليها شكل هلال من أثر فنجان قهوة كدليل على قراءتها بلا ريب. وقد نجح الأمر، لأنني وأنا أقرأ كنت أتساءل عمَّا فهمه الطرف الثالث المجهول من كل جملة، وحين يجيء وقت الرد أعجز عن إزاحته تمامًا من عقلي. شعرت

بأنني إن لم أكن أكتب لأجله فقد كنت أحذف أشياء بسببه. وقد غيَّر هذا نبرة رسائلنا، ولا بد أنه كان، في جزء منه على الأقل، غرض هذه الرقابة. بحضرة سُلْطَة مرتابة، أصبحت مكاتيبنا حييَّة وحذرة من ذكر تفاصيل شخصية أو التعبير بألفة وحميمية. فلم أعد مثلًا، أكتب في نهاية رسائلي: «قُبُلاتي». انزعجت مرَّةً انزعاجًا شديدًا عندما كتبت أمي، في إحدى المناسبات، تمجِّد فضائل الدكتاتور وقد خصَّته بثلاث جمل كاملة وهي التي لم أسمعها من قبل تقول شيئًا حسنًا عن النظام. انقطعتُ أسبوعين عن مراسلتهم بعد ذلك. ولم تكرِّر هي ذلك قطّ.

لكن قبل ذلك في أول رسالة بريئة كتبها أبي ردًّا على إخباري له بالمصادفة السعيدة التي جمعتني بتلميذه السابق مصطفى التوني، كتب: «نعم، علمتُ أنه تقدَّم بطلب لبعثة. كتبت له توصية. سعيد جدًّا لأنه قُبِل. إنه ولد خلوق. طالما أسعدني أن أعيره الكتب. عيبه الوحيد أنه سريع الغضب. حاولت تعليمه عدم التعجُّل في إطلاق الأحكام، فبعض الكتب، مثل بعض الناس، خجلى».

١٢

في تلك الأشهر الأولى في إدنبره، شعرت بحماسة جديدة، بتفاؤل واقعي، وبدأت كل يوم موقنًا بأنَّه يومي. لم أتعلَّم طُرُقَ حياة جديدة فحسب، بل شعرت بأنني أنغمس في تجربة عيش، تجربةٍ بلا أخطار، لأنني اعتقدت أنني أستطيع العودة إلى وطني في أي لحظة. لم يزل ذلك الوقت أسعد أوقات حياتي.

تآلفت وسعد والليبيين الآخرين في جماعتنا، بمن في ذلك «الكتبة»، لكن في نظري لم يكن لي أصدقاء إلا مصطفى ورنا، طالبة هندسة معمارية لبنانية. لم أعرِّف أحدهما بالآخر قطّ. أعجبني واقع أنني أستطيع الحفاظ على هاتين الصداقتين منفصلتين. فقد أتاح لي ذلك أن أعبِّر عن جوانب مختلفة في شخصيتي، أن أعيد رواية القصة نفسها مُبَدِّلًا تفاصيلها، أو أن أغيِّر رأيي في موضوع ما دون شعوري بحاجة إلى تبرير موقفي. لم يقل مصطفى ذلك قط؛ إلا أنه لم يعجبه أنني احتفظت برنا لنفسي. راودني شكٌّ في أنه اعترض سِرًّا على صداقتي إياها وعلى صداقة أي امرئ آخر غيره، وإن لم أستطع فهم سبب ذلك آنذاك. من جهة أخرى، حبَّذت رنا هذه الطريقة. لم تعرِّفني بأصدقائها

أيضًا ـ الذين بدوا جميعًا غايةً في الكِياسة والظرافة إلى حدٍّ يدفع إلى الرهبة ـ ولمَّا اتفقنا على إعجابنا بهذه الطريقة قالت إنها منحتنا «حرية النميمة». لم أثق بأحد بسهولة تامة هكذا ولا بثقة تامة هكذا. أعتقد أنها بادلتني هذه الثقة. شاهدنا أفلامًا عالمية في شقتها حيث كانت تعيش بمفردها. أحبَّت طبخي وأحببت أن أطبخ لها. أحيانًا كنا نقصد سينما فيلم هاوس في إدنبره، وحتى إن راقنا الفيلم، كنا نستمتع بنقده أكثر، فنخرج من السينما ونحن نضحك، ساخرَين من ادعاءاتنا النخبوية. معها أحببت السخرية من نفسي. هل كنت أُغْرَمُ بها؟ ماذا كان سيحل بنا لو بقيتُ في إدنبره؟ طوال السنوات التي عرف فيها أحدنا الآخر، رأيت مرارًا الخط الفاصل بيننا وأحيانًا فكَّرت في تجاوزه، ونحن في شقتها، أو بعد ذلك لمَّا أقلَّتني من مستشفى وستمِنستر وهيَّأت لي مكانًا للاختباء في نوتينج هِل، أو بعد ذلك أيضًا لمَّا حان دوري وذهبتُ إلى باريس لأكون إلى جوارها خلال مدة تعافيها. حتى الليلة، وأنا أمشي على هذا الطريق المُلتوي قاصدًا البيت من سانت بانكراس إلى شيبردز بُش، أتساءل عما كان سيحدث لو بقيتُ.

بعد قراءتي مقالة البروفيسور ولبروك في الترجمة بثلاث سنوات، كأنما بسحرٍ، وجدتُني جالسًا في قاعة محاضرات كبيرة أستمع إليه. لم يسبق لي أن التقيتُ شخصًا قرأت أعماله. في لحظةٍ من اللحظات، لمَّا رفع رأسه ناظرًا إلى طلابه، ووقعت عيناه عليَّ جزءًا من الثانية، اعتقدتُ، خلافًا لكل منطق، أنه عرفني. بدا أصغر سنًا مما تخيَّلت، ربما في منتصف الثلاثينيات

من العمر. كانت ملاحظاته الافتتاحية متوترة، أما بعد ذلك، حين بدأ محاضرته التي كانت عن قصيدة تنيسون «في ذكرى آ. هـ. هـ»، «التي قد تكون أعظم قصيدة كُتبت في الصداقة»، حسبما وصفها، فقد تبدَّد توتره وغلب عليه شغفٌ وارتياحٌ طبيعيان. عندما قال لنا ولبروك إن الشاعر كتب القصيدة استجابةً للوفاة المبكرة لصديقه الحميم آرثر هنري هَلَم ـ الذي توفي في الثانية والعشرين من عمره ـ نظر إلينا لحظةً، ربما ليذكِّر نفسه بأن أعمارنا لم تكن بعيدة عن ذلك العمر.

قال: «إن مرثاة تنيسون التي تتألف من ١٣٣ بيتًا، امتدت إلى أكثر من عَقْدٍ ونصف العَقْد:

أَبَيْنَ الرَّبِّ والطبيعة خصام،
حتى تأتي الطبيعة بشرّ المآرب والأحلام؟
حريصةٌ هي على خلود كلِّ الأنام،
ساهية عن مصير حياة واحدة...

يواجه الفنان تجربة تستحيل ترجمتها وتثير في نفسه أشد العجب والقلق، فيكون عليه أن يسعى، بما يستطيع من إرادة، إلى تجاوز الهُوَّة، ليحاول التوفيق بين «الرَّبّ» و«الطبيعة» وبين «مصير حياة واحدة». هنا تجربتان تستعصيان على الوصف والنقل. أولاهما الصداقة، وهي كأي صداقة، يعجز المرء عن وصفها وصفًا تامًّا لغيره. وثانيهما الحزن، وهو، مرة أخرى، كأي شكل من أشكال الحزن، فظيع، تحديدًا لاستحالة إيصاله للآخرين».

خرجتُ من تلك المحاضرة الأولى مسرورًا جدًّا. أذكر كيف تسارع نبض قلبي في صدري لمَّا دنوت منه في نهاية المحاضرة، بعد بضعة أشهر، في نوفمبر والشتاء الجديد يحشد جحافله، ودعوته إلى اللقاء لشرب قهوة.

تبسَّم وقال: «هنا لا نشرب القهوة»، لكنه سيقابلني على الرحب والسعة مساء الجمعة في الحانة القريبة.

عشت ذلك الأسبوع كله مترقِّبًا. حينما وصلت عند الباب، وقفت لحظةً في الخارج في الهواء البارد أنصت إلى الهمهمة الدافئة الآتية من الداخل، وأرقب الهيئات الغامضة من الزجاج المغبَّش بالصقيع. في الداخل، ابيضَّ الهواء بالدخان. وجدته واقفًا عند مشرب الحانة. تحدثنا، وبدا، في هذا المكان، متقبِّلًا وفضوليًّا بانفتاح أكثر من الأكاديمي المُحلِّل. كان عليَّ أن أسأله مرارًا قبل أن يجيبني بشيء عن نفسه. وفي آخر الأمر استسلم.

قال: «أنا من لندن. عشت مع جدَّتي. كنَّا نحن الاثنين نتقعقع في منزل كبير فارغ، إلَّا أنه لم يكن كبيرًا جدًّا. وبالطبع، تطلَّعتُ إلى الرحيل».

تورَّد خداي. لم أعتد أن يتحدث الآخرون عن أهلهم هكذا.

قال: «كانت رائعة. وفي غاية اللطف. كل ما في الأمر، أنك حين تُربِّيك جدَّتُك فإنك تفتح عينيك باكرًا جدًّا على معنى الهرم»، وضحك.

لم يقل شيئًا عن والديه، وقد تساءلت إن كان يقصد بكلامه الصريح عن جدَّته صرف الانتباه عن ذلك الموضوع.

سألته: «ما معنى اسم ولبروك؟» كنت أسأل أسئلة كهذه آنذاك.

قال: «لست متأكدًا. قد لا يعني شيئًا».

قلت: «لكنَّ لجميع الأسماء معانيَ».

قال: «أحسب أنها يجب أن تعني شيئًا».

«إنه اسم تلٍّ في لندن. لقد بحثت عنه».

رغبتي هذه في أن أثبت لأهل البلاد، حتى أصحاب العلم الفريد منهم مثل ولبروك، أنني أعرف الكثير عن ثقافتهم، أو أستطيع أن أعرف عنها الكثير، ستصبح عادة سيئة. حتى اليوم أتساءل أحيانًا: لو لم أكن حريصًا على إثارة إعجابهم والاختلاط بهم، فما الذي كنت سأتعلَّمه أيضًا في شبابي ذاك؟

تابعت قائلًا: «ولبروك من أقدم المستوطنات في لندن. يمكنك القول إنه اسم لندن الأصلي».

قال دون اهتمام كبير: «أصحيح ذلك؟» صمت قليلًا ثم قال: «خبِّرني عن حياتك في ليبيا. أخشى أنني لا أعرف عن بلادك إلَّا القليل».

«نشأت في البيت العثماني نفسه حيث وُلِدتُ، في بنغازي، في قلب البلدة القديمة، قريبًا جدًّا من الواجهة البحرية. كان البيت ملك جدي لأبي ومن قبله لأبيه. كلاهما، وأبي كذلك، ولدوا هنا».

«ماذا يعمل أبوك؟».

«معلِّمًا. وإن كان في الحقيقة مؤرِّخًا، مؤرِّخًا سِرِّيًّا. لم يستطع امتهان ذلك بسبب السياسة». شعرت كأن الأرض تنشقّ، كأن بئرًا تنفتح تحتي. «قرأتُ يومًا في أوراقه ـ لم أقصد التطفل، لكنني دخلت مكتبه لأبحث عن كتاب، ووجدت الأوراق المكتوبة بخط يده على طاولته وحالما بدأت في القراءة لم أستطع التوقف ـ نقدًا للدكتاتورية، يجادل فيه بأن الأنظمة الشمولية يستحيل دوامها في النهاية».

وهكذا قلت ما قلت. عرفت أنني ربما أكون قد قضيت على أبي، بهذه السهولة، كسرتُ عنقه. تأمَّل ولبروك وجهي. بدا أنه قد فهم. لكن، ما كان موقفه؟ تذكَّرت أن أبي كان يحاول إقناعي بأن حتى فاشيِّي إيطاليا كان منهم مَن استمتع بالأدب، أناس أذكياء كانوا قادرين على القيام بأعمال طيبة. أذكره قائلًا: «العالم مكان معقَّد». حينها نظر أبي إليَّ بقلق في عينية مرتابًا فيما إذا كان يجدر به أن يقول شيئًا أو لعله شكَّ في قدرتي على شقِّ طريقي في عالم كهذا العالم.

سأل ولبروك: «هل درست في مدرسة أبيك؟».

قلت: «لا. أقلقه كثيرًا أنه قد يُتَّهم بمعاملتي وأختي معاملة خاصة». ثم، ولا أعلم لِمَ قلت هذا، أضفت: «أبي يقلق كثيرًا».

قال البروفيسور ولبروك: «إنني واثق بأنَّ عنده سببًا وجيهًا»، وصمت قليلًا ثم سألني: «هلَّا حدثتني عن البيت أكثر؟».

أسعدني اهتمامه. انغمستُ في وصف تصميم البيت. طلبت من النادل منديلًا. بابتسام مرح، فتح ولبروك مفكرته الصغيرة وناولني قلمه. رسمت مربع الفناء، حتى إنني حدَّدت موضع دالية العنب في الزاوية، وأريته كيف انتظم البيت حولها. ثم وصفت المنظر من السطح. قلت: «في يوم صافٍ، تستطيع أن ترى حتى جزيرة كريت». لم يكن ذلك صحيحًا، لكن، بدا أن الكَذْبة سبقتني دون موافقتي الكاملة. هذا أيضًا سيصبح عادة. يكون مغريًا جدًا أن تختلق الأشياء حين تكون بعيدًا عن الوطن.

قال: «تشتاقه». لم يكن ذاك سؤالًا.

«لست متأكدًا إن كنت أشتاقه أم أنني فقط أستمتع بالحديث عنه»، قلت، وقبل أن يتكلم أضفتُ: «هناك صادفت مقالتك «عواقب المعنى في خيانات الترجمة»».

ضحك وقال: «أشفق لحالك! كيف وجدتها بربِّك؟».

لكنَّ سعادته بالإطراء كانت واضحة، وهو ما دفعني، لسببٍ من الأسباب، إلى أن أقرِّر عدم إخباره بأنه هو مَن كان السبب، في المقام الأول، وراء تقدمي بطلب الدراسة في إدنبره. وبعد افتراقنا تمنَّيت لو أخبرته. كذلك تمنَّيت لو رويت له عن القصة القصيرة الليبية التي قُرئت بدلًا من الأخبار في إذاعة البي بي سي: لا لأنه قد يجد ذلك مثيرًا للاهتمام فحسب، بل أيضًا لأنه ارتبط هو وحسام، في ذهني، ارتباطًا عميقًا ومحيِّرًا كذلك. ذلك المساء، وأنا أمشي عائدًا إلى البيت في الظلام، ومصابيح

الشارع تضيء بوهن، وهواء الليل قارس كحقيقة قاسية، أيقنتُ، بسُبُلٍ غامضة ومُلْغِزة جدًّا لم أقدر على فهمها حينئذ، أن قصة حسام زوة التي قرأها محمد مصطفى رمضان قبل اغتياله بوقت قصير هي ما قادني إلى تأملات البروفيسور ولبروك في خيانات الترجمة ـ فيما يُخسَر ويُجْنَى بإعادة سرد حتى أيسر القصص، الخوف من إساءة الفهم ومن حتمية إساءة الفهم ـ وأن هذا هو ما أتى بي إلى إدنبره.

١٣

أترك الجامع وأعود إلى المدينة، صوب أضواء سوهو الساطعة، مكان الهبوط والسقوط، حيث بتُّ تلك الليلة الأولى لمَّا أتيت إلى لندن، عازمًا على المكوث فيها يومًا واحدًا فقط ثم أعود إلى إسكتلندا، لكنني بقيت فيها اثنين وثلاثين عامًا إلى الآن.

بعد إقامتي في إدنبره بسبعة أشهر وصلتني من أمي رسالة أخرى مفتوحة. في تلك الأيام، اعتدت أنا وهي تبادل بطاقات بريدية أو رسائل كل أسبوع. كتبت لتخبرني عن شائعة مثيرة انتشرت في بنغازي.

«الكاتب الغامض الذي ألَّف تلك القصة القصيرة المخيفة عن القطة الوحشية أخيرًا سيخرج إلى الوجود بكتاب. سيصدر بالعنوان نفسه: «الممنوح والمأخوذ». ابحث عنه وعندما تقرؤه خبِّرنا برأيك». ثم ختمت رسالتها، مثلما تفعل في كثير من الأحيان، بهذه الكلمات: «أُدثِّرك بذاكرتي». لكنني، عندما فكَّرت في المتطفِّل الذي بيننا، أحرجتني هذه العواطف.

اتضح أن مصطفى قابل أمي ذات مرة وقتًا قصيرًا عندما مرَّت بسيارتها لتقلَّ أبي. قال مصطفى بفخر: «أصرَّ على تعريف أحدنا

إلى الآخر». أبلغته بالخبر، وقد فاته البث، وكان أحرص مني على إيجاد الكتاب. هاتف جميع المكتبات العربية في لندن ومكتبة في مانشستر حيث له خال هناك. لم يكن الكتاب في المكتبات ولم يعرف عنه أحد.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، سمعنا أن السُّلُطات اعتقلت وسجنت عددًا من الطلاب في جامعة طرابلس وجامعة قاريونس في بنغازي، الجامعة التي كنت ومصطفى سندرس فيها على الأرجح لو لم يحالفنا الحظ. وقد ذهبت مزاعم إلى أن عددًا منهم تعرَّض للتعذيب، وقُتِل بعضهم. سبَّب لي ذلك قلقًا شديدًا. بذلت جهدي لتجاهل الأمر. لكنَّ مصطفى كان مضطربًا بوضوح. قال إنه لم يستطع النوم منذ سماعه هذه الأخبار.

قلت له: «تعلم كم يبالغ الناس. أنا واثق بأن الأمر ليس بهذا السوء».

نظر إليَّ ولم يقل شيئًا.

في صبيحة اليوم التالي أتى طارقًا بابي. دخل قبل أن أجيب. كنت ما أزال على السرير. سحب الكرسي وجلس قربي. نهض مرة أخرى وذهب إلى الباب، تسمَّع لحظةً وفتحه على مصراعيه.

قلت: «ماذا يحدث؟».

همس قائلًا: «هل أنت متأكد أن لا أحد آخر هنا؟».

«لماذا؟ ماذا حصل؟».

أغلق الباب وجلس مرة أخرى، مثل طبيب يعود مريضه. فاحت منه رائحة السجائر والعرق. أتذكَّر تفكيري حينها: مهما كان الأمر، فاهدأ ولا تورِّط نفسك. هذا التفكير أعاد إليَّ كلمات أبي في المطار.

قال هامسًا: «ستُقام مظاهرة غدًا أمام السفارة في لندن. تحققتُ من مواعيد القطارات وجدول الحافلات. لا شيء سيوصلنا إلى هناك في الوقت المناسب. علينا الذهاب اليوم لنلحق المظاهرة. بل الآن. نبيت الليلة هناك. وجدت فندقًا».

ثم نظر إليَّ، وكم من مرة أتذكَّر كيف بدت عيناه في تلك اللحظة: متوترتين، حائرتين، تبحثان عما يطمئنهما.

قال: «سيكون ممتعًا أن نذهب إلى لندن، أليس كذلك؟».

١٤

ركبنا الحافلة ووصلنا لندن في ذلك المساء. ولمّا توغلنا في المدينة وأحاطت بنا أضواؤها، شعرت بدمي يسري في أوصالي كشيء محاصر، نابضًا في عنقي وكاحليّ، ناقرًا أطراف أصابعي. أخذت ألعق شفتيّ لتبريدهما. دقّ قلبي دقًّا عنيفًا وقد اعتراه هاجسٌ قوي.

قال مصطفى إنه حجز غرفة ذات سريرين في فندق بشارع ووردر في سوهو. «من هناك تبعد ساحة سانت جيمس، حيث تقع السفارة، عشر دقائق سيرًا على الأقدام». بدا سعيدًا بهذا الترتيب، لكنه تجنّب الرد على سؤالي عن كيفية إيجاده الفندق.

بعد التاسعة مساء ترجلنا من الحافلة في شارع هَيماركت، وأكلنا في مطعم ماكدونالدز بشارع شافتسبري، ثم انطلقنا نبحث عن الفندق. سألته مرة أخرى عن كيفية معرفته بهذا الفندق عندما كان موظف الاستقبال يسجّل معلوماتنا.

أبهجه الغموض فقال: «عندي مصادري».

لمَّا أصررت اتهمني بأني شكَّاك. أخيرًا أخبرني بأن سعد كان هو من أوصى بالفندق. غضبت، غضبت غضبًا شديدًا حتى إني لم أقل شيئًا، ولم أتكلَّم إلَّا بعد دخولنا الغرفة بدقائق.

«الآن ما دام سعد يعرف فكلهم يعرفون».

قال: «لم أخبره بسبب ذهابنا. الناس يأتون إلى لندن لأسباب مختلفة».

قلت: «لا تكن ساذجًا».

قال: «صدِّقني، لا يعرفون الزب».

وقلنا هذا كلَّه بهمس كأننا كنا مقتنعَين بأننا مراقبان. دخَّنَّا بلا توقف. كان واضحًا أن مصطفى أيضًا ساورته الشكوك. كما يفعل جندي، كان بحاجة إلى أن يستحضر حماسة قضيته. تحدث عن الطلاب في الوطن وما لقوه من معاملة شديدة القسوة، مضيفًا تفاصيل جديدة هنا وهناك لإثارة مزيد من الغضب. بينما كان يتكلم، شعرت بجسدي يغوص عميقًا ليصبح أثقل وأعجز.

قال: «علينا واجبٌ نؤديه لهم». سكت قليلًا ثم رفع رأسه وسأل: «أليس كذلك؟».

أشعلتُ سيجارة أخرى وجلسنا صامتَين، نتنفَّس. أصغيتُ إلى صوت الهواء الخافت إذ يدخل ويخرج منه، فوجدتني أضبط إيقاع تنفُّسي على إيقاع تنفُّسه. هزَّ ساقه ولم يكفَّ عن هزِّها إلَّا لمَّا وقفت.

قلت له: «هيَّا بنا».

هبطنا السلالم ركضًا، جُبْنَا الشوارع، دخلنا متجرًا مرخَّصًا ببيع الخمور واشترينا نصف لتر من الفودكا. مرَّرنا الزجاجة بيننا.

فجأةً ضرب ساعدي وقال: «يا الله، لقد نسينا الأقنعة».

سألته: «أي أقنعة؟».

قال ساخرًا: «لأننا سويسريان والتظاهر أمام سفارتنا لا يشكِّل أي خطر».

أسرع الخطى. كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا. دخلنا متجرًا من تلك المتاجر المفتوحة طوال الليل. الرجل خلف منضدة البيع سرَّه السؤال وسألنا من أي البلاد نحن. كذب مصطفى وقال له إننا من تونس، ودسَّ الفودكا في جيبه الخلفي.

«السلام عليكم يا إخوان»، قال الرجل وأخبرنا أنه من باكستان. «هل ستسطوان على بنك يا إخوان؟» قال وضحك وحده. قال إننا ينبغي أن نجرِّب أحد متاجر بيع الألعاب الجنسية، فربما عندهم أقنعة هناك. عندما سأله مصطفى عما إذا كانت هذه المتاجر مفتوحة في هذا الوقت قال الرجل: «يا أخي، يحتاج الناس هنا إلى ألعاب جنسية أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا. إنها خدمة طوارئ». وهنا ضحكنا جميعًا.

عثرنا على متجر من هذا الصنف وضحكنا ونحن نجوب المكان جيئة وذهابًا. وعندما بدأنا نظن أن الباكستاني قد خدعنا، وجدنا قناعين أسودين من البوليستر.

قال مصطفى ونحن نخرج: «بارك الله في الباكستاني».

قلت: «آمين»، وشربنا جرعة فودكا أخرى وعيوننا تدمع من الكحول.

شعرت بثقة بالغة، لعل سببها كان الفودكا، أو الكوميديا، أو ربما شعورنا بالارتياح لأننا ستتمكن من حضور المظاهرة بهويتين مخفيَّتين؛ سنكون هناك ولن نكون هناك في وقت واحد. أحس مصطفى بهذا وبدا أنه شعر بالانتصار. وضع ذراعه حول كتفيَّ، وانعطفنا إلى شارع ضيق مرصوف بالحصى.

قال: «لن نقطع حبل صداقتنا، لا الآن ولا أبدًا».

تعانقنا، وضرب أحدنا ظهر الآخر، فتردَّد صدى تلك الضربات المعدنية على بيوتِ شارع مِيرد القديمة. أتذكَّر الاسم لأننا حين تعانقنا ارتفعت عيناي إلى الطوب الأسود المبنيّ بإتقان ولم يكن يفصل بين الطوبة والأخرى سوى خطٌّ طيني أبيض رفيع، ففكَّرتُ في جمال الطوب وحفظت اسم الشارع. ذلك اليوم وفي الصباح الذي تلاه، في تلك الساعات الثمينة قبل أن يتغير كل شيء، كنت مقتنعًا على نحوٍ غريب بأنني ينبغي أن أتذكَّر كل تفصيل. وها أنا أعود إلى شارع ميرد أنظر إلى الطوب نفسه.

بينما كنا نجوب شوارع سوهو الخلفية قال: «خبِّرني يا سيد خالد، يا ابن مدير المدرسة العظيم، يا خالد يا قارئ «مرتفعات وذرينج» وإيفان تورجنيف، خالد، الرجل الذي يعتقد أن الناس لو أكثروا من القراءة لكان العالم مكانًا أفضل، يا صديقي العزيز الحبيب، هل سبق أن زرت نادي عُزّي؟».

ضحكنا ودفع أحدنا الآخر.

ثم صاح بصوت مدوٍّ بالإنجليزية: «أيتها السيدات والسادة، إن خالد، ابن بنغازي الفخور، يوشك أن يهبط إلى العالم السفلي، فرفقًا به أيتها الملائكة». حاولت أن أغطِّي فمه.

بعد عدة منعطفات وقفنا، متردِّدَين كجاسوسين متوترين، أمام لافتة نِيون حمراء ساطعة الضوء كُتِب عليها «فتيات، فتيات، فتيات». عندما كنت صغيرًا في بنغازي، وأذهب إلى الصخور العالية برفقة الصبية، كان هناك دائمًا صبي يقفز للغطس أولا، دون مقدمات. لم يكن أمامنا خيار إلا أن نتبعه. انطلق مصطفى دون أن يقول شيئًا، نازلًا السلالم الضيقة. تبعته، ولم تكد تفصل بيننا خطوة. رجل بدا ناعسًا وضَجِرًا قاد كلًّا منًّا إلى حجيرة بحجم صندوق هاتف. لم أعرف ما كان ينبغي أن أفعل بعد ذلك. ضرب الرجل الباب بقبضته وصاح: «٥٠ بنسًا، في الفتحة»، وانصرف مُهَمهِمًا لنفسه. دفعت بالعملة فانفتحت نافذة صغيرة على امرأة عارية مستلقية على سرير دائري مغطًّى بساتان أحمر كحمرة الدم. كان السرير على منصة تدور ببطء. ضوء ساطع جعل جلد المرأة يبدو أبيض على نحو غير طبيعي. عندما توفي جدِّي وغسل أبي جسده وسألته بعد ذلك كيف بدا، كان الشيء الوحيد الذي قاله: هو أن جسد العجوز أصبح شاحبًا شحوبًا مروِّعًا. كانت المرأة تكلِّم شخصًا آخر، امرأةً أخرى تستريح في الظلال، ولمَّا كان السرير يدور أدارت رأسها إلى الاتجاه المعاكس، وفكَّرتُ في ماء يدوِّم في بالوعة.

قالت: «وماذا قال لكِ؟ يا للوقاحة الملعونة».

طيلة الوقت كانت يداها تعبثان بين ساقيها. عندما اقترب السرير مُكْمِلًا دورته وأصبحت تواجهني أخيرًا، رأيت على فكِّها الأيسر شامةً بُنِّية داكنة بحجم حبة كستناء، ورأيت أصابعها تفتح فَرْجَها عن آخره بالطريقة البيروقراطية التي قد تُظهِر بها جواز سفرك عند الحدود. بدا مثل مخلوق وحشي يتثاءب. كنت في الثامنة عشرة من عمري وكان ذلك أول عهدي برؤية امرأة عارية.

دون إنذار، انغلق الغطاء مثل مقصلة. خرجتُ وشكرتُ الرجل. لم يُجِب. ثم سمعتُ مصطفى يضحك خلفي مباشرة.

قال: «علامَ تشكره يلعن دينه؟».

عدنا إلى مطعم ماكدونالدز نفسه في شارع شِافتسبري وأكلنا آيس كريم. ثم صعدنا إلى غرفتنا واستلقى كلٌّ منًا على سريره، ودخَّنًا حتى نمنا.

١٥

تلك الليلة حلمت أحلامًا متقطِّعة. أحلام انتظار. أقف في طابور طويل عند حدود غير ودودة. أزجي الوقت قبل أن يفتح المخبز. ثم أكون في فناء مدرسة أبي، أجرُّ قدميَّ في طابور لا نهائي يلتف التفافًا لتسعه المساحة المحدودة، ومع كل التفاف كان يتقلَّص مثل زنبرك ساعة. مستحيلٌ أن أعرف أكنت أقترب من المقدمة أم ما زلت في المؤخرة. لا أدرك مغزى هذا كله إلَّا عندما أصل إلى رأس الطابور. حقن لقاح تحقنها ممرضة في ثوب أبيض هي امرأة نادي العُري نفسها. أعرفها من الشامة. هي وأنا نجلس وجها لوجه الآن. لا أستطيع إبعاد عينيَّ عن حبَّة الكستناء على فكها الأيسر. الحبَّة جميلة جمالًا غريبًا، البشرة هناك مخملية وناعمة. أفكِّر كيف أمدحها، لكنها عندئذ لا تتناول إبرة، بل مسدسًا فوهته ما تزال ساخنة بعد المريض السابق، وتضعها على صدري لا على ذراعي.

استيقظت ولم يكن مصطفى في الغرفة. غسلت وجهي ووقفت عند النافذة أنظر إلى الشارع تحتي. نصب بائع فاكهة كشكه وأخذ يقلب التفاح لتتجه سيقانه إلى الأعلى. رجال ونساء

ساروا في اتجاهات مختلفة، وهم في ثياب العمل، فذلك اليوم كان لهم، مثلما كان لي، كأي يوم آخر، مفتوحًا، مألوفًا، يشبه الأيام التي جاءت قبله وتلك التي ستأتي بعده، وهو مثير لألفته خصوصًا، ولجِدَّتِه وإمكانية التنبؤ به، غير مستكشَف ومعروف كذلك.

حينئذ لم يخطر ببالي أني سأعرف تلك الناحية من المدينة حق المعرفة، حتى إنني سأقضي أماسي لا حصر لها برفقة كاتب تلك القصة القصيرة الغامضة نشرب معًا في حانته المفضَّلة؛ فرنش هاوس، بشارع دِين، حيث قابل حسام، خلال سنته الأولى في لندن، الرسامَ العظيم فرانسيس بيكون. هذا جعل حسام كأنه كان ينتمي إلى زمن آخر، مع أنه لم يكبرني إلَّا بستة أعوام، إلى جانب كونه الليبي الذي كتب واحدة من أبدع ما قرأتُ من مجموعات القصص القصيرة، فقد ارتبط أيضًا ارتباطًا أسطوريًا بلندن، وخصوصًا منطقة سوهو. روى تاريخه الخاص به، وقصصًا لا يقلِّل الشكُّ فيها من فتنتها. زعم، مثلًا، أن كارل ماركس الذي عاش في المبنى رقم ٣٠ بشارع دِين، كما هو معلوم، كان يحيا حياة أخرى سِرِّيَّة في شارع فرِيث الموازي حيث كانت له خليلة، وأن شَطرًا كبيرًا من الأيام الطويلة التي قيل إن الفيلسوف الألماني عاشها في غرفة القراءة في بلومزبيري وهو يعمل بجِدّ مؤلفًا نظرياته الراسخة، كان في الواقع يقضيه في ذلك المنزل الآخر. حينما سألت حسام عن مصدر كلامه ردَّ قائلًا: «أخبرني بروفيسور في جامعة ترينيتي».

«نعم، لكن هل قرأت ذلك مكتوبًا في مكان ما؟».

«لا، غير أن بعض الأمور تحمل حقيقتها بداخلها، أعني أنه مفهومٌ جدًّا أن يحيا الرجل حياة بديلة حين يكون مشغولًا جدًّا بإيجاد وسيلة بديلة لتنظيم المجتمع والاقتصاد، أليس كذلك؟ الأمر يعجبني أيضًا. أحب أن أتخيَّله وهو يروح ويجيء بين الحياتين. وعلى كل حال، ألا يُلْمِح نثره إلى هذا؟ لا أقصد أنه مراوغ بالضرورة، إنما هو نثرٌ يتجنب بلا انقطاع شيئًا ليصل إلى شيء آخر...».

لأنني لم أقرأ ماركس، لم أعرف ما كان يقصد. إلَّا أنني قرأت جوزيف كونراد وقرأته بتمعُّن. لذا فقد أثار اهتمامي أكثر لمَّا قال مرة، ونحن نمشي في شارع بِيك: «ألم أُطلعك على هذا؟» وانطلق في زقاق ضيق لا يكاد عرضه يسع رجلًا مستلقيًا. وقد حمل اسم شارع كينجلي الذي كان في غير محلِّه.

«هنا»، قال وعبر إلى الطرف الآخر. «لا، بل هنا، نعم، هو ذا، حيث ذات ليلة في ساعة متأخرة جدًّا، ظن جوزيف كونراد أن جاسوسًا روسيًّا كان يتعقَّبه فأخرج سكِّينه من جيبه واختبأ مترصِّدًا. وحالما ظهر مطارِدُه تسلَّل كونراد من ورائه وقطع حنجرته».

كانت القصة بعيدة الاحتمال حتى إنها لم تستحق الاهتمام، لكن أكثر ما أتذكره هو الحماسة الغريبة التي غلبت على حسام عندئذ.

تابع قائلًا: «ربما لهذا السبب انتقل كونراد بعد هذه الحادثة بمدة قصيرة ـ بالرغم من وجود جميع أصدقائه في لندن، وبالرغم

من طموحه الأدبي المشتعل - إلى الريف حيث كان يستطيع أن ينظر من نافذته ويرى من بعيد إن كان هناك عدوٌّ يقترب».

دار مفتاح في باب غرفة الفندق فدخل مصطفى حاملًا كوبَيْ قهوة وشطائر بيض. أكلنا واقفَين ثم شربنا القهوة ودخَّنَّا سيجارة عند النافذة. جرَّبنا القناعين أمام المرآة. حتى أنا نفسي لن أستطيع معرفة أن ذلك هو أنا. دسستُ القناع في الجيب الخلفي ببنطالي الجينز تاركًا نصفه يتدلَّى خارج الجيب. وحذا مصطفى حذوي. هكذا خرجنا.

عبرنا شارع شافتسبري دون انتظار إضاءة إشارة المرور. ضرب السائقون أبواق سياراتهم فضحكنا. سلَّمنا على الغرباء: «صباح الخير يا سيدي. وصباح الخير يا سيدتي». لم نكترث لتجاهل أكثرهم إيَّانا. كنا على وشك مباشرة شيء مهم. شهدتْ على ذلك سماءُ إبريل الزرقاءُ الصافية البهيَّة. كنت شاكرًا لوجود مصطفى وشاكرًا له أيضًا لأنه أقنعني بالمجيء. نظرت إليه وهو يسير إلى جانبي فرأيت رجلًا عرف ما أراد. وقد أردت كثيرًا أن أكون رجلًا يعرف ما يريد.

فكَّرت أن أروي له الحلم الذي رأيته ليلة البارحة. كان مصطفى مهتمًّا بالأحلام وأحبَّ محاولة تفسيرها. ذات مرة في إدنبره قال لي: «حين أتقدم في العمر وينتهي كل شيء، لا أريد أن أتكلَّم إلا عن ثلاثة أشياء: الأفكار والطعام والأحلام».

في كل خطوة أفسح العالمُ الطريقَ فاتحًا الدرب أمامنا، ومع ذلك فإن الشارع ـ بأعمدة الإنارة والسيارات والحافلات وواجهات المتاجر، ووجوه المارَّة، وجمال بعض النساء وحسم بعض الرجال ـ جعل اليوم يبدو كأنه يحمل تحذيرًا متردِّدًا: وهو أن كل الأيام من الآن فصاعدًا ستكون رهنًا بهذا اليوم، وأن هذا اليوم، أكثر من أي يوم آخر، هو بداية المستقبل. وهكذا، فوق إحساسي الخفيّ بالتوجس، شعرت بأملٍ غضٍّ أيضًا، بتفاؤلٍ عنيف بأن كل شيء كان ممكنًا. لقد أثارني ذلك وأخافني.

الليلة، وأنا أمشي في شوارع سوهو نفسها أتمنى لو أن شيئًا عثر بي. ما زلت أعتقد أنني لو قاطعتُ اندفاعنا فحسب، وتوقفت في مقهى أو على ناصية شارع، وأغمضت عينيَّ متجنبًا نور الشمس، أو رويت حلمي لمصطفى وسردت له تفاصيله، لربما كنا قد نجونا مما كان مقبلًا.

ألِجُ الحيَّ الصيني. هذا هو المكان الذي وجدنا فيه أنا ومصطفى أنفسنا في ذلك الصباح.

قال وهو ينظر إلى النشاط من حولنا: «بعد المظاهرة فلنأتِ إلى هنا».

ذكَّرته قائلًا: «لكن حافلتنا تغادر في الساعة الثالثة».

قال: «يلعن دين ذلك. فلنبقَ ليلة أخرى ونحتفل».

قلت له: «فكرة عظيمة»، وضحكنا ضحكًا قصيرًا حذرًا. ثم قلت: «لم آكل طعامًا صينيًا من قبل».

قال: «ولا أنا».

قلت: «باهي، رتبنا للعشاء إذًا. وعلينا ألا نبقى طويلًا في المظاهرة».

«لا، لا. دقائق فقط، نؤدي الواجب ونغرب عن المكان».

«بالضبط»، قلت وضحكنا مرة أخرى، بتعمُّد هذه المرة، لإخفاء ما كشفه ضحكنا آنفًا، مهما كان.

فجأة أصبحنا في ساحة لِستر. كل تلك الأماكن التي سمعنا بها. وقفنا ونظرنا حوالينا، متحمسين للأضواء، النشاط المتزايد، وحشٌ يستيقظ ويمدُّ أطرافه. لكننا كنا قد تأخرنا وعلينا المضيّ قُدُمًا. تكلمنا بسرعة عن خططنا للأصيل والمساء والليل واليوم التالي، وقلنا ذلك بصوت به مَسْحَة من جرأة. استفسرنا عن الاتجاه إلى ساحة سانت جيمس، لكننا بعد انعطافنا إلى أكثر من اتجاه لم نصل إلى هناك بعد. عندما سألنا في المرة التالية قيل لنا إنها في الاتجاه المعاكس. تفاءلتُ. ربما لن نجدها أبدًا، أو أننا سنصل إلى هناك بعد المظاهرة. تخيَّلت أننا بعد سنوات سنتذكر كيف أخلصنا النيَّة لكننا أضعنا الطريق لقلة معرفتنا بالمدينة. وتخيَّلتُ نفسي أصفُ الشابَّين صغيري السن، اللذين كنَّاهما، بالشجاعة وأقول هذه الكلمات: «للبراءة قلبٌ تحفُّهُ الأخطار»، ثم من فوري قرَّرت أنْ لا، خيرٌ أن أقول السذاجة: «للسذاجة قلبٌ تحفُّهُ الأخطار». إلَّا أننا عدنا إلى هيماركت حيث البقعة نفسها التي أنزلتنا فيها الحافلة الليلة الفائتة. انعطفنا

إلى شارع تشارلز الثاني، وقطعنا شارع ريجنت ستريت سانت جيمس. من هناك استطعنا أن نرى الأشجار السامقة في وسط ساحة سانت جيمس. الليلة، وأنا أدخل الساحة من الاتجاه نفسه، أرى قمم الأشجار نفسها ترتعد في سواد السماء. غير أنها في ذلك اليوم كانت ساكنة سكونًا تامًّا أوقع في النفس الخوف، كأن أغصانها لم تتحرَّك قطُّ ولم تُخلَق لتتحرَّك. سمعنا صدى الهتاف يتردَّد بين المباني الحجرية. توقَّف مصطفى، واجهني، وكلصين قلقين لبسنا قناعينا.

١٦

كانت المظاهرة أكبر مما توقعتُ. بدت صلبة وعصيَّة على الاختراق كجدار من طوب.

«انظر، ألم أقل لك؟»، قال مصطفى وفي صوته رجفة، مشيرًا إلى أن جميع المتظاهرين كانوا يضعون أقنعة.

كان هناك العديد من الصحفيين حاضرين، وقد نُصِبَت كاميراتهم التلفزيونية ووُجِّهت نحو الحشد. تساءلت لماذا كانوا هناك. فليبيا، على كل حال، بلاد صغيرة. من يهتم بحفنة من طلاب يتظاهرون أمام سفارتها بلندن؟

أمسك مصطفى بذراعي وسحبني. أتذكَّر عندما قلت في نفسي إنه ينبغي أن يهدأ، يجب أن أقول له أن يهدأ. بدأ متظاهر من المتظاهرين المقنَّعين بالتوجه نحونا. أوحت مشيته برغبة في المواجهة كمن يترقَّب عراكًا.

صاح وسط الضجيج: «أحسنتم يا إخوتي بالمجيء».

أجاب مصطفى مغلِّظًا لهجته البنغازية: «هذا واجبنا».

لكن الرجل بقيَ هناك، عيناه تحدِّقان إليَّ الآن.

قلت: «نعم. واجبنا».

صافَحَنا بقوة وقادنا إلى أكداس لافتات على الرصيف. اخترنا شعاراتنا وشققنا طريقنا في الحشد. لم يعرقلنا الزحام، وسرعان ما وجدنا نفسينا واقفَين عند الحواجز. فكَّرت أنه من الغريب أن نشعر بالحاجة إلى إثبات التزامنا، إذ لا أحد يستطيع التَّعرُّف إلينا ليلومنا على تأخرنا أو يتهمنا بفتور الهمَّة. كان اسمانا محميَّين. لكنني لا أعتقد أنني شعرت بمثل هذا التضامن من قبل ولا من بعد. في الحشد، تلاشت الاختلافات بيننا جميعًا. أذكر كم رغبت في أن أعيش حياة أقرب إلى هذه الحياة.

اجتمع رجال شرطة في المتَّسع الذي كان بيننا وبين مبنى السفارة. كانت بينهم امرأة. أذكر دهشتي لصغر سنها. فكرت أنها كانت في مثل عمرنا تقريبًا.

هتفنا شعاراتنا بالعربية هتافًا متقطِّعًا وبصوت منخفض حتى تخيَّلت أن المتفرجين الإنجليز قد يظنون أننا نردِّد رثاء جماعيًّا.

نظرت حولي ولم يكن مصطفى هناك. ابتعد ثلاثة صفوف أو أربعة إلى الخلف وهو يرفع بصره إلى المباني المحيطة. ناديته وسمعت الذعر في صوتي. اندفع خلال أجمة الحشود الكثيفة وجاء ووقف خلفي مباشرةً. للحظة لم أكن متيقنًا مما إذا كان ذلك هو حقًّا. وضع يده على كتفي، ربما ليتماسك أو ليُطمئنني. فكرتُ في أننا ينبغي أن ننصرف، ولأول مرة فكرت في ذلك نيابة عنه. انتقلت يده إلى أعلى ظهري، في الوسط بين عظمتي

الكتفين. تذكرت ما قاله لي عن تقلُّبات مزاج أبيه المظلمة. كيف كان وهو وصبي يجثم في مخبئه منصتًا إلى والده الذي يبحث عنه وأنفاسه تتصعَّد.

كانت نوافذ السفارة مغلقة وعلى زجاجها غير المستوي انعكست رؤوس أشجار أول الربيع الخضراء في الساحة وزرقة السماء انعكاسًا غير دقيق. كان ولبروك قد شرح لي هذا: أن الزجاج في الماضي لم يكن يُسْكَب في قوالب، بل يُلَفّ في هيئة صفائح فينتج عن ذلك سطح غير مستوٍ. وقف ثلاثة رجال على بعد خطوات خلف نافذة الطابق الأول. كانوا متشابهين وفي ثياب سوداء، بدت هيئاتهم كتماثيل ورقية. كانوا يضحكون. ثم اتضح أنهم لم يكونوا يضحكون، بل يتجادلون جدالًا شديدًا. عديدون ممن كانوا حولي لاحظوا ذلك. بعضهم قال بصوت منخفض: «يلعن دينهم!»، فأمدَّنا ذلك بثقة موحشة لم تلبث إلَّا قليلًا. بدأنا نتقلقل، ملتفِّين على أنفسنا في مكاننا. أبعد مصطفى يده عن ظهري ولفَّها حول ذراعي بقوة، فوق المرفق، وبدأ يقودني خلال الحشد المضطرب. لما التفتُ إليه لم أتعرَّف إلى عينيه. ضغطتني الأجساد من كل صوب. بدت رائحتها مألوفة. افترضتُ أن أمهاتهم هم أيضًا وضعن في حقائبهم قوارير ماء الزهر الصغيرة واللبان. وأنهم مثلي لم ترقهم تلك الروائح العتيقة ولم يتعطَّروا بها قطّ، لكنهم، مثلي أيضًا، حبًّا وشوقًا لأمهاتهم، دسُّوا العطور عميقًا بين ثيابهم في الخزائن، وشيئًا فشيئًا تخلَّلت رائحتُها الثيابَ والهواء حولها.

وقف الرجال الثلاثة خلف النافذة مباشرةً الآن، يحثُّ بعضهم بعضًا. أيًا كان ما يناقشونه فقد استحال تحدِّيًا. كانوا في مواجهتنا. حاول أحدهم فتح النافذة لكنها تعنَّتت. جرَّب الثاني فارتفع لوح النافذة السفلي شيئًا فشيئًا وبقيَ مفتوحًا. أخرجوا رؤوسهم وصاحوا لكن أصواتهم لم تكن مسموعة. اختفى أحدهم وعاد حاملًا شيئًا أسود وضخمًا. لم أعرف ما كان ذلك إلَّا لمَّا صوَّبه نحونا.

قال مصطفى وهو يهزُّ ذراعي: «لن يجرؤوا». ثم صاح بأعلى صوته للجميع حولنا: «الزموا أماكنكم!».

سخافة تلك الكلمات كانت كحجرٍ يسقط في ذهني. تموَّجت أفكاري وبدأت ركبتاي ترجفان. هزَّ مصطفى ذراعي مرة أخرى ولم أعرف إذا كان يريدنا أن ننصرف أم أنه كان يقول لي أن أتقدم.

«الزموا أماكنكم!» صاح مرة أخرى، لكن صوته هذه المرة بدا مثل سلك مشدود يوشك أن ينقطع.

أردت إغلاق نفسي. كنت بيتًا تُرِكَ بابه مفتوحًا على مصراعيه. فكرت في الارتماء على الأرض، وإن لم يفلت مصطفى يدي فسأسحبه معي زاحفًا بين غابة الأقدام غير آبه بما في ذلك من عار. لُمْتُهُ لأنه كان المانع الوحيد، الوحيد الذي سيعرف الوجه وراء القناع. سحبته إليَّ وصحت في أذنه: «اكتفيتُ من هذا الهراء»، لكن بعد ذلك، قبل أن يجيب، سمعتُ صوتي يصرخ

باسم بلادي صراخًا أعلى مما تخيَّلت يومًا، مرارًا وتكرارًا. أفلت مصطفى ذراعي وصاح هو الآخر. كذلك فعل الآخرون، وبتلك الروح المشتركة، الغامضة كحركة سرب أسماك أو كشقشقة زرازير، أصبحنا جمهورًا متآلفًا، متحمِّسًا، ومتسق الإيقاع.

قسَّمنا اسم «ليبيا» إلى ثلاثة مقاطع هتفنا بها بصوت متقطِّع وسريع. كان أحد جزئي الاسم أسود والآخر أبيض، أحدهما صلب والآخر هوائي. أضفنا ألِفًا لم تكد تُسمَع في بداية المقطع وفي نهايته أضفنا زفرة «آه» أيضًا. بهذه الطريقة، كانت الكلمة تنتهي قبل أن تتجدَّد مرة أخرى: أ-لي-بي-آه، أ-لي-بي-آه... كان الاسم يشعّ أكثر ويغدو أكثر حرية كلما ردَّدناه. لكن، حتى لمَّا كان الهتاف يهزّ جسدي، تساءلت إن كان ما نقوله لا يشبه كلمة «ليبيا» بتاتًا للشرطة والصحفيين المجتمعين، بل يشبه كلمة «أليبي alibi» الإنجليزية للدلالة على البراءة. ولعلّنا تعمَّدنا دمج الكلمتين لأننا، في تلك اللحظة، فهمنا بأوضح مما فهمنا من قبل، أن كلَّ واحد منَّا عاش حياة كانت في أمسّ الحاجة إلى ما يثبت صحتها.

واصلنا الهتاف، وكان مصطفى عندئذ، بفمه المفتوح وعينيه المغمضتين، أغرب مما كان. لم أكن على يقين من معرفتي بالرجل الذي كان خلف القناع، ومما إذا كان هو نفسه مَن مشيت معه إلى هنا منذ لحظات فقط، نضع الخطط للمساء. محالٌ أن تثق بشخص لا تستطيع أن ترى وجهه، حتى الشخص الذي تعرفه حق المعرفة، ربما خصوصًا الشخص الذي تعرفه حق المعرفة.

ولا بد أنه من الأسهل إلحاق الأذى على هذا النحو، إذا أراد شخص إيذاء آخر، أو إصابته أو إنهاء حياته، فكلما قلَّت معرفته بوجه الآخر كان ذلك أفضل. الوجوه تُعَقِّد الأشياء. فجأةً بدا أن الأقنعة تعرِّضنا لخطر أعظم. ينبغي أن نخلعها. ينبغي أن نخلعها ونركض.

أصبح واضحًا للجميع أن الشيء الأسود الذي تصارع عليه الرجال خلف النافذة كان رشَّاشًا. رفعوه وصاحوا بنا. كان الهواء نقيًّا والرؤية واضحة، فمع أن حواجز الشرطة أبعدتنا نحو ستين قدمًا عن باب السفارة الأمامي، استطعت رؤية أوردة الرجال المنتفخة حول أعناقهم وهم يصرخون متكئين على حافة النافذة. غير أن صراخهم لم يُجْدِ نفعًا: لم يستطيعوا مضاهاة أصواتنا. بدأ اثنان منهم يتصارعان على الرَّشَّاش. راقبهما الثالث ثم انتزعه منهما. كلُّ ما فكرت فيه حينئذٍ هو: مستحيل، ليس هنا، ليس في لندن، ليس أمام هؤلاء الناس جميعًا. وقفت ذاهلًا غير مصدِّق، عاجزًا عن الحركة.

ضجَّ صوت الرصاص. حتى ذلك الحين، ظننتُ أنهم، بلا شك، يحاولون إخافتنا فحسب، مطلقين الرصاص في الهواء. إلَّا أن الصوت عينه ـ صوت تمزيقٍ متلاحقٍ كصوت الريح حين تمزِّق أشرعةً ـ لم يبدُ مهيبًا حقًّا. ما أثَّر فيَّ حقًّا كان الإحساس. لقد كبس عليَّ ثم سرى فيَّ بقوة لا هدنة فيها، لا جدال فيها، حتى بلغ وسط دماغي تمامًا وتوقف هناك لحظةً قبل أن ينقلب على عقبيه ويحترق

متجهًا إلى الخارج، دافعًا معه كلَّ ما كنتُهُ، كلَّ ما لم أعرف حتى أنني كنته، إلى أقصى الحدود. في تلك اللحظة، أصبحت فارغًا وواقفًا، حياتي تضاءلت حتى صارت خطًّا واحدًا ملتفًا في هيئة دُوَّامة داخل كرة طفلٍ زجاجيَّة. وحينها تدحرجت خارجةً، تلك الكرة، تدحرجت مني، آخذةً معها كل شيء.

١٧

لا بد أن وعيي غاب ثواني فقط، لأنني لمَّا فتحت عينيَّ كانت الفوضى مستمرة. نهضت من الأسفلت. كانت نافذة السفارة خالية الآن. فكرت أنهم ذهبوا لجلب مزيد من الذخيرة. تراكض الناس في جميع الجهات. مَن بقيَ منهم كان على الأرض. رأيت مصطفى بينهم، يبعد بضع أقدام. كان يقبض بطنه بيديه. من بين أصابعه الشاحبة سال سائل داكن كالدِّبْس. لم أستطع تصديق ما يجري. كنت أرى حيلة تخدع بصري. نظرت إليه دون أن أتحرَّك أو يحرِّكني أحد. شرطي كان يصيح يائسًا. بقربه رقدت تلك الشرطية الشابة كومةً داكنة. عندئذ تذكرت سماعي جسدها يرتطم بالأرض. كان وقع الارتطام كصوت شجرة تُقطَع في غابة، طفل يقع من السرير. نظرت مرة أخرى إلى مصطفى، ثم، دون أن أعرف إلى أين أذهب، بدأت أمشي.

تجلَّت ذكرى كادت تُنسى، إثارة أن يكون مصيرك مجهولًا في مدينة: بنغازي، إدنبره. شعرت بهذا في ذلك الصباح أيضًا لمَّا استيقظت وحيدًا في الفندق، ولحظةً سألت نفسي إن كان

مصطفى قد ذهب إلى المظاهرة من دوني. وسرعان ما تراجع الشعور بعيدًا متلاشيًا في الأفق، كطفل سبح بعيدًا حتى بلغ لجَّة البحر. كان جسدي باردًا. حرارة عنيفة جاشت في صدري. كان قد شُقَّ مفتوحًا والألم يتعاظم. خلفي السماء صافية كما كانت من قبل. لم تتحرَّك الأشجار، كأنما نأت بنفسها عما كان يحدث. قلت لنفسي: ما هذا إلَّا خَدْش، وتابعت المشي واضعًا رجلًا أمام الأخرى حتى وصلت الشارع الجانبي الصغير الذي يتجه شمالًا خارج الساحة. كأنَّ دثارًا أُلقِي على نار، خمدت الضوضاء. فكَّرت في هنري - البروفيسور ولبروك - وفكَّرت فيه أول مرة باسمه الأول مستذكِرًا ما قاله لي في الحانة عندما سألته عن لندن: «إنها، على خيلائها مدينة خجلى، ابتدعها مؤوِّلون - وابتُدِعَت لهم - مولعون بالفُرُوق والحواجز، فبين شارع وآخر يمكن إعادة تشكيل العالم بأسره».

كان هناك مجرى تصريف في الشارع، بحجم رسالة، ذو شبكة معدنية دقيقة ممتدة في خطوط. جلست قريبًا منه على الرصيف. أرسلت ناظري إلى الحفرة وتخيَّلت شبكة أنفاق طويلة ومقفرة تمتد من هنا إلى المدينة كلها، خارطة سرِّيَّة، تهمهم بحياتها المكتومة كلما هطل المطر. ما كان ذلك خدشًا. رأيت دمي يجتمع في بركة سوداء. خفتُ وخجِلت كأنني بلتُ في ثوبي فجأة. كان الجرح الذي أصاب صدري يقع أعلى بطني بقليل، جهة اليمين. فزعتُ من مرأى القتامة الكثيفة التي كان دمي يضرِّج بها قميصي. كأن شيئًا كان يأكلني

من الداخل. شقَّ عليَّ الجلوس باعتدال. كان الشارع ما يزال خاويًا. حاولت النظر إلى مكان آخر، إلى المبنى المقابل. استقرت عيناي على نافذة كبيرة في الطابق الأول. كان زجاجها قد نُظِّف حديثًا. ثم، ما إن ظننت أن الغرفة كانت خالية حتى لمحتُ رجلًا بالداخل متكئًا على إطار النافذة وينظر إليَّ مباشرة. بدا أنه كان واقفًا هناك طوال الوقت يراقبني من وراء الزجاج. وحتى عندما تلاقت عيوننا لم يتحرك. لم يعبِّر وجهه عن أي شعور، لا عن غضب ولا عن شفقة. ثم شعرت بيدٍ على كتفي. لم أرَ من الرجل المقرفص بقربي إلا ركبتيه القويتين. كانتا تضغطان بنطاله الصوف داكن الزرقة.

سألني: «أنت بخير يا بُنَيّ؟».

بدأتُ أبكي ثم توقفت فورًا لأن الألم في رئتيَّ كان لا يطاق. سقطتُ للأمام. من خلفي وضع يديه تحت إبطيَّ ورفعني. سمعته يتنفَّس بمشقة.

«أنت بخير يا بُنَيّ»، قال، ولم يكن قوله هذه المرة سؤالًا.

همستُ: «النار»، وكان ذلك كل ما استطعت قوله.

رأيت كُمَّ قميصه ملطَّخًا بدمي.

قال الرجل متحدثًا بلطف قرب أذني اليسرى: «سيارات الإسعاف في الطريق. ستصل قريبًا يا بُنَيّ».

في لحظة مضطربة، ربما لأنه دعاني « بُنَيّ»، توهَّمتُ أن شيئًا من أبي قد جاء إليَّ في هذا الرجل من خلال أُخُوَّة بني البشر الغامضة. أوشكت على البكاء مرة أخرى.

آخرون بدأوا يملؤون الشارع الجانبي. متظاهرون مصابون استلقوا على الأسفلت، يئنون أنينًا متهدِّجًا كأنين المرتاب. هُرِع رجال من الشرطة وآخرون يرتدون ملابس مدنيَّة. مال الرجل الذي كان خلفي إلى الوراء فاسترخى رأسي على صدره. خلف نافذة المبنى الهادئ الواقع مقابل الطريق، كان الرجل ما يزال هناك مراقبًا المشهد من الأعلى. استطعت سماع صوت طائرة مروحيَّة تحلِّق فوقنا. شقَّ عليَّ التنفس. كان الأسوأ من ذلك أنني لم أشعر برغبة في التنفس. أصبح التنفس يقتضي نوعًا من الإيمان.

«ستصل في أي وقت الآن»، قال الرجل مرة أخرى كأنه يواسي طفلًا. «هل أخلع القناع عن وجهك أيها الفتى؟».

هززتُ رأسي نافيًا ولم يسأل مرة أخرى.

ظهر مسعف ورفعني هو والرجل الذي كان خلفي على نقَّالة. لاحظت أن قريني، الرجل الذي سندني طيلة ذلك الوقت، كان شرطيًّا. لحظةً، مال وقرّب وجهه مباشرة أمام وجهي. فكرت أنه وجه غريب، أغرب وجه رأيته. لم تكن ملامحه مميزة. لم أكن متيقنًا إن كنت سأستطيع معرفته لو صادفته في الشارع. ومع ذلك، كان وجهًا يشبه كل الوجوه، ومنها وجهي، حتى إن استطعت أن أرى أنه لم يشبهني قطّ. فيه أيضًا رأيت أمي وأبي وسعاد. رأيت رنا ومصطفى والبروفيسور ولبروك، وأيقنتُ أن حسام زوة كان أيضًا فيه، مع أنني لم أكن قد التقيته بعد. رأيت الرجل الذي كان يبيع الصحف والحلوى خارج مدرستي القديمة في بنغازي. رأيت رفاق طفولتي. ثم رأيت وجوهًا أخرى لم أعرفها. بعضها كان قبيحًا

وبشعًا. ثم ظهر: الوجه الوحيد الذي هيمن على طفولتي، وجه القائد، الوجه الذي ألحَّ على أن يكون كلَّ الوجوه.

«هل يمكنني خلع هذا الآن؟»، قال الشرطي قاصدًا القناع.

هززت رأسي مرة أخرى وهمست: «أرجوك، لا».

لم أزل أسمع صوت مروحة الطائرة. ظللتُ أحتفظ بأمل العبور دون أن يكتشفني أحد، بأنني سأكون قادرًا على إكمال دراستي وأعود إلى الوطن. لن يعرف أحد أبدًا. سيتحدث الناس عن هذا اليوم وسأزعم أنني لا أكاد أعرف عنه شيئًا. سيقولون: «حقًا؟ وكيف فاتك ما حدث؟ تناقلته الأخبار كلها»، وسأقول لهم إنني كنت مشغولًا جدًّا بالدراسة، وإن المرء يلقى مشقة كبيرة في الدراسة بغير لغته، خصوصًا دراسة الأدب، حيث تكون اللغة، بطبيعة الحال، هي جوهر موضوع الدراسة، ولكل لغة نهرها، بمنبعه وبيئته ومَدِّه وجَزْرِهِ. سأقول لهم هذا كلَّه وأكرر أنه شغلٌ بالغ المشقة، فعليك العثور على روح ثقافة أخرى بداخلك ولكي تفعل ذلك ينبغي أن يموت جزء منك.

وضعوني في سيارة الإسعاف وصعد إليها الشرطي. سألني: «اسمك يا بني، واسم قريب لك هنا في بريطانيا؟».

«لا قريب لي هنا»، قلت ثم أعطيته أول اسم خطر ببالي: «رنا لمسي. طالبة هندسة معمارية. جامعة إدنبره».

«لمسي، كيف تتهجَّى ذلك؟» قال ثم أضاف من فوره: «لا بأس».

دون أن يسألني نزع المسعف القناع عني. نظر الشرطي إليه ثم إليَّ. ظلت عيناه على وجهي ثواني معدودة قبل خروجه من سيارة الإسعاف. قُبيْل إغلاق الباب سمعته يقول: «حظًّا سعيدًا يا بُنَيّ».

لم ألحظ أنني لم أكن وحدي إلَّا حين انطلقنا وبدأت صافرة الإنذار تدوِّي. كان هناك شخص آخر يرقد على نقالة إلى جانبي. كأنه كان يحدِّث نفسه. بدا صوته بعيدًا ثم قريبًا وعاليًا على نحوٍ لا يطاق. اتكأت على مرفقيَّ ورفعت رأسي فرأيت أنه كان مصطفى. هل عرفوا أننا جئنا معًا؟ كيف أمكنهم أن يعرفوا ذلك؟

صاح المسعف متوترًا: «يجب ألَّا تتحرَّك».

همستُ قائلًا: «أعرفه».

قال: «يجب ألَّا تتكلَّم. لقد أُصِبت بطلق ناري في صدرك»، معلنًا ذلك فوق رأسي تمامًا.

هو أيضًا كان شابًّا وربما خائفًا، لكن صوته المرتفع والمضطرب أزعج مصطفى الذي بدأ يصيح بشتائم متفرِّقة بالعربية: «يلعن دينهم، بلطجية، مجرمون...» عندما سكت ليسترد أنفاسه تهدَّج صوته وبكى وقال برفق كأنه يحدِّث نفسه: «أرِني وجهكِ يا أمي، تعالَي وجِديني، أبوس رجليك».

غشي الدمع عينيَّ. حينها أدركت أن وراء كل ما فكرت فيه وشعرت به، ليس فقط منذ إطلاق النار، بل منذ يوم ولادتي، وراء كل شيء كان اسم أمي حاضرًا. رأيت هيئة يدها مرة أخرى، وجنتَها، نهايةَ عنقها المرهفة القوية، حيث تبرز تَرْقُوَتاها. أقسم

أنني استطعت شمَّ عطرها. كانت هناك في سيارة الإسعاف بقربي. نظرتُ حوليَّ فضغط المسعف كتفيَّ ليثبِّتني. قال مكرِّرًا: «رجاء يا سيدي». انتشر الألم من صدري إلى كلِ عضو في جسدي. طغت سطوته المروِّعة حتى كان خلفي وقُدَّامي، يرتفع في الاتجاهين، وأنا أحاول التقاط أنفاسي بين الأمواج.

وصلنا، ودُفِعتُ بسرعة كبيرة في ممرات طويلة وكان رأسي في المقدِّمة. أشخاصٌ لا حصر لهم اصطفوا على الجانبين ونظروا إليَّ بعيون حازمة. ثم كنتُ وحدي، وقد بلغ الطريق منتهاه. ظهر رجل. بدا أصغر من أن يكون طبيبًا. لم أكن أرتدي إلَّا سترة مفتوحة، وقميصًا فضفاضًا تحته قميص تيشيرت، إلَّا أنه جاهد في خلع ثيابي. عاد ومعه مقصّ كبير بمقبض أصفر لامع، وبيدين شاحبتين مرتعشتين بدأ يقصُّ النسيج مردِّدًا طيلة الوقت كلمة «آسف»، وهو يتقدَّم ببطء إلى الأعلى. من حين لآخر، مسَّ الفولاذ الشديد البرودة جلدي، وعدا ذلك قام الطبيب بعمل جيد. عندما التقت عيوننا بدا خائفًا. راقبت وجهه وهو يرى جراحي. لن أنسى أبدًا ما جرى بعد ذلك. بين كل وقائع ذلك اليوم، كان هذا هو التفصيل الوحيد الذي لا أطيق التفكير فيه. منحنيًا فوقي، يده المرتعشة تمسك المقص المنفرج فوق صدري، التفت الطبيب الشاب إلى الجهة المقابلة وبدأ يصيح بأعلى صوته، «هنا». نادى بتلك الكلمة مرارًا وتكرارًا.

١٨

طوال السنوات التي تلت واقعة إطلاق النار لم أعد قطُّ إلى ساحة سانت جيمس. قد تعيش حياتك كلها في مدينة متجنبًا بعض أماكنها. لم أحضر أيًا من حفلات التأبين السنوية. في مرات قليلة عندما أكون في سيارة أجرة وهناك إمكانية أن يختار السائق المرور من هناك فإنني أطلب منه أن يتجنب ذلك الطريق. لكنني الليلة، بعد اثنتين وثلاثين سنة، والقطار الذي يقلُّ حسام قد يكون الآن في النفق تحت البحر، أجد نفسي هنا بإرادتي. ها هي الأشجار نفسها، ما تزال سامقة. وها هي البقعة حيث وقفت، المكان الذي فيه أُصِبت. غريبٌ أنني لا أتذكر ما كان مكتوبًا على اللافتة التي اخترتها من أكداس اللافتات. أطلقوا سراح الطلاب، يسقط الطاغية، الحرية أو الموت: أتذكَّر أن هذه كانت بعض الخيارات المعروضة. بين المتظاهر وشعاره بونٌ شاسع، تاريخ السياسة بأسره يقبع في تلك الفجوة. بعد أن شققنا طريقنا إلى مقدمة المظاهرة بوقت قصير، وضعت لافتتي عند حاجز السيطرة على الحشد وتركتها هناك، إذ لم أشعر بالحاجة إلى تفسير ما أقوم به. ثم فعل مصطفى ذلك أيضًا. ذلك التفصيل يدهشني اليوم.

أعتقد أنني لو قلت له حينئذ إنني ذاهب لَتَبِعَني، وغادرنا منعطفين عند زاوية الشارع، وخلعنا قناعينا واتفقنا على أننا قمنا بدورنا.

لمّا استفقت بعد العملية لم أستطع أن أشعر بأطرافي. لم أعرف أين كنت ولا كيف وصلت إلى هناك. ببطءٍ تذكّرت مسؤولًا في الحكومة الليبية يصيح في أذني قائلًا: «أتحسب أنك رجل؟ إذًا دعني أراك تخلع القناع». أصبحت مقتنعًا بأن الغرفة الخالية من النوافذ التي كنت فيها، غرفة كالحة وتطنُّ بأصوات الآلات، كانت في أعماق سجن من سجون طرابلس. غُشِيَ عليَّ تحت وطأة التحقيق، فلم يكن لهم خيار سوى التوقف والانتظار حتى يعود إليَّ وعيي. اعتقدت أنني كنت مذنبًا لكنني لم أستطع تذكُّر ما كان ذنبي، وقد أرعبني ذلك، لأنني أردت بشدَّة أن أكون قادرًا على الاعتراف. فكَّرت أنهم سيعودون، وكنت موقنًا بذلك كيقيني بأكثر مبادئ الحياة أساسيةً. لكن، ما هذه الحياة الآن؟ أين ذهبت؟ إنها قطعًا لا تنتمي إليَّ. ذكَّرت نفسي بأنني ما إن أصبح بحال جيدة، بما يكفي لأقف مرة أخرى، حتى تستمر الأسئلة. فكَّرت وفكَّرت وفكَّرت، نابشًا الصحراء طلبًا للماء، طلبًا لشيء أعطيهم إياه، قطرة دليل قد تستحيل قطرات بعد ذلك. وكان هذا ما أعاد إليَّ صورة دمي وهو يقطر في مجرى التصريف. بدأت أصعد، فقاعةً وحيدة ترتفع إلى السطح من حطام سفينة.

دخل طبيب وقال: «أهلًا فْرِد (Fred). يسرُّني أنك استيقظت. كيف حالك؟» أخبرني أنني أُصبتُ برصاصتين. قال: «بمسافة ليست بعيدة عن القلب. أنت شابٌّ محظوظ جدًّا يا فْرِد».

أردت أن أقول له إن اسمي ليس فْرِد ولذلك فإن كل ما قاله لي لا بدَّ أنه يقصد به رجلًا آخر. لكنني لم أستطع الكلام. لم يكن الأمر يتعلق بما قاله، بل بطريقة تبسُّمه، مما جعل الدموع تتجمَّع في عينيَّ.

إلى جانبه وقفت ممرضة. كانت جميلة، جميلة جدًّا حتى بدا أنها حقيقة مُخْتَلَقة، كأنها ممثِّلة جُلِبت لتمثِّل الدَّور. عندما خرج الطبيب لبثتْ هي لحظةً أطول. أردت أن أسألها سؤالًا. كان بالغ الأهمية، لكنني لم أستطع تحديده. لم يأتني إلَّا بعد خروجها. كان يتعلَّق بآرائنا في الرصاص، وبأنه كثيرًا ما يُصوَّر في الأفلام كهدايا، أوسمة شرف. يتلقَّى البطل أو الشرير طلقة فيتوقف الزمن. نتفرَّج عليه وهو يقبض جرحه أو يتلوَّى على الأرض أو يسقط سقوطًا مدويًا، من عُلُوٍّ شاهق من نافذة أو شرفة أو جسر، في نهر جارٍ. عاش حياته كلها ليبلغ هذه الذروة، هذه الخاتمة الصاخبة. ثم تمضي الأمور، أليس كذلك، أردت أن أقول للممرضة الجميلة، إن الحياة تستمر، أليس كذلك، تمامًا مثلما كانت من قبل. ظهرت الدموع مرة أخرى، وسالت هذه المرة. أردت أن أسأل الممرضة عمَّا حدث للشرطية، تلك التي كانت راقدة على جنبها على الأسفلت كأنما سُرِقت من نومها.

١٩

أصبحتُ فرد. أُطلِق علينا جميعًا أسماء وهمية وقيل لنا ألَّا نتسمَّى بغيرها، وألَّا نكشف هوياتنا الحقيقية أبدًا، وإن ذلك حفاظًا على سلامتنا. لمساعدتنا على تذكُّر الأسماء اختارت الشرطة أسماء قصيرة أحادية المقطع.

كان اسم الممرضة الحقيقي كلمنت. اسمها الأول كان ريتشل. بانقضاء الأيام واستعادة ذهني اتزانه، قلَّت إثارتها لدهشتي وإن جعلها هذا أشد جاذبية. عندما تكون متعبة أو منهكة من العمل تتلوَّن وجنتاها وشفتاها وأذناها بلون وردي عميق. كانت إذا ابتسمتْ ظهر معظم ذلك في عينيها. في بعض الأحيان، كانت تظن أني نائم فتدسّ ملاءتي في السرير برفق مثل طاهية ماهرة تُشرِّح سمكة.

كنت آخر من نُقِل إلى الجناح المخصص لتعافينا. ما إن ظهرتُ حتى صفَّق مصطفى والمرضى الآخرون، لكنَّ التصفيق بدأ ضعيفًا وسرعان ما تلاشى. كان هناك شرطي يجلس دائمًا في الداخل قرب الباب للحراسة، تارةً يقرأ صحيفة، وتارةً يحدِّق إلى نهاية الغرفة الطويلة أو ينظر إلى النوافذ المصطفة فوق رؤوسنا.

حين تنتهي نوبته ويأتي زميله ليجلس مكانه، يتبادل الاثنان بضع عبارات همسًا.

كان سريري أقرب الأسِرَّة إلى مكان جلوس الشرطي، في أول الجناح، وجاورني في الجانب الآخر مصطفى، عدا أنه أصبح الآن يُدعى توم.

لُفَّت أشيائي القليلة في كيس بلاستيك شفاف ووُضِعَ على المنضدة قرب السرير. ضمَّ محفظتي، ومذياع الجيب الصغير الذي أعطانيه أبي، ونسخة من مجلة «لندن رِفيو أوف بُكْس» اشتريتها بتفاؤل في أثناء طوافنا الدائري لبلوغ ساحة سانت جيمس صباح يوم المظاهرة. تلطَّخت زاوية واحدة فقط من محفظتي الجلدية البُنِّـيَّة. الغريب أن صفحات المجلة نجت دون أن يلحقها إلا شيء من التجعد الشديد. والمذياع الذي رافقني في رحلتي قادمًا من الوطن كان يعمل على أكمل وجه، وقد أضاء ضوء بطاريته بقوة وثبات.

قال مصطفى بالعربية: «حرصت على أن يضعوك هنا بقربي».

اقتربت إحدى الممرضات وتبسَّمت قائلة: «لم يتوقف صديقك عن السؤال عنك. أحيانًا كل ساعة. كاد يسبِّب لنا الجنون».

«لقد كانت أحد عشر يومًا طويلة»، قال لها مصطفى كأن أداء المستشفى خيَّب أمله. حين رأى وجهي قال: «ألم تعرف ذلك؟»

والحق أنني لم أعرف، لم أعرف أن الأمر طال هكذا. ظننت أنني وُضعت في العناية المركزة أربعة أيام أو خمسة على الأكثر.

لا أحد منّا كان يعرف الليبيين الستة الآخرين الذين كانوا في الجناح. كذلك لم يبدُ أنهم يعرفون بعضهم بعضًا. كان هناك حذر بيننا في البداية.

تبادلت ومصطفى الملاحظات عن إصاباتنا. تلقّى هو رصاصة في البطن واخترقته مباشرة دون ضرر بالغ. بدا بحال جيدة جدًّا وكانت معنوياته عالية. تساءلت عما إذا كان قد توقع حدوث شيء كهذا طوال الوقت، وأما الآن وقد حدث هذا وذهب، فقد شعر بالارتياح والتفاؤل قليلًا بأن الله قد نجّاه، أو لعله القدر أو الحظ أو أيًا كان ما يقرِّر حدوث هذه الأمور. كان سلوكه كلُّه مليئًا بتلك الحيوية المريرة التي يشعر بها بعض الأشخاص بعد نجاتهم من كارثة. كان البون شاسعًا بين ما أصبح عليه وبين آخر مرة لمّا رأيته في سيارة الإسعاف، وقد ضايقني ذلك.

قلت له: «كنت مجنونًا في سيارة الإسعاف».

«كيف عرفت؟» قال ونظر إليَّ بحيرة حقيقية في عينيه.

أخبرته أنني كنت هناك. قال إن ذلك لم يعد مهمًّا الآن. أراد بدلًا من ذلك أن يخبرني بما اكتشفه.

«بعد إطلاق النار كان هناك حصار داخل السفارة. دام عشرة أيام. أتصدّق ذلك؟ ثم، بحجة الحصانة الدبلوماسية، سمحت تاتشر للجميع بمغادرة البلاد، بمن في ذلك الأوغاد الذين أطلقوا علينا النيران».

«أعتقد أن ذلك منطقي»، قلت ولم تكن بي طاقة للغضب. لاحظت بهجة الممرضات وهن ينظرن إلينا ونحن نتكلم.

همس قائلًا: «يلعن دين الحصانة الدبلوماسية. ويلعن دين المرأة الحديدية». انتقل للجلوس على طرف سريري. «أطلقت النار على اثنيْ عشر شخصًا». وقبل أن أتمكن من قول أي شيء قال: «نعم! عليك أن تعرف الحقائق قبل أن تتكلَّم. أحد عشر ليبيًّا، جميعهم طلاب، ولكن لم يمت أحد، ولا واحد، أتصدّق هذا؟ دليل على أن الله يحمينا. أنا وأنت لقينا الأسوأ، أما البقية فكانت إصاباتهم خفيفة: خَدْشًا أو رصاصة في الساق أو الذراع، لا شيء خطير. بعضهم خرج في اليوم نفسه. إصاباتك يا صديقي كانت الأخطر».

سألته: «من كان الثاني عشر؟ قلتَ إن اثنيْ عشر شخصًا أطلقت عليهم النار».

«ألم يخبرك أحد؟» سأل بحماسة. «كانت تدعى إيفون فلتشر، شرطية، في الخامسة والعشرين من عمرها فقط. إنها مشيئة الله»، قال واضعًا يده على السرير إلى جانبي. «رحمة الله عليها. سقطت في معركتنا. بريئة تمامًا».

سألته: «ماذا تقول؟».

«ماتت بعد الواقعة بسويعات. شهيدة قضيتنا».

بعد صمتٍ قصير قال: «كان من الممكن، بسهولة، أن تكون أنت أو أنا».

الكلمات: «سقطت»، «معركة»، «بريئة»، «شهيدة»، «قدر»، «أنت»، «أنا»، تعثَّر بعضها ببعضها الآخر.

كانت لي كلماتي، شفرات ملأت فمي، قادرة على شقِّ لساني وقطعه. خفتُ من قولها وخفتُ من عدم قولها، وأيقنت أنها، ككل الأشياء التي لها عاقبة، لا يمكن تأجيلها ولا ادِّخارها للاستعمال في وقت لاحق. فكرت أنني إن أضعت الفرصة الآن، فسأضطر إلى حمل هذه الكلمات غير الملفوظة إلى الأبد. أصوات في الظلام.

هنا استسلم مصطفى قليلًا. كان هناك لطف جديد في عينيه. لعله كان يفكر في إدنبره واستطاع أن يحدس أنني أفكر فيها كذلك. لا بد أن أولئك الموجودين في جماعة بعثتنا الدراسية، خصوصًا «الأنتينا»، قد استنتجوا ما جرى. تخيَّلتهم يتحدثون عن الأمر في جوف الليل، يقلِّبونه بحماسة، يحرِّكهم مزيج من السُّخط والافتتان، ولعلَّهم، كمن يخشى نفاد ما يقول في المناسبات الاجتماعية فتنفرج أساريره إثر قيادة سيارته ببطء مارًّا بحادث سيارة، قد ارتاحوا سِرًّا لأنهم يعرفون شخصيًّا اثنين من المصابين. سيسعدهم سرد تفاصيل - إن استرجعنا الماضي - تكهَّنت بما حدث: حماستنا للقراءة، وأننا كنَّا من حزب الكتب، ودائمًا ما شوهدنا نمشي ونحن نحمل كتبًا، نتأبطها، وحتى في عطلة آخر الأسبوع كنَّا نُـرَى في المقاهي نقرأ، ولا نخرج في الليل أبدًا دون كتاب صغير مدسوس كسلاح في جيب سترة. سيقولون إننا كنا نخاف من الواقع. ومثلما يعلم الجميع، الإسراف

في القراءة قد يفسد اتزان العقل السليم، ويجعله يضلّ الطريق، وما إلى ذلك. تخيَّلت سعد: سيضطر إلى المشاركة في مثل هذه النقاشات المُدِينَة، إلَّا أنه لن يدلي فيها إلَّا بأقل القليل. كنت موقنًا بأنه لن يبوح بطلب مصطفى منه أن يدلّه على فندق، فذلك سيلقي عليه ظلال الشك هو الآخر.

قال مصطفى: «الواقعة تتداولها الأخبار كل يوم. طيلة الوقت تظهر تفاصيل جديدة. ما إن أُطلِقت علينا النار حتى أرسل القذافي جنودًا لمحاصرة السفارة البريطانية، وهدَّد باحتجاز المواطنين البريطانيين في ليبيا رهائن إذا لم يُسمَح لجميع موظفي السفارة هنا بالخروج من البلاد دون مساءلة. رضخت حكومة تاتشر. يأكلني القلق منذ ذلك الحين، وأفكر فيما تفكر فيه أنت الآن، أننا ما إن ننهض على أقدامنا حتى نُرحَّل إلى الوطن».

كانت قدرة مصطفى على قراءة عقلي عجيبة بقدر ما كانت حتمية. قلت لنفسي إنني يجب أن أضع حدودًا بيني وبينه، ليصعب عليه أن يقرأني.

«لكن لا تقلق، لن يمسسنا أحد. جاء ممثِّلان من منظمة العفو الدولية، رجل وامرأة، واستفسرتُ نيابة عنك أيضًا. قالا إن لكلينا حجة قوية للحصول على لجوء سياسي. قالا إن ذلك مضمون تقريبًا».

أغمضت عينيَّ.

قال: «استرح قليلًا»، وعاد إلى سريره.

٢٠

لا بُدَّ أن والديَّ قد سمعا بالأخبار، شاهداها في التلفاز. هل عرفاني من ثيابي؟ سيجنُّ جنونهما من شدة القلق. حتى ذلك الحين كنت أرسل إليهما بطاقة بريدية كل أسبوع. في رسالة من رسائلها كتبت أمي: «لقد أرسينا قاعدة، لا يجوز لأحد منَّا أن يقرأ رسائلك وحده ما لم نكن نحن الثلاثة جالسين جميعًا متراصِّين. بذلك لا يدَّعي أحدنا أنه أول أو آخر من قرأها» لِقَلبِ أمي حدسٌ صائب. مرةً في المدرسة وقعتُ على السلالم وجُرِحت شفتي السفلى. سال دم كثير وأُغمِيَ عليَّ. عندما أفقت كانت أمي هناك معي. لم يهاتفها أحد. كان لهذه المَلَكَة ثمنها. فقد عنت أن أمي تكاد تكون قلقة على الدوام. سمعتُ خالي أسامة، شقيقها الأصغر، يقول لها يومًا: «يجب أن تُرخي حبالك قليلًا»، فأجابته قائلة: «لا أستطيع»، وقالت ذلك بحزم مَشُوبٍ بشيء من الحسرة. كانت تستطيع، بلا سبب غير حدسها أو حاستها السادسة، أن تهاتف الجامعة تلك المهاتفة غالية الثمن، وتطلب أن أعاود مهاتفتها.

طلبتُ من الممرضة كلمنت أن تأتيني بأوراق وظروف. حاولت أن أكتب رسالة إلى أهلي. كل مرةٍ كان عقلي يعجز عن التفكير. ثم بعد حين عادت الممرضة كلمنت.

قالت: «يجدر بك أن تسرع وإلَّا فاتك البريد».

ستُختَم الرسالة بختم بريد لندن. كيف سأفسِّر ذلك؟ تحوَّلت إلى كتابة رسالة موجزة إلى رنا:

عزيزتي رنا،

أنا في مستشفى وستمنستر بلندن، لكنني بخير. سأحتاج إلى أن أبقى هنا طويلا بعض الشيء. لست متأكدًا كم من الوقت. ربما أسبوع آخر أو أسبوعان أو ثلاثة. من فضلك لا تخبري أحدًا. إلَّا البروفيسور ولبروك ربما، ولكن فقط إنْ سأل. وإن سأل وأخبرته، فاحرصي من فضلك على ألَّا يخبر أحدًا.

أشتاق إليك

خالد

أغلقتُ الظَّرْف وحاولت أن أكتم أنفاسي. رأيت الغُرَز مخيطةً على شكل حروف X تمتد في خطٍّ متذبذب لا ينقطع من أسفل الحلمة اليمنى ثم تلتف حول الخصر لتنقطع بوصاتٍ قليلةً قبل العمود الفقري. شعرت باشتدادها، مثل حبل مِن اللِّيف يصدر صريرًا وقد شُدَّ إلى منتهاه. حاولت أن أتنفَّس تنفُّسًا سطحيًّا قدر استطاعتي وانتظرت. عندما تلاشى ذلك الشعور، استأنف ذلك الألمُ الآخر، الأقل قابلية للفهم، سطوتَه: ضباب بارد ينتفخ في

الرئة. اليوم تعود نسخة منه بوطأة أقل إذا لم أحرص على ارتداء ثياب مناسبة في الطقس البارد. كانت الممرضة كلمنت مشغولة في الجهة الأخرى من الغرفة. جرَّبت الكتابة مرة أخرى:

أعزائي أمي وأبي وسعاد،

لندن جميلة. السماء غائمة الآن، لكنها قبل قليل كانت زرقاء كسماء بلادي. جئت مع صديق. عطلة قصيرة. ربما ليوم أو يومين. زرنا المتاحف وسنتعشى الليلة في الحي الصيني.

ليتكم هنا.

مع حبّي،

خالد

أعدت الكتابة حاذفًا السطر، «ليتكم هنا»، خشية أن يوحي ذلك بحاجة مُلِحَّة.

ما إن أُودِعَت الرسالتان البريد حتى ندمتُ على كتابتهما. كنَّا في الأصيل المتأخر، وبرفقٍ تسلَّل الضوء المعتم من النافذة الكبيرة التي كانت فوق رأسي. جلس الشرطي على بعد أقدام قليلة مني ووراءه أبواب الجناح المغلقة. تساءلت عمَّا يكمن في الجانب الآخر. من يعلم بوجودنا هنا؟ لا بد أنهم أعدُّوا قائمة بأسمائنا الحقيقية. لا بد أنها في مكان ما. من يستطيع الاطلاع عليها؟ هل تعلم السُلُطات الليبية أنني هنا؟

شغَّلتُ المذياع وقرَّبتُ سمَّاعته إلى أذنِي. عُدْ إلى الحاضر، ركِّز على صوت المذيعة، ابقَ هناك، استجمع كُلَّك وثبِّته هناك.

غير أن كل ما قالته تفلَّت مني. إلى أن سمعتها تلفظ باسم: «حسام زوة».

تابعت قائلة: «كان زميلنا الراحل محمد مصطفى رمضان من أوائل معجبيه. اليوم صدر كتاب السيد زوة الأول الذي طال انتظاره. بهذه المناسبة، ارتأينا أن نعيد على مسامعكم تسجيلًا نادرًا من أرشيف البي بي سي. لم يقرأ محمد مصطفى رمضان قصة السيد زوة في هذا البرنامج، بل إنه ـ بتصرُّفٍ مثير للإعجاب ـ قرأها عوضًا من نشرة الأخبار. أثار ذلك جدلًا كبيرًا. شيء كهذا لم يحدث من قبل ولا منذ ذلك الحين: عمل أدبي يُقرأ بدلًا من نشرة الأخبار. بُثَّت القراءة على الهواء منذ ما يزيد على أربع سنوات بقليل. بعد ذلك بشهر اغتُيل زميلنا الحبيب بوحشية. يُعتَقد أنه قُتِل بأمرٍ من الحكومة الليبية ـ وإن لم يُثبَت ذلك قطٌّ ـ التي يُسلَّط عليها الضوء الآن عقب الوقائع المذهلة التي حدثت قبل بضعة أسابيع في لندن، حيث أطلق مسلَّحٌ النار من داخل السفارة الليبية مصيبًا أحد عشر متظاهرًا وإيفون فلتشر، الشرطية البالغة من العمر خمسة وعشرين عامًا التي أصيبت بجروح بليغة ثم توفيت لاحقًا في المستشفى. عنوان القصة الذي أصبح عنوان المجموعة هو «الممنوح والمأخوذ».

مع أنني كنت أعلم أن مصطفى قد فاته البث أول مرة وطالما أسف على ذلك، ضغطت المذياع بقوة على أذني حتى لا يفلت منه صوت. بدا صوت محمد مصطفى رمضان مختلفًا، أصغر

مما تذكرته. أصغيت للقصة حيث كانت القطة، مرة أخرى، تلتهم البطل ببطء. لمَّا عادت المذيعة بدا صوتها متأثرًا بالقصة ومنزعجًا.

قالت: «والآن، سنكلّم الكاتب نفسه» لوَّحتُ لمصطفى فجاء وجلس قربي على حافة السرير. علَّيتُ الصوت ورفعت المذياع بيننا.

قالت المذيعة: «سيِّد زوة». وكان صوتها فرحًا. «زوة؟ حسام زوة؟» قال مصطفى وجعلني صوته المتحمِّس أندم لأنني لم أنادِه من قبل.

قالت المذيعة: «كيف حالك يا سيدي؟».

بعد تأخير قصير سمعناه يتكلَّم.

«نعم»، قال بنبرة بعيدة كأنما قاطعه أحد في غمرة تفكير.

جفلت المذيعة. كانت من توِّها قد أثنت على كتابه، لذا فمن لواضح أنها توقعت أكثر من كلمة واحدة، أو أن تُلفَظ الكلمة شيء من الألفة على الأقل.

«لقد ترقَّبنا كثيرًا صدور كتابك منذ أن عرَّفنا به صديقنا زميلنا، ابن بلدك، الراحل محمد مصطفى رمضان. والآن يُنشر كتابك في لحظة ليست بغير ذات صلة به، بعد وقت قصير من الأحداث العنيفة التي وقعت في ساحة سانت جيمس وأُصيب فيها أحد عشر شخصًا وفارقت شرطية الحياة. إننا متشوِّقون كثيرًا إلى السماع منك عن هذه الواقعة المروِّعة. أنت تعيش في لندن، ليس كذلك يا سيد زوة؟».

«نعم»، قال مرة أخرى، ولم يكد صوته يُسمَع هذه المرة. أكان يحادث شخصًا آخر؟

«وأعتقد أنك ومحمد يعرف أحدكما الآخر. أكنتما صديقين؟».

انتظرنا. كنت متيقّنًا أنه يوشك أن يبدأ الحديث متذكّرًا صديقه، الرجل الذي كان صوت شبابنا. سيذكر مقتله البشع على يد نظام القذافي، ثم سيقول شيئًا عن المظاهرة السِّلميَّة وإطلاق النار دون تمييز بأمرٍ من ذلك النظام عينه، «أمام مرأى العالم»، مثلما عبَّر أحد المذيعين. ثم سيذكر إيفون فلتشر. ظهرت صورتها بزي الشرطة، ملوَّنة، في عدد من الصحف: تضحك أكثر مما تبتسم، عيناها خجلتان ومرحتان، وجهها لا يتوقع حدوث مكروه. إنها في الغالب قد دُفِنت الآن، في مكان ما في هذه البلاد تصورته قريبًا من مكان عيش والديها. أردته أن يجمع حزننا كلَّه، منذ بداية الدكتاتورية في عام ١٩٦٩ حتى اليوم، ويعرضه للعالم ليراه. أردت أن يُقطَع الصمت، الصمت الذي لم يكتنف فقط الموت والسجن والإخفاء، بل أيضًا دقائق الأفعال من قسوة وإذلال، مما شاهدته، منذ زمن بعيد حسبما أتذكر، في كل شيء وكل شخص حولي - في العمارة، والأسفلت، ورغيف الخبز، وأصوات المغنِّين والشعراء - خصوصًا الشعراء. لم أعرف يومًا كيف أتحرَّر من هذا وأردت لهذا الكاتب أن يفعل ذلك نيابةً عنِّي. ما لم يتوقَّعه أيٌّ منَّا حينها، في إبريل ١٩٨٤ - وأنا مستلقٍ على ظهري في جناح تحرسه الشرطة بمستشفى وستمنستر، رافعًا المذياع، منتظرًا أن يتحدث

حسام زوة، ومصطفى جالس إلى جانبي، وقد مال عليَّ كثيرًا حتى شممت رائحته، تلك الرائحة القلقة التي كانت تفوح من أجسادنا في تلك الأيام كأننا غدونا رجلين مسنَّين ـ هو أن الخمس عشرة سنة من حكم الدكتاتور، الذي بأمره قُتِل محمد مصطفى رمضان وأُطلِقَت علينا النار، ستمتد إلى سبع وعشرين سنة أخرى ولن تنتهي إلَّا في عام ٢٠١١، في قصة درامية سيؤدي فيها الرجل الجالس قربي والرجل الصامت في المذياع أدوارًا جوهرية.

قالت مذيعة البي بي سي: «آلو؟ سيد زوة، هل أنت معنا؟».

وهكذا انتهت المقابلة. قيل إن السبب كان «عطلًا فنيًّا».

«جبان»، قال مصطفى بنبرة حاقدة وواضحة.

«تردُّد مفاجئ لا غير»، قلت، ولم يكن ذلك ما اعتقدته. لم أعرف ما كنت أعتقد. كل ما عرفته أنني كرهت تلك الكلمة «جبان»، وكرهت مصطفى لأنه قالها.

قال: «يا لها من فرصة ضيَّعها! نحن هنا مستلقون كجثث وهو عنده ميكروفون قُدَّام العالم».

قلت: «المهم أن الكتاب قد صدر».

٢١

كتبت عنوان الكتاب واسم الكاتب بالعربية وسألت الممرضة كلمنت إذا كانت تستطيع جلبه لي من المكتبة اللبنانية في شارع وستبورن جروف. قلت لها: «ولكن فقط إذا صادف وكنتِ في تلك المنطقة».

قالت: «المكتبة قريبة من المكان الذي أذهب إليه للسباحة. سأجلبه في عطلة نهاية الأسبوع».

أعطيتها المال لشرائه. ثم سألتها إن كانت قد ذاقت الطعام الصيني من قبل. قالت إنها ذاقته.

سألتها: «كيف وجدته؟».

«لا بأس به. لِمَ تسأل؟».

«فضول فقط. لم أجرِّبه من قبل. ما أطباقك المفضَّلة؟».

قالت: «طيب لنرَ. دجاجٌ حلوٌ حامض. أحب أيضًا تلك الأعشاب البحرية المقرمشة التي يعدُّونها». تبسَّمت عيناها مرة أخرى. «قريبًا ستجرِّب ذلك بنفسك».

سألتها عن ثيابي القديمة. ذهبت وكلَّمت الشرطي الذي كان يحرس الباب في ذلك اليوم وجاء ووقف بطوله الفارع عند سريري. أبلغني أن ثيابنا عند الطب الشرعي وستعاد إلينا كل قطعة في الوقت المناسب.

قلت: «من فضلك قل لهم أن يتخلصوا من ثيابي».

قال: «لا أستطيع فعل ذلك يا سيدي».

يوم الاثنين التالي جاءت الممرضة كلمنت بنسختين من «الممنوح والمأخوذ».

قالت وهي تناولني النسختين: «بهذه الطريقة تقرأ أنت وتوم في الوقت نفسه».

طيَّر إليها مصطفى قُبْلة في الهواء وقال: «أنتِ لستِ فقط أفضل ممرضة على وجه الكوكب، بل أكرمهن أيضًا».

كانت على الغلاف صورة غرفة بالأبيض والأسود. ولم ألحظ إلا بعد مرور ثوانٍ أن الظل المتحرك إلى خارج الإطار كان ظلَّ قِطّ. قرأ لي مصطفى بصوت عالٍ وأنا أتبعه. كلما توغلنا في الكتاب قلَّ تعليق مصطفى. وعندما قويت رئتاي بدأت أشارك في هذه القراءات.

جرَّبتُ أن أترجم للممرضة كلمنت القصةَ التي حملت عنوان الكتاب. في اليوم التالي قالت إنها قرأتها في المترو وقد أزعجتها.

ثم قالت: «لكنها يسيرة القراءة، ينبغي أن تترجم أكثر».

حاولت، وفي أثناء الترجمة بدأتُ أرى الجُمل حجراتٍ أو مخابئ صغيرة نُحِتَت في وجه الصفحة الأبيض. أماكن مناسبة للاختفاء. انقضى الوقت بسرعة، وكانت هناك لحظات خاطفة لكنها حلوة، نسيت فيها أين كنت. فكَّرتُ أنني حين أعود إلى حياتي - فقد كان هذا الأمل ما زال يراودني حينها - سأترجم الكتاب كلَّه.

حلَّ يوم جمعة آخر وكتبت إلى والديَّ مرة أخرى. كنت سأذكر الكتاب لكنني لم أفعل. أبلغتهما أني عدت إلى لندن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. «صادقتُ شخصًا جيدًا. اسمه فرِد. طالب في الجامعة. يعيش والداه في لندن. أخذتنا أمه لأكل الطعام الصيني مرة أخرى. هذه المرة أكلت دجاجًا حلوًا حامضًا وطبق أعشاب بحرية مقرمشة. كلاهما غريب ولذيذ. قضيت العشاء كلَّه أخبرهم عنكم وأصف بيتنا الجميل وبحرنا. وقال فرِد إنه متشوِّق إلى زيارتكم. غدًا سنذهب إلى المسرح».

تخيَّلت رسائل والديَّ متراكمةً في غرفتي الصغيرة في إدنبره. تخيَّلت ما فيها. ماذا لو أصابهم مكروه: يُعتقَل أبي لا لشيء إلَّا لأنه أبي، أو تسقط أختي وينكسر ضرسها، أو تنزلق أمي في الحمام؟ عندئذ ستكون رسائلي المختصرة والسعيدة من لندن عديمة الاكتراث وبلا إحساس. إلَّا أنني كنت أعلم كذلك أنني لا أستطيع إخبارهم بما حدث. كان ذلك خطرًا جدًّا علينا جميعًا.

بذلت جهدي لئلا أفكر فيهم وأمضيت معظم وقتي أقرأ «الممنوح والمأخوذ» وأعيد قراءته. كانت جميع القصص

الاثنتيْ عشرة، بطريقةٍ أو بأخرى، عن شخصيات قلقة غير مستقرة، وكالرجل الذي أكلته القطة كانت بريئة ومتورطة أيضًا في مصيرها. اليوم أجدني أقل انجذابًا إلى هذا النوع من الكتابة. يبدو مغرقًا في الرمزية ومولعًا بالتعميم الفلسفي. كل ما أبتغيه هذه الأيام أن أكون مع ما هو محدَّد. لاحظت هذا حتى في ذلك الحين، لكن صوت حسام اخترقني بعطف قوي. كان صوته مستقلًا استقلالًا طبيعيًا ولا إكراه فيه. لم يكن صوته في جانب السُّلطة قطّ. ولهذا وثقت بمزاج صوته وإن لم أثق كل الثقة بمنطقه.

في رسالتي التالية إلى والديَّ وأختي، حدَّثتهم عن «الممنوح والمأخوذ». قلت لهم: «إنه قربي وأنا أكتب»، ووصفت بعض قصص الكتاب الأخرى. أخبرتهم عن اهتمامي الجديد بالترجمة. أسعدني أن أكتب شيئًا صادقًا. ثم عدت إلى ادِّعائي: قلت لهم إنني عدت إلى لندن لقضاء عطلة نهاية أسبوع أخرى في بيت فِرد. عددتُ انطباعات مختلَقة عن المدينة. أتذكر لما رويت لهم عن نهر التيمز الذي لم أكن قد رأيته بعد، ووصفته ـ وصفًا جانب الصواب ـ بأنه صغير بحيث يمكن قطعه سباحةً.

وصل جواب رنا بعد رسالتي إليها بأربعة أيام. أخفيته في كتاب حسام ريثما أجد وقتًا هادئًا. في وقت مبكرٍ جدًا من صباح اليوم التالي، تدفقت أشعة الشمس إلى الداخل وترنَّم جناح المرضى الأبيض بنور اليوم الجديد. كان مصطفى والآخرون ما يزالون نائمين. بهدوء فتحتُ الظرف. كم أحببتُ الانثناء اللطيف لخطٍّ

يد رنا وحركته. إذ أشار إلى الإيقاع الخالي من الهم والعنيد لامرأة لا تخشى المقاطعة، واثقة بقدرتها على عرض قضيتها.

عزيزي خالد،

إنك تعرف حقًا كيف تقلقني. رأيتكَ في نشرة الأخبار المسائية ودارت الغرفة حولي. كنتُ على حافة إطار الشاشة، تتحرك كمَن يسير في نومه. اتصلتُ بكل المستشفيات في لندن. لم يؤكِّد أيٌّ منها شيئًا. آهٍ منكم أنتم الليبيين! نحن، على الأقل، نبقى صراعنا في البلد، أما أنتم فيطلق بعضكم النار على بعضكم الآخر في مدن أجنبية. لكن، لنتحدَّث بجِد، في لحظة تقول لي، يا رنا، فلنعالج أنفسنا من أوطاننا («نعالج»: تلك كانت الكلمة التي استعملتَها)، ثم في اللحظة التالية أكتشف أنك تخاطر بحياتك في سبيل وطنك. هل ذلك ما ظننت أنك تفعله؟ متى تخرج من المستشفى؟ سآتي لاصطحابك. يملك والداي شقة في نوتنج هِل جيت. إنها خالية دائمًا. بذلك تستطيع التركيز على التعافي. أنت مجنون ولا تُؤتَمَن على حياتك، لكنني شاكرة يا خالد، شاكرة جدًا. اكتب في القريب العاجل واقبل الدعوة وإلا جئتك بأكثر باقات الزهور بهرجةً وأحرجتك.

رنـا

ملحوظة: ربما من الأفضل ألا تأتي إلى هنا. أصدرت جماعة «طلاب إدنبره الليبيون» بيانًا يندد بالمتظاهرين واصفًا إياهم بـ«الخونة».

٢٢

في الأسبوع التالي، سُمِح بالزيارات. كان أول الزائرين ليبيًّا في منتصف العمر لم يعرفه أحد منَّا. أبلغتنا الشرطة أنه يملك تصريحًا أمنيًّا. لم نعرف ما عناه ذلك تحديدًا. كان يلبس بدلة أنيقة وربطة عنق. كان شعره الأشيب ممشوطًا إلى الوراء وشارباه الأسودان مشذبين تشذيبًا أنيقًا. لمعت وجنتاه بكريم ما بعد الحلاقة، وقد تبعته رائحة بنفسج خفيفة في أنحاء الغرفة. لم يخلعْ نظارته الشمسية. كانت صفراء اللون وجعلت عينيه تبدوان أحزنَ مما كانتا عليه ربما. رافقه مساعد تخلَّف خطوات وراءه ولم يقل كلمة. تنقَّل رئيسه من سرير إلى آخر وهو يتكلَّم بنبرة هادئة. عندما وصل عندي ومصطفى وقف بين سريرينا وعرَّف بنفسه. كان الاسم مألوفًا على نحوٍ غامض.

قال: «سمعت أن إصاباتك، خصوصًا، كانت بليغة».

أخبرته بالتفصيل عمَّا حدث، وفي أثناء حديثي، أدركت أنني لأول مرة كنت أصف الأحداث بصوت عالٍ. أصغى إليَّ، ولما فرغت لم يصرف نظره عني.

قال: «وجهك ليس غريبًا عليَّ».

كان حينها يقف قريبًا جدًا مني حتى إنني إن همست باسمي الحقيقي فلن يسمعه إلّا هو وربما مصطفى الذي كان ينظر إليّ، وربما أيضًا المساعد الذي وقف منتظرًا عند حافة السرير. فتحت فمي ولم يخرج شيء. جلس الرجل برفق على طرف سريري. لم أعد أشعر بأي تردد. نطقتُ باسمي كاملًا.

«أنت ابن المدير»، قال هامسًا، وأومأت برأسي، مع أنه لم يكن سؤالًا. قال: «كم أنت محظوظ وكم هو محظوظ!».

فجأة وقف مصطفى. كاد مساعد الرجل يتدخل لولا أن الرجل لوَّح له بالابتعاد.

«وما عرَّفك بأبيه؟» قال مصطفى هامسًا، والريبة بيِّنة في صوته، ثم استقرت عيناه على كتف سترة الرجل الوسيم.

قال الرجل لي: «عرفت أباك في الجامعة. لم نلتقِ منذ أعوام، لكنني أذكر خلقه الحسن وعقله الراجح. مؤرِّخ موهوب. هلّا أبلغته سلامي»، ثم أخفض صوته أكثر وتابع: «لكن لا تفعل ذلك إلّا حين تلقاه وجهًا لوجه، وسيكون ذلك قريبًا، إن شاء الله، ولا تنسَ أن تذكِّره بإعجابي به الذي يمتد الآن إلى ابنه الشجاع». ثم سألنا كلينا: «هل تحتاجان إلى شيء؟».

«هل نحتاج إلى شيء؟»، كرَّر مصطفى ساخرًا. «حسنًا، لنرَ. أريد أن تُعاد إليَّ حياتي».

خيَّم الصمت وقتًا قصيرًا قبل أن يودِّعنا الرجل، ومنذ ذلك الحين كثيرًا ما استرجعتُ الملامح الغريبة التي ارتسمت في وجهه

عندئذ. بدا شجاعًا ـ على ما في ذلك من غرابة ـ ومترددًا كذلك. العجيب أنني قلقت عليه مع أنني كنت أنا المُصاب.

كلَّم الممرضات، ثم توقف في طريقه للخروج وقال: «سعدت بلقائك أيها الشاب. وقد اتضح السبب الآن»، افترضتُ أنه يقصد سبب شعوره بأنني بدوتُ مألوفًا له. عدد من الآخرين لاحظوا الحديث الودي بيننا، ومنذ ذلك الحين، صاروا، ومعهم مصطفى، يُسَمُّون زائرنا: صديق فِرِد.

قال مصطفى: «بدلة أنيقة. إيطالية بالتأكيد».

وكان ذلك كل ما قاله عنه إلى أن وصلتْ، بعد أيام قليلة، طرودٌ لُفَّت بمناديل ورقية بيضاء تذكِّر بالأكفان. جلبها مساعدُ الرجل الذي، مرة أخرى دون أن يقول كلمة، وضع طردًا عند قدم كل سرير بعناية كبيرة وغادر.

بنطالا جينز، حذاء رياضي، قمصان تيشيرت، سراويل داخلية، جوارب، وسترة، إضافةً إلى ألف جنيه من فئة العشرة جنيهات لكل مُصاب. بمَ شعرت؟ بأني شاكر وخجلان. تلقِّي صَدَقة يشبه إفراغك من الهواء.

قال مصطفى: «يا تُرى ما المقابل الذي سيطلبه صديقك؟».

٢٣

انقضى نحو شهر منذ حادثة إطلاق النار، ومع أن الأطباء قالوا إنني أتعافى جيدًا، أرادوا إبقائي بضعة أيام أخرى لمراقبة رئتي اليمنى التي خسرت ٢٠ بالمئة من كتلتها بسبب الضرر الذي لحق بها من الرصاص. انتظرتُ. قرأت الأخبار كل يوم. أصبحت الصحف خالية تمامًا تقريبًا من قصة إطلاق النار. كذلك اختفى الكاتب حسام زوة. انقطع عن المقابلات ولم تظهر أي صورة له في أي مكان. حلَّ التكهُّن بهُويته محلَّ أي مناقشة لائقة بكتابه. لم يكن الآخرون في الجناح ممن تشغلهم الكتب وكان فضولهم لمعرفة «الممنوح والمأخوذ» فضولًا مبهمًا، لكن كاتبه فتنهم فبدأوا يجمعون أخباره بالقيل والقال. كانوا يهاتفون أصدقاءهم أو يسألونهم عندما يأتون للزيارة، وشيئًا فشيئًا، كحشائش تخنق ياسمينًا، أحاطت بالموضوع حكاياتٌ مبالغ فيها. حاولت التَّطوُّع بسرد شيء من الأخبار التي كشفها أبي عن آل زوة، لكنها بدت ـ حتى لمصطفى ـ عرضية ولا تثير الاهتمام كما تثيره الشائعات.

أعلن أحدهم أن الكاتب كان سجينًا سياسيًّا كتب كتابه كلَّه على ورق سجائر، وتمكَّن من وضع جملة أو جملتين فقط في كل ورقة. هذا، وفق مصطفى، لم يكن مستحيلًا. قال: «ألم يفعل الروائي المصري صنع الله إبراهيم الشيء نفسه؟ هذا بلا شك يفسِّر نثره الهزيل، وهذا ليس من طبعنا نحن العرب، فلنا والحق يقال عيوبٌ كثيرة، لكنَّ البؤس ليس منها».

زعمت قصة أخرى أن مؤلف الكتاب ـ الذي أصبح يصفه بعضهم الآن بأهم كتاب في الأدب العربي منذ «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح ـ كان ليبيًّا اعتنق الكاثوليكية ويعيش في دَيْر بضاحية من ضواحي لشبونة.

أفصح مصطفى قائلًا: «هذا مستبعد إلى حدٍّ أنه قد يكون صحيحًا. كذلك قد يلقي هذا ضوءًا على تلك القصة التي يصبح بطلها اللا أدريُّ مهووسًا بلوحة من القرون الوسطى للسيدة العذراء وطفلها».

تلك القصة المعنونة بـ«الزنديق»، تنتهي بتمزيق الرجل اللوحة ليدخل فيها، وبكلمتَيْ «أنا هنا».

زعمتْ نميمة أخرى أن حسام زوة هو الاسم المستعار لربَّة بيت من درنة في أعماق الجبل الأخضر، تلك المنطقة المرتفعة الخصبة في شمال شرق البلاد، التي تنحدر منها عائلة أمي، وكذلك آل زوة كما أخبرنا أبي.

قلت لمصطفى: «هذا يفسِّر الوصف الباهر للطبيعة في بعض القصص، ووصف الجبال والنباتات، وكيف يمتد البحر إلى ما بين الصخور».

وأخيرًا، كانت هناك الرواية الدقيقة، التي جذبت، في الحقيقة، أقل اهتمام، وهي أن المؤلف هو ابن سيدي رجب زوة الذي كان يومًا مستشارًا للملك إدريس ومقرَّبًا من وريث جلالة الملك، الأمير الحسن.

بعد بضعة أيام، جاءني مصطفى وقد غلبته الحماسة.

قال: «وصلتني أخبار توًّا. ظهر والد الكاتب على التلفاز، أدان ابنه ومدح القذافي».

قلت: «تقصد أنها شائعة».

قال: «لا، بل هو خبر. إنه أكيد تقريبًا».

تتجلَّى عبقرية الشائعات في قدرتها على التعايش والحقيقة معًا، إذ أمكنني في تلك الأيام، وأنا مستلقٍ أسيرَ قدري وأسيرَ الكتاب، أن أفكر في حسام زوة كسجين سياسي، ومتنسِّك اعتنق الكاثوليكية، وامرأة تكتب في الخفاء، وابن مغترب من أبناء أبرز العائلات ظهر أبوه توًّا مؤيدًا للدكتاتورية. أحد عشر عامًا لازمني جانبٌ غامض ومجرَّد لهذه الصورة المختلطة، إلى أن قابلت حسام وجهًا لوجه، وحتى حينئذ خيَّم بيننا ظل من اللا يقين مدةً من الزمان.

٢٤

بعد قضاء ستة أسابيع في المستشفى، تقرَّر أخيرًا أنني ومصطفى تعافينا بما يكفي للمغادرة. فجأةً أصبح لا مفر من السؤال عمّا سنفعله بعد ذلك. ناقشنا مرة أخرى إمكان العودة إلى إدنبره وانتهينا إلى النتيجة نفسها. كان له خالٌ في مانشستر.

قال: «أبلغته أنني سأحضر صديقًا لي».

«شكرًا لك، لكنني سأقيم هنا. عرضت رنا عليَّ شقة أهلها».

«هل يقيمون في لندن؟».

«لا، عندهم شقة هنا».

«ستكون وحدك هناك إذًا؟».

قلت: «نعم، أعتقد ذلك».

انتظر حتى الأصيل قبل أن يسألني: «أتعتقد أن صديقتك سيزعجها إن أقمت معك؟».

قلت: «أفضل ألا أسألها».

أردت أن أكون وحدي، أن أعيش دون شهودٍ يرونني ودون أن يشغلني التفكير بغيري.

في اليوم التالي كانت رنا تنتظر في الخارج. تظاهرتُ بأنني ما زلت أحزم أمتعتي ليسبقني مصطفى. بحذرٍ كتبَ على ورقةٍ عنوان خاله ورقم هاتفه.

«لا تضيِّعها».

قلت: «سأتصل بك حالما أستقر».

تعانقنا في الفجوة بين سريرينا.

قال: «سأنتظر اتصالك».

ثم ودَّع مَن كانوا في طور النقاهة. كان قد اشتهر بينهم في أثناء تلك المدة. جميعهم كشفوا أسماءهم الحقيقية لبعضهم بعضًا إلَّا أنا. تبادلوا أرقام الهواتف وتعاهدوا على التواصل. صافح مصطفى الممرضات ثم عاد إليَّ.

قال مرة أخرى: «سأنتظر اتصالك».

ثم غادر ملتفتًا مرةً أخيرة لينظر إليَّ.

بعد بضع دقائق، لمَّا أيقنت أنه قد ذهب، بدأتُ أتوتَّر. أصبحت الآن بلا صديقي في مدينة لا أعرف فيها أحدًا، أُصبتُ فيها بالرصاص. فكَّرتُ في اللحاق به إلى مانشستر. ثم تخيَّلت حياتنا هناك في بيت خاله وخالته، وكيف سنضطر إلى مقابلة ضيوفهما وفي كل مرة نعيد سرد قصة ما حدث. عندئذ سينتشر نبأ كوني من المصابين كالنار في الهشيم. وثقت بمصطفى. لن يبوح بشيء.

وفجأة شعرت بالحماسة. كنت على وشك اجتياز حدٍّ من الحدود، تركِ حياة وولوج حياة أخرى.

قبّلتْ الممرضة كلمنت وجنتيَّ، وهو ما لم أتوقّعه.

«اعتنِ بنفسك»، قالت وقد غلبتها العاطفة، وكرَّرت تعليماتها بالمداومة على تغيير ضمادة جراحي.

٢٥

وجدتُ رنا تقرأ مجلة «فوج» في صالة الانتظار، وقد بدت جميلة بنظارتها الشمسية السوداء وقميصها التيشيرت الأبيض، وبنطالها الجينز داكن اللون، وحذائها الجلد الكستنائي من نوع تشيلسي. كانت في عالم يخصُّها وحدها، وتساءلتُ كيف لي الآن أن أكون في عالم يخصُّني وحدي. ابتسمتْ وبدأت تمشي نحوي بيُسْر. إن رأيتنا فقد تعتقد أننا التقينا مصادفة فحسب.

«الجو جميلٌ في الخارج»، قالت وتأبَّطت ذراعي، وكانت كتفها اليمنى الرقيقة خلف كتفي اليسرى، حيث الجانب السليم مني.

خرجنا وكان هناك جزءٌ صغير مني لكنه متحمِّس، حَجَرٌ في الجمجمة، يريد الاستمرار في الالتفات للنظر ورائي. قاومت، وحينما عجزت تظاهرت بأن الفضول، فقط، راودني إزاء المكان الذي كنا فيه، فنظرت إلى بناية وراءنا وقلت كلامًا سخيفًا من قبيل: «يا لها من منطقة مثيرة للاهتمام!»، أو «لم أخرج منذ وقت طويل؛ لذا أجد من الجميل النظر إلى الأشياء فحسب».

كانت تعرف المكان جيدًا، فأخذتنا لنشق طريقنا في حيّ يملِكو، حتى صرنا فجأةً في كنجز رود. كانَ الشهرُ مايو، وكانت ذروة ربيع بديع، خِصْبٍ وأخضر. بكثافة تدلَّت الورود المتفتّحة من شجيراتها وفوق الأرصفة. امتلأت الأشجار بالأوراق وهمست كلما هبَّ عليها النسيم. وكانت أشجار الكستناء في أوج ازدهارها.

قالت رنا مبتهجة: «فلنتغدَّ. أعرف المكان المناسب».

وصلنا إليه: مطعم فرنسي صغير على ناصية شارع جانبي.

«هل نجلس في الخارج؟»، قالت ومن فورها طلبت من النادل أن نجلس إلى إحدى الطاولات على الرصيف.

كنت مقتنعًا بأنني مراقَب، وبذلت ما في وسعي لتجاهل الأمر، للتصرف كشخص مرتاح. قصدت الحمَّام ولما رأيت وجهي في المرآة ذُعِرت. كان ذلك وجهي، ومع ذلك، لم أستطع معرفته. ثم، كأنما في بركة مضطربة، استقرَّت ملامح وجهي وعادت إلى وضعها المعتاد وخفَّ الذُّعر.

بعد الغداء ركبنا الحافلة إلى نوتنج هِل جيت. أتذكَّر أن رنا كانت مليئة بالقصص، كلها كانت، بوجه أو بآخر، في مديح لندن: هنا فَعَلَتْ كذا وهناك فَعَلَتْ كذا، وبين مدن العالم كلِّها كانت هذه المدينة هي الأفضل لها.

في ذلك الحين، لم أستطع أن أفهم كيف يفكر المرء هكذا. بدا الأمر كلُّهُ غريبًا ولا مباليًا. كان غريبًا لأنني نشأت مسلِّمًا بأن المدينة

التي ولدتُ فيها هي المدينة التي سأُدفَن فيها. عشقتُ بنغازي. أحببتها حُبًا خاصًا، حُبًّا يشوبه نقصٌ على نحوٍ يائس، حيث يظهر أحيانًا الكُرْهُ أو الخذلان أو الحنين، ليسدَّ ثقوبه وكان لا مباليًا لأن حبًا كهذا الحب بدا أنه يجب أن يُحرَس، أنه عملٌ يستغرق حياةً كاملة.

لم تخلع رنا نظارتها وهي تتكلم. لم أعرف هذا حينها، لكن كل حديثها عن لندن هذا كان نتيجة التوتر. صديقها الذي أصيب بطلق ناري وانقلبت حياته رأسًا على عقب، لم يكن له أحدٌ سواها. ثم أخبرتني عن البروفيسور ولبروك وكيف فاجأها.

«جاء إلى شقتي بلا إنذار. ما زلت لا أعرف كيف عثر على عنواني. كان يسأل عنك».

سألتها: «ماذا قلتِ له؟».

قالت: «الحقيقة».

خزيٌ - بلى، خزي، ذاك كان الشعور - باردٌ، وغير محدَّد، وبلا نهاية كبحر بلا قمر. ثم رأيته بعين عقلي، وشعرت بشدة الجذب كذلك، حيث انقطع الحبل وضاعت المرساة في الأعماق.

قالت: «اتبعت تعليماتك. قلت له ألَّا يخبر أحدًا. ثم نظر إليَّ فعرفت أنه لم تكن هناك حاجة إلى قول ذلك له. سألني إن كنت سأراك وقبل أن أجيب قال: «إذا رأيتِه، أرجو أن تعطيه هذه؟». كانت قد بدأت بنبش جيبها، وقالت: «طواها أكثر من مرة مثلما تتلو

لمُسِّنات في بلادنا صلواتهن. أتفهم ما أقصد؟». وناولتني وريقة بحجم طابع بريد. «رجل غريب»، قالت وحاولت أن تضحك.

فضضتُ الوريقة وكانت أمامي ممتلئة بشبكة من التجاعيد. فورًا عرفت ورق مفكرته باهت الزرقة، المفكرة نفسها التي كان يكتب لي فيها عنوان كتاب أو لوحة أو فيلم أو قطعة موسيقية. أشاحت رنا ببصرها.

خالد،

أعتقد أنها كانت صديقتنا القديمة جِين رِيس مَن كتبت:

«لا بد من الخلفية المظلمة لإظهار الألوان المشرقة».

رقم هاتفي على ظهر الورقة. استعمله من فضلك.

أحرّ التحيات،

هنري

تذكَّرت لمَّا روى لي عن إعجابه بالطريقة التي كتبتْ بها الروائية الكاريبية عن لندن: «اعتصرتْ من غربتها أغنيةً حزينة ومريرة». إلَّا أنني لم أجد في السطر المقتبَس عزاءً بقدر ما وجدته نوعًا من الانتصار لهذه المدينة الحاضرة مترامية الأطراف التي كنت أراها خارج نافذة الحافلة التي تقلّني الآن. ولعل ولبروك ـ وهو واقف خارج باب شقة رنا ـ قد خمَّن العواقب، ففكَّر بسرعة في الآتي وقرَّر اختيار ما كنت أحتاج إليه.

٢٦

كانت الشقة تقع في الطابق العلوي لمنزل حُوِّلت غرفه إلى شقق. وقد نُظِّمَت الشقة في غرفة واحدة. وُضِع السرير في طرف والمطبخ في الطرف الآخر وبينهما أريكة وطاولة قهوة. كانت لجدارها نوافذ مائلة امتدت من ارتفاع الرُكبة إلى السقف وأطلَّت على أفنية المنازل المجاورة وأسطحها الهادئة. كان الطوب رماديًا وأسود، جاعلًا اللون الأخضر - حيثما ظهر - يبدو مضيئًا. على الحائط المقابل عُلِّقت صورٌ مؤطَّرة لمبانٍ.

قالت رنا: «مذهب الباوهاوس المعماري. أبي من أتباعه».

فكرتُ فيما قالته في الحافلة عن أن لندن هي مدينتها المفضَّلة، وأنها عالم يختار فيه المرء مكان عيشه ونمط المعمار الذي يشاء اتباعه، عالمٌ يكاد يخلو مما هو محلِّيّ، أو أن كل ما هو محلِّيّ قابل للنقل من مكان إلى آخر. كانت هناك أيضًا خارطة كبيرة يعود تاريخها إلى عام ١٨٣٥، يظهر فيها نهر التيمز متلوِّيًا كثعبان ضخم، وعلى ضفتيه الشمالية والجنوبية تنبسط لندن. كانت رنا تراقبني وأنا أراقب الخارطة. فكرت في أنني يجب أن أسألها

عن حالها. كيف أمضت الأسابيع الفائتة؟ خلعت نظارتها الشمسية وأخيرًا استطعت أن أرى عينيها.

سألتها: «أي يوم هو اليوم؟» وكان ذلك كأن أحدًا ضغط زر التشغيل. بدأنا نتحرك.

«الثلاثاء»، قالت وهي تتجه إلى المطبخ. صبَّت الماء في كأسين. «عليَّ أن أذهب. وإلَّا فاتني القطار. سأعود يوم الجمعة». نظرت صوب الأريكة. «ربما لقضاء عطلة نهاية الأسبوع؟».

قلت: «أحب ذلك».

«أما الآن فسأتركك لتستقر».

توادعنا، وانتظرتُ حتى وصلتْ الطابق السفلي وسمعتُ الباب الرئيس يُفتَح ويُغلَق. أوصدتُ باب الشقة وأحكمتُ سلسلة الباب. ثم سحبت الأريكة وأسندتها إلى الباب. لاحظتُ أن رنا قد اشترت مؤونة: حليبًا وخبزًا طازجيْن، وصنفيْن من الجبن، وطماطم وزيتونًا. تخيَّلتها تمضي رحلة الساعات الخمس على متن القطار القادم من إدنبره ذلك الصباح، تهيئ الشقة، ثم تذهب لتصحبني من المستشفى. وهي الآن في رحلة العودة الطويلة وقد تجاوز الوقت الساعة الرابعة. لن تصل قبل الحادية عشرة. جرَّبتُ أن أحسب ما دفعته لقاء الغداء. كانت قد طلبتْ الفاتورة حين كنتُ في الحمام.

خارج النافذة، كان ضوء الشمس برتقاليًا ويخبو شيئًا فشيئًا. استحممت ووقفت أمام المرآة. عينان محترقتان حدَّقتا إليَّ بعماء.

كانتا في الجانب الأيمن السفلي من صدري. ومن هناك أحاطت الغرز المتقاطعة بخاصرتي وامتدت إلى ظهري. نظَّفتُ الجرح ما استطعت مصغيًا في رأسي إلى تعليمات الممرضة كلمنت. خفتُ من احتمالية إيذاء جسدي ومن إغراء أذيَّته في وقتٍ واحد، أن أغرز أصابعي في الجلد الجديد لأنبش شبح الواقعة وأقتلعه. لن أحتاج إلى الضغط بشدة لأخرق هذين الثقبين، لأعمي العينين العمياوين. ضمدت جراحي، وارتحتُ لتغطية ذلك كله بضمائد بيضاء. لبست ثيابي. إلَّا أنني لم أخرج، ولم أخرج ليومين آخرين. وعندما خرجت كنت أنظر ورائي عند كل انعطاف.

مرَّت الأيام. يصعب أن تبقى هادئًا إذا لم يكن عندك ما يشغلك. استمر عقلي في تخبُّطه. حاولت التَّنبُّه إلى دورة الضوء. حتى عندما تكون السماء ملبَّدة بالغيوم، في نهاية اليوم غالبًا ما تبزغ الشمس وتملأ الأفق. خلافًا للوطن، تغرب الشمس هنا ببطء. بعد غروبها بوقت طويل، يبقى وهجها بين السحب. عندما يخيِّم الليل تستحيل النوافذ مرايا. أذكر أنني فكَّرت أنها لرحمةٌ بنا أننا خلقنا لنتعب في نهاية كل يوم.

٢٧

لم يعرف أحد بمكاني إلا رنا وربما ولبروك إن كانت قد أبلغته. ومع ذلك خفق قلبي بشدة كلما سمعت الباب الرئيس يُفتح ويُغلق وصوت أقدام تصعد السلالم. نادرًا ما رنَّ الهاتف، وإن رنَّ تجاهلته، إلَّا إذا رنَّ وتوقف ثم رنَّ مرة أخرى، فتلك كانت إشارة رنا. هاتفتني لتقول إنها لن تتمكَّن من المجيء في عطلة نهاية الأسبوع. «شغلٌ كثير». أراحني ذلك أكثر مما خيَّب أملي.

أقبل يوم الجمعة وانقضى ولم أكتب رسالة إلى أهلي. بوجهٍ ما، بدت الكتابة إليهم من هنا مستحيلة. كل يوم كنت أسلك اتجاهًا مختلفًا. في المساء أقصد حانة، ونادرًا ما ارتدتُ الحانة نفسها مرتين. كانت خطتي ألَّا أكلِّم أحدًا دائمًا، لكنني في النهاية كنت أشعر بالكحول يسبح في شراييني فأجدني أكلِّم غرباء. أرادوا أن يعرفوا من أين أنا. كان ذلك هو السؤال الدائم. وكان يظهر في أعينهم قبل أن يسألوا، وفي الأغلب منذ اللحظة الأولى، ويبقى هناك مهما كان جوابي. لعلَّهم استطاعوا أن يعرفوا أنني كنت أكذب. أحيانًا أكون تونسيًا أو برازيليًا أو مالطيًا. وأحيانًا أصبحُ

طالبًا أو زائرًا أتى لقضاء العطلة. أسرفتُ في الشراب. وكنت أختفي دون وداع متذرِّعًا بالذهاب إلى الحمَّام ثم أهرب خارجًا من باب جانبي، أو، إن تعذَّر ذلك، أخرج بمرأى من الجميع. هذا كله أحال أصباحي إلى جحيم. اشتد الألم في صدري من السُّكر ومن كل تلك القصص الخرافية التي ابتدعتها فدفعتني إلى الحديث بلا نهاية.

صادفتُ المكتبة المحلية العامة واكتشفت أنني أستطيع الدخول دون الحاجة إلى إبراز بطاقة هوية. لم يسألني أحد عن أي شيء. ولمَّا لم يكن عندي ما يدلُّ على عنواني لم أستطع الحصول على بطاقة مُسْتَعِير، فما كان أمامي إلَّا قراءة الكتب في المكتبة. وقد جعلني هذا أكثر إقدامًا، فأقبلتُ على قراءة مؤلفين مختلفين دون الشعور بالحاجة إلى الالتزام بهم. كنت أقضي معظم اليوم هناك. بحثت في أقسام مختلفة ـ في التاريخ، والأدب، والكلاسيكيات ـ وأحيانًا اخترت الكتب كيفما اتفق. كنت أغمض عينيَّ وأسير في ممرّ من ممرات الكتب متلمِّسًا كعوب الكتب بأطراف أصابعي. حيثما أقف يصبح ذلك الكتاب قدري، ساعةً من الزمان على الأقل.

وبهذه الطريقة، تحت مصباح حسنِ الإنارة في زاوية، اختبرتُ الأشياء. قرأت سينيكا وشعرتُ بأني في صحبته حقًّا، لكأنه كان عمًّا مدهشًا يدردش قربي. كانت حِكَمُه طبيعيةً جدًّا، جاهزة طيِّعةً، كأشياء عَثَرَ عليها في طريقه والتقطها وها هو يخرجها الآن واحدة تلو الأخرى ويريني إيَّاها. بعضها استوقفني بقوة، كقوله

حين كتب: «لا أحد يمكنه التَخفِّي طويلًا وراء قناع، فطبعه الذي جُبِل عليه سرعان ما يفرض نفسه». بفضله قرأت سوفوكليس. وجدتُ مسرحية أوديب آسرة لأنها قصة رجل يدمِّر ماضيه من حيث لا يدري.

ثم ذات مساء، وأنا مخمور وجسور، وقد شعرت بأني متأهِّب للعراك، لحمل شيء ما بيديَّ والإحساس به ينكسر، مشيت إلى البيت مناديًا باسمي، خالد، بصوت مرتفع، أنادي مرارًا وتكرارًا في الليل، وأسمع صدى اسمي يتردَّد على جدران المنازل منطوقًا نطقًا سليمًا، ومع ذلك لم يكن يبدو أنه اسمي أبدًا. صعدت السلالم إلى الشقة، أفرغت جيوبي ووجدت الوريقة التي أرسلها ولبروك. قبل أن أجد الوقت للتفكير اتصلت برقم هاتفه.

قال: «آلو».

«أنا خالد»، قلت بعد مرور وقت طويل ثم صمتُ تمامًا. لم يكن عندي ما أقول، لكنَّ السؤال أيضًا اخترق رأسي كرصاصة: ماذا لو أن خطَّ الهاتف مُراقَب؟

انتظر بصبر. واضحٌ أن المهاتفة دون قول شيء عادةٌ طبيعية في عالمه. ضغطت السماعة على أذني فازداد الصمت إطباقًا وخواءً.

قال أخيرًا: «عندما كنت طفلًا صغيرًا اعتاد والداي في الصيف اكتراء كوخ في قرية صيد على ساحل كورنوال الغربي. مكان بعيد، عاصف وجامح. طيلة الليل كان الصيادون يخرجون بمراكبهم الصغيرة الوامضة. اعتقدت أنهم لن يختفوا ما دمتُ

أراقبهم من نافذة غرفتي في الطابق العلوي. أحدهم كان يعرف والديَّ وكان يأتي للعشاء في بعض الأماسي قبل خروجه للبحر. كان فيه شيء غريب، رجلٌ أتى زائرًا من مكان أجنبيٍّ وبعيد. ذات يوم لم يرجع من البحر. بعد ذلك، عندما فقدت والديَّ وانتقلت للعيش مع جدتي، كنت أرى وجهه في الأحلام. ثم توقَّف ذلك تمامًا. كِدْتُ أنساه حتى الآن».

«ماذا حدث لوالديك؟».

«قُتِلا في حادث سيارة. كان أمرًا لا يُحتمَل، أذكر إحساسي بأنه لا يُحتمل، وشعرت كأن معرفتي بموتهما كانت تتغلغل كَرْهًا في مسامِّ جسدي».

قال ذلك بصوتٍ هادئٍ غير متعجِّل، واثقٍ بانتباهي، وبطريقةٍ ما أدركت أنه لم يقل ذلك - على هذا النحو - لأحد من قبل.

سألته: «كم كان عمرك؟».

«إحدى عشرة سنة».

قلت: «ذلك فظيع».

قال: «أجل. فظيع، لكنه كان محتملًا. حتى ذلك».

ثم سأل سؤالًا كان - بالنظر إليه الآن - عبقريًّا. لم يسألني عن حاجتي ولا عمَّا يستطيع فعله لأجلي. لا شيء من هذه الأسئلة المريعة. بل قال: «هل تعرف ما تحتاجه الآن؟».

في البدء، حسبته يسألني سؤالًا بلاغيًّا، كأنما يتأهَّب لإخباري بما يظن أني بحاجة إليه. لكن لا، لم يكن ذلك البتَّة. وفي المساحة

التي انفتحت، ظهرت بوضوح الأشياء التي كنت أحتاج إليها. لم أستطع أن أعبّر عنها حينها، إلا أنني رأيتها تومض لحظة في الأفق.

بعد ثوانٍ قال: «ستعرف. هل ستتصل مرة أخرى؟».

قلت: «نعم».

قال: «طيب. ممتاز». ثم من فوره سألني: «هل تجيد الحفظ؟».

«نعم»، قلت واخترت ألّا أقول له إني أحفظ صفحات وصفحات من القرآن الكريم عن ظهر قلب.

قال: «إذًا تأكّد من حفظ رقم هاتفي. احفظه الآن. هل حفظته؟» ثم اختَبَرَني.

٢٨

جاءت رنا يوم الجمعة التالية. لم تبدُ سعيدة. اصطحبتها إلى السينما، وبعد ذلك طهوت لها عشاء، لكنها لم تأكل إلّا قليلًا. كنت قد غسلت الشراشف وأعددت لها السرير، إلا أنها أصرَّت على النوم على الأريكة. كان في إصرارها صرامة. كان اليوم التالي السبت، لكنها أرادت أن تعود إلى إدنبره.

قالت، ناظرةً إلى يديها: «عليَّ أن ألحق بالعمل المتراكم، وأن أنظِّف شقتي».

زاد الكُحل ـ الذي كثيرًا ما كانت تضعه ـ من حياء عينيها، فجعلهما تبدوان حائرتين قليلًا. فكَّرتُ في الذهاب معها وغسل أرضية شقتها.

قالت: «ماذا ستفعل؟».

فوجئتُ بالسؤال ولم أدرِ سبب ذلك.

تابعت قائلة: «أقصد، أنت لا تستطيع العودة إلى إدنبره ولا إلى الوطن. أم أنك تستطيع ذلك؟».

لم أجد جوابًا.

سألتني: «هل اتصلت بوالديك؟».

قلت: «لا».

«ألا تعتقد أنه يجدر بك الاتصال بهما؟ أعتقد أنه يجدر بك أن تفعل ذلك».

ما إن خَرَجَتْ حتى تملَّكني القلق. رتَّبتُ المكان. أخرجت المال المتبقي من الجنيهات الألف التي أعطانيها الزائر في المستشفى. كنت ألبس الثياب التي أعطاني إياها. باتت هي كل ما عندي من ثياب. وماله أصبح هو كل ما أملك من مال. أحصيته على منضدة المطبخ. أنفقت خمسين جنيهًا أو نحو ذلك. كان عندي ما يكفي لشراء تذكرة طيران وهدايا. يجب أن تجلب هدايا.

استحممت وما كدت أنتهي حتى كنت قد قررت العودة إلى بنغازي. سأنكر كل شيء، سأقول لهم إني كنت ساذجًا، سأعتذر، سأقسم بالولاء إن اضطررت. وليفكِّر فيَّ الآخرون كما شاؤوا. على كل حال، ما همَّني بمَ يفكر الآخرون؟ كل ما يهم هو صون المرء عقله. أيضًا، لا شيء يتغيَّر بالشعارات. أصدَقُ الآراء لا يقال أبدًا. معظم الناس يعيشون حياتهم كلها وما يؤمنون به حقًّا مدفونٌ عميقًا في صدورهم. في نهاية المطاف ستعود الحياة إلى طبيعتها. كم كنت مجنونًا حتى بالتفكير في البقاء هنا. أعراض جانبية عابرة لصدمة التَّعرُّض لطلق ناري. عُدْ إلى حيث وُلِدَ أسلافك ودُفِنوا. لا تضخِّم عواقب أفعالك. من يبالي بشِرْذِمةٍ من الطلاب الحمقى

شاركت في مظاهرة في بلاد أجنبية؟ حشوت جيبي بالمال كلّه وخرجت.

كانت شوارع لندن ـ بحركة المرور فيها ومُشَاتها وعمرانها وشجرها وسمائها ـ كأنها من صنع الخيال، مثل موقع تصوير فيلم. قرَّرتُ أن أتشجَّع على السفر بالطائرة مرة أخرى فمضيت أجوب شارع كوينزوَي باحثًا عن أرخص تذكرة طيران. كلما تكلمت سمعت في صوتي تعصُّبًا جديدًا. بدا صوتي متعنِّتًا ونافد الصبر، حتى لكنتي الأجنبية كانت أوضح. واستمر ذلك الصوت يجادل في رأسي كلما خرجت من مكتب سفريات إلى آخر. سألني الصوت: «أليس بقاؤك في وطنك، ملتصقًا بترابه، أكثر ثوريَّةً وأصدق حبًا؟».

«أي التزام سياسي أفضل من البقاء هناك؟».

«ومنذ متى كان طبعك أن تكون (ثوريًّا) على كل حال؟».

«فما هذا المال الذي في جيبك إذًا، المال الذي أحصيته توًّا، المال الذي ستنفقه لتعود إلى وطنك، وبه ستشتري هدايا لوالديك وأختك؟ أليس مالًا ملطَّخًا بالدم، مالًا ـ مُنِحْتَه فعليًا ـ مقابل دمك المُرَاق؟».

«طبعًا لا، إنه تعويض».

«تعويض عن ماذا؟ عُوِّضتَ عن ماذا؟ عن إخلاصك للحرية؟ إظهارك أننا أناسٌ يقاومون الطغيان؟ مثلما قال لك وللآخرين الرجل المحسنُ إليك، الرجل الغامض ذو النظارة الصفراء

والبدلة الإيطالية الذي زعم أنه كان يومًا صديق أبيك؟ وماذا عنه، هذا الذي وثقت به دونما سبب وجيه فأعطيته اسمك كاملًا، مؤكِّدًا له، في حال كان هناك أي شك، أنك ابن أبيك؟ وأنت أصلًا لا تدري، فلعل النظام أرسله لجمع الأسماء».

أوقفني الصمت الذي تلا ذلك، ولم يكن في رأسي بقدر ما كان في يديَّ، كغرضٍ يصعب إفلاته لشدَّة رقَّته. كل ما استطعت رؤيته حينها كان وجوه أمي وأبي وسعاد، جميعهم يحدقون إليَّ صامتين. لم أعرف ما أقول لهم. لم أعرف أين كنت ولا إلى أي طريق أتجه. وقفت عند ناصية شارع ولم أستطع حتى استجماع الإرادة للتظاهر بأنني ضائع أو أنتظر شخصًا ما.

عدت إلى الشقة وسمعت رنين الهاتف وأنا أرتقي الدرج. توقف الرنين ما إن دخلت وبعد ثوانٍ بدأ مرة أخرى.

قالت رنا: «وصلتُ توًّا. إنها تمطر هنا. الطقس في لندن صيف مقارنةً بالطقس هنا. آسفة لأنني لم أستطع البقاء مدة أطول. وأعتذر عن مزاجي. عندي شغلٌ كثير».

أصغيتُ إلى أصداء محطة قطارات ويفرلي بإدنبره خلفها. كان ينبغي أن أعود برفقتها، أنكر كل شيء، أستأنف دروسي، وألحق بما فاتني من واجبات.

أخيرًا قلت: «أرجو أن تعرفي مقدار شكري لكِ. أعني، على الشقة، وعلى هذا الوقت هنا، وعلى كرمك. مهما حاولتُ...».

هوى صوتي، كما هو الحال في تلك الانهيارات الأرضية التي نراها في الأخبار، وتُصَوَّر من ارتفاع شاهق، حيث يتبدَّل كل شيء بعد هطول الأمطار بلا هوادة ـ البيوت، الطرق، أعمدة الإنارة، الأشجار ـ تصدُّعٌ يدوِّي في الهواء، ثم تتمزَّق الأرض. غطَّيت فمي.

«آلو؟ هل أنت بخير؟» كرَّرت رنا، ثم توقَّفت، وبعد ثوانٍ شرعت تتكلَّم برفق، دون أن تسأل أسئلة، دون أن تتوقع أجوبة. كانت أذناي تحت الماء وصوتها طائرة مروحية في الأعلى. سمعتُ شفرات الطائرة تقطع الهواء في حلقةٍ هائجة. لم أستطع أن أسمع إلا كلمات متقطِّعة، شيئًا عن الوقت والمستقبل، عن مسؤولية المرء في أن يكون وصيًّا على نفسه. أتذكَّر استعمالها كلمة «وصيّ». وأن أحدًا لا يخبرنا بهذا أبدًا مع أنه أهم أمر ينبغي معرفته عن الحياة، وما إلى ذلك. ثم صار صوتها قريبًا ورقيقًا وهائجًا من القلق والحزن والشوق وحاولتُ البقاء معه. حينها فهمتُ أنها هي أيضًا تشتاق إلى ما كانت عليه الأمور، لمَّا كنا صنوين، صديقين يسلِّم كل منهما بأن الآخر بخير وأن الأيام ستكون بخير، رفيقَيْ سفر يتشاطران العربة، واثقين بالوصول في الميعاد وبقليل من الجلبة. قالت شيئًا عن بنغازي.

«اتصلتَ بهم، أليس كذلك؟ أهلك. اتصلت بهم لتبلغهم أنك بخير؟». بعد صمت قصير قالت: «آسفة، لكن يجب أن أذهب. نقود المكالمة تنفد. سأعود في عطلة نهاية الأسبوع.

اعتنِ بنفسك. اتصل ببنغازي، ولكن من فضلك اتصل بعاملة البدَّالة واطلب المكالمة على حساب المتلقِّي وإلَّا قتلني والداي. اتصل بهم الآن».

أي شيء أفضل من لا شيء. وإلَّا فإن الحياة لا تُحتمَل. تذكَّرت سؤال ولبروك عمَّا أحتاج إليه من أشياء، فتحيَّر عقلي. لم أستطع استعادة ما ظهر لحظةَ حين سأل سؤاله أول مرة. كانت هناك نار في رئتيَّ. يجب ألَّا تبكي أبدًا. البكاء ليس خيارًا لك. هذا على الأقل الشيء الوحيد الأكيد.

٢٩

هاتفتْ عاملة البدّالة. أعادت قراءة رقم هاتف بيتنا، ذلك الرقم المألوف، الذي ما زلت أحمله في رأسي إلى هذا اليوم، حتى بعد أن سُوِّيَ البيت بالأرض. أنصت كلانا إلى النغمة البعيدة إذ تبدأ وتتوقف. ردَّ أبي. كان صوته جميلًا على نحوٍ مدهش. أذكر أنني فوجئت بصوته، بانبساطه وسخائه، ظِلّ شجرة عميقة الجذور. فكرت أنني لو أتيحت لي الفرصة لأفضيت إلى الشجرة بأسراري كلها، ولبسطتُ نفسي كسجاد واستلقيت مفروشًا تحتها. تخيّلته جالسًا إلى طاولته في مكتبه، الكتاب الذي يقرؤه مقلوب على خشب الطاولة لئلا تغيب الصفحة، النافذة خلفه تؤطّر دالية العنب في الحَوْش، وآخر خيط من الضوء يتسلّل من السماء فيبدو كأنه يحطُّ كضبابٍ أو كطبقة غبار على كل ما يمسّه، كما هو شأنه على الأغلب في هذه الساعة من النهار.

قالت له المرأة الإنجليزية: «مساء الخير يا سيدي. أنا عاملة البدّالة أتصل من إنجلترا».

قال والقلقُ بادٍ في صوته: «نعم؟ مساء النور يا مدام».

«لك مكالمة على حساب المتلقي»، قالت وفي صوتها أثر ابتسام، وفكّرتُ أنها ابتسمت، بلا شك، لأنها استظرفت نعته لها بمدام، أو أنها شاءت أن تؤكّد له، نيابة عنّي، بأن قلقه، كان على الأرجح، لا مسوّغ له البتّة. «إنها من خالد». نطقتْ باسمي كأنها تقول: «كول إيد (Call Ed)»، هل توافق على دفع الحساب؟».

قال: «نعم، طبعًا، وشكرًا لك يا مدام».

قالت عاملة البدّالة: «أيها المتصل، تفضّل».

ما إن أغلَقَتْ الهاتف حتى اختفى التشويش واقترب أبي كأننا كنا واقفين جنبًا إلى جنب، كتفانا متلامستان، كما كنا نفعل حين كنت أرافقه لصلاة الجمعة في مسجد الحيّ. نادى باسمي بفصاحة تامة، مثلما اعتاد أن يفعل حين كنت أذهل أحيانًا وأتخلّف عنه في طريق عودتنا إلى البيت مساءً، راجلَين على الواجهة البحرية. دائمًا ما كان ينتظرني، ناظرًا إليَّ وأنا أسرع نحوه، وحين أُدرِكُه ألاحظ على مُحيَّاه انبساطًا ودودًا. لكنني هذه المرة لم أجبه. فقد تخلّفتُ عنه كثيرًا، أُلْقِيتُ في وجهة مختلفة تمامًا؛ طُرِحتُ في البحر، وذلك البحر يحول بيننا الآن. كذلك كانت هناك الاحتمالية العالية ـ وكنت على ثقةٍ بأن أبي كذلك خامره الشك فيها ـ بأنّ طرفًا ثالثًا كان يسترق السمع، وإن كانت عاملة البدّالة الإنجليزية قد تركتنا، فإن عمل نظيرها الليبي الذي كان غرضه مختلفًا تمامًا لم يبدأ إلّا توًّا. غير أنّ أكثر ما أقلقني هو أنني إن فتحت فمي فقد أهوي مرة أخرى. ثم سمعتُ همسًا وأدركت أنه صوت أبي وهو يلهج بالدعاء.

«اللهم سدِّد خطانا، واشرح صدورنا، والطف بنا».

عندئذ فهمت ما كان يُريبه: فلكي تجعلنا السُّلطة عبرة لمن يعتبر، ستحرص على عرض المقطع الإخباري مرارًا وتكرارًا على التلفاز الحكومي، على غرار إعادة بث أبرز مَشاهِد فوزٍ وطني في كرة القدم لرفع المعنويات. لعل أبي وأمي وسعاد شاهدوه مرات كثيرة، وربما، مثل رنا، عرفوني من السترة التي أعطاني إيّاها أبي هدية وداع. شعرت بحُبّي لأبي يتجمَّع في صدري، ثقيلًا وصَلْدًا كصخرة. المؤرِّخ الموهوب الذي استطاع أن يبقى مستقلًّا، واحدًا من أفراد ذلك الجيش الصامت الموجود في كل بلد، والمكوَّن من أفراد خلصوا إلى أنهم يعيشون بين قومٍ غير عقلانيين، ولذلك عليهم أن يفعلوا كما يفعل الراشدون في ساحة لَعِب الأطفال؛ أن يتحمّلوا الفوضى حتى يُقْرَع الجرس، مستسلمين لحقيقة أن هذا قد يحدث بعد ذهابهم بزمنٍ طويل. استطعت أن أتبيَّن في تَنَفُّسه المنتظم ذلك الصبر القديم المرن، قويًّا حتى في مواجهة ما أصبح يعرفه الآن: أن بِكْرَه، ابنه الوحيد، الذي يحمل اسمه ليورِّثه مَن بعده - «خالد القارئ»، مثلما سمعته يقول للآخرين أكثر من مرة، «خالد الفتى العاقل، صاحب المزاج المعتدل والمَلَكَة التي يزن بها الأمور بميزان العقل، ابني الذي ينتظره مستقبل مشرق»، قد كان أحمقَ بما يكفي ليعتقد أنه يستطيع الاختباء خلف قناع، وكان بين مَن أُطلِقَت عليهم النيران أمام السفارة الليبية في لندن بتاريخ ١٧ إبريل ١٩٨٤، فأصبح رجلًا مطارَدًا أبد الدهر. وقد باتت

الفرص التي كانت متاحة لي يومًا - التأهُّل لمنحة دراسية، الحصول على عملٍ محترم، وقرض بنكي، والأهم من ذلك، القدرة على العيش كرجل حُرّ - غير مؤكّدة الآن.

أردتُ أن أسأله إن كان ما يزال يعتقد أن مستقبلًا مشرقًا بانتظاري. إلَّا أنني في فجوة الصمت تلك أبصرتُ كبريائي تثور، حَمِيَّتي المظلمة، وفكّرتُ في نفسي: أرفض الندم على أفعالي. وفي تلك اللحظة تمامًا قال أبي؛ ربما لله أو لي أو لنفسه أو حتى لمختلس السمع، إذا كان قلبه سيتأثر بحبّ أبٍ لابنه: «إنني شاكر، شاكر بصدق».

اعتاد أن يقول لي: «لا تنسَ أبدًا أن أول قصيدة كُتِبَتْ أبدًا كانت من أبٍ إلى ابنه. إنها مرثاةُ آدم لهابيل، التي كانت أيضًا مرثاةً لقابيل الذي كان عليه أن يهيم على وجهه في الأرض لقتله أخاه. ولذلك، وفق تاريخ الحب والشعر، فإن حبَّ الأبِ ابنَه أعظمُ من ضروب الحب كلِّها، أعظم من حبّ ليلى والمجنون، بل أعظمِ من أعظم حبّ، حبُّ الأم وليدها. إن قلتَ هذا لأمّك قتلتُك».

نبع اهتمام أبي بتاريخ أول قصيدة مكتوبة من شاعره الأثير أبي العلاء المعرّي و«رسالة الغفران»، ففيها - «قبل دانتي بثلاثمائة عام» كما أحب أبي تذكيري - يهبط بطل المعرّي الشاعر إلى العالم السفلي ويرتقي أيضًا إلى السماء حيث يسأل أولَ إنسان، آدم، عن قصيدته المزعومة. إلا أنَّ ما أحبَّ أبي إغفاله، وهو في مزاجه

هذا، أن بطل المعري يخاطب حواء كذلك ويكتشف أنها أيضًا كتبت قصيدة. يدرك أنَّ قصيدة آدم كانت مرثاة ومن ثم فهي معنيَّة بالماضي، وأمَّا قصيدة حواء فقد كانت عن المستقبل، عن آمالها ومخاوفها على مستقبل عائلتها في منفاها الأبدي على الأرض.

بعد أن فرغتُ من حزم أمتعتي وجلس هو على الحقيبة لإغلاق سحَّابها وسمعتُ شهيق أنفاسه الثقيلة، خرج مسرعًا وعاد حاملًا نسخته القديمة من «رسالة الغفران» التي احتفظ بها منذ أن كان طالبًا، وصمَّم على فتح الحقيبة مرة أخرى. عندما اعترضتُ قال: «دائمًا هناك متسع لكتابٍ آخر».

ذلك الكتاب في إدنبره الآن. فيه ملاحظات أبي التي خربشها على الهوامش، الجمل التي وضع تحتها خطوطًا، أطراف الصفحات المطويَّة حيث توقَّف، كل هذا مكنّني من القراءة معه، زوجان من العيون في وقت واحد. كان الكتاب أغلى ما مَلَكْتُ.

كَسَرَ الصمتَ بذلك السؤال القديم المعتاد، الذي أعتقد أن الأهل لا يرونه حشوًا مكرَّرًا أو سؤالًا غير معقول.

«هل تأكل؟».

سمعتُني أضحك. قلت: «نعم».

ضحك هو أيضًا، وبدا صوته مرتاحًا مثلي.

«وكيف صحتك؟».

قلت: «بخير».

قال: «تقول الحقيقة؟».

«وتُرْبَة جدِّي»، قلت، وكنت أعرف أن ذلك سيحل المسألة.

قال: «عظيم. وهل لك أصدقاء.. أعني أصدقاء حقيقيين؟».

قلت: «أعتقد ذلك. كيف يمكنك معرفة ذلك؟».

قال: «سهل. هل يمنحونك البهجة وهل تثق بهم؟» هنا تلعثم صوته قليلًا، ربما لشعوره باستحالة مهمته؛ أي الاعتناء بي من بعيد. فكرت في الرجل صاحب النظارة الصفراء الذي كان صديقه يومًا. استطعت تخيُّله مُحَقِّقًا هذين الشَّرطين. ثم قال: «مهما فعلت فلا تبحث عن أب. مهما كانت المسافة، فأنا هنا. حتى إن باعدت بيننا البحار».

لم أعرف ما أقول.

قال: «أعرف أنك تفهمني».

أومأت برأسي مع أنه لم يكن يراني.

«كل ما تحتاج إليه صديق أو صديقان، هذا كل ما في الأمر. واعمل وادرس واصبر».

أخيرًا قلت: «آسف».

«على ماذا؟» قال، فكَّرت أن ذلك حماية لكلينا بلا شك. «لا شيء يستحق الأسف يا ولدي. لقد ذهبت لطلب العلم وذلك أنبل سبب للسفر».

قلت ملتزمًا بإستراتيجيته: «أعرف، أعرف».

تكلَّم كأنما يشير إلى حديث سبق أن خضناه: «السؤال هو، يمكن القول جدلًا إنَّ السؤال الأهم هو كيفية التخلص من مطالب الرجال غير العقلانيين».

«أعرف»، قلت راجيًا أن يتوقف.

«اسمع، ابحث عن الأماكن المفتوحة. أعرف أنك تفهمني».

أعقب ذلك صمت. لعله هو أيضًا كان يستعيد في عقله ما قاله لي من توِّه، مُخصِيًا كل السُّبُل التي قد يفسِّرها رفيقنا الصامت. امتلأ فمي بالأسئلة: كيف حال شجرة المندرين التي زرعناها أنا وهو في الفناء؟ متى سبح آخر مرة في البحر؟ ماذا يقرأ الآن؟ ماذا يقول الناس عن «الممنوح والمأخوذ»؟ أصحيح أن سِيدي رجب زوة أدلى بتصريح في التلفاز؟ وماذا قال وكيف ظهر؟

«أمُّك. سعاد أيضًا...».

«كيف حالهما؟».

«بخير».

«وأنت، كيف حالك يا أبي؟».

«ممتاز. هذا شيء لا حاجة إلى أن يقلقك أبدًا»، قال. «سأناديهما».

استطعت سماع صوت حذائه الجلد ينقر البلاط، ثم صوت الباب يصرّ صريرًا مروِّعًا. كان ذلك على رأس قائمة الأشياء التي أردت إنجازها له قبل المغادرة: تزييت مفاصل الباب. أول شيء

سأقوم به حين أعود. أصبحت وحدي مع الرجل المتنصِّت. في البداية ظننتُ أنني تخيَّلت أنه تنحنح، لكنه تنحنح مرة أخرى. عرفتُ ما سيقول لو أتيح له الكلام. سيقول: «تعتقد أنك رجل»، سيقول ذلك بغموض، لا كسؤال، وبشيء من الكسل، لكأن المتنصِّت علينا مستلقٍ على ظهره على سجاد في وسط غرفة، وهو يستمع إلى حديثنا. سمعت صرير المفاصل مرة أخرى ثم اقتراب أمي وسعاد. فرصتك الأخيرة لإغلاق الهاتف. يمكنك إلقاء اللَّوم على خط الهاتف. لكن جاء صوت أمي.

قالت: «خبِّرني بكل شيء. كيف حالك؟ ولماذا لَمْ تكتب إلينا في الأسابيع القليلة الأخيرة؟ تكلَّم، دعني أسمعك».

«نعم، أنا بخير يا أمي»، قلت ولمست الذُّعر في كلماتي. ادَّعيتُ السُّعَال وقلت بأوضح وأوثق صوت استطعته: «بأفضل حال. فقط مشغول بالدراسة. وكيف حالك؟».

«من رأسك إلى قدميك؟ أتقسم لي بذلك؟» ثم بسرعة قالت لأبي: «لا تضحك». ثم أكملت قائلة: «وهل تأكل؟ أبوك لا يتوقف عن الضحك مني».

عندئذ أدركت أنهم لم يعرفوا أنني كنت في المظاهرة. فكرت أنهم يظنون أنني في إدنبره وأن كل شيء على ما يرام. هذا جعلني أشعر لحظةً بأن كل شيء في الحقيقة على ما يرام. ضحكتُ.

«والآن كلاكما يضحك مني»، قالت أمي فضحك أبي أكثر.

قلت: «لقد سألني السؤال نفسه».

«لا يهمني إن كان قد سألك. أريد أن أعرف بنفسي».

وهنا عرفتُ ما سأقول، وما سأتكلَّم عنه من أمور لن تسبِّب خطرًا وتريح أمي.

قلت: «اسمعيني، أحتاج إلى مساعدتك».

«مساعدتي في ماذا؟ ما الأمر؟».

قلت: «إنه سؤال في غاية الأهمية».

قالت: «يا ساتر!».

«عندما يتعلق الأمر بالطاجين اللِّيبي، أقصد طاجين الجبل الأخضر العريق، أعرف أنك تستعملين البطاطا والبصل والطماطم ولحم الضأن أو الدجاج أو السمك. صحيح؟».

سمعتُ أنفاسها المتلعثمة. ثم قال أبي شيئًا بقربها، وكذلك سعاد.

«أمي، هل تسمعينني؟».

«نعم، نعم».

تابعت قائلًا: «كل هذا واضح، لكنني لست متأكدًا مما إذا كان ينبغي استعمال الثُّوم؟».

قالت: «ماذا؟».

«الثُّوم يا أمي، هل تستعملين الثُّوم في الطاجين؟».

قالت: «طبعًا أستعمله».

«باهي إذًا، ذاك هو السبب. طبخته في ذلك اليوم لصديق وفشلت فشلًا ذريعًا».

قالت: «خالد، حبيبي. قُلْ لي ماذا فعلت بالضبط وسأخبرك أين الخطأ».

٣٠

في البداية، أبهجتني المكالمة، ولكن ما لبثت مخاوفي القديمة تتسلّل إليّ. هل كان والداي يدّعيان فحسب أن كل شيء كان كسابق عهده؟ لم يسألا عن فرد ولا عن عائلته. لم يسألا عن دراستي أيضًا. لقد بدا أنهما كانا حريصين على ألا يسألاني أي أسئلة تتعلّق بحياتي هنا. كذلك لم تسألني سعاد التي كانت حذرة كقفل خلال الثواني القليلة التي تكلمنا فيها قبل أن يأخذ أبي السماعة منها. ما كان أشد إزعاجًا هو أن كل واحد منّا عرف دوره وأدّاه على أكمل وجه. الأمران الحقيقيان الوحيدان اللذان تشاطرناهما كانا حبّنا وخوفنا. وأنا جالسٌ على الأريكة في الشقة المستعارة في نوتنج هِل ـ الشقة التي كانت المكان الوحيد الذي كان لي مع أنه لم يكن مِلكًا لي ـ كان حُبّي وخوفي هما كل ما ملكته حقًا. تشبّثت بهما، فقد بدا لي حينئذٍ أنهما حقيقيّان كشيئين مادّيين. كنت في الثامنة عشرة من عمري وفي أمسّ الحاجة إلى من يوجّهني. أصبح الاستقلال ـ الذي كنت حتى ذلك الحين أعظّمه، بل أجلّه ـ في نظري لعنةً، الشيطان بعينه. الاتّكال هو ما ينبغي أن

يسعى إليه العقل السليم؛ أن يعتمد المرء على الآخرين ومن ثم يعتمدون عليه.

مرَّاتٍ كثيرة راجعتُ المحادثة في ذهني حتى جافاني النوم. أصبحت أهذي من الحيرة. لم يكن هناك من سبيلٍ لأتبيَّن إنْ ارتابٍ أهلي في شيء أم لا. في الحالتين كان تصرفهم مفهومًا. إن ظنَّوا أن لي علاقة بالمظاهرة فلم يكونوا ليذكروا ذلك حتى لا يؤكِّدوا الحقيقة للسُّلُطات. من جهة أخرى، إذا اعتقد والداي أنني ما زلت في إدنبره فإنهما لن يرغبا في سؤالي أسئلة كثيرة، خصوصًا فيما يتعلَّق بأنشطتي الإضافية بعد الدراسة، لكي لا تثير تفاصيل كهذه استنكار مستمِعِنا فنُوسَم بـ«البورجوازيين الرجعيين»، كما هو حال أولئك الذين كانوا يحبون المسرح والثقافة الرفيعة في بعض الأحايين.

ثم كانت هناك الاحتمالية الأخرى: أن السلطات كانت تعرف بوجودي في المظاهرة، وحصلت على قائمة أسماء المصابين، وربما من أحد يعمل في المستشفى أخذ في مقابل ذلك مالًا أو سيارة جديدة. رأيتُ ذلك الرجل - الذي تنحنح عامدًا خلال الصمت الذي أعقب ذهاب أبي لمناداة أمي وسعاد، وقد تنحنح مرتين لئلا يدع مجالًا للشك فيمَن كانت له اليد العليا - يقود هجوم مسؤولي الحكومة، يأتون إلى بيتنا، يطرقون الباب طرقًا شديدًا، ويأخذون أبي للتحقيق. رأيتُ وجه سعاد ووجه أمي وسمعتُ صمت مسائهما القلق. في هذا السيناريو، فكَّرتُ أن أداء والديَّ وأختي في الهاتف سيكون من تأليف السُّلُطات. تساءلت

إن كان ما قاله لي أبي بألّا أقلق عليه أبدًا له علاقة بهذا. لكنه ما كان ليضحك ضحكًا طبيعيًا كما ضحك. إلّا إذا كانت الدولة قد أعطته الأمان بأنَّ أحدًا لن يمسَّني بأذى، وطلبت منه أن يستمر في تشجيعي على العودة إلى الوطن ما إن تنتهي دراستي، وهكذا سيكون لضَحِكِه علاقة بذلك المطمح السعيد. كانوا سيقولون له: «يبقى هذا وطنه، والأبناء يخطئون».

ثم قلت لنفسي، لا، سيكونون أذكى من ذلك. إن كانت الحكومة قد علمت بوجودي في المظاهرة فلن تبلغ أهلي بذلك. ستريد لهم أن يبقوا جاهلين بالأمر. وأنا أسرع الخطى إلى المكتبة صباحًا ـ كأن عندي موعدًا مهمًا عليَّ الالتزام به ـ حزرتُ بأن النظام، من وجهة نظره، لا يرى نفعًا لمعرفة والديَّ بأني كنت بين المتظاهرين في ساحة سانت جيمس. إنما سيريد لهما أن يتوقّعا عودتي وأن يتطلّعا إليها. تخيَّلتُ أن السُّلُطات قد خَلَصَت إلى أن أهلي سيكونون هم الطُّعْم.

قلت لنفسي: لا تهاتفهم مرة أخرى. ذلك أمرٌ آخر لم يعد متاحًا الآن. أمرٌ آخر مؤكَّد. لا تبكِ ولا تهاتف الديار. على الأقل ليس في المستقبل القريب. وبسرعة قرَّرت أن أجرِّب ذلك ثلاثة أشهر، لا لأنني أستطيع رؤية المستقبل إلى هذا الحد، بل لأنني ما استطعت أن أحشد ما يكفي من الهمَّة إلا هذا المقدار. في أثناء ذلك لا تكتب إليهم إلّا من حينٍ لآخر. ليس كثيرًا جدًّا. ولا قليلًا جدًّا أيضًا. بعد ثلاثة أسابيع، ثم أربعة، خمسة، سبعة. افطمهم. ولا تذكر عنوانك. ليس بعد. كل شيء ليس بعد.

ظللتُ أتنفَّس بمشقَّة. لم أخرج من الشقة بضعة أيام. ثم هاتفتني رنا.

«هل اتصلت بهم؟» أرادت أن تعرف. «وكيف كان الأمر؟ رائع. ألم أقل لك؟ أنا سعيدة جدًّا. صوتك أفضل حالًا. كنت أفكِّر»، ثم قالت: «ألا تريد أمتعتك؟ أستطيع أن أجمعها وأجلبها معي يوم الجمعة؟».

تخيَّلتها تزور غرفتي وتكلِّم صاحبة البيت. لم أستطع أن أتذكر كيف تركت الغرفة، وإذا كنت قد رتَّبتها، وطويت ثيابي، ورتَّبت السرير.

قالت: «ما عليك إلَّا الاتصال بهم، وإعلامهم بأني سآمر هناك».

قلت: «لكن ماذا لو رآكِ أحدهم؟».

قالت: «وليكن».

قلت: «قد يلاحقونك».

«فليجرِّبوا»، قالت وضحكت ضحكًا متوترًا قصيرًا.

في الأيام القليلة التالية ساء حال رئتيَّ. كنت إذا صعدت الدرج أقف مرارًا لألتقط أنفاسي. استيقظت في جوف الليل على صوت صرير باب وأدركت أن ذلك لم يكن إلَّا حشرجة صدري. هاتفت المستشفى فنُصِحتُ بالزيارة. قابلت الطبيب نفسه الذي قطع ثيابي بيدين مرتعشتين. تورَّد خدَّاه قليلًا عندما تصافحنا. لا أتذكر اسمه لكنني ما زلت أرى وجهه، سمحًا

وصادقًا؛ وجهًا يصعب عليه أن يرفض طلبًا. أعتقد أن هذا ما أظهره أصغر سنًّا في فوضى ذلك اليوم. قال إنه سعيد لرؤيتي أفضل حالًا.

قال: «كنا نتساءل أين نرسل تقريرك الطبي؟».

كتبتُ العنوان.

فَحَصَ الغُرَز، معتذرًا مراتٍ عديدة عن برودة أصابعه، ثم سألني إن أحببتُ العيش في نوتنج هل. أخذ نُدْفة قطن وقليلًا من الكحول وشرع يزيل ما خلَّفته الضمائد من آثار لزجة.

قال: «لقد التأم الجرح التئامًا جيدًا. لن تعود بحاجة إلى وضع الضمادة». ثم أصغى إلى صدري، كان يصمت لحظات طويلة وهو يشرح لي ـ شرحًا أشعرني بأنني حالة نادرة ـ أنهم اضطروا إلى إزالة الجزء العلوي من رئتي اليمنى. «لكن في النهاية ـ الجسد عجيب ـ سيعود تنفُّسك إلى طبيعته. إلَّا أنك في هذه الأثناء عليك بالصبر».

لعلَّ السبب كان العودة إلى المستشفى نفسه، أو لعله وجه الطبيب وحين تذكَّرته صائحًا «هنا» مرارًا، أو لعلها تلك الكلمة: «الصبر» هي ما فتح البوابة. كنت متأثرًا. لم أكن أبكي، ولكنني لم أكن لا أبكي. نكستُ رأسي فانهمرت الدموع. وضع الطبيب الطيب يده على كتفي اليسرى، كتفي السليمة. فكرت؛ ما أغرب خفَّة يده، وما ألطفه إذ وقف منتظرًا بصمت فحسب. ثم خرج

من الغرفة. لبستُ قميصي. عاد حاملًا كوبًا ورقيًا صغيرًا مملوءًا إلى نصفه بماء شديد البرودة.

قلت له: «أود العودة إلى البيت. إلى بلادي».

بقيت عيناه عليّ. فكَّرتُ: هذا الرجل الذي ساعد على إنقاذ حياتي مرةً قد ينقذها مرة أخرى.

قلت: «أتساءل عما إذا كان ممكنًا... أعني، أتساءل عما إذا كان ممكنًا تغيير التقرير، وضع سبب مختلف للجراحة، كورم، مثلًا، أو حادث من نوعٍ ما».

الآن شابَ عينيه ظلُّ خوفٍ رأيته فيهما عندما التقينا أول مرة. اعتذر للخروج وغاب وقتًا طويلًا. عندما عاد، كان معه الجرَّاح الأكبر سنًا الذي أجرى لي العملية، وكنت واثقًا أنه كان أفضل منه في قول لا.

بدأ بالقول: «نحن متعاطفون معك جدًا. ونودّ مساعدتك حقًا. لكنْ حتى إن استبعدنا الجانب الأخلاقي، فإن أي طبيب بمقدوره أن يعرف سبب الإصابة. لكن زميلي قال إنك تجد صعوبة في التَّنفس. صِف لي الشعور بالضبط».

ثمَّة أوقاتٌ يسقط فيها القناع لحظةً فتكشَف الأمور على حقيقتها. في تلك اللحظة، تمسُّ قدماك الأرض، تشعر بأنك مرتبط بالواقع، بالأشياء والحقائق والحاضر.

قلتُ: «يوجد شيء في صدري. أحسُّ به»، وقبل أن يمر وقت طويل أضفت: «لا أريد الانشغال به»، ونهضتُ.

أعطياني جهاز استنشاق، وبعض الأقراص، وطلبا مني العودة إذا لم ألحظ أي تحسُّن. قال الطبيب الأصغر: «من فضلك لا تجهد نفسك».

أردت أن أسأله هو خصوصًا إذا كان متيقِّنًا من أنهم لم ينسوا جزءًا من رصاصة، شظيَّة، ذرَّة غبار. ففي النهاية، كل شيء في هذا العالم يترك أثرًا. إلَّا أنني، عوض ذلك، شكرتهما وصافحتهما.

٣١

عندما وصلت رنا في يوم الجمعة ذاك كنت أشعر بتحسُّن، وفي حال جيدة بما يكفي لأحمل حقيبتي القديمة على السلالم.

قالت صاعدةً السلالم أمامي: «صاحبة البيت كانت حائرة، فقد أتى شرطيَّان واستجوباها. قالت: لا أحب المشاكل. قلت لها إنك لست واقعًا في مشكلة، وإنما عندك مسائل عائلية، فلم تسأل أسئلة أكثر. في طريقي للخروج صادفتُ زميلًا لك في السكن، أو على الأقل هذا ما قاله. بصراحة أخافني. سأل عنك ولمَّا لم أُجِبه قال لي أن أبلغك أن سعد يسلِّم عليك».

في عطلة نهاية الأسبوع تلك كانت رنا متخفِّفة ومرتاحة وبدت سعيدة برفقتي. في بعض اللحظات، كاد حالنا يعود إلى سابق عهده. وافقتْ أن تنام على السرير ونمتُ أنا على الأريكة. لبثتْ حتى يوم الأحد ولم تكن مسرورة بالعودة. أخذتها إلى المحطة، وفي الحافلة أخبرتها أنني أخطِّط للانتقال، وسأحصل على عمل لأدفع إيجار سكني. اعترفتُ قائلًا: «ليست عندي فكرة كيف سأقوم بهذا كلّه، لكنني سأتدبر أمري بطريقة ما».

قالت: «ستفعل»، وبدا من صوتها كأنها كانت تعني ما قالت. أراحت رأسها على كتفي. قالت: «ستفعل بالتأكيد»، وأيقنتُ أنها عَنَتْ ذلك حقًا.

قلت: «إذًا ستكونين ضيفتي».

قالت: «إنني ضيفتك أصلًا».

عدت إلى الشقة في الحال عازمًا على فتح الحقيبة، إلا أنها بقيت في زاوية الغرفة ثلاثة أيام قبل أن أفرِغها. كانت رنا قد أدخلت قارورة مسك أمي في جيبٍ من جيوب قميصي. أخرجتُها وفكَّرتُ أن أُحْكِمَ إغلاقها فانكسر غطاؤها. وضعتُها على رفِّ الحمَّام وسرعان ما ملأ العطر المكان. بعنايةٍ حرصت رنا على طيِّ كل قطعة من الثياب ووضعتها في نصف الحقيبة، وفي النصف الآخر صفَّت كتبي جميعها كأنها قِطَع أحجية لا يكاد يفصل بينها فراغ. ها هي نسخة أبي من «رسالة الغفران» بغلافها الجلد الكستنائي والكتب الأخرى التي جلبتها معي من الوطن: «أنشودة المطر» لبدر شاكر السَّيَّاب، و«رحلات ابن بطوطة» التي كانت معي منذ طفولتي ورافقتني في سنوات صباي، و«القضية الغريبة للدكتور جيكل والسيد هايد» ـ فإلى جانب والديَّ وقاموس أكسفورد كان معلمي الآخر في الإنجليزية روبرت لويس ستفنسن بجُمَلِهِ اليسيرة التي تحمل زَخْم الطبيعة الصادق والحيّ ـ والمجلدات الأربعة التي كوَّنت رواية «السَّاق على السَّاق» لأحمد فارس الشدياق، الرواية التي أخبرني والداي أنها حجر أساس الروايات

العربية كلها، والتي قلّما صدرت كاملة منذ نشرها في عام ١٨٥٥ بسبب بعض تفاصيلها الصادمة والفاضحة. كان أبي قد تحصّل على هذه النسخة التي لم تطلها يد الرقيب. والكتابان اللذان اشتريتهما من مكتبة بيع كتبٍ مستعملة في إدنبره: قصائد سلفيا بلاث ورواية وجيه غالي الوحيدة؛ «بيرة في نادي البلياردو»، التي لم أكن قد قرأتها بعد لأنني اشتريتها قبل أيام قليلة فقط من ركوبي ومصطفى الحافلة التي أقلّتنا إلى لندن، ولم أقرأها حتى اليوم ربما للسبب نفسه. إجمالًا، تكوّنت مكتبتي من عشرة كتب. وضعتها متقاربة في صفٍّ واحد على إفريز نافذة منخفضة.

حين انتهيت من إفراغ الحقيبة وظننت أني أخليتها كلها وجدت أن رنا قد وضعت رسائلي في جيب الحقيبة الداخلي. سبعة ظروف من أمي، بطوابع ليبية، وخط يدها المألوف ذاكرًا بعناية، بالعربية والإنجليزية، اسمي وعنواني في إدنبره الذي لم يعد بعنواني. قرأتها كلها ولم أتبيّن في نبرتها تغيُّرًا ولا قلقًا مباغتًا. ألف حدثٍ وحدث قد يلمُّ بنا ولا يعلم به أحبُّ الناس إلينا. لهذا السبب ينبغي أن نكون قريبين منهم، وليس بيننا إلّا قَدر ذراع. حين كتبت إليهم بعد ذلك قلت لهم إني انتقلت إلى سكن مؤقت. «أبحث وبعض أصدقائي عن شقة نتقاسمها. أرخص وبذلك نطبخ بأنفسنا. لا تكتبوا إليّ حتى أرسل إليكم العنوان الجديد».

٣٢

بعد أيام قليلة وصلني التقرير الطبي بالبريد. ألقيت عليه نظرة سريعة وأعدته إلى الظرف. في الصباح التالي وصلت رسالة أخرى. بدت رسمية وقد طلب مني ساعي البريد التوقيع لإثبات الاستلام. حوت خطابًا من نيو سكوتلاند يارد ينصحني بالمثول بين يدي الشرطة في مكتبها الواقع في منطقة فيكتوريا «في أقرب فرصة مناسبة». أخافتني الرسالة. لم أفهم كيف عرفوا بعنواني.

مشيتُ إلى منطقة فيكتوريا غير قادرٍ على التخلص من رجفة ركبتيَّ. استقبلني رجلان لابسان بِذْلَتَين لونهما رمادي غامق. شكراني على المجيء وقاداني إلى غرفة خالية من النوافذ ولم يكن بها إلَّا طاولة وثلاثة كراسي. كانت الجدران عارية تمامًا. وقد خلت الطاولة إلَّا من ظرف كبير بُنِّيّ منتفخ. سألاني عن أحوالي. ومع أن تعاطفهما بدا صادقًا، توقَّعت تبدُّل ملامحهما في أي لحظة.

أكبرهما سنًا بقليل عرَّف بنفسه وقال إنه مكلَّف بالقضية. كان يلبس ربطة عنق زرقاء مخطَّطة بخطوط حمراء دقيقة مائلة. أردت سؤاله عمَّا يقصد بالقضية.

«ربما تتساءل لماذا طلبنا مجيئك»، قال الأصغر سنًا وكان يرتدي ربطة عنق زرقاء خالصة.

قال أكبرهما: «في الحقيقة فقط للتأكد من أن كل شيء على ما يرام».

حلّت لحظة غريبة حينما طلبا مني خلع قميصي لأريهما إصاباتي. كان الفصل صيفًا وقد لبستُ قميصًا لا غير. وقفا وأحاطا بي مقتربَين مني كثيرًا حتى شعرت بحرارة جسديهما على جلدي. دارا ببطء حولي وهما يتفحّصان النُّدوب حيث اخترقني الرصاص، والتفّا حول خاصرتي حتى وصلا إلى ظهري حيث تظهر آثار خروج الرصاص. حسبتُ أن اهتمامهما كان روتينيًا، فلعلهما ابتغيا مقارنة موضع الإصابة بتقرير الفحص الجنائي ليحدّدا مكان وقوف كل شخص في ذلك اليوم. إلا أن ذلك وحده لم يكن ليفسّر مسلكهما.

«الجرح يبرأ جيدًا. أليس كذلك؟»، قال الرئيس لنائبه، كأن جسدي كان مسألة مصلحةٍ عامة.

«بلى»، قلت متظاهرًا بأنهما لا يعلمان شيئًا عني. «إنني أتعافى جيدًا. منذ مدة قصيرة زرت المستشفى وكان الأطباء مسرورين بحالي».

شيءٌ في صمتهما أكّد أنهما كانا يعلمان بزيارتي للمستشفى. لا بد أنهما حصلا على عنواني من هناك. أو لعلهما كانا طوال الوقت على علمٍ به. طلبا أن ألبس قميصي وأجلس.

«أتريد قهوة أو شايًا؟».

«لا، شكرًا».

«إذًا يا خالد»، قال أصغرهما ملتفتًا إلى مديره التفاتًا سريعًا. «كيف هو الحال هذه الأيام؟».

أضاف رئيسه قائلًا: «هل من شيء يقلقك؟».

«هل لاحظت شيئًا غريبًا منذ خروجك من المستشفى، شيئًا تكرهه؟».

سألته: «ماذا تقصد بشيء أكرهه؟».

تبادلا النظر، ثم قال الأعلى رتبة: «من الحكمة أن تبقى حذرًا».

وضَّح الآخر قائلًا: «في حال لاحقك أحد ما».

أضاف الآخر وهو يمسُّ ربطة عنقه: «في هذه الأحوال هناك أشياء يمكنك فعلها».

«نحن هنا لمساعدتك».

«مثلًا، إذا شككتَ في أن أحدهم يلاحقك فغيِّر وجهتك، تظاهر بأنك تذكرت شيئًا فجأة. وإذا ألحَّ ملاحقُك فاقصد أول مركز شرطة أو صندوق هاتف واتصل بأحدنا».

وضعا بطاقتيهما على الطاولة أمامي.

قال أكبرهما: «احرص على ألا تتحدَّث إلى أحد سوانا. نحن مكلَّفان بهذه القضية».

سألت: «لِمَ تصرَّان على تسمية الأمر بالقضية؟».

«حسنًا، إن ما حدث لم يكن عاديًا»، قال مخاطبًا إياي كأنني أصغر من عمري بكثير. «مؤسف جدًا. إننا آسفان جدًا لما وقع لك».

قال الآخر: «واحدة منّا قُتِلَت».

قلت: «نعم، رأيتها».

قال رئيسه مرة أخرى: «مؤسف جدًا. عملنا هو أن نتثبَّت من أن جميع من كانوا هناك ذلك اليوم آمنون على أنفسهم ومحميُّون».

الصمت الذي تلا ذلك لم يُرِح أي واحد منّا. فكّرت في مصطفى، وكانت تلك أول مرة أشتاق إليه بشدة. أتراه دُعِيَ أيضًا إلى لقاء كهذا؟

قال أكبرهما: «سنعجِّل بطلبك اللجوء. لا ننصحك بالعودة إلى وطنك في الوقت الراهن».

ثم بعد مدة صمت أخرى سألني أصغرهما: «ماذا ستفعل الآن يا خالد؟».

قلت: «لا أدري. لعلني أذهب إلى البيت أو أتمشّى...»، عندئذ أدركت أنه قصد شيئًا آخر تمامًا.

لاحظا أنني أدركت سوء فهمي، لكنهما لم يسألاني مرة أخرى. ناولاني الظرف البني الكبير الذي كان على الطاولة.

قال أكبرهما: «سترتك».

شرح أصغرهما قائلًا: «ما عدنا بحاجتها».

ولمَّا هممت بالخروج قال أكبرهما: «تذكَّر كلامنا، وأبقِ عينيك مفتوحتين».

بدا أن كليْهما كان راضيًا. رجلان اعتقدا أنهما قاما بعملهما على أتم وجه.

في الخارج وأنا في الشارع انعطفت بسرعةٍ أكثر من مرة ثم ركضت إلى الشقة. بحثتُ عن رقم هاتف مصطفى ولم أجده. أسدلتُ الستائر ومزَّقتُ الظرف. خرجتْ السترة كتلة واحدة متيبِّسة، وكانت صغيرة كثوب طفل. اسودَّ دمي وفاحت منه رائحة صدئة. لم يغسلوا السترة. لعلَّه من غير المعقول أن أتوقع أن يغسل المحققون الجنائيون سترتي قبل إعادتها، لكن هذه الحقيقة أزعجتني كثيرًا. أعدت حشو الظرف بالسترة وقمت بفعلٍ أندم عليه من حين لآخر. مشيت إلى حديقة هايد بارك ووجدت حاوية قمامة في بقعة لا يراها أحد ورميت السترة. انصرفت وأنا أشعر بفراغ يتصاعد بداخلي. بدا هذا الفراغ، بفراغه كلِّه، شيئًا له حضور. أشعرني برغبة في الهروب والغوص في أعماق نفسي، في تلك الوحشة الباردة، في قاعها، بعيدًا عن كل ما يجذبنا إلى الألم، ما يغرينا بعضِّ ضرسٍ مؤلم مع علمنا أننا يجدر بنا تركه في حاله.

٣٣

مع أنَّ لقاء سكوتلاند يارد سبَّب لي توترًا، بدأ يتخلَّل الأيامَ التي تلته شعورٌ واهن بالطمأنينة. أصبحتُ الآن لا أخرج أبدًا دون حمل بطاقتيهما في محفظتي. إلَّا أنني قلَّما نظرت ورائي. كنت أسمع أحيانًا عبارات مألوفة من طفولتي تتردَّد في ذهني: ما سيحصل سيحصل، ولكل أجلٍ كتاب.

اعتدتُ على أصوات البيت وعادات الزوجين في الطابق السفلي. كانا ينطلقان إلى عمليهما في الصباح الباكر، وهما يتحادثان على عجل ويصفقان الباب الكبير وراءهما. في طريقي إلى الخروج كنت أشمُّ في الردهة عطره الخاص بما بعد الحلاقة وعطرها. يعودان في المساء بضجيج أقل. صمَّمت على اجتنابهما، لكنني صادفتهما في يوم سبت وهما يدخلان. بعد ذلك لم تزعجني رؤيتهما مرة أخرى، حتى إنني أَمِلْتُ ذلك، مستمتعًا بالسلوك السهل في قول «هالو» لأناس لا أكاد أعرفهم.

أتى ساعي البريد مرتين، في الصباح الباكر ثم في الأصيل، دافعًا البريد في فتحة الرسائل. اشترك الزوجان في مجلة

ورلد أوف إنتيريز وصحيفة الإكونوميست. وجدت نسخًا منهما في المكتبة وتصفَّحتها.

بقيَ عندي حتى الآن نحو ٧٠٠ جُنيْه. أعددت ميزانية وخلصت إلى أنني أستطيع أن أعيش بـ٣٥ جنيهًا في الأسبوع، أو ١٤٠ جنيهًا في الشهر. عنيَ هذا أنني أقدر على الصمود خمسة أشهر. غير أنني لن أتمكن من المكوث هنا خمسة أشهر.

بعد أيام قليلة أتى ساعي البريد برسالة وطلب مني التوقيع لإثبات الاستلام. أخذتها إلى الطابق العلوي ولم أفتحها حتى الأصيل. كانت تحوي أوراق الموافقة على طلب اللجوء.

هاتفتُ هنري. هذه المرة كنت أنا من تكلَّم أكثر. لم أخبره بلقائي بشرطة سكوتلاند يارد. لم أقل له إنني أقضي معظم أيامي في المكتبة لأن الانغماس في كتاب كان يهدِّئ أعصابي. لم أقل إنني شرعت أقرأ على نحوٍ أكثر منهجية، وإنني أنتقي كاتبًا وأقرأ كتبه كلَّها. لم أقل شيئًا عن الهَوَس في تقدُّمي هذا. ولا عن أن هناك أوقاتًا خاطفة ومجرَّدة لكنها حيَّة كالوجود، حين يختفي كل ما كنته وكل ما حدث، وأجدني هائمًا في حياة متخيَّلة. ولم أقل إنني عندما تغلق المكتبة أبوابها أجول في المدينة، بدلًا من السُّكر، حتى تتعب قدماي. في بعض المنعطفات، كنت أستشعر عاطفة غريبة من جانب المدينة ـ عدا أنها لم تكن عاطفة تمامًا وإنما توافق ـ وأنني كلما تحركت فيها تحركتْ هي أيضًا فيَّ. شعرت بأن هُوِيَّتي المجهولة كانت تحميني، بل إن ما كان يحميني

أكثر هو لندن، بشوارعها الأشبه بمتاهة حين ينعطف بعضها على بعضه الآخر كأنما صُمِّمت لغرض حفظ الأسرار. لم أقل إنه كان عليَّ أحيانًا في أثناء هذا المشي الليلي إبعاد شكِّي في أنني كنت أغوص، أغرق غرقًا لا سبيل إلى ردِّه، وإنه كان شعورًا يشبه الموت، وبدت كل الوجوه المحيطة بي كأنها تنتمي لأشخاص كَفُّوا عن الوجود منذ زمن طويل. في لحظات كهذه، كانت لندن هي الآخرة. هذا المشي، ساعد رئتيَّ، حسَّن نومي، وحتى مع استمرار الأحلام العنيفة فإن قراءات ذلك اليوم كانت تنسلّ إليها. بدا أن الحزن والتشويش والحيرة والخوف لم تكن أشياء تخصني وحدها. لقد رأيت حقولًا كذلك. رأيت بحري ووالديَّ. النور الأليف. وحين يصبح الصباح، أتهاوى مرة أخرى، أتصدَّع من منتصفي وأتناثر. لم أكن رجلًا، بل قطعًا بحاجة إلى التجميع كل يوم.

لم أقل شيئًا من هذا لهنري. قلت له إنني كنت أقرأ جِين رِيس.

سألني: «وبماذا خرجت؟».

«نسخت سطورًا. أتودُّ سماعها؟».

قال: «نعم».

«على أنها في أوقاتٍ أدركتْ أن وجودها كان عشوائيًا، وإن كان مبهجًا».

لم يقل شيئًا.

«تحين اللحظة عندما لا يكترث حتى أرقّ إنسان بشيء»، وتلك لحظة ثمينة».

قال: «راقني هذا».

قلت: «وأنا أيضًا».

أردت أن أقول له إنها أحزنتني، لكنها لم تشعرني بالوحدة، وإنني بقراءتها لم يهمّني كثيرًا أن أكون حزينًا ووحيدًا. أردت أن أقول إنني ما أحببت قصائد روبرت براونَنج التي تحدث وقائعها في روما إلّا لأن وصفه الضوء يذكّرني بالوطن. ثم أخبرته أنني نسخت قصيدة «حقول بارلمنت هِل» لسِلفيا بلاث وكنت أقرأها كل ليلة قبل خلودي إلى النوم لأحفظها. أمِلتُ أن يطلب مني تلاوتها، لكنه لم يفعل. قلت له إن في المكتبة المحلية العامة كُتُبَ الطيب صالح بالعربية، وإن ذلك كان كالعثور على صديق قديم في وسط لندن. قال إنه تمنّى لو استطاع قراءة «موسم الهجرة إلى الشمال» بالعربية. لم أكن قد قرأت الترجمة الإنجليزية بعد إلا أنني قلت له إن الكتاب بالعربية مختلف تمامًا وأثره أقوى. سألته إن كان يعرف كاتبًا زمبابويًا اسمه دامبودزو ماريتشيرا. لم يكن يعرفه.

قلت: «ولا أنا أعرفه. اخترته لأن صورة الكاتب أثارت فضولي».

سألني: «وما أثار فضولك فيها؟».

قلت: «لا أدري. ظهر لي رائعًا، وأشد غضبًا من أن يكتب كتابًا».

ضحك.

«كرجلٍ يفضِّل إحراق نفسه على أن يتراجع عن رأيه مقدار بوصة».

قال متأملًا: «نعم».

قلت: «يعجبني ذلك. أترى؟».

«نعم»، قال مرة أخرى، لكن لا موافقةً بقدر ما كان ذلك إقرارًا، كأنه كان قد حدس أن هذا ما شعرت به.

طال بيننا الصمت فقطعته بقولي: «استلمت توًّا أوراق الموافقة على طلب اللجوء».

قال: «خبر ممتاز!».

قلت: «لماذا؟».

فاجأه السؤال قليلًا. «حسنًا، لأنك ستستطيع أن تعمل وتدرس. يمكنك العيش هنا ما شاء لك».

لم أستطع أن أتكلَّم بضع ثوانٍ بعد ذلك.

أخيرًا قلت: «كنت أفكر في سؤالك. عن الأشياء التي أحتاج إليها».

قال: «آه وهي؟».

قلت: «ثلاثة أشياء».

قال: «ممتاز». وتخيَّلته يتناول قلمًا. «ابدأ بالأهم من فضلك».

«المال».

«نعم».

«مكان أعيش فيه، والدراسة».

لم يتوقَّف بل انغمس من فوره في التفاصيل. قال إني لن أتمكَّن من العمل دون أن يكون عندي إثبات عنوان ومن ثمّ ينبغي البدء في ذلك أولًا. سألني كم عندي من المال وفورًا وضع لي «خطة مالية».

«ليس عندك ما يكفي لدفع إيجار وعُرْبون شهر. سأقرضك العُرْبون. أظن أنك ستحتاج إلى رسالة توصية كذلك. يسعدني أن أكتبها لك وأزعم أنني مؤجِّر سكنك السابق، كذبة غير مؤذية. ومتى ما أنجزتَ ذلك عليك البدء في البحث عن عمل. شيء تضمنه بسرعة، عمل في مقهى أو مطعم أو ـ خير من ذلك ـ مكتبة حيث قد تحصل على خصومات».

كنت في الثامنة عشرة من عمري، ولم أعمل من قبل قطّ، ولم أعش وحدي قطّ ولا تكفَّلت بشؤوني.

«وإن لم أجد عملًا؟ أو لم أجده في الوقت المناسب؟ أو وجدته ثم خسرته؟ وإن لم أقدر على إيفاء ديني لك؟».

قال: «تاريخ البشرية كله يقوم على كسب الناس قوتهم. فليكن ذلك مبعث راحة لك. وفي أسوأ الأحوال تستطيع الإقامة في غرفة عندي. إلَّا أنك لن تحتاجها. فأنت ذكي ومُجدّ. قريبًا ستقف على قدميك. لو كنتُ مقامرًا القامرت بمالٍ سخيٍّ عليك».

وأنا أصغي إليه تسلَّقتْ الشجاعة الجدران وتسلَّلتْ إلى الداخل.

في كل يوم بدا أن الحياة تصير ممكنة أكثر. عند كل خطوة هاتفتُ هنري. ساعدني على ملء الاستمارات، وكتابة سيرة ذاتية، وأخيرًا عندما وجدت شقة أعجبتني وأمكنني دفع إيجارها سارعت إلى أقرب صندوق هاتف وأدرت رقمه وأخبرته بكل شيء عنها وسألته إن كان يعرف الحيّ.

قال: «لطالما أحببتُ شيبردز بُش. السوق، والناس من جميع أرجاء العالم».

قلت له: «لا يبعد كثيرًا عن سكني الحالي وقد قرأت مرة أن روبرت لويس ستفنسن عاش هنا».

قال ضاحكًا: «حسنًا، ذلك يحسم الأمر إذًا».

٣٤

تسارعت الأشياء. في أقل من شهر كنت في شقتي. أخرجتُ أمتعتي يوم وصلت، ولكن لمَّا لم يكن عندي أثاث إلَّا فراشًا على الأرض وطاولة إفطار صغيرة في المطبخ، بعنايةٍ صففتُ كتبي وثيابي حول محيط الغرفة الخالية. كانت ألواح الأرضية عارية وبينها شقوق ضيقة تظهر من حين لآخر. في ساعات المساء الهادئة كنت أستطيع أن أسمع أحيانًا كلمة مما يقوله الزوجان في الطابق السفلي. كان المطبخ صغيرًا ومشرقًا وله نافذة كبيرة. وقد وقعت الشقة في الطابق العلوي لبيت صغير يقع آخر شرفة طويلة، فأتاح لي ذلك إطلالة على الحدائق الخلفية الممتدة في صف طويل، يفصل كلًّا منها سياجٌ عن الأخرى. من حين لآخر كانت تظهر شجرة مشرئبَّة كعلامة تعيِّن المسافة. حرص السِّمسار على الإشارة إلى أنه من النادر الحصول على منظر رحب كهذا. وقفتْ النوافذ الخلفية للبيوت على كلا الجانبين بلا لونٍ في النهار، لكنها كانت تضيء في الليل، فكان لكل نافذة لونٌ يتدرَّج بين الأبيض والأصفر. في بعض الأحايين يمر شخص أو يقف مثلي ناظرًا. لم أعرف حينها أنني سأعتاد هذا المنظر على نحو

حميمي جدًا، سأراقب هذه الأشجار وهي تتحوَّل وتنمو طيلة ثلث قرن.

كان واضحًا أنني أضعت الورقة التي كتب فيها مصطفى رقم هاتفه. فكَّرت أن أهاتف أهلي وأرى إن كان أبي يستطيع أن يكلِّم أهل مصطفى ويحصل على رقم هاتف خاله في مانشستر. ثم تخيَّلت أمي تسألني لِمَ لم أرسل عنواني الجديد بعد. من حينٍ لآخر داومتُ على كتابة بطاقات بريد موجزة إليهم، مدَّعيًا زيارة لندن مرة أخرى. «أكتب إليكم من هنا لأن الوقت لا يُتاح لي إلا هنا. في الجامعة أكون مشغولا جدًّا». ثم أركب حافلة وأقصد طرفًا مختلفًا من المدينة حتى لا يُظهِر طابع البريد المنطقة حيث أقيم.

كتب لي ولبروك خطاب توصية ملفَّقًا زعم فيه أني عملت معه وساعدته في البحوث، وأنه وجدني «عالي الهمَّة، ومحل اعتماد، وموثوقًا». وجدت عمل مساعد مبيعات في متجر ملابس بشارع كِنجز رود. كان يبعد أقل من نصف ساعة بالحافلة وقد أبليت بلاء حسنًا في العمل الذي أُلحِقت به عمولة مبيعات. حالما قضيتُ دَيْني لهنري أنقصتُ جدول عملي إلى ثلاثة أيام ونصف يوم في الأسبوع. قضيت باقي الوقت في القراءة وزيارة المتاحف والمداومة على المشي. اكتشفت أنني أستطيع التَّسلُّل إلى المسارح والحفلات الموسيقية. كنت ألبس قميصًا رسميًا، وفي الاستراحة أقصد الحانة حريصًا على حمل كتاب في جيبي. عندما يُقرَع الجرس للمرة الثالثة أتقدَّم مع الآخرين متظاهرًا بالانغماس

في الكتاب الذي أقرؤه. ولأن الناس عامةً لا يحبون مقاطعة إنسان يقرأ كنت أدخل المسرح كمن يمشي في نومه. حالما أدخل، أقف مُتلكئًا، مسحورًا بالكتاب الذي بين يديَّ، ناظرًا بتصميم إلى الصفحة حتى إذا جلس الجميع على مقاعدهم وأطفئت الأضواء رفعتُ بصري متصنِّعًا شيئًا من الاندهاش، وبتبسُّم رقيق الخجل كتبسُّم الشيوخ ألوذ بأقرب مقعد خالٍ. هكذا شاهدت النصف الثاني لأشياء كثيرة. في المسرحيات شعرت بأني متطفِّل وبأن كل الجالسين إلى جانبي - وجوههم يضيئها المسرح - يعرفون عن القصة أكثر مما أعرف. لم يكن الحال هكذا مع موسيقى الحجرة، فالنصف الثاني من الأداء كان يتألف من مقطع واحد أو عدة مقاطع متكاملة. لم تكن هناك حاجة إلى تحضير. ولأنني لم أكن قادرًا على انتقاء ما أسمع وما أتجنّب أصَبْتُ من هذا العمل السِّرّيّ معرفة واسعةً بالموسيقى.

شُغِلَتْ رنا بأعمال نهاية العام الدراسي، لكنها تمكنت من زيارتي أكثر من مرة. كانت سعيدة جدًّا بالشقة الجديدة وأصرّت على الذهاب إلى سوق شيبردز بُش لشراء ستائر. اختارت القماش وناقشت الرجل في الزّركشة والتفاصيل الأخرى كافة. يومَ أحد أعددت لها طاجينًا ليبيًا وأعجبها هذه المرة. خفّ قلقها عليَّ وقد أزاح ذلك معظم القلق الثقيل عن كاهل صداقتنا. استطعت أن أدرك أن هذه الخفة أبهجتها هي كذلك. جرَّبتُ أخذها معي لتسلُّل إلى عرض مسرحي. وجدتُ الأمر مثيرًا وفاضحًا. كان الشعور بالذنب باديًا عليها كأنها طفلة، وهو ما حتّم كشف فعلتنا.

أخذتها إلى الأماكن التي اكتشفتُها منذ عهد قريب في المدينة. شربنا قهوة إيطالية في سوهو وقضينا أصائلَ في مكتبات بيع كتبٍ مستعملة في شارع تشارينج كروس رود، حيث بحثت هي في قسمَي الفن والعمارة وتأمَّلت أنا رفوف قسم الأدب. كنا نجد بعد ذلك مقهى ويُرِي أحدنا الآخر مقتنياته الجديدة.

عندما أتى والداها للزيارة، دعواني للعشاء في مطعم فرنسي قرب ضاحية بَيز ووتر. بسبب الحرب الأهلية اللبنانية انتقلت عائلتهم إلى الأردن، حيث أسَّس والد رنا شركة هندسة معمارية ناجحة. على نحوٍ ما كنت واثقًا بأن رنا لم تخبرهما بواقعة إطلاق النار. أُعجِبتُ بهما، لكنهما حيَّراني كذلك. بدا كأنهما ضُبِطا على إيقاع إنساني مختلف: كانا لطيفين وواثقين ويعرفان كيف يشقَّان طريقهما في العالم، وما كانا ليسمحا لأنباء سيئة بأن تعترض طريقهما. وقد أوضح الأب بقوله إنه لا يستطيع الانتظار حتى تتخرَّج رنا وتلتحق بشركته. ذكَّرته الأم بأن رنا حُرَّة في فعل ما تشاء.

قال: «أعرف، أعرف، لكنني أعتقد أن العمل عند أبيها سيسعدها كثيرًا». كانت ضحكته جميلة ومُعْدِية. ثم سألني كأن سؤاله جزءٌ من الحديث نفسه: «كيف حال ليبيا هذه الأيام؟».

لم أفهم مقصده.

«هل هي مكان جيد للعمل؟ كيف هي الأحوال السياسية؟ هل رجلكم، السيد القذافي، مجنون مثلما يقول الجميع؟ واضحٌ»،

قال وضحك ملتفتًا إلى زوجته، «واضحٌ أن إطلاقه النار على الناس من داخل سفارته جنون، لكن كيف هو حقًا؟».

لم أستطع التفكير في شيء أقوله.

قالت له رنا: «حين يكون المرء من بلداننا فإنه يشعر على الدوام بأنه ملزم بالشرح».

وافق أبوها قائلًا: «نعم. لكننا حتى نحن اللبنانيين لا نقوم بمثل هذه الأفعال».

٣٥

في أغسطس، مُنِحتُ وثيقة سفر زرقاء تتيح لي دخول أوروبا دون تأشيرة. أرادت رنا أن أنضم إليها وصديقتها سهام - وهي فلسطينية كانت أيضًا تدرس الهندسة المعمارية في إدنبره - في رحلة إلى كوستا برافا، حيث كان لوالدَيْ سهام منزل قرب البحر. هيو ولوسي، صديقا سهام ورنا كانا سيأتيان أيضًا. من فوري قرَّرتُ الرفض، لكنني، خشية أن أخيِّب أمل رنا، قلت لها إنني سأفكِّر في الأمر.

قالت: «وماذا هناك لتفكِّر فيه؟ اسمعني، أعرف أنك تكره الطيران. سنسافر بالسيارة - كم سيكون ذلك مُسَلِّيًا! - وسنعبر فرنسا». يومًا بعد آخر كانت تهاتفني لإقناعي. «خبِّرني بما يقلقك؟» كانت تقول، وفي كل مرة لم تكن تحكم على مخاوفي ولا تتجاهلها. «هيو ولوسي طيبان. وأنت وسهام أعز أصدقائي. وقد آن الأوان لتتقابلا أنتما الاثنان على الوجه الصحيح. والشمس - يا إلهي، الشمس يا خالد! - ستكون مفيدة لنفوسنا. قل نعم».

وافق مديري في العمل على إجازة غير مدفوعة الأجر لأسبوعين. طلبتُ سُلْفَةَ من البنك ووافق على منحي سلفة

صغيرة. قادت رنا وأصدقاؤها السيارة من إدنبره إلى شيبردز بُش لاصطحابي، وأوقفوا سيارتهم في الخارج وضغطوا بوق السيارة. كانت سيارة فورد إستيت الخضراء العتيقة تعود إلى هيو ولوسي، وهما حبيبان إسكتلنديَّان، كانا يخططان للزواج مع أنهما لم يلتقيا إلا مؤخرًا في الجامعة. منذ زمن طويل لم يسبق لي أن كنت مع أناس كثيرين وفي مساحة صغيرة كهذه. في لحظة من اللحظات، ونحن نعبر القناة الإنجليزية على متن العبَّارة، وقفنا جميعًا على سطحها والريح تهب على وجوهنا. لتجنُّب رسوم المرور، سلكنا طرقًا خلفية طوال الطريق عبر فرنسا. تقاسم جميعنا القيادة ما عدا سهام التي لم تكن تجيدها، ولم نقف إلَّا للتَّزوُّد بالوقود أو القهوة والشطائر. حينما لم يكن دوري لقيادة السيارة، أجلس في الخلف إلى جانب سهام التي أصرَّت على الجلوس في المقعد الأوسط.

قالت: «هذا أقل ما يمكنني فعله، خصوصًا أنني أثبتُ أن لا نفع لي في هذه الرحلة».

في أول الأمر، حرص كلانا أشد الحرص على شغل أقل ما يمكن من مساحة، لكن في نهاية المطاف استرخى جسدانا والتقت حرارتهما بتلاصق ذراعينا وخاصرتينا وفخذينا. دفعني ما تبادلناه من كلمات قليلة، وفوق ذلك ما تبادلناه من صمت، إلى الاعتقاد بأنها تعلم بما وقع لي، وأن رنا أخبرتها ولعلها شاطرتها أيضًا المخاوف والهموم التي لم تشاطرني إياها. وقد شككتُ في أن شيئًا من هذا كان وراء حذرها الجسدي في البداية،

وأن ذلك ـ إلى جانب اللباقة ـ جعلها واعية بالجسد المصاب الجالس بقربها.

مررنا بحقول عبّاد الشمس، وعبرنا صفوفًا من الأشجار الشمالية التي لم تكن مألوفة لي بعد؛ أشجار قيقب وطقسوس وبلُّوط. شققنا طريقنا بين القرى الفرنسية الناعسة. استمعنا إلى بوب ديلَن وجوني مِتشل، وأدهشني اعتراف الجميع بأنهم هم أيضًا بكوا أكثر من مرة لسماعهم أغاني جوني متشل. تحدثنا عمّا أثَّر فينا تحديدًا في هذه الأغاني، وأحببت الصمت الذي أعقب ذلك.

قام تحالف بيني وبين سهام. كلما تكلمتُ شعرتُ بأنها كانت تشكّل كلماتها لتلائم أذنيَّ. وكلما قلتُ شيئًا فكّرتُ كيف ستستقبله معتقدًا أنها ستفهم قصدي أفضل من الجميع. شيء فيها أثار شوقي إلى أختي سعاد.

كلما توغلنا جنوبًا أشرقت الأرض أكثر. أصبحنا الآن بين أشجار مألوفة: السَّرو، والصنوبر، والتين، والزيتون، واللوز. ولمَّا حلَّ الليل، صار عطر الأشجار حِرِّيفًا وحُرًّا، كأن الطبيعة انخرطت هي الأخرى في بوحها الليلي. فتحتُ النافذة وتنشَّقتُ ذلك كلَّه. لاحظت سهام ذلك.

قالت: «رائحة كرائحة الوطن».

«بالضبط».

تتشاطر ليبيا وفلسطين البحر الأبيض المتوسط. الجميع كان نائمًا ما عدا هيو الذي كان يقود السيارة. تحوَّلتُ وسهام

إلى الحديث بالعربية، هامسَين بها برفق. سألتها عن والديها. قالت إنهما كوالدَيْ رنا يعيشان في الأردن، وعندهما بيت في إسبانيا لأنها تذكرهما بالوطن. في وقت من الأوقات، بعد توقفنا عن الكلام بوقت طويل والدنيا خارج النافذة مظلمة وعطِرة، تعانقت يدانا.

مع طلوع الفجر وصلنا إلى الحدود الفرنسية الإسبانية. قدنا السيارة قرابة خمس عشرة ساعة. كنا متعبين ونتطلّع بشوق إلى إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط الذي استطعت شمَّ رائحته من بعيد، كان مألوفًا وبلا نهاية. كانت هناك نقطتا تفتيش، فرنسية ثم إسبانية. لم يسمح لي ضابط الهجرة الفرنسي بالعبور. لم يفهم كيف دخلتُ البلاد بلا تأشيرة. ذكرتُ أن وثيقة سفري البريطانية تنص بوضوح على أنني لست بحاجة إلى تأشيرة.

بإصرار قال: «إن هذا لا ينطبق عليك. لا ينطبق على الليبيين ولا على الفلسطينيين ولا على السوريين».

حاول هيو ولوسي وسهام مناقشته. كانت رنا، من جهتها، مشغولة بالضحك. وقد انزعج الضابط.

قال بحدَّة: «ما المضحك؟».

قالت له رنا: «إنك لا تسمح لنا بالخروج من فرنسا لأنك تقول إننا لا ينبغي أن نكون في فرنسا».

قال الرجل: «بالضبط».

كان هيو ولوسي يتحدثان الفرنسية، وذلك ألانَ جانب الرجل قليلًا. وفي النهاية قال إنه سيسمح لي بالمرور بشرط

أن نتجه مباشرةً إلى السفارة الفرنسية في مدريد ونتقدم بطلب تأشيرة اليوم.

ثم قال: «وفي كل الأحوال، لن يُسمَح لك بدخول فرنسا في طريق العودة دون تأشيرة».

انطلقنا، وبعد شيء من الراحة شعر الجميع بالإهانة نيابة عني. في أول الأمر أبهجني ذلك، ثم استحال غضبهم أسئلة: «هل نذهب إلى مدريد الآن أم فيما بعد؟ أكان الرجل عنصريًا أم فقط بيروقراطيًّا مغاليًا؟ هل حدث هذا من قبل؟ ولماذا أحمل وثيقة سفر لا جوازًا؟ أجبت عن كل سؤال بغموض محاولًا أن أبدو مرتاحًا ولا مباليًا في وقت واحد. ألحَّ عليَّ هيو بالتوجُّه إلى مدريد، وعرض أن يأخذني إليها بالسيارة.

قلت: «لا تقلق. سأذهب بالقطار حالما نستقر». وقلت كاذبًا: «على أية حال، لي ابن عمٍّ هناك وسيكون جيدًا أن أراه. ولعلني أبقى هناك بضعة أيام». ولكي أتلافى المزيد من الأسئلة، اختلقت قصة عن ابن العم المتوهَّم هذا. قلت لهم: «هو مؤرِّخ موسيقي. يقارن المقامات العربية بالموسيقى الأندلسية. يعزف ست آلات موسيقية. رجل غاية في الطرافة. دائمًا ما يضحكني. سبب وجيه للذهاب إلى مدريد».

أرادت لوسي أن تعرف ما المقامات وقلت لها إنها أوزان موسيقية.

قالت سهام: «حسنًا، ليس تمامًا. هي بُنى لحنية في الموسيقى العربية الكلاسيكية».

سألتها رنا من أين لها بمعرفة هذا كلِّه؟

قالت لها سهام: «درست الموسيقى وأنا طفلة. لكنك تعرفين هذا»، ثم روت لنا عن حبِّها الموسيقى، وفي تلك اللحظة، نسينا كلنا مدريد.

حين صمتنا قالت رنا لسهام: «لحسن الحظ أن الفرنسي لم يلاحظ من جوازك الأردني أنك فلسطينية».

«أو أن أمَّكِ سورية»، قالت لها سهام وضحكنا جميعًا.

٣٦

كان البحر جميلًا لم يتغيّر، وجماله جزءًا من وفائه. كان مثلما تذكَّرته تمامًا، وهذا جعله يبدو كأنه يتذكَّرني أنا أيضًا. في النهار كان بئرًا من نور. كان يقبض الأشعة حاجبًا إيَّاها، كنمط فني يدور حول نفسه، يختفي هنا، يتقدَّم هناك، يموت، يموت باستمرار. وحين أقبل الليل، صار الماء كثيفًا وثقيلًا وأسود. دخلتُ فأفسح الطريق. في الأعماق أحسستُ بأن ما يختبئ تحته كان حيًّا وله غاية. قلت لنفسي: يجب أن تكون يقظًا، فقد يكون المعنى أن لا وجود لمعنى: أن البحر، بإشراقه وظلامه، لا يكترث لحنين الإنسان. وأن إصابة الناس بالرصاص أو عدم إصابتهم، وغرق الصيادين أو عدم غرقهم، كله يحدث وفق منطق الطبيعة اللا مبالي نفسه.

لكأن الخليج الذي يشرف عليه البيت قد اجتُثَّ من الساحل الليبي شرق بنغازي، في بلاد أمي بالجبل الأخضر، حيث ذهبنا في أحايين كثيرة في رحلات يومية، حيث تسبح وتنظر خلفك إلى الأرض وهي تنهض خضراء وصفراء. أخبرت رنا بهذا عندما كنا وحدنا في الماء.

قلت: «فقط تخيَّلي أن هذا هو الماء نفسه».

قالت: «ولماذا أتخيَّل؟ هو نفسه. عدا أنه بلا تعقيد».

ضحكنا.

قلت: «لو كانت هذه ليبيا لحملق الرجال».

قالت: «وليس الرجال وحدهم».

في خلال الصمت الوجيز الذي أعقب ذلك، بينما تمايل جسدانا في الماء ونحن نواجه الجرف حيث الصخور ترتفع ارتفاعًا حادًّا وأشجار الصنوبر تتشبَّث بها، جذوعها سوداء وظُلَلُها شديدة الخضرة وتلتفُّ إلى الأعلى بتعطُّش نحو الضوء، فاجأتني رنا وعادت إلى ذلك اليوم عندما أقلَّتني من مستشفى وستمنستر. ربما كان البحر أو رؤيتها إيايَّ سعيدًا ما حملها على الاعتراف بأنها كانت قلقة، وبأنها تظاهرت بالشجاعة فحسب، وبأنها طوال الطريقِ إلى لندن لم تكفَّ عن النظر وراءها وتغيير العربات، وأنها لمَّا توقَّف القطار في كِنجز كروس انعطفت أكثر من مرة. قالت إنها فعلت هذا في كل مرة أتت للزيارة. وقبل ذهابها لآخذ أمتعتي من غرفتي، اعتراها ألم في بطنها طيلة الليلة السابقة. ضحكتْ، أو حاولت الضحك وهي تقول هذا. غاصت في الماء وخرجتْ ورأسها مائل إلى الخلف، وقد مشَّط الماء شعرها، ولمع وجهها وتقاطر منه الماء. كان هناك شيء آخر أرادت قوله.

نظرتْ إلى البعيد وسألتني: «كيف كان شعورك؟ حين أُصبت بطلق ناري».

«لا أعرف»، قلت محاولًا تثبيت عينيَّ على شجر الصنوبر، ورأيت حبلًا غليظًا ينقطع، وظلَّ مرساة يغوص في الأعماق. فكَّرتُ؛ كلَّا، لا تقل لها هذا. بدلًا من ذلك قلت: «لأصدقك القول، أعتقد أنني كنت محظوظًا. لقد أنقذني الرصاص من قدر أسوأ».

تعلَّقت قطرات ماء برموشها. ظهر على مُحيَّاها تعبير ناعم وإن لم يكن مقتنعًا.

«أعتقد ذلك حقًّا»، تابعتُ، وقد شعرتُ بحرارة عاطفة غير مرئية وغير صادقة، شيء كأمل أو يأس أو كبرياء ماكرة. ما كنت واثقًا منه هو أنني خنتُ أحدًا ـ نفسي أو صديقتي أو ربما كليهما ـ وأن هذه الحقيقة لا مفر منها، تحوم بيننا في الماء.

كنت لابسًا قميصي التيشيرت وأنا في الماء. ارتديته طوال الوقت، حين أسبح أو أتشمَّس. اختلقت عذرًا أمام الآخرين بأن جلدي يتحسَّس من الشمس. مرة لمَّا كنت في الغرفة المجاورة ولم يعرفوا أني أستطيع سماعهم، سمعت هيو ولوسي يسألان رنا عن القميص. كان ثمَّة صمت طويل قبل أن تتكلَّم. «إنه جلده كما ترون. شديد الحساسية». وفكَّرتُ: يا لها من كذابة فاشلة، لأن الصمت الذي تلا كلامها كشفها، وجعلها تبدو غير مقتنعة. لعلها هي أيضًا شاركتهم الاعتراض. ولمَّا كنا أنا وهي في الماء وحدنا الآن، قالت: «لماذا لا تخلع القميص؟».

خلعته وألقيته أبعد ما استطعت، صوب الأعماق، حيث يمتد الأفق بلا انقطاع. ضحكتْ بعذوبة وفكَّرتُ: أرجو ألَّا تجرف المياه قميصي إلى اليابسة.

سبحنا عائدَين وقالت بصوت منخفض كأننا سنُسمَع: «إن سألك أحدهم فقل له إنك أُصِبتَ في حادث سيارة وأنت طفل».

«فكرة جيدة»، قلت، لكن، حين خرجنا من الماء وتعلَّقت عيناها بصدري، عبرت وجهها مسحةُ اشمئزاز واهنة. سريعًا عدت إلى البيت ووجدت قميص تيشيرت جديدًا ولم أخلعه على الشاطئ مرة أخرى قطُّ.

٣٧

ذات مساء والشمس تجنح للغروب، جلسنا نحن الخمسة حول طاولة صغيرة خارج حانة في ساحة قرية قريبة، من طراز القرون الوسطى، تقع أعلى تلّ. امتلأت طاولتنا بكؤوس وبأطباق طعام صغيرة. مشى الناس وتسكَّعوا في الأنحاء. كانت فوقنا زرقة السماء الباهتة وحولنا المباني المبنية بالحجارة الصفراء. كل خمس عشرة دقيقة رنَّت ساعة البرج القديم فتفرَّقت في السماء الطيورُ الصغيرة، السوداء سواد الحبرِ، لتعود بعد ذلك وتنخدع بالخدعة نفسها مرة أخرى. خفَّ تحفُّظي الصارم. ارتخت قليلًا الأيدي التي تخنق حياتي. غمرني شعور بالانفتاح وجعلني جسورًا، أكاد أكون بلا هموم في العالم. تحدثتُ وتحدثت، ورويت قصصًا، وسلّيتُ أصدقائي وأضحكتهم. لمحتُ في عينَيْ رنا نظرة ذكرتني بالأيام الخوالي في إدنبره، بالزمان ما قبل الزمان، عدا أن في عينيها الآن شيئًا من الفخر أيضًا، وكذلك مسحة راحة. «احكِ لهم تلك القصة عن...» أخذت تقول، وفي كل مرة كنت أحكي.

هبط الليل وظهرت النجوم. بقينا جالسين في هواء الصيف العليل، نشرب ونأكل، وتهبط أيدي بعضنا على أكتاف بعضنا الآخر. وضع النادل شمعة على طاولتنا فأضاء اللهب وجوهنا والتمع في كأسه الزجاجية. ثم فجأةً دوّى طلق ناري صاخب. بعد ثوانٍ أدركتُ أنه لم يكن إلّا صوت فرقعة محرّك سيارة تئنُّ صاعدةً أحد الشوارع المجاورة. لكن الأوان كان قد فات. فقد ابتعدتُ أقدامًا قليلة، ووقفتُ متجمدًا في مكاني. رأيت سهام وقد وضعت يدها على وجنتها واتسعت عيناها. كانت رنا الوحيدة التي لم تبقَ جالسة. كانت إلى جانبي مباشرةً، تضع يدها على ذراعي وكانت ذراعي ترتعش. قادتني بعيدًا. درنا في المسالك الخلفية الهادئة حتى تلاشى الذعر. لا أتذكّر أننا قلنا شيئًا. عندما عدنا إلى الآخرين، رأيت على وجوههم قلقًا حائرًا، صمتًا مزعجًا، فكرتُ حينها أن سهام ربما لم تجد بُدًّا من إخبار لوسي وهيو حينما كنتُ وَرَنَا غائبين. لم أكن لأمانع لو أخبرتهما. طلبنا المزيد من المشروبات، مكثنا وقتًا أطول قليلًا، لكننا تكلمنا كلامًا أقل وتكلمنا بأصوات منخفضة.

بينما كنا نقطع المسالك المتعرجة عائدِين إلى السيارة، تباطأتُ وسهام خلف الآخرين. اقتربت كتفها من كتفي.

قالت: «هل أنت بخير؟».

قلت: «نعم. إنه مساء جميل».

تابعتُ النظر إلى الأمام وأنا أحس بنظراتها إليَّ، راجيًا ألّا تسأل أسئلة أخرى. انعطف الشارع، وفي الثواني التي اختفى فيها الآخرون عن نظرنا، أمسكتْ بيدي.

لاحقًا في تلك الليلة جلسنا على حافة الماء الأسود، نصغي إلى الأمواج الخجلى. هي وأنا، كنا وحدنا، وحدنا تمامًا. سألتني أي الأماكن أحبُّ إليَّ. أدهشني ما خطر ببالي: درنة، مسقط رأس أمي، وفكرت في أن أروي لها عنها، عن رائحة النباتات العطرية ونحن نقود السيارة على التلال، عن شلال الماء الساقط من المجهول، عن البحر وراءنا دائمًا. لكنني قلت: «لا أعرف»، وسألتها السؤال نفسه. قالت إنه المكان حيث كنا نجلس. «هذه البقعة بعينها». قبّلتُها فقبّلتني. تبادلنا القُبَل طويلًا فشعرت بأن كل ما كنتُ عليه يسقط ويعود، يسقط ويعود. لم أعرف أن الفرحة يمكن أن تكون مؤلمة هكذا. لم أكد أنام تلك الليلة بسببها. قلت لنفسي: لك أن تعيش أي حياةٍ تشاء. وأي مكانٍ بمقدوره أن يكون مكانك المفضل أيضًا.

لكن في الصباح، حين أقبلتْ نحوي، ممتلئةً حضورًا وحياة، لم أعِرها اهتمامي. صُدِمَتْ، أهينَتْ، بدت كأنها صُفِعت. لم أعرف كيف أتراجع عن ذلك، كيف أكون متاحًا مرة أخرى، فكأنما كان هناك باب يُغلَق بداخلي.

قبل موعد عودتنا ببضعة أيام، بدأ الجمع يقلقون مرة أخرى بسبب تأشيرتي. أخيرًا أخبرتهم بخطتي: أنني لا أنوي الذهاب إلى مدريد، وأنني أكره السفارات، وأنني مستمتع جدًا هنا ولا أرغب في ترك البحر.

قلت لهم: «سنعود معًا كما خططنا منذ البداية، لكن سنأخذ الطريق الرئيس. سأدفع الرسوم وسأقود السيارة. ولأننا جميعًا

سُمْرٌ الآن، ستكون هيئتي أقل بروزًا. إن لم تنجح هذه الخطة، واصلوا طريقكم وسأتجه أنا إلى مدريد».

لم يرفضوا ولم يوافقوا.

حين اقتربنا من الحدود صمت الجميع. في المرآة الخلفية، رأيت سهام تهمهم لنفسها. لوَّح لنا الضابط بالمرور، ولمَّا ابتعدنا مئة قدم، انفجرنا نهتف هتافات عالية.

٣٨

من حينٍ لآخر كانت تصلني بطاقة بريد من هنري، عادةً ما كانت لوحة لرامبرانت أو تِشن أو إل جريكو. كان يبلغني عن زيارته للمعرض الوطني الإسكتلندي أو المسرح، مضيفًا سطرًا أو سطرين عن الطقس في إدنبره. ثم هاتفني وسألني إن تقدَّمتُ بطلب الدراسة في جامعة. أوصى بكلية بيركْبِك.

«يمكنك أن تنسّق ذلك حول ساعات العمل، فالمحاضرات تكون في المساء».

سألته: «لكن ألا يعني هذا أنها ليست كلية ممتازة؟».

قال: «لا تكن متغطرسًا. هذه البلاد مليئة بهم بما يكفي».

وعدته أن أنظر في الأمر.

ثم قال: «سأكون في لندن في عطلة نهاية هذا الأسبوع. هل أنت حُرٌّ لزيارة سريعة؟ أصِلَ السبت؟ أودُّ أن أرى المكان الذي عاش فيه روبرت لويس ستفنسن».

جلبتُ بعض الفلافل من عند الرجل السوداني الذي كان في السوق. عندما علّق على مزاجي المرح، قلت له إن صديقًا قديمًا

من الوطن سيزورني. قال: «في هذه الحال، ستكون هذه على حسابي»، ومهما حاولت فقد رفض أخذ المال مني. رتَّبتُ الشقة وأعددت دلَّة شاي. إنه شهر أغسطس ولم أره منذ إبريل حينما كنت طالبًا في إدنبره. أبهجني وأقلقني ترقُّب وصوله ووجوده في شقتي، شخص من الماضي يقف في حياتي التي أوجدتُها منذ عهد قريب. صافحني بحفاوة. تحرَّك في الشقة براحة، كأن المكان يملكه شخص عرفه طيلة حياته. فتح خزائن المطبخ، وأعجبته دلَّة القهوة الإيطالية.

سأل: «هل تعرف حقًّا كيف تستعمل هذه؟».

تذكَّرت لمَّا سألته أول مرة بتوتر أن نلتقي لشرب قهوة.

سألني إن كانت الستائر موجودة في الشقة منذ البداية.

قلت: «لا، طلبت تفصيلها. ساعدتني رنا».

ابتسم. كان واضحًا أنه شعر بالراحة وبالفخر أيضًا، مع أنه لم يقل ذلك.

«على فكرة»، قال وتوقَّف. «اتصل بي رجل. قال إنه كان طالبًا عندي. زعم أنه صديق مقرَّب لك». أخرج مفكِّرته. «مصطفى التوني. تذكرت الاسم تذكُّرًا مبهمًا. أخبرته بأنني لا أرى أنني أستطيع أن أعطيه عنوانك دون إذنك. أزعجه هذا كثيرًا».

«متأسِّفٌ لذلك»، قلت، وأكَّدت له أن الرجل صديقي حقًّا وأننا كنا في المستشفى معًا.

قال: «شكرًا لله على ذلك».

حينها فقط أدركت أن أستاذي السابق والآن صديقي أو كاتم سِرِّي أو الوصي عليَّ - لم أكن متيقِّنًا كيف يرى الأمر - إضافة إلى قلقه عليَّ كان قلقًا أيضًا على سلامته، وأنه قد يُلاحَق أو يُكرَه على الإفصاح عن مكاني.

قلت له كاذبًا: «أتعرف أن الدولة الليبية قد نسيت الأمر كلَّه. أعلم يقينًا أن بعض من أصيبوا قد عادوا إلى الوطن ولم يحقِّق معهم أحد»، وتابعت: «لا أعتقد أنني أخبرتك أن شرطة سكوتلاند يارد اتصلت بي. نعم، وأكَّدتْ على أنه ليس ثمَّةَ شيء، لا شيء أبدًا ينبغي أن يقلقني».

قال: «أهذا صحيح؟».

لم أعتقد أنه اقتنع اقتناعًا تامًّا، لكنني قررت أن أترك الأمر هناك. بدلًا من ذلك سألته: «ماذا تقرأ هذه الأيام؟».

٣٩

ابتعد الأسبوعان اللذان قضيناهما في كوستا برافا. اشتقتُ إلى البحر. اشتقتُ إلى سهام أكثر من ذلك، اشتقت إليها شوقًا شديدًا، وكلما فكّرتُ فيها تذكّرتُ أهلي ـ لسببٍ ما ـ ورأيت وجوههم تظهر لي أوضح مما ظهرت منذ زمن. رأيت صورًا لوالدَيْ سهام في البيت الإسباني. تخيلتهما جالسين إلى طاولة برفقة والديَّ، يقضون المساء في الحديث. حتى إنني سمعت ما يمكن أن يقولوه. كان لها أخ أصغر منها. تخيَّلتُهُ وسعاد يصبحان صديقين ويجولان في الفناء. ثم رأيت صور عائلة سهام مع صور لعائلتي، مؤطَّرة ومستقرة على رفِّ الكتب الهادئ نفسه. طلبتُ رقم هاتفها من رنا. هاتفتُ وردَّت زميلة من زميلات سهام في السكن. ذهبتْ تبحث عنها وسمعتُها تقول: «لا أعرف. اسم صعب».

«آلو سهام، معك خالد، صديق رنا، ذهبنا إلى إسبانيا معًا».

قالت ضاحكة: «أعرف من تكون. أو انتظر، ما زلت لم أعرفك. معلومات أكثر من فضلك».

عندما جاءت إلى لندن بعد شهر، التقينا. تَهَنْدَمْتُ. لبثتْ عيناها ثانيةً على قميصي الأبيض المكوي. قالت إن وقتها محدود وتود رؤية أكثر ما يمكنها من المدينة. كان هناك معرض في هايورد جاليري، لكننا عندما وصلنا وجدنا المكان مغلقًا للصيانة. وقفنا ونظرنا إلى النهر. شعرت بحاجة إلى الاعتذار. بدلًا من ذلك، اقترحتُ أن نذهب إلى المعرض الوطني. في طريقنا سألتها عن عائلتها. تلقَّت السؤال كما هو؛ محاولة لملء الصمت. إلَّا أنها عندما سألتني عن حياتي في لندن وما إذا كنت سعيدًا بدت صادقة ولم أعرف ما أقول. اختلقتُ أشياء، قلت لها إني أحب العيش هنا ولي أصدقاء مثيرون للاهتمام كثيرون. قالت إن ذلك أسعدها ونظرت إليَّ بشيء من التَّردُّد كأنها لم تكن متيقِّنة من مقدرتها على الوثوق بي. حينئذٍ تمنيت كثيرًا لو استطعت أن أجعلها تثق بي. تمنيت لو استطعت إخبارها بما في خاطري، لو سألتها، مثلًا، إذا كانت تعتقد أن المرء يستطيع أن يعيش حياة سعيدة بعيدًا عن وطنه، بلا عائلته، وإذا كانت تعرف أحدًا فعل ذلك.

تبيَّن أن العيش بلا عائلة ممكن. كل ما على المرء فعله هو التَّصبُّر كل يوم، وشيئًا فشيئًا، دقيقةً بدقيقة، لبِنةً لبِنة، يبني الوقتُ جدارًا.

بعد تلك المهاتفة الأولى منذ شهور، بقيت ملتزمًا بنَذْري بعدم مهاتفة الديار. ولكن جاء العيد وامتلأت شوقًا. رائحة العسل والزُّبْد المذاب، والقهوة، والشاي، والبرتقال، وأصوات والديَّ في المطبخ في الصباح الباكر، والمال تحت المخدة، والثياب

الجديدة، والحلوى في الجيوب. هاتفت البيت فردَّ أبي. كان مُستاءً. قال: «إني لا أفهمك. ولماذا تُقلِق أمَّك هكذا؟».

قلت: «آسف، آسف جدًّا. الوضع هنا لا يرحم. لا أكاد أجد وقتًا لشيء».

«لكن الموسم كان صيفًا. كان يجب أن تأتي إلى الوطن لقضاء الصيف».

قلت: «نعم، لكنني كتبت إليكم أعلمكم بأنني قرَّرت البقاء هنا والعمل. ألم تصلكم بطاقة البريد؟».

«باهي، لكنك كنت تستطيع أن تأتي بضعة أيام».

قلت له: «بدأتُ وبعض الطلاب بترجمة رسالة الغفران. إننا نترجم من الكتاب الذي أعطيتني إياه. إنها فضيحة يا أبي، لكن لا يعلم بها أحد هنا». ولمَّا لم يُجِب قلت: «من فضلك افرح لأجلي».

قال: «إنني فرحان. لكن ألَّا تتصل ولا تأتي الصيف كله!».

«إن حالي ممتاز هنا. إنني مُشتَّت فقط. ألهاني العالم». بدأتُ أبكي. بكيت واعتذرت مرة أخرى.

رجاني أن أتوقف عن البكاء، فالأمر ليس بهذه الأهمية. ولمَّا توقفت قال: «لم يكن صمتك السبب الوحيد، أترى. أنا لم أستطع التوقف عن التفكير فيك. هل كل شيء بخير؟».

قلت: «بخير. بخير. إنها المسافة ليس إلَّا. أشتاق إليكم جميعًا شوقًا شديدًا».

«تذكَّر أنك هناك لتحقيق هدف». ثم قال: «خبِّرني، ما رأيك إجمالًا في إدنبره؟».

سألته: «ما قصدك؟».

«مضى على وجودك هناك عام، اثنا عشر شهرًا بأكملها، ويبدو أن كل شيء على ما يرام. ترجمة رسالة الغفران ليست عملًا سهلًا. هل تحسَّنت إنجليزيتك إلى هذا الحد؟ وهل المدينة جميلة كما تزعم بعض الكتب؟».

لعلهم لم يروني في لقطات الأخبار. على كل حال، قالت رنا، كنت في حافة الإطار البعيدة، ذرَّة في بحر من الفوضى.

كان مهمًّا ومستحيلًا في وقت واحد أن أعرف ما عرفه أبي وما لم يعرفه عما أصابني. هل كنا نتحدث بالرموز؟ أم بصدق كصدق تلك الأحاديث الصباحية حين كنا نستيقظ أنا وهو أحيانًا قبل أمي وسعاد، ونجلس متقاربَين نتحدث بهدوء؟

بعد ذلك أخذت أهاتفهم كل شهر أو شهرين، حاملًا دائمًا أخبارًا حسنة مختلقة.

٤٠

لم أتحدث ومصطفى منذ افتراقنا في المستشفى، وقد مضى على ذلك نحو خمسة أشهر الآن. كان الصمت بسببي، على الأقل حتى ضيَّعتُ رقم هاتفه، فقد كان عندي رقمه في مانشستر ولم تكن عنده من وسيلة للاتصال بي. إلَّا أن الرقم الذي أعطاه لهنري كان رقمًا في لندن. اتصلت به وردَّ مصطفى بعد أول رنَّة.

قال: «يا دين أمي! أنا في لندن منذ أسبوعين وكل يوم أتصل بخالي لأسأله إن وصلت رسالة منك. أيها الوغد! مرَّضتني بالقلق عليك. ماذا تفعل الآن؟ أعني في هذه الدقيقة».

بعد ساعة كنا في كافيه سيرانو بشارع هولاند بارك. بدا مختلفًا. فترت حماسته، وغالبه شيء كقلة الصبر أو الضجر.

قال بقلق: «أعرف أنك تلومني».

هذا ما كنت أخشاه. فكرت أنه يعرفني أفضل مما أعرف نفسي، وقد كرهته لذلك.

قلت: «لا ألومك».

قال: «بل تلومني».

قلت: «قليلًا ربما، لكن هذا ليس منصفًا. إنك لم تجبرني. لم يجبرني أحد».

«نعم، لكنك لولاي ما كنت لتكون هناك، ولو لم تكن هناك لما صرت في هذا الموقف».

قلت: «لا تغترّ بنفسك».

لكنه لم يبتسم. شبك أصابع يديه بقوة، مرتجفًا قليلًا.

قال: «أدركت فداحة الأمر عندما ذهبت إلى بيت خالي. استمرت الرصاصة تخترقني». اعتدل في جلسته ونادى النادل طالبًا بصبر نافد كأسَيْ بيرة أُخرَيَيْن.

أتمنى لو استطعت أن أقوله له حينها إنني في تلك اللحظة اعتقدت أن لا أحد في هذا العالم يعرفني أفضل منه. وإنني معه لم أكن مضطرًا إلى الادّعاء. لم أكن مضطرًا إلى حماية نفسي من قلقه أو من حيرته. لم أكن مضطرًا إلى الترجمة. والعنف يستلزم ترجمةً. لن أجد الكلمات أبدًا لشرح معنى الإصابة بطلق ناري، أو فقد القدرة على الرجوع إلى الوطن، أو التَّخلّي عن كل ما تطلَّعتُ إلى أن تكون عليه حياتي، أو لماذا شعرت كأنني مُتُّ في ذلك اليوم في ساحة سانت جيمس، وأنني بسبب حادث شنيع وُلِدتُ من جديد في وضعٍ منحوسٍ لشخصٍ منبوذٍ في الثامنة عشرة من عمره، تقطَّعت به السُّبُل في مدينة غريبة لا يعرف فيها أحدًا ولا يكاد يقدر على مساعدة نفسه، وكان كل ما استطاع فعله هو المضي في يومه من البداية إلى النهاية، ثم تكرار ذلك مرة

أخرى. لم أعرف كيف أقول أشياء كهذه حينئذ ـ ما زلت لا أعرف ـ صعوبة البيان ملأت فمي. أدرك الآن أن هذا هو ما يعنيه الحزن، كلمة تبدو كأنها شيء مسروق، انتُشِل من جيبك على غفلة منك. يستغرق المرء وقتًا طويلًا ليتعلَّم معنى كلمة، خصوصًا كلمة كهذه، أو ربما الكلمات كلها، حتى اليسيرة منها مثل «أنت» أو «أنا». غير أنني، في ذلك اليوم، وأنا جالس قبالة مصطفى، لم أشعر بحاجة إلى كلمات ولا بحاجة إلى ترجمة أو تلخيص أو استبدال مجموعة من الكلمات بتجربة. لقد أحببته لهذا ولم أحبَّه لأن تجربة مشتركة جمعتنا فحسب، بل لأنه ظهر لي حينها نسخةً صادقة لما ينبغي أن يكون الرجل، برهانًا على أن خسارتنا لم تكن في الحقيقة إلَّا مكسبًا، وأن الآخرين ـ هيو ولوسي وهنري وسهام وحتى رنا، وكل الذين عملت معهم في المتجر، والنادل الذي أحضر لنا البيرة توًّا، والزبائن الآخرين في المقهى، وأولئك الذين يسيرون في الخارج ذهابًا وإيابًا في شارع هولاند بارك ـ كانوا بوجهٍ ما أبرياء، في طور النمو، لم يدركوا بَعْد المعنى الكامل لكون المرء إنسانًا في عالم يسحق فيه الناس بعضهم بعضًا. وهكذا سَرَى في نفسي الظن السَّام بأنني ومصطفى، بطريقةٍ أو بأخرى، ننتمي إلى أقلية متفوقة. شربنا نخب صحتنا.

قال: «كيف بالله عليك تبدو بصحة وعافية هكذا؟ مُسْمَرّ ومتورِّد الخدين. هل تزوجت أم ماذا؟».

أخبرته عن كوستا برافا، وحادثة الحدود، وعن البحر وكم ذكَّرني كثيرًا بالوطن.

«Fair enough»، قال بالإنجليزية. لم أكن على يقين مما قصده بذلك.

«علينا أن نذهب إلى هناك معًا ذات يوم»، قلت لتفادي أي استياء ممكن.

«ليس هذا وقت إجازات»، قال وأخبرني أنه بعد وصوله إلى بيت خاله بوقت قصير ركب القطار إلى إدنبره. عندما رأى مدى دهشتي، قال: «يلعن دينهم، أتظنني خائفًا منهم؟ على كل حال، فعلت ما فعلت لأجلنا نحن الاثنين، لأرتّب الأمور. هذا أقل ما أفعله بعد ما سببته لك من متاعب. أولًا ذهبت إلى سعد لأتقصّى عما يعرفه وماذا قال للآخرين عنّا.

لقد قال لي مبتسمًا: «ذهبتَ إلى لندن لحضور حفل لفرقة رولنج ستونز. أنت تحب فرقة رولنج ستونز، أليس كذلك؟ ولكن احذر. إنهم يشكُّون فيك، فيك وفي خالد».

«اشتريت علبة مارلبورو وذهبت مباشرةً إلى غرفة رزّاق».

كان رزّاق أكبر الأنتينات سنًّا وأشدَّهم هيبة.

«بدا متفاجئًا برؤيتي. لكن بدا أنه توقع ذلك أيضًا. أدخلني، وأغلق الباب، ووضع المفتاح في جيب بنطاله. تنبَّهت لذلك.

قلت له: «هدية من عطلتنا»، وناولته السجائر.

كان ذلك تبذيرًا للمال. أخذ العلبة ولم يقل شيئًا. فكرت قائلًا لنفسي: لا تسمح له بتوتيرك، وتابعت تنفيذ مخططي. تظاهرت

بالفرح بما وقع في السفارة. قلت له: «حفنة من الكلاب الضَّالَّة نالت ما تستحق».

نظر إليَّ ولم يقل شيئًا.

فكَّرت أنني دخلت هذه الغرفة بقدمَيَّ. لا بدَّ أن يأخذ ذلك في الحسبان. ثم إنني طالما كنت على وفاق معه.

أخيرًا قال: «لبلادنا أعداء كُثُر».

«بالضبط». قلت له، ثم مدحت القائد: «إنه متقدِّم على الجميع فليس لأحد من أعدائه أي فرصة».

عرض عليَّ سيجارة. دخَّنَّا بصمت.

أشعل مصطفى سيجارة ونظر إليَّ نظرة تصوَّرت أنها نظرة رزَّاق إليه نفسها.

قال: «لا أعرف كيف أقول هذا. قد لا تفهمني، لكنني حسدت رزَّاق في تلك اللحظة. ليس على شخصه وقطعًا ليس على سياسته ولا أخلاقه. حسدته على أمانه، على رفاهية الأمان.

ثم سألني: «أين صديقك؟ ما اسمه؟».

الوغد! يعرف اسمك جيدًا. أرادني أن أقوله له فحسب.

قلت له: «خالد. ذهبنا إلى حفل فرقة رولنج ستونز كما تعلم، كشيءٍ من التغيير ليس إلَّا».

فقال: «رولنج ستونز. مِك جاغر. Under My Thumb» قال مصطفى وضحك. «الوغد! ثم أخبرته أن أحدهم اقترح أن نزور

مكانًا اسمه كورنوول. قلت: مكان في أقصى جنوب غرب البلاد. بعيد جدًا حتى يصعب وصول الأخبار إليها. لم نسمع بما حدث إلَّا منذ أيام لمَّا عدنا. ثم قلت له إنني أتيته لهذا السبب: «لأصدقك القول، أنا وخالد لا نحب تخصصنا. إننا تعيسانِ في هذا التخصص منذ مدة: القراءة التي لا تنتهي، الأساتذة المُمِلُّون».

قال: «الأدب للبنات».

«نريد أن نطلب تغيير الجامعة».

«ذلك يفوق قدرتي»، قال وتابع حديثه بأن مشكلة الناس أنهم لا يعرفون مكانتهم. قال: «منذ يوم النصر»، وهذا ما يطلقه النظام الآن على حادثة إطلاق النار. «أوقِفَت جميع رسوم المنح الدراسية والرواتب حتى يثبت الطلبة مواقفهم ويدلوا بأي معلومات قد تساعد على التحقيق، أي شيء رأيته أو سمعته مهما كان تافهًا. هذه هي الأولوية الآن، قبل كل شيء آخر. يجب أن نضمن أمان بلادنا. في حالك وحال صديقك، لم يترك لي اختفاؤكما الطويل وغير المبرَّر خيارًا إلَّا أن أوصي بحضوركما شخصيًّا».

قال مصطفى ذلك على عجل ونظر إليَّ كأنه هو أيضًا لم يكن موقنًا مما عناه ذلك.

سألته: «حضورنا شخصيًّا».

قال: «الأمر واضح. علينا العودة واستجداء العفو».

أمسكت برأسي.

قال: «حسنًا، إننا على الأقل نعرف الآن».

لم أستطع إيجاد كلماتي وكان هو أشد توترًا من أن يلزم الهدوء. غضبت لأنه تكلَّم نيابة عني. غير أنني حتى عندما فكرت بقول ذلك له شعرت بلا جدوى الأمر.

قال: «في طريق العودة إلى مانشستر تذكَّرت شقيق أبي الأصغر، عمي حامد. كان يعيش معنا. كان أول من عرَّفني بالكتب. أحبَّ كافكا ودوستويفسكي وهمنجواي. كان عكس أبي تمامًا. أحببته. كان قائدًا في اتحاد الطلبة المستقلين. حينها كنت في التاسعة من عمري فقط. جاء بلطجية الحكومة إلى بيتنا، قلبوا المكان رأسًا على عقب، أفرغوا الأدراج كلها واعتقلوه. خالي المقيم في مانشستر متأكد أنني سألقى المصير نفسه إذا عدت. تجاهلته واتصلت بالبيت على كل حال. لكن، حين سمع أبي صوتي أغلق الهاتف». ارتسم شعور خفيٌّ على وجه مصطفى فاكفهرّ. قال: «لست مثلك. لم أشعر بقرب إلى والديَّ قطُّ. أبي قاسٍ وطبعه صعب. كان خير ما أرجوه ألَّا يلاحظني، أن يتركني في حالي. أمي طيبة لكنها ضعيفة، عبدة له. كان إذا لم يجد منشفة قريبة جفَّف يديه بثوبها. حين كان ينصرف ملعونًا إلى العمل، كانت تجلس لحظةً في المطبخ، لا تفعل شيئًا. مرة عندما كان البيت خاليًا، ذهبتُ إلى غرفتهما وفتحتُ جميع الأدراج. لا أعرف لماذا. أردت فقط رؤية كل شيء. أحببت الدرج الذي ضمَّ أوشحتها، وكيف كانت تطوي كل وشاح برفق حول يدها قبل أن تودعه الدرج. تُراكِمها كأنها باقة ورود. ما زلت أراها الآن غير مطويَّة ومبعثرة على الأرض».

تجمَّعت دموع كبيرة في عينيْ مصطفى. غطَّى وجهه بيديه ومسحهما بقوة أشحبت جلده، كايبضاض الصخور بفعل الطقس.

سألني: «هل اتصلت بأبويك؟».

بدأت أروي له عن الحديث الذي دار بيني وبين أبي، فكان يومئ برأسه ويقول: «أعرف، أعرف. هذا يوافق القصص التي سمعتها من الآخرين. السلطات لم تبلغ العائلات، وهذا يعني أنهم إما لا يعرفون أننا كنا متورطين في الأمر، وإما أنهم يريدوننا أن نعتقد ذلك حتى نعود ونقع في قبضتهم».

سمعتُني أسأله: «برأيك ماذا يجب أن نفعل؟».

سألني: «هل اتصلت بك شرطة سكوتلاند يارد؟»، وقال: «نعم، أنا أيضًا اتصلوا بي. يشعرون بالذنب لأنهم أخفقوا. يظهر أنه كانت عندهم معلومات استخباراتية وتجاهلوها. أو هذا ما يقال على كل حال».

«أين سمعت هذا؟».

قال: «في مانشستر ليبيون كُثر. سمعته من بعضهم».

بعد صمت قصير، سألته السؤال نفسه: «برأيك ماذا يجب أن نفعل؟ أريد العودة إلى الوطن». لما سمعتُني أقول هذا اقشعر جسدي.

«لا أحد ممن كانوا معنا في المستشفى عاد إلى الوطن. يمكنني تأكيد ذلك».

أثرت فيَّ كلمة «تأكيد» تأثيرًا غريبًا. كحجر في اليد.

سألته مرة أخرى: «برأيك ماذا يجب أن نفعل؟».

صمتنا. لم يكن هناك جواب، فكان على أحدنا قول شيء.

قال: «علينا أن نبقى حيث نحن بالتأكيد. ثم إن البلاد مزبلة بائسة. ولأننا هنا الآن فلنجعل من أنفسنا شيئًا ذا معنى. الوقت سيحلُّ كل شيء. بعد سنوات قليلة لن يتذكر أحد. بعد سنوات قليلة سيغدو القذافي وكل رزَّاقٍ من رزَّاقيه تاريخًا».

مشيت إلى الشقة بذلك الحجر في يدي. رأيت أذن الطبيب، شكلها، وهو يقول لي إنني لن أستطيع إخفاء سبب إصابتي. تخيَّلتُ أوشحة أمّ مصطفى وبدلًا منها رأيت أوشحة أمي. قلت لنفسي: أنت الوصي على سلامة تلك الأوشحة. شددتُ قبضتَيّ. حنيتُ ظهري. اصغر، قلِّل حجمك، غيِّب نفسك، كن لا مرئيًا كشبح. أنت الآن خطر على أحبِّ الناس إليك.

٤١

في الصباح التالي ركبتُ الحافلة إلى شورديتش في شرق لندن. جرَّبت اكتراء صندوق بريد لكن الرجل قال إنني ما زلت بحاجة إلى تزويده بعنوان شارع. ذهبت إلى صندوق هاتف لأهاتف ولبروك. لم يُجِب. تصفَّحتُ دليل الهاتف، اخترت عنوانًا في إدنبره اختيارًا عشوائيًا. أصبح عندي الآن صندوق بريد، مكان تصل إليه رسائل أمي وحيث يمكنني استلامها. دخلت مقهى وكتبت رسالة إلى أهلي أعلمهم فيها بالعنوان الجديد. أبلغتهم أنني غيَّرت الجامعة، وأنني أحببتُ لندن، وأن هذا البرنامج الدراسي الجديد أفضل بكثير من البرنامج الذي كنت أدرسه في إدنبره. «ثم إنني أتعلَّم الكثير هنا. وليس فقط من المحاضرات. المتاحف والمكتبات هي الأخرى تعليم. أنا في غاية الحماسة».

في عطلة نهاية الأسبوع دعوت مصطفى إلى العشاء. قصدت الجزار في ذلك الصباح وجلبت كتفًا من لحم الضأن وتبَّلتها بالليمون والثوم والطماطم مثلما علَّمني أبي. كنت أسمع صوته وأنا أفعل ذلك. «ملح أكثر مما تظن، ولا تنسَ الفلفل الأسود يا بُنيَّ، ووريقات من أوراق الغار، وسيقان زعتر بري طازج،

ثم لُفَّ الكتف كلها بإحكام بورق قصدير لئلا تتسرَّب الرطوبة». وضعتها في الفرن خمس ساعات على نار هادئة وقاومت إغراء فتح باب الفرن لتفقُّدها. ثم ما إن وصل مصطفى حتى شمَّ رائحة الشواء من الطابق السفلي. كان عندي بعض الفودكا لكنه قال إنها لا تليق بالمقام وخرج مسرعًا إلى السوق. أعددتُ سَلَطة، وهرست البطاطا، وبسطت ملاءة على الأرض في وسط الغرفة الرئيسة ووضعت طبقينا وكأسينا هناك. ما عدا الفراش في الزاوية، وإلى جواره كتبي ومصباح، كان المكان ما يزال خاليًا. عاد منقطع الأنفاس بقنينة نبيذ أحمر إسباني. أكلنا واختفى اللحم كله وسرَّني أنه أعجبه. دخَّن هو وشربنا باقي النبيذ. جال بنظره في المكان بشيء من استنكار. سألته عن شقته كيف تبدو.

قال: «كبيرة. اقترضت مالًا من خالي واستأجرت شقة بثلاث غرف». ثم قال وبصوته مسحة من عتاب: «كيف تسكن مكانًا صغيرًا كهذا؟».

قلت: «أحب الأماكن الصغيرة كثيرًا. لا أستطيع تحمُّل وجود غرفة غير مستعملة. ذلك يحزنني».

قال: «هذا ما يحزنني». ثم سألني: «ما خططك؟ ماذا ستفعل بنفسك؟».

قلت: «أفكر في العودة إلى الدراسة».

قال: «حقًّا؟ لقد انتهيتُ من هذا الأمر. المال أهم. أعني إذا كان عليك أن تختار. ونحن علينا أن نختار. إنني أتدرَّب لأصبر

وكيل عقار. عمل مربح وسهل. ما عليك إلَّا أن تجول بالناس وتريهم المكان. لكن اسمعني»، قال: «إذا كنت تخطط لأن تصبح مثقفًا فانتقل للعيش معي. لن تدفع إيجارًا. ويوجد أثاث يا دين أمي!».

ضحك وضحكت أنا كذلك، لكن استغرق الأمر شهورًا قبل أن يتخلَّى عن تلك الفكرة.

وصل رد أمي في الأسبوع التالي. كتبت تقول: «لا أعتاد غيابك ولن أعتاده أبدًا. ولكنك في لندن، كم هذا مثير. نعرف أنك مشغول، لكن متى ما استطعت من فضلك اكتب إلينا لتخبرنا عن الجامعة الجديدة وحياتك في لندن. أين تعيش؟ أما زلت تصاحب فرْد ومصطفى؟ هل عندك مال كافٍ؟».

٤٢

في تلك الأشهر الأولى في لندن، رمى مصطفى شبكته على اتساعها كصيَّاد متفائل. جذب إلى مداره أصدقاء كثيرين. لكنه بعد ذلك، إذا تفقَّد صيده، سرعان ما يساوره الشك فيبدأ بالتخلص ممن لا يريدهم. وفي النهاية لم يبقَ منهم إلَّا حفنة ذَوَتْ هي أيضًا، وبحلول الوقت الذي بلغ فيه الشاطئ وعاد إلى ليبيا لم يبقَ منهم أحد سواي. ولأن صديقًا واحدًا لا يكفي أبدًا، كان لا بد من التخلي عني أنا أيضًا بطريقةٍ ما. لا شيء من هذا مأسوي ولا غريب بالطبع. كثير من الناس يحبطهم أصدقاؤهم. يعتقد بعضهم، كمصطفى، أن الصداقة ـ أو صداقة كصداقتنا، مباركة برباط الدم ـ ينبغي أن تكون كالحُبِّ الرومانسي، لا تعدُّد فيها. وهذا ما جعل الغيرة تتملَّكه دائمًا. فصداقتي لرنا مثلًا، ثم لحسام ـ خصوصًا لحسام ـ لم تقع في نفسه موقعًا حسنًا قطّ. بلى، لقد عذَّبته. كذلك، وفي الجهة الأخرى، كلما أراد أن يعبِّر عن حبِّه صداقتنا قال إننا مختلفان عن الآخرين، وإننا ركبنا الأخطار معًا، وإنه لن يتوانى عن فعل أي شيء لأجلي، حتى تلقِّي رصاصة أخرى إن كان عليه ذلك، وإنني مهما صادقتُ من ناس

فلن يفهموني مثلما يفهمني هو. وكان إذا نزل من هذه الأعالي، انتقل إلى نقد أحد أصدقائه نقدًا مسرفًا، مبتهجًا بالنميمة. كانت الصداقة لمصطفى مسألة ولاءات متنافسة. واضحٌ، أو على الأقل إلى حدٍّ ما، أن هذا يصدُق معي كذلك وإلّا فكيف سعدتُ بتصريحاتٍ كهذه؟ لكنني أستطيع الآن من هذه المسافة أن أرى أن هذه العادة جعلته يحذر من الآخرين، وكذلك زادت ارتيابه في البشر. ولعل هذا كله نَفَعَه في إعداد نفسه للطريق غير المتوقع الذي اتخذه حين عاد إلى ليبيا ـ بعد إطلاق النار علينا في ساحة سانت جيمس منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ـ وحَمَلَ السلاح في ثورة فبراير عام ٢٠١١ ليصبح قائدًا من قادة ميليشياتها، وهي حقيقة أجدها شديدة الإزعاج هذه الليلة، خلال مشيي الليلي عائدًا إلى البيت، حيث كل خطوة أخطوها إلى الأمام تستحضر الماضي بوضوح شديد.

لكن قبل ذلك، وفي تلك الأيام الأولى في لندن، كان توق مصطفى إلى الرفقة متفائلًا. فقد كاد يستحيل رؤيته وحده. في وقت من الأوقات رافق جماعة من أربعة إخوة. كان أصلهم من بنغازي. أثرياء وباهرون وجامحون. كنا قد سمعنا بالعائلة. ظهر أبوهم في جلسة من جلسات التحقيق المتلفزة التي كانت تنفذها الدولة في بداية الثمانينيات وتبثُّها باستمرار في تلك السنوات. لم يكن مسموحًا لي بمشاهدتها، لكنني كنت أفتح التلفاز كلما خرج والداي وأقف أمامه. ما زلت أتذكَّر ما اعتراني من افتتان ورعب. كثيرًا ما كان المتهمون يجلسون في زاوية غرفة كئيبة بلا نوافذ،

وعليهم سيماء الأسر والذنب والتّيه. كلُّ ما يُعقَل تهاوى، وهم الآن في عالم مجهول القواعد.

عندما كنت صغيرًا استبدَّ بي خوف شديد من الجنون. خفت منه كخوفي من الظلام. مرةً سمعت أحدهم في المذياع يعرِّف الجنون بأنه حالة لا يُوثَق فيها بشيء. قالها في وسط جملة، كأنما كانت حقيقة راسخة. وقد وصفه أحد أساتذتي بانعدام سيطرة المرء على عقله. أتذكَّر تساؤلي حينها عن مغزى كلمة «سيطرة» هنا؟ إن كان المرء بحاجة إلى السيطرة على عقله سيطرة إرادية، فمن منهما المسؤول في المقام الأول؟ لقد أقلقني الموضوع كلُّه وجعل كلَّ الحوادث التي لا منطق لها ـ مثل كابوس، أو حين أستيقظ ولا أعرف أين أنا، أو حين يجهش بالبكاء امرؤ راشد في جنازة ـ آسِرةً ومخيفةً جدًا في وقتٍ واحد. إلَّا أن هذه الحوادث لم تكن أشد أسْرًا ورعبًا من المشاهدات المختلسة لجلسات التحقيق المتلفزة تلك حينما يكون البيت خاليًا من ورائي وأظل واضعًا إصبعي على زرِّ التلفاز تحسُّبًا إذا ما سمعتُ والديَّ عائدين، وقد أخفضت الصوت كثيرًا حتى كنت أسمع أنفاسي تعلوه، مفتونًا بالمسرح الأجدب والجو المرعب والأسئلة المطروحة وأصوات سائليها المجهولين الخشنة والنافدة الصبر. كانوا، مثلي، يقفون خلف الكاميرا. مرةً كان متهم مُسِنّ ببذلة زُبْدِيَّة اللون ـ كان نقابيًا إن صح ما أتذكَّر ـ يتصبَّب عرقًا. استمر في إجابته عن الأسئلة ما استطاع، ثم ظهرت بقعة صغيرة

على حجره. ظننتها قطرة سقطت من جبينه الناضح بالعرق، لكنها بدأت تتسع وتكبر حتى اتخذت شكل سحابة.

كان والد أصدقاء مصطفى محظوظًا، فلم يمكث إلَّا عامين في السجن ثم سُمِح له بالسفر إلى الخارج. ثم أصبح يعيش في القاهرة ويزور أبناءه في لندن من حين لآخر. كان عندهم بيت في كنسنجتن. ذهبت إلى هناك مع مصطفى بضع مرات. ذات مرة رأيت الأب هناك. كان يجلس في غرفة التلفاز بجلابية بيضاء مائلًا إلى الأمام ومرفقاه على ركبتيه، يدخن سيجارة، مركِّزًا تمامًا على مشاهدة مباراة كرة قدم. صافَحَنا دون أن يرفع عينيه عن الشاشة.

درس الإخوة الأربعة جميعهم في مدارس ببريطانيا؛ مدارس داخلية باهظة الثمن، حيث في كثير من الأحيان كانوا إمَّا يوقفون عن الدراسة وإمَّا يطردون لسوء سلوكهم. حين أكون معهم طالما داهمني إحساس بالخطر أو بوشك وقوع خطبٍ ما. لكنهم كانوا أيضًا على جانبٍ عظيمٍ من السحر والسخاء. كانوا يلبسون ثيابًا فاخرة ويقدِّرون أطايبَ الطعام، وكانوا يأخذونني ومصطفى إلى مطاعم ونوادٍ ليلية لم نكن لنتحمَّل كلفتها قطُّ. جذبوا أصنافًا من الناس؛ صبيةً مُدُنٍ وأشخاصًا مريبين يتاجرون في الأحجار الكريمة والفن المسروق. مرةً في بيتهم، استلَّ أحد أصدقائهم مسدَّسًا تناقلوه في أنحاء الغرفة كأنه غنيمة. وحين اقترب مني تسارع نبض قلبي. قلَّبت المسدس بين يديَّ آملًا أن أكون قد

أظهرت اهتمامًا حقيقيًا. هكذا كان الحال دائمًا كلما كنت هناك: فقد أوعزت إليَّ الغريزة بألا أجذب أي انتباه. معظم الوقت كنا نتسكع في بيتهم نستمع إلى أحدث الأسطوانات ونشرب الويسكي. أحبَّ الإخوة الطبخ وتنافسوا عليه وتدخَّل بعضهم في أطباق بعضهم الآخر. في بعض الأوقات بدوا كسِربٍ من زواحف هائجة عالقة في الحفرة نفسها. كثيرًا ما استمتعت بوقتي، إلَّا أنني كنت أذهب في غالب الأمر لقلقي على مصطفى. ومع إصراره في كثير من الأحيان على مرافقتي له، أدركت أنه هو أيضًا كان يشعر بالحاجة إلى أن يراقبني ويحرسني.

في أصيل يومٍ بلا وجهة، أقبل أحد الإخوة، أصغرهم، واندفع جالسًا إلى جانبي على الأريكة.

همس قائلًا: «مغامرة؟ ترغب في مغامرة؟».

لم أفهم ما يقصده. ثم فتح يده وكانت في وسط كفِّه حبَّة صفراء زاهية. في لمح البصر طار مصطفى مندفعًا في الغرفة وبقوة شديدة قبض ذراع الفتى وأنهضه من جلسته.

«إن رأيتك تفعل ذلك مرة أخرى»، قال له وأنفه فوق وجه الفتى الذي، على ذهوله، ظهر عليه تعبير مبتهج غريب كأنه تذكر ذكرى سعيدة عن معاملته على هذا النحو، «قلت إنني إن رأيتك تفعل ذلك مرة أخرى فسأقطع ذراعك، أتسمع؟».

خفَّف التكرار من وطأة التهديد. فرَّق بينهما الأخ الأكبر، ملأ كأسيهما وأصرَّ على أن يشربا نخب صحتهما.

ثم قال لي: «أيها الشاعر - كانوا يلقِّبون بعضهم بعضًا ألقابًا واعتادوا مناداتي بهذا اللقب، كلما كنت هنا لا يكون صديقك على سجيَّته».

لم يرد مصطفى.

«يكون حسن السيرة والسلوك. لكن ما إن تذهب أنت حتى يطلع الشيطان الذي بداخله».

ذلك المساء مكثنا وقتًا أطول مما ينبغي. كنت كلما هممت بالذهاب طلب مصطفى مني الانتظار عشر دقائق أخرى. اعتقدت أنه كان حريصًا على إصلاح الأمور مع الإخوة، لكننا كلما جلسنا وقتًا أطول أظلم مزاجه أكثر. في لحظة ما بدأ يبكي. فكَّرت أن الخمر كانت السبب. اجتمع الإخوة حوله وألحوا عليه أن يخبرهم بما أصابه، إلَّا أن كل ما فعله مصطفى هو ضغط يديه معًا حتى كاد الدم يطفر منهما. صرخ صرخة فظيعة. لن أنساها أبدًا. صرخ مرارًا وتكرارًا، واستمر في الصراخ حتى حين اندفع خارجًا. منعتهم من اللحاق به مطمئنًا إياهم بأنني سأعتني به. حاولت اللحاق به لأدركه. في آخر الأمر أبطأ ومشينا معًا في حديقة هايد بارك دون قول شيء كثير. هبط الليل وكان الهواء باردًا وهادئًا بين الأشجار.

«هل أنت بخير؟» سألته وأومأ برأسه. قلت: «لا أفهم هؤلاء الناس».

«ولا أنا»، قال وأتذكَّر ارتياحي حين سمعت صوته أخيرًا.

«أعني أنني لا أفهم ما يريدون، ما يحرِّكهم، لماذا يمكثون جميعًا في ذلك البيت ولا يخرجون، لا ينطلقون في هذا العالم؟».

قال: «لأنهم أشقاء. والأشقاء يتنافسون. والتنافس إلهاءٌ لهم».

تساءلت عمَّا إذا كان هذا شعوره نحوي. وبعد ذلك فكرت، لا بدَّ أن هذا هو شعوره نحو أخيه علي الذي اضطُرَّ، مع أنه الأصغر، إلى تولِّي مسؤوليات أخيه الأكبر، أول مَن دخل الجامعة مِن عائلتهم، لكنه بعد حصوله على منحة للدراسة في جامعة من جامعات بريطانيا العظمى ضيَّع تلك الفرصة.

تصافحنا عند لانكاستر جيت. ذهبَ شمالًا وانعطفتُ غربًا.

بعد بضعة أسابيع عدنا إلى كنسنجتن. لم يذكر أحد شيئًا عمَّا حدث. كان الشقيقان الأوسطان مشغولين بجدال، بشيء عن المال. في لحظة من اللحظات نهضا واندفعا نحو بعضيهما مثل كبشين. في التحامهما العنيف ذاك تراكلا وتلاكما بغضب عارم. حاول الشقيقان الأصغر والأكبر تفريقهما، ولم يفلحا. كان ثمَّة تهاون في محاولتهما. وجدت المشهد كله مزعجًا جدًّا. ذهبت لمحاولة تفريقهما لكن مصطفى جذبني وقال بهدوء: «حان وقت الذهاب». خرج، وبعد ثوانٍ لحقت به. أتذكَّر أنني فكرت حينها أننا يمكننا المغادرة فحسب: أن المرء باستطاعته فعل ذلك حقًّا، أن المغادرة خيار. طفنا في الحديقة مرة أخرى. لا أتذكر ما قلناه بدقة، لكنني أذكر بغموض ما قلته عن غرابة رؤية إخوة يتعاركون وما يسببه ذلك من ضيق. لم يكد مصطفى يقول كلمة. كان يستمع وكان صمتُه صمتَ من يعلم أن عليه أن يكون رفيقًا بالأبرياء.

٤٣

بعد توقُّف هنري عن حثِّي على متابعة دراستي بوقتٍ قصير، سألتُه إن كان يستطيع أن يكتب لي رسالة توصية. تقدَّمتُ بطلب إلى كلية بيركْلِك وفعلت ذلك دون حماسة تُذكَر. وبتلك الروح ذهبتُ إلى المقابلة، إلا أن شيئًا تغيَّر عندما أدخلتني رئيسة القسم إلى مكتبها. حيطانه المرصوفة بالكتب ذكَّرتني بأبي. للكتب الرائحة نفسها في كل مكان. جلستُ على كرسي قبالتي وحملتْ بيدها ورقة بيضاء مستوية. دخل أحد زملائها وجلس إلى جانبها، شابٌّ ملامح وجهه بارزة، وصارمة بعض الشيء. بحرصٍ نظر إليَّ وفي عينيه مسحة من حسن نيَّة.

سألتني المرأة: «لماذا تريد دراسة الأدب الإنجليزي؟».

قلت: «طالما أحببت الأدب. الأدب الإنجليزي». قدرتُ أن أسمع كم بدا صوتي غير مقنع.

قال الرجل: «البروفيسور ولبروك يقدِّرك كثيرًا»، وحينئذٍ نظرت المرأة إليَّ وفي عينيها رِقَّة جديدة الآن.

أردتُ الهروب من الغرفة، لكنها قالت بعد ذلك: «سأقرأ لك هذا». نظرتُ إلى الورقة التي في يدها. فكرتُ أنها قد تكون أي شيء: رسالة من نيو سكوتلاند يارد أو حتى من السفارة الليبية، تحثهم على عدم قبولي. «ثم نود سماع رأيك».

«أيُّ مرح! أيُّ انغمار! لطالما ظهر لها الأمر كذلك لمَّا كانت مفاصل النوافذ الفرنسية تصرُّ صريرًا خافتًا ـ تستطيع سماعه الآن ـ وهي تفتحها على مصاريعها في بورتون فيغمرها الهواء الطلق. في الصباح الباكر، كم كان الهواء هناك عليلًا وهادئًا وأسكنَ من هذا حقًّا، كخفقة موج، كقُبلة موج؛ كان باردًا وحادًّا ولكنه (لفتاة في الثامنة عشرة حين كانت في ذلك العمر) كان وقورًا، وأحسَّت كإحساسها حينئذ وهي واقفة عند النافذة المفتوحة، بأن شيئًا فظيعًا على وشك الوقوع»...

تعلَّق وجه البروفيسورة بالصفحة ثانيةً أخرى، قبل أن تقول كأنها تكلِّم نفسها: «أعتقد أنني سأتوقف هنا. هل عرفت الفقرة؟».

لم أستطع إخبارها بما كان يجول في خاطري، بأنني منذ عام فحسب ـ وكنتُ أيضًا في الثامنة عشرة من عمري ـ لم أكن أنظر من نافذة مفتوحة، بل كنت أرفع بصري إليها وشعرتُ بأن شيئًا فظيعًا على وشك الوقوع.

سألني الرجل الذي لم يرفع عينيه عني طوال الوقت: «من أين هذه الفقرة في اعتقادك؟».

قلت: «لا أعرف».

«حقًّا؟» قالت المرأة متعجِّبة بصدق.

فكَّرتُ؛ حسنًا، إمَّا أنها تتظاهر وإمَّا أن أمري انتهى.

نظر إليها الرجل ثم التفت إليَّ مرة أخرى. قال: «بماذا تذكِّرك؟».

قلت: «لست متأكدًا من فهمي».

قالت المرأة: «بماذا تشعرك؟».

قلت: «شعور جيد. تشعرني بشعور جيد».

سألتني: «لماذا؟ فعلى كل حال، شيء فظيع على وشك الوقوع».

قلت: «نعم، لكنه هواء الصباح ما يفكر فيه المرء. وهي جميلة، أعني الكتابة».

سألتني مرة أخرى: «ولا تعرف من الكاتب؟».

قلت: «لا».

قالت: «إنها من رواية «السيدة دالوي». ألم تقرأ فرجينيا وُلْف؟».

قلت: «لا».

قال الرجل: «خبِّرنا بما قرأت. بعض الكتب التي تحبها».

أخبرتهم عن سينيكا وريز، ولاحظت عليهما صمتًا غريبًا عندما ذكرت «الممنوح والمأخوذ» لحسام زوة، الكتاب المتاح بالعربية فقط. وهنا زادت ثقتي، فقد شعرت بتفوُّقي عليهما.

وصفتُ سماعي القصة في إذاعة بي بي سي العربية، وأنها أول مرة يُقرَأ فيها عمل أدبي بدلًا من الأخبار. وجدا ذلك مثيرًا للاهتمام. استجمعت حماستي ورويت لهما عن أبي العلاء المعري.

قلت: «كتب رسالة الغفران قبل دانتي بثلاثمئة عام، وفيها يهبط شاعر إلى العالم السفلي. ألم تسمعا بذلك حقًّا؟».

٤٤

سمح لي وضعي كلاجئ بأن أتقدم بطلب منحة لتغطية تكلفة الدراسة. بدأتُ الدراسة في بيركْبك في أكتوبر من عام ١٩٨٥، بعد واقعة إطلاق النار بثمانية عشر شهرًا. كنت متحمِّسًا، ولم أرغب أن يشاركني في هذا الخبر أحد كوالدَيَّ وسعاد.

هاتفتهم فأجابت أمي. عاجلتها بالاعتذار عن الصمت.

قلت: «الوضع صعب هنا. أصعب مما توقَّعتُ، أصعب مما قد تتخيَّلين. الدراسة، والسرعة. لا وقت لرفع البصر. لكنَّ عندي أخبارًا رائعة. أخبارًا مدهشة. لكن»، ذكَّرتها قائلًا: «علينا أن نلتزم بقاعدتنا. عليَّ أن أخبركم جميعًا في وقت واحد».

نادت أبي ثم سعاد. طلبت من سعاد أن تذهب لتجد أبي. ثم نادت أبي مرة أخرى. كان في صوتها ذعر هادئ إلى جانب حماستها، خصوصًا حين نطقت باسم أبي، كمال. حينها أدركتُ أن ما كانت مشغولة بتوقُّعه لم يكن الأخبار السَّارَّة التي كنت سأخبرهم بها بقدر ما كان مستقبلًا سيستمر في حرمانها من ابنها بسبب مطالب الحياة في الخارج، حياة ستكون أصعب مما قد تتخيَّل كما أعلمها من توِّه.

قالت لهما: «عنده أخبار سارَّة. أرجو أن تكون كذلك».

تخيَّلتهم مجتمعين حول الهاتف، آذانهم قرب السماعة. قال أبي: «تكلَّم، شنِّف آذاننا»، ولمَّا بدأت قال: «أعلى!».

وأنا واقف في شقتي الصغيرة بشيبردز بُش، حيث أعيش وحيدًا لا في بيت مع آخرين، صحتُ بأعلى صوتي: «حصلت على إشادة. أفضل مقالة للعام».

سيعرفون أنني كنت أكذب. زغردت أمي زغرودة طويلة. تبعتها سعاد وقد أدهشني ذلك، فأختي الصغيرة طالما جرَّبتْ ولم تفلح من قبل. أمَّا الآن فقد خرجتْ زغاريدها أقوى وأجهر من زغاريد أمي. تخيَّلتُ حفلات الخطبة والزفاف التي ذهبتا إليها منذ أن سافرتُ، وأختي الجميلة من دون أخيها الأكبر ليوصلها بالسيارة إلى حفلات النسوة ويرجعها منها.

قال أبي: «انتظر. أريد القصة الكاملة. قبل أي شيء آخر إنك لم تخبرنا قط بأي جامعة أنت الآن وإذا كنت ما تزال تدرس الموضوع نفسه».

قلت: «نعم، الأدب الإنجليزي بكلية لندن الجامعية».

«أوه، باهي، تلك كلية عظيمة»، قال أبي فخورًا بابنه وفخورًا قليلًا أيضًا بمعرفته بالجامعات البريطانية.

سألته أمي: «هل تعرفها؟».

قال لها: «ومن لا يعرف كلية لندن الجامعية؟».

قالت سعاد إنها تعتقد أنه أمرٌ رائع أنني أصبحت أعيش في لندن الآن.

قالت أمي: «خبِّرنا عن الإشادة».

«باهي»، قلت، فصاح الجميع: «أعلى!».

«تمنحها لجنة خارجية. تتألف من أكاديميين من أنحاء البلاد. كان بينهم البروفيسور هنري ولبروك. هل تتذكَّره يا أبي؟».

«هل أتذكَّره؟» قال آخذًا السماعة، «أكيد أتذكَّره. هو سبب ذهابك إلى هناك. عليك أن ترسلها إلينا لأبروزها».

قلت: «لكنها كانت شفوية فقط».

«هذه الأشياء»، أوضح بثقة مدير مدرسة لا جدال فيها، «دائمًا ما توثَّق يا بُنَيّ. اسأل البروفيسور ولبروك».

قلت: «سأسأله».

«أريد نسخة بالبريد».

استغرق الأمر قرابة العام قبل أن يتوقَّف عن طلبها.

٤٥

رتَّبت رنا وسهام للمِّ الشَّمل، فالتقينا جميعًا ومعنا هيو ولوسي في مطعم بيتزا بسوهو. كنت قد اقترحت المكان، ولمَّا جلسنا إلى الطاولة المستديرة أعجبوا بالغرفة الواسعة القديمة ذات السقف المرسوم. كنت سعيدًا برؤيتهم. شعرتُ بالراحة وبفخرٍ كذلك لأنهم كانوا في مدينة أصبحتْ مدينتي. لكن، بمرور المساء وأنا أنظر وأستمع إليهم وهم يتكلمون عن حياتهم التي لم تتغيَّر في إدنبره، التي كانت تتغيَّر بطبيعة الحال وإنْ بطرق متوقَّعة ـ كدهشتهم المبتهجة من ذهاب فلان إلى بيرو لقضاء سنة الاستراحة بحثًا عن ذاته، أو من الشخص الآخر الذي يتدرَّب الآن في شركة هندسة معمارية شهيرة ـ وجدتُ أن كل انطباعاتهم وأفكارهم بدت إمَّا زائفة وإمَّا لا أهمية لها. مشاركتي في الحديث تضاءلت حتى انعدمت. اعتدلت في جلستي مستندًا إلى الخلف، وبصمتٍ خالفتهم في كل رأيٍ أشاروا إليه تقريبًا، حتى تلك الآراء التي أتفق معها. عندما خرجنا إلى هواء الليل، أردتُ أن أركض. بدلًا من ذلك وافقتُهم قائلًا نعم، بالتأكيد، يجب أن

نلتقي ثانيةً، ورافقتُهم إلى محطة المترو. تعجَّبت رنا حين أقبلتُ لأودِّعها. كانت محطتها في نوتنج هِل جيت، وتقع على الطريق إلى شيبردز بُش، وقد توقعتُ أننا سنركب القطار معًا. قلت إنني محتاج إلى المشي لكي أفكِّر في بحثٍ عليَّ تسليمه بعد بضعة أيام. تعانقنا وانصرفتُ مرتاحًا ونادمًا.

كانت الدراسة كثيرة المطالب. صرتُ نادرًا ما أرى مصطفى. كنت بحاجة إلى كل الوقت الذي عندي. قرأتُ «السيدة دالوي»، قرأتُ «كلاريسا» لريتشردسن. قرأتُ روايات الأخوات برونتي وديكنز. قرأتُ ترولوب، وجورج إليوت، وثاكري، وجاسكل. قرأتُ بعزمٍ وبترتيب زمني، من شوسر إلى الإليزابيثيين وصولًا إلى جراهام جرين. كان لي معلمون جيدون. أخذتُ الأمور على محمل الجِدّ أكثر مما يجب. مثلًا عندما أخَذَنا أحد المحاضرين في أول أسبوع إلى حانة الكلية، بصمتٍ ذُعِرتُ حين قال بلا مبالاة، وفي يده كأسٌ مُترَعةٌ بالبيرة، إنه لا يتوقَّع منَّا أن نقرأ دائمًا كل صفحة من صفحات تلك الروايات الفكتورية الكبيرة. أنا قرأتها، وكلما قرأت أكثر بدا لي كل شيء - وليست النصوص وحدها - كأنه متنقِّل وغير ثابت، مشهدٌ من الأجزاء المتحرِّكة. أقلقني ألَّا تكون لي آراء قوية. الحقيقة أنني لم أكن أهتم كثيرًا بالآراء. أردت، بدلًا من ذلك، أن أكون في حضرة العمل الصامت لكتاب جيِّد، أن ألاحظ وأشعر. على أنه لم يكن عليَّ أن أقلق. اجتزتُ

كل ذلك بنجاح، وعاملني أساتذتي وزملائي الطلبة باحترام. كنت قد بدأتُ أستمتع.

اتَّخذتُ أصدقاء، أصدقاء عابرين. لقد منحوني البهجة، وفق معايير أبي، لكنني لم أكن متيقّنًا قطّ إلى أي حدٍّ يمكنني أن أثق بهم. كثيرًا ما أحسستُ بتلك الفجوة في تعاملنا. ومع أنني عرفت أن ذلك كان بسببي، لم أستطع أن أفعل إلّا القليل لتغييره. لكنني حاولت فعل ذلك القليل.

كانت لي بعض العشيقات. لم يدم شيء وقتًا طويلًا. كنت إذا انتهى بنا الأمر إلى الفراش، وقبل خلع ثيابنا، أحرص على إطفاء المصباح. إذا تحسَّستْ يدها النَّدَب أو التعاريج العميقة على ظهري وبدأت الأسئلة، لجأتُ إلى اقتراح رنا الذي عرضته حين كنّا في البحر معًا: «حادث سيارة عندما كنتُ طفلًا».

مرَّةً عزمتُ على قول الحقيقة. قلت لنفسي إن ذلك كان ضربًا من تجربة أكثر من كونه إحساسًا بالتقارب. إلّا أن ذلك لم يكن صحيحًا. كان اسمها هانا. التقينا في محاضرة من محاضرات الشعر. أتذكّر كيف غيَّرتْ الجو قليلًا. تكلَّمتْ بهدوء، بنغمة عذبة، وكانت هناك لُثْغَة خفيفة في نطقها حرف السين. ولمّا نظرتْ إليَّ سَكَنْتُ وحينها لم أكن أرغب في الكثير. دعوتها إلى العشاء وأحضرتْ هدية؛ «مديح»، ديوان شعر نحيل لروبرت هاس، شاعر أمريكي لم أكن قد سمعت به. كان غلاف الكتاب بلون أخضر باهت ضارب إلى الرمادي، نُقِشَتْ عليه حبَّات توت بلون

أسود. قرأتْ منه قصيدة كانت تعجبها خاصةً. ما زلت أتذكّر وجهها، هدوء صوتها، عندما بلغتْ السطور:

كانت هناك امرأة
مارستُ معها الحبَّ وتذكّرتُ أنني
عندما أضمُّ كتفيها الصغيرتين بين يديَّ أحيانًا
أشعر بدهشة عارمة من حضورها
كعطشٍ للملح، لنهر طفولتي.

أرادت أن تعرف عن طفولتي. قلت لم يكن هنالك نهر بل بحر. ثم في الفراش أرادت أن تعرف عن النَّدَب. انقلبتْ فوقي وأضاءت المصباح، فخزَّرت عينيها في الضوء الساطع وأخذت تعاين صدري كأنه وثيقة حَوَتْ معلومات مهمَّة. شعرها الناعم والدافئ، الذي كان بلون أوراق الخريف، انتشر فوق جلدي. كان يتحرّك كلما تحركت هي حركةً خفيفة. حاولتُ الإجابة عن أسئلتها. أردتُ أن أجيب عنها. قلت لها ما لم أقله لأحد. أصبحتْ صامتة وحزينة. احمرَّتْ عيناها حمرة ملتهبة، كأنها تمشي في دخان صاعدٍ من نار. فجأةً خرجتْ من الغرفة فخفق قلبي خفقانًا شديدًا. فكّرتُ أنها ستلمُّ أشياءها وترحل. لكنني سمعتها بعد ذلك تسكب لنا شرابًا. وما إن عادت حتى قرَّرتُ أن أفضل طريق إلى إنهاء الحديث هو أن أقول إنه من المريح أنني تكلَّمتُ أخيرًا عن ذلك. قبَّلتني بشغف.

قالت: «آسفة جدًّا، آسفة لكل ما حدث لك».

لم يكن هناك شكٌّ في عقلي أنها لم تقصد ما قالت، ولأنني لم أسمع ذلك من أحد آخر هالني كم كنت راغبًا في سماعه، كم كانت الأرض ظمأى، وقبل أن أدرك الأمر انهمرت دموعي. مارسنا الحب ثانيةً، وبقيَ كلانا بين ذراعي الآخر وقتًا طويلًا. ما كان ينبغي أن يحدث حينها هو أن ينام كلانا، أن نلج النوم متعادلَين، لكنني بقيت مستيقظًا وانهمرت دموعي مرة أخرى، بحرارةٍ هذه المرة وباسترسالٍ مخيف. أغلقت على نفسي في الحمام ورجوت ألَّا تسمعني. عدتُ مجهدًا واستلقيت إلى جوارها أنظر إليها وهي نائمة في ضياء الفجر الواهن، وأسمع اسمها، هانا، يتردَّد برفق في بالي، ثم تخيَّلت تنوُّعاته: آنا، آنابِل، آني، والاسم العربي نُونا. عندئذٍ لمحتُها، إمكانية أن أكون حُرًّا، وما سيستلزمه ذلك من جهد، من منعطفات وأحاديث واعترافات ووقت. رأيت ذلك كلَّه.

٤٦

تعمّقتُ في القراءة وعرفتُ التّقدُّم، أو ما رأيته تقدُّمًا. مثلًا، أدركتُ، أو ظننتُ أنني أدركت سبب اعتقاد وُلف أن ريتشردسن مهَّد الطريق لهنري جيمس. أدركتُ أن جوستاف فلوبير على كونه أصغر من وولتر سكوت بنصف قرن، كان أنضج الرجلين. أدركتُ سبب اعتقاد بعضهم أن نجيب محفوظ مدينٌ لستندال أو كيف تأثّر الطيب صالح بجوزيف كونراد وإرنست همنجواي. وعندما قرأت لورنس ستيرن، اقتنعت بأن أحمد فارس الشدياق قد قرأه أيضًا. اعتقدتُ أنني عرفت شيئًا عن المقصود بروح جوته وهولدرلين، وأن «ألف ليلة وليلة» كانت من النصوص التي أثّرت في جوته وسيرفانتس. تحمّستُ كثيرًا حين عرفت أن روبرت لويس ستيفنسن أيضًا استلهم حكايات طفولتي. استطعت أن أجد ستفنسن و«ألف ليلة وليلة» في خورخي لويس بورخس. رأيت هذه التراسلات والتبادلات المتقاطعة كخيوط تنسج الآداب كلها، ولا شيء هنا كان متنافرًا. بدأت أرى الروايات والأشعار ـ بل الحدث الإنساني بأسره ـ لا ميدانًا من حدودٍ كوَّنتها لغاتٌ وحِقَب وأساليب ومدارس وحضارات،

بل نهرًا عظيمًا له سلالته الداخلية الخاصة، وأنه مهما تبدَّلت صفحته، من تي إس إليوت إلى بدر شاكر السياب، ومن تشوسر إلى ديريك والكوت، ففي أعماقه وحدة كانت مستعدة ومتاحة للكُتَّاب اللاحقين. كان عندي أمل - وزادت جرأة أملي كلما تقدَّمت في طريق التَّعلُّم هذا - أن حسام زوة، الكاتب الذي أثَّرت قصته القصيرة فيَّ تأثيرًا شديدًا عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري وألقت بظلالها على كل ما قرأت منذ ذلك الحين، سيشارك في هذا المسير العظيم، وأنه بالرغم من صمته المطبق، منذ صدور مجموعته القصصية في الشهر الذي أُصِبتُ فيه، إبريل ١٩٨٤، قد يغنِّي مرة أخرى، وسيغنِّي بقوة أكبر.

٤٧

بعد عامٍ ونصف عام، في منتصف دراستي، أبلغتُ عائلتي أنني تخرَّجت في كلية لندن الجامعية وسأشرع الآن في دراسة الماجستير في بيركْبِك.

فوجئت أمي. سألتني: «وما معنى هذا فيما يتعلق بمجيئك إلى البلاد؟»، ثم قالت: «وكيف تتخرَّج دون إخبارنا؟».

قلت: «أحب حقًّا أن أستمر وأدرس الدكتوراة».

قالت: «ألم يكن هناك احتفال؟».

قال لها أبي: «البريطانيون أناس كادحون».

قالت له: «طيب، لكن أيمتنعون حتى عن الاحتفال؟».

حينما هاتفتهم في المرة التالية كان أبي قد قام ببعض البحث. قال: «هل تعرف أن تي إس إليوت درَّس في بيركْبِك؟ تذكَّرْ هذا في المرة المقبلة عندما تدخل الجامعة».

بعد تخرُّجي بوقت قصير حصلت على وظيفة معلِّم مساعد في مدرسة حكومية في باترسي. كان خريف ذلك العامِ طويلًا جدًّا وملوَّنًا: تريَّثتْ الأوراق المتلوِّنة على الأشجار، وظلَّ دفء

الصيف محسوسًا في الهواء. ذات صباح كنت في الحافلة في الطريق إلى العمل، وفور انعطاف السائق بالحافلة إلى الناحية الغربية لشارع كنسنجتن الرئيس رأيت خالي أسامة، شقيق أمي الأصغر، يخرج من الفندق الخرساني الواقع عند الناصية. كان يرتدي بذلة ضيقة عليه قليلًا ويحمل حقيبة. تملَّكني الذُّعر. هرولت للنزول من الحافلة لكنني تجمَّدت عند عتبتها مزعجًا السائق. «قرِّر إذًا؟»، قال وقرع الجرس. تحرَّكت الحافلة ومن مؤخرها المفتوح، ولم يكن ثمَّةَ ما يحول بيننا، راقبت خالي، أصغر أهل أمي. عاش معنا بُرْهةً عندما كان يدرس في الجامعة ولم يكن ذا نفع في المطبخ، عدا أن الجميع اتفق على أنه كان يعدُّ عجَّة شهيَّة، وكلما أعدَّها كان علينا تنظيف ما تركه من فوضى والتَّحقُّق من أنه أطفأ نار الموقد. وتذكرتُ كل شيء: شروده، رائحة العجَّة الزُّبدية اللذيذة، حسّه الفكاهي السريع والشنيع أحيانًا، ولعه بموسيقى أحمد فكرون وناصر المزداوي، أسلوبه في إغاظتي، وتحريفه اسمي «خلُّودي»، فارضًا فيه شيئًا من التودُّد والسّخرية. يعمل الآن في وظيفة إدارية بوزارة الزراعة. وهذه الوظيفة هي ما أتى به إلى لندن. كان يبتعد في الأفق. قلت لنفسي إن هذا سيمضي. بعد أسبوع من الآن أو نحو ذلك لن يخطر لك الأمر ببال. وقفت الحافلة في زحمة المرور فقفزت خارجًا منها. صُعِق لرؤيتي، بدا متأثرًا بصدق، عانقني عدة مرات وكان يفلتني لينظر ثانيةً إلى وجهي. وطوال الوقت كان حائرًا تلك الحيرة المشوبة بعتاب خفيف. تخيَّلته يحدِّث أمي عني،

عن ابنها الذي ـ على ترابط عائلتنا ـ كان سهلًا عليه أن يفارقها. حين نظرتُ إلى وجهه السعيد الذي يشبه وجه أمي أحسستُ بشيء في نفسي يذوب.

قال: «طلبت منهم أن يزودوني بمعلوماتك، لكنهم قالوا إنهم لا يحتفظون برقم هاتف لك. عنوان صندوق بريد فقط. ما فائدة ذلك بالله عليك؟».

قلت: «عليَّ أن أسرع وإلَّا تأخرت عن العمل».

قال: «وأصبحت تعمل الآن! جميل. خبِّرني بكل شيء».

«ماذا تفعل اليوم في وقت العشاء؟» سألته. «لكنني أصرَّ. لن أقبل رفضك. سآخذك من فندقك ـ هناك تقيم أليس كذلك؟ ـ في السابعة مساء؟».

ركضتُ إلى الحافلة ولم يتحرَّك، بل وقف وكفُّه المفتوحة ممدودة إلى الأعلى، منارة في الظلمة، ووجهه يبتسم تبسُّم طفلٍ سعيد لا يحدُّ فرحته شيء.

«سبعة مساء»، هتفت قائلًا مرة أخرى والحافلة تتحرَّك.

٤٨

طوال ذلك اليوم، وأنا أعمل في الصف وأدردش بلطافة في غرفة المعلمين، شعرت بأن صبري ينفد كأنني مُقْدِمٌ على سفر. فرغتُ من العمل وذهبت للتَّسوُّق، اشتريت كريمات وجه لأمي باهظة الثمن وكتبًا لأبي وحقيبة جلد آخر موضة لسعاد. في أقل من ساعتين أنفقت ما يعادل إيجار شهر. عزمت كذلك على دفع ثمن العشاء لأعبِّر لخالي أسامة عن سعادتي باستضافته في المدينة التي أصبحت الآن مدينتي. وجدته ينتظرني في بهو الفندق. أخذته إلى مطعم من المطاعم الإيرانية القريبة في شارع هامرسميث. قال إنه لا يعرف شيئًا عن الطعام الإيراني وأرادني أن أطلب له. طلبت أطباقًا كثيرة. ضحكنا عندما حاول النادل صفَّها كلها على مائدتنا. نُقِلنا إلى مائدة أكبر. أخرج خالي أسامة كاميرته وطلب من الرجل أن يصوِّرنا.

قال: «دليل للتوثيق، وإلَّا فلن تسامحني أختي».

هذه ستكون أول مرة يرونني فيها منذ خمس سنوات، كما أحصيت. عدِّل ياقتك، ابتسم، كن مرتاحًا.

سألته: «كيف حالها؟».

«كبرتْ قليلًا لكنها ما زالت جميلة. فخورة بابنها. جميعنا فخورون بك. لكن»، قال ثم سكت. «هي لم تقل شيئًا لكنني أعرف أختي. إنها لا تفهم. هي تعلم مقدار حبك لوطنك ولذا فإنها تتوقع الأسوأ. كلنا يفعل ذلك».

قلت: «لست متأكدًا مما إذا كان سيُسمَح لي بالخروج مرة أخرى، ولا مما إذا كان سيُسمَح لي بأي شيء آخر».

أطبق فكَّيه، ثم قال: «هذا ما خشيناه».

تأمَّلتُ تبدُّل ملامح وجهه. فكرتُ في أنه إذا أصاب التخمين فلربما عجزتُ عن مقاومة إخباره بكل شيء.

«هل ثرثرت في الجامعة؟».

«شيء من هذا القبيل».

«ورَّطت نفسك بقراءة كتب فاسدة؟».

«قلت: «أخشى ذلك».

قال: «كيف تعرف؟ لعلَّك تتخيَّل».

«قطعًا لا أتخيَّل».

فجأة همس قائلًا: «على كل حال، لعل ذلك من الحكمة. الأمور سيئة جدًّا الآن. الآلاف في السجن. أعرف أناسًا اعتقلوا لإبدائهم تردُّدًا لا غير. وللأوغاد آذان في كل مكان».

للحظةٍ لم يتكلم، لكنه بقيَ ينظر إليَّ.

«خبِّرهم أن عندي وظيفة جيدة وأهمّ بدراسة الدكتوراة. تأكد أن تقول لهم ذلك. خصوصًا أبي».

قال: «سأفعل. ما موضوعها؟».

«دراسة مقارنة: رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، المعري ودانتي. من فضلك لا تنسَ إخباره بذلك أيضًا».

قال: «بالتأكيد لن أنسى».

بعد مدة قصيرة من الصمت قلت: «وقل لهم إني سعيد».

قال وهو يميل إلى الأمام: «اسمع. أعرف الوزير. رجل طيب. أستطيع أن أطلب منه الاستفسار عن الأمر».

قلت: «لا فائدة. كتبتُ إدانة للنظام الدكتاتوري، ونشرتُها في الصحيفة المحلية بإدنبره. رأتها جماعة الأنتينات وأرسلوها إلى طرابلس. سحبوا المنحة وطلبوا مني العودة إلى طرابلس لأشرح الوضع».

قال: «يا لله! ذلك أسوأ مما توقعت. أسوأ بكثير. لكن يا خالد، لِمَ تضيِّع مستقبلك هكذا؟» ثم قال، كأنما يخاطب نفسه: «طالما رأيتك ولدًا ذكيًّا».

أوصلته إلى فندقه. كان سيسافر في طائرة الصباح. أعطيته الهدايا، وقال إنها لن تشغل حيِّزًا أبدًا. «سأحزمك أنت أيضًا في الحقيبة لو استطعت»، قال ودمعت عيناه.

لم أرَ خالي أسامة يبكي من قبل.

لا أعلم ما دهاني حينها. شعرت كأنني لم أكن هناك. أن ما يحدث كان يحدث لشخص آخر ولم أكن إلا مشاهدًا. تعانقنا، ومثلما يقول بالغٌ لطفلٍ لا يفهم بعد فهمًا تامًّا أن الوقت يمر وأن الحاضر لا يدوم، قلت له: «لا شيء يدوم إلى الأبد».

٤٩

أصبح أصدقاء مصطفى الآن من دائرة مختلفة تمامًا؛ عالم من الليبيين المهتمين بالسياسة الذين يعيشون في الغربة. انضم إلى جماعة من الجماعات المعارضة التي كان مقرها في القاهرة، لكن لها العديد من الأعضاء في لندن. أدّى يمين الولاء في مراسم خاصة شهدها قادة الجماعة. ثم تبع ذلك غداء.

بفخرٍ قال لي: «لقد كان احتفالًا».

«هل كان عليك إثبات أنك مختون؟».

قال: «هيًا، اسخر. عِش حياتك المتردِّدة. يومًا ما سترى».

«أرى ماذا؟».

«سترى أن عليك الالتزام بشيء».

«لكني ملتزم بشيء».

«أقصد شيئًا غير نفسك».

«إني ملتزم بشيء»، قلت مرة أخرى، وكنت شاكرًا حين لم يُلحّ.

لا بد أنه أحس بارتياحي، لأنني حينها رأيت في وجهه أثرًا من تلك السماحة التي يخبرها الإنسان الرحيم حينما يُذكَّر بسُلْطَتِه

على الآخرين، وأيضًا باللذة التي يجدها في قدرته على كبح تلك السُّلطة وتلطيفها.

جلسنا بصمت قبل أن يسألني: «لِمَ لا تحضر إحدى وجبات العشاء لترى بعينيك؟».

رفضت، وفي الأسابيع التالية، كلما سألني مرة أخرى أثقل كاهلي إيجادُ الطريق الأمثل للرفض. ثم توفي أحد قادة الجماعة. الشكوك في موته مسمومًا كانت لها مبرراتها. لقد أحبَّ مصطفى الرجل وأُعجِب به كثيرًا، وقد استوقفني ذلك لأن مصطفى كان بوجهٍ عام يكره المديح، من أي نوعٍ كان. أُقيم عزاء في بيت المتوفَّى في ويلسدن جرين شمال غَرب لندن. كان مصطفى متوترًا على غير عادته ولم يُرِد الذهاب وحده. ركبنا المترو إلى هناك. عندما خرجنا من المحطة كانت السماء ملبَّدة بالغيوم. وقد احتجبت الشمس تمامًا. أعلم أن مصطفى قد قدَّر وجودي هناك، حتى إن ندمتُ بصمتٍ على المجيء - ونحن نسير في طرقات الضاحية غير المألوفة - فقد تعزَّيتُ بحقيقة أنني كنت أُسعِد صديقي.

كان المنزل ضخمًا، يشغل مربعًا سكنيًّا كاملًا، وقد رُكِن خارجه أسطولٌ من سيارات بي إم دبليو ومرسيدس بنز السوداء. بانت على مصطفى مسحة الفخر تلك التي بانت عليه عندما أخذني أول مرة إلى منزل الإخوة في كنسنجتن. حصَّنه ثراء أصدقائه، مع أن الثقة التي جلبها هذا الثراء لم تدم طويلًا، أو ربما لأنها لم تدُم فقد سعى إلى استعادتها.

ضغط جرس الباب وانتظرنا. كان هناك شيء فاضح في الروائح المألوفة لماء الزهر والطعام اللِّيبيّ: لحم الضأن والقرفة والكُسْكُسي المطهو بالبخار، والرائحة الحادة للهريسة الطازجة. قلت إنني لا أستطيع الدخول والتفتُ لأنصرف لولا أن أمسك مصطفى بذراعي.

همس قائلًا: «إذا ذهبت الآن فلن أسامحك أبدًا». وقد ظهر صدق كلماته في عينيه.

استقبلنا خادم. بالنظر إلى مسلكه وملامحه سألته إن كان من الفلبين.

قال مبتسمًا: «لا يا سيدي. ماليزيا».

سألني مصطفى بالعربية: «ما دخلك أنت؟».

طلب منَّا الرجل أن نخلع حذاءينا. لم يكن ذلك أمرًا مفاجئًا، لأن المنزل كان ليبيًّا، إلَّا أن إظهار خصوصية جوربيَّ إلى العلن زاد قلقي. كانت مقاييس كل شيء مختلَّة. كان السقف منخفضًا لكن السلالم الموجودة في آخر بهو المدخل كانت واسعة وتلتف إلى الأعلى كأننا كنا في قصر باروكي. وعلى طولها عُلِّقَت، بلا استواء، نسخُ لوحاتِ مناظر طبيعية إنجليزية مزيَّنة الأُطُر. أسفل كل منها طُبع على لوحٍ نحاسي اسمُ الفنان: جون سنجر سارجنت. حينها كنت أجهل مَن يكون ولم أكن قد رأيت رسمه الرقيق للغيوم، غير أن الإيقاع المزدوج لكلمتي «النقيب المُغنِّي» بدا كأنه مزحة عسكرية. أُخِذنا إلى قاعة كبيرة جلس

رجال حول محيطها. كان وسط الغرفة خاليًا. شعرتُ كأننا كنا نعتلي خشبة مسرح. وقف الجميع ومررنا بهم نصافح الأيادي ونعزِّيهم التعازي المعتادة في هذه الأحوال. كانت لي تعزية مفضَّلة التزمت بها: «العزاء واحد»، وأخذتُ أكرِّرها لكل رجل. لم أعرف أحدًا هناك ومع ذلك عرفتهم جميعًا. عرفت هذا الصمت المترقِّب، هذه الوجوه وتكتُّمها الحَذِر. كان يمكنني الجلوس دون قول كلمة، متحمِّلًا ذلك التَّخفِّي المتحفِّظ الذي يسم مجالس الذكور الليبيين، ببنيانها الاجتماعي الحَذِر الذي يسمح للمرء بكتم كل ما هو مهم، بحيث يستطيع معرفة الآخر معرفة حميمة، لكنه لا يعرف أي حقيقة جوهرية عنه. فجأةً لم أجد نفسي مؤيِّدًا لهذا ولا ناقدًا، وقد تساءلتُ، مستمتعًا بعدم اكتراثي هذا، إذا كان المرء بحاجة ربما إلى معرفة الشيء حق المعرفة ليقدر على أن يكون متناقضًا إزاءه، فأدركت حينها أن هذا كان سبب استحالة إحساسي بالتناقض إزاء أغلب الأشياء؛ فقد كنت أعاني من امتلاكي آراءَ راسخة بخصوص كل تفصيل دقيق في حياتي الجديدة.

تلاشت رباطة الجأش هذه ما إن رأيته؛ الرجلَ الذي زارنا في المستشفى وأرسل إلينا تلك الطرود التي حوت مالًا وثيابًا. تذكَّرت ثقتي به في أول الأمر ثم الريبة الشديدة التي ثارت في نفسي. لعله كان طيبًا جدًّا إلى حدّ أنه تمكَّن من التسلل إلى هؤلاء المغتربين. حينها ظهر لعينيَّ أذكى مِنْ كل مَنْ كان في الغرفة. لم يسعني إلَّا أن أغترَّ قليلًا عندما سلَّم عليَّ بحرارةٍ مُقبِّلًا وجنتيَّ.

«أنا سعيد جدًا لرؤيتك في أحسن حال»، قال وبدا أنه قصد ما قال.

عددٌ من الموجودين في الغرفة لاحظ ذلك. كنت خائفًا أن يكشفني للآخرين، ومع ذلك تمنَّيت أن يكشفني. سأله الرجل الذي كان إلى جانبه كيف عرف أحدنا الآخر. ابتسم ولم يقل شيئًا. تقدَّمتُ في سيري قبل أن يتكرر السؤال.

كان مصطفى قد سبقني بثلاثة رجال أو أربعة. هو أيضًا صادف شخصًا يعرفه. تعانقا ثم رأيت أنه كان سعد. عجبتُ كم أسعدتني رؤيته. تعانقنا. بمرور المساء أصبح واضحًا لي أن سعد أيضًا انضم إلى المعارضة. لم أستطع فهم هذا وتساءلت عمَّا غيَّر الرجل الذي قال لي أول ما التقينا في إدنبره إنه قد تحرَّر من كل الاهتمامات. تذكَّرت كلماته: «لقد أسلمت نفسي لحقيقة أنني أعيش في عالم مليءٍ بالرجال غير العقلانيين...». تذكَّرتُ كم أسعدتني تلك الكلمات وكيف وجدتُ صداها عند أبي بعد ذلك لمَّا تحدَّثنا بعد واقعة إطلاق النار وقال: «السؤال هو يا بنيَّ - وطالما كان هذا هو السؤال الأهم - هو كيفية التخلص من مطالب الرجال غير العقلانيين». لقد هالني التشابه غير المتوقع بين ذينك القولين.

جلستُ ومصطفى. عرفنا ما كان علينا فعله. كلما دخل الغرفة قادمٌ جديد وقفنا وتبادلنا العبارات المعتادة الموثوقة. شربنا الشاي عندما قُدِّم واستمتعتُ بحلاوته المُرَّة أكثر من أي وقت مضى. من حين لآخر، عندما كان يخترق الجمعَ صوتٌ وحيدٌ

راويًا قصة عن المتوفى، بحماسة شديدة في أكثر الأحيان، كنا نصغي باهتمام شديد كأن أحدًا كان يناولنا شيئًا رقيقًا. ثم حان وقت الشعر. مال رجل إلى الأمام وغطّى عينيه بيده فصمت كل من في الغرفة.

رفقتنا
راني فديتها
راني فديتها رفقتنا
انكاني
انكاني عارفها
راني فديتها رفقتنا
انكاني عارفها ما تدوم
راني فديتها رفقتنا

يبدأ الإيقاع والتكرار من الكلمة الأخيرة ثم يسير بالعكس حتى يُحَلّ اللُّغز. غناوة من غناوي العَلَم الليبية المألوفة التي تسعى إلى جبر الكسور. طلب الجمع غناوة تلو أخرى، ومع كل غناوة وجدت نفسي أكثر تأثُّرًا وسعادة.

لم أستطع منع نفسي من استراق النظر من حين لآخر إلى الرجل الذي زارنا في المستشفى. عجبتُ من هيئة جلوسه واضعًا ساقًا على ساق، ومن حقيقة كونه الوحيد الذي لم يخلع حذاءه. كان حذاء جلدٍ ناعمًا مُلَمَّعًا جدًّا يصل إلى الكاحلين، وكان أنيقًا جدًّا. لم يكن رجلًا متكبّرًا، أو لم أحسبه كذلك على الأقل، إلا أنني ظننت أن الناس سيرونه متكبّرًا. بدا أنه كان يدرك ذلك

لكنه لم يكترث أو لم يكترث اكتراثًا كافيًا لتغيير مسلكه. كان ذلك ما وجدته جذابًا، جذابًا ومُرِيبًا، لأنه يعطي انطباعًا بأن الرجل كان ينعم بحصانة، ومن ثم ربما يسانده أناس نافذون.

ودَّعنا الجميع وخرجنا. لم أصدق كم استمتعت بوقتي.

قلت لمصطفى: «شكرًا لأنك أحضرتني».

لم يُجِب.

قلت: «ما أطيبهم! فهمت الآن ما تعني».

حتى ذلك لم يلقَ منه جوابًا. فكَّرت أنه لو سألني حينها لربما قلتُ نعم.

انعطفنا إلى زاوية وفجأةً لم يكن مصطفى هناك. كان قد تخلَّف عني. أولاني ظهره. حين وضعت يدي على كتفه غطَّى وجهه وبدأ يبكي. حاولت معانقته. لم أعرف ما أقول فأخبرته أن ما كان بحاجة إليه حينها هو الشراب. تكلَّمت كثيرًا، ليس عن الجمع الليبي، بل عن أي شيء وكل شيء آخر ونحن نسير عائدَين إلى محطة المترو، وفي خلال نصف الساعة أو نحو ذلك من رحلة القطار من ويلسدن جرين إلى أوكسفورد سيركس، ومرة أخرى حين كنت أتقدمه في الطريق، ونحن نسرع الخطى، كأننا كنا متأخرين على ميعاد، إلى حانة دوج آند دَك في سوهو. بينما وقفنا في الحانة بانتظار دورنا في الطلب قلت له كم أحب هذا المكان، وأنا أقول هذا سمعتُ في صوتي عاطفة صادقة. نظر حوله، وأومأ برأسه، لكنه ظل صامتًا. لقد أتيتُ به إلى هنا

من قبل. ولئن كنت حتى ذلك الحين أشك في زعمِ الحانة المُعلَن على لافتة وُضِعَت خارج حمَّام الرجال - أنَّ «هناك ما يوثِّق خير توثيق أن الروائي الإنجليزي ذائع الصيت جورج أورويل كان يشرب في دوج آند دَك» - فقد وجدتُني أقول أشياء من قبيل «أليس مدهشًا أن نتصوَّره داخلًا هنا طالبًا شرابًا؟» لم يظهر أن ذلك أبهر مصطفى. ذكرتُ أنني قرأت مؤخرًا «تحيَّة إلى كتالونيا» - والحقيقة أنني قرأتها منذ زمن بعيد - مذكرات أورويل عن الحرب الأهلية الإسبانية. شجَّعتُ مصطفى على قراءتها. قلت له إن أولئك الشُّبَّان الذين انضم إليهم أورويل لمقاتلة قوات فرانكو يذكِّرونني بنا نحن وبفتية الشوارع الصناديد في بنغازي، أولئك الذين تعرف أنهم سيضحُّون بكل ما يملكون في سبيل إنقاذ صديق من مشكلة. هنا لمعت عينا مصطفى. ابتسم. أخيرًا ابتسم. جلسنا في الحانة أكثر من ثلاث ساعات. في لحظة من اللحظات وضع يده على قفاي وضغطه بشدة.

قال: «لا تعرف كم أحبك. سأفعل أي شيء لأجلك».

قلت: «وأنا كذلك».

ومع أننا كنا نحن الاثنين مخمورَين، عنينا ما قلنا.

ثم قال شيئًا عن فتاة كان يعرفها في الوطن وسكت، رافضًا أن يقول عنها أكثر مما قال. قال: «لأن ما أريده حقًّا هو أن أخبرك عن شَعرها». ثم نظر إليَّ وقال: «أليس مريعًا استمرار الحياة؟ إنها تستمر وتستمر فحسب، بلا توقف».

قلت: «مريع وجميل».

قال: «جميلٌ أحيانًا فقط»، وبدأ يتكلَّم عن المتوفَّى، وكم كان شجاعًا وطيِّبًا ومخلصًا. «أستطيع أن أتخيَّل يومًا ما أن أحبَّه مثلما تحب أنت أباك».

أصغيت إليه لكنني عوض ذلك تمنيت أن أكلِّمه عن الرجل الآخر، الرجل الذي أعطانا المال. كنت أفكِّر خصوصًا في السِّيماء التي ظهرت على وجهه وهو يغادر المستشفى، كانت نظرة حزن عميق. تساءلت إن كان مصطفى قد لاحظها أيضًا.

٥٠

تبيَّن أنني كنت مصيبًا ومخطئًا في شأن المُحسِن إلينا، الرجل الذي زعم أنه كان يعرف أبي قبل مولدي. أخطأت حين ظننته من أتباع النظام. لكن بسبب ما حلَّ به، كنتُ مُصيبًا عندما لاحظت فيه ما يُشعِر بقرب وقوع مأساة. في عام ١٩٩٠، بعد عامين من رؤيتي له في ويلسدن جرين، لمَّا كنت قد نسيت أمره تمامًا، وردت أنباء عن اختفائه من منزله في القاهرة. اتضح بعد ذلك أن عملاء القذافي اختطفوه وزجُّوا به في طائرة عادت إلى ليبيا، حيث عُذِّب وفي النهاية قُتِل.

لم نعرف هذا حينئذٍ، لكن مثل هذه الاختطافات والاغتيالات كانت بداية نهاية المعارضة الليبية. لم يرَ مصطفى الأمر هكذا. بل بالعكس من ذلك، فقد عمَّقت وفاةُ معلِّمه المشبوهة التزامه السياسي. سلَّم قرار استقالته من وظيفته اليومية وانضم إلى جناح المنظمة العسكري عضوًا متفرِّغًا في الجماعة يتلقَّى راتبًا. التحق بمهام تدريب كثيرة. كان يختفي أسابيع. توقف عن الشرب وأصبح لائق الصحة مفتول العضلات. كان شديد التكتُّم في الأمر. إلَّا أنه آخر مرة ذهب إلى مهمة من تلك المهام هاتفني من

خارج البلاد وأبلغني بمكانه: القاهرة. بدا صوته قلقًا. بعد أسبوع أو نحو ذلك هاتفني مرة أخرى وكان صوته هذه المرة قريبًا ومرتاحًا. اتضح أنه عاد وكان يهاتفني من شقته في لندن.

قال: «واضحٌ أن جماعتنا اختُرِقَت. سأقطع ذراعي اليمنى إذا لم يكن بعض أولئك الأوغاد في القاهرة يعملون لحساب القذافي. أستطيع شمّ الرائحة. استيقظت ذات ليلة وتبعت قلبي. غادرت دون أن يلاحظني أحد. اشتريت تذكرة إياب بلا عودة».

بعد ذلك وجد مصطفى وظيفة في مكتب عقارات كبير وعمل بتركيز شديد حتى ارتقى المناصب سريعًا. إضافةً إلى راتبه كان يحصل على عمولة مُجْزِية. حصل على رهن عقاري، واشترى بيتًا وحاول إقناعي بفعل ما فعل، ظل يلح في الحديث عن أهمية ارتقاء «سُلَّم العقارات». أخذ قرضًا آخر واشترى ألفا روميو حمراء جديدة. بدأت لهجته الإنجليزية تتغيَّر قليلًا، لتتحوَّل إلى لهجة الأثرياء. في البداية، أخذت أغيظه بشأن ذلك، لكنني بدأت بعد ذلك أسمع لهجتي تتغيَّر تغيُّرا طفيفًا لتلاقي لهجته. أصبح الآن يرتدي قميصًا مكويًا حتى في عُطَل نهاية الأسبوع، ورأى كل ما حدث من قبل وقتًا مهدورًا. كان معظم أصدقائه بريطانيين وأوروبيين. كثيرًا ما كان وقته معهم يبدو كأنه تمثيل. كان يختلق الأشياء، ونادرًا ما يخبرهم بالحقيقة، وأكثر ما كان يبهجني الحلف والتآمر اللذان ولَّدهما الكذب بيننا. كان يبدأ بحقيقة مختلقة، كأننا نلعب التنس أمام جمعٍ صغير من المتفرجين، فيرميها إليَّ وأحاول تطويرها قليلًا.

في ذلك الوقت كان مصطفى قد نأى بنفسه عن الأدب ما استطاع. في حين في إدنبره، كان الأدب هو الشغف الذي جمعنا وشكَّل موضوع أحاديثنا الأساس، أمَّا الآن فإن ذكر كتاب أو كاتب فحسب يزعجه قليلًا، وظننت أن سبب ذلك هو صعوبة تجاهل المرء موضوعًا شَغَفَهُ يومًا. كنت أنتظره في مقهى أو مطعم، ثم نتعانق فألمحه ينظر نظرة استنكار سريعة إلى الكتاب الذي أقرؤه.

كان في إس نايبول سيتحدث في الجمعية الجغرافية الملكية. عندما التقيت مصطفى أول مرة في إدنبره كانت رواية «منزل للسيد بيسواس» من الروايات التي أشبعناها نقاشًا. حصلت على تذكرتين وذهبنا معًا، ورأينا الرجل العظيم يصل معتمرًا قبعة لم تلائم حجم رأسه. اتفقنا أنَّ القبعة كانت فكرة إنجليزية عفاها الزمن لما يجب أن يكون عليه المؤلف. كان المكان يمتلئ. وجدنا مقعدين لم يكونا بعيدين عن المقدمة. وضعتُ وشاحي عليهما وذهبنا لجلب شراب. حينما عدنا وجدنا زوجين قد جلسا على مقعدينا. حتى لمَّا مالت المرأة إلى الأمام لتُحَرِّر وشاحي، أدركتُ أنها كانت تتظاهر، أنها كانت تعلم منذ البداية أن المقعدين محجوزان. لم أكترث للأمر. بعيدًا في الخلف، كان هناك مقعدان خاليان، وعلى كل حال لم أفضِّل الجلوس قريبًا من المسرح. لكن مصطفى استشاط غضبًا، مقتنعًا بأن الزخرفة العربية على وشاحي كانت هي ما أشعر الزوجين بالحق في سرقة مقعدينا. قلت له إن تصرُّفَه مبالغ

فيه، إلَّا أن دحض ذلك صار أشقَّ علينا كلما أفاض نايبول في الحديث عن شرور المسلمين. خرجنا يرافقنا صمت ثقيل، شعرنا بأن نفسينا السابقتين، ذينك المراهقين اللذين لم يصبهما أذى في إدنبره، قد تعرضا للخيانة.

قال مصطفى ونحن نمشي: «لماذا يخذلنا كلُّ مَنْ يعجبنا مِن الكُتَّاب؟ حسام زوة والآن نايبول. يلعن دينها من كآبة».

٥١

طيلة تلك السنوات العشر الأولى في لندن كان مصطفى أقرب صديق لي. في بعض الأوقات عندما كنا نجلس معًا اعتقدت أنني كنت أدرك شعوره تمامًا، ولا أقصد بذلك آراءه فحسب، بل أيضًا ما تضمره نفسه، ما سيكون شعوري لو كنتُ مكانه. إن لم أثق بحكمه فقد وثقت باستقلاله. كان عصيًّا على الإفساد، أو هكذا اعتقدت حينها. لكن لعل كون المرء عصيًّا على الإفساد يعني أيضًا أنه عصيٌّ على التغيير. كان في نفسه غضب كلَّفه جهدًا عظيمًا لكظمه. جادل النُّدُل في أمور تافهة. استمر في التَّنقّل بين الوظائف زاعمًا أن الناس لم يحسنوا معاملته. لكنَّ النساء أحببنه. عشق لمدة من الزمن. اسمها شارلوت. أتت من عائلة أرستقراطية. كان والدها عضوًا في مجلس اللوردات. ما زلت أتذكر كيف كانت تنظر إليه أحيانًا بحماسة مبهجة ورقيقة، كأنها تستقبل هدية مفرحة لم تتوقع امتلاكها قطُّ. بعد مرور عامين على علاقتهما، أخذته إلى بيت عائلتها القديم، البيت الريفي الذي ترعرعت فيه، ليقابل والديها وشقيقيها. في الأيام التي سبقت هذا تجهَّم مصطفى وغلب عليه الصمت. استقبله الأب بحفاوة،

إلا أنه عندما خرجت شارلوت من الغرفة وأصبح الرجلان وحدهما، التفت إلى مصطفى وقال له بصوت هادئ لكنه حازم: «قريبًا ستخرج من الصورة. ما هي إلا مسألة وقت يا ولد».

قال لي مصطفى: «أرأيت! كنتُ مُحِقًّا. ما كان ينبغي أن أذهب».

قلت: «ما زلت أعتقد أنك يجب أن تتزوجها. أعني، كيف يمكنك أن تشقى مع امرأة كهذه المرأة؟».

ما زلت أتذكر نظرة الخوف والمهانة في عينيه. قال: «لا يمكن أن تنجح علاقتنا أبدًا».

توقف عن لقاء شارلوت ولم تعرف هي السبب قطّ. أصبح يفضِّل الأوروبيات اللاتي يدرسن أو يعملن في لندن. إيطاليات وإسبانيات وبرتغاليات. عرَّفني بصديقاتهن وتشاركنا أماسي مُسلِّية.

تجيء إليَّ الآن، تلك الأيام التي عشناها منتظِرَين، عالقَين في البرزخ بين هذه الحياة والحياة الآتية، ناظرَين في خياراتنا، أنبقى في لندن ريثما نستطيع العودة إلى ليبيا، أم نقصد مكانًا جديدًا، مكانًا تخيلناه أكثر ترحيبًا بطباعنا: إيطاليا أو إسبانيا أو اليونان أو البرازيل.

في تلك الأيام أحب مصطفى أن يقول: «فلنواجه الأمر، هناك شيء شاذ في أن يعيش عربيان من البحر الأبيض المتوسط في إنجلترا».

بحثنا عن أماكن للاكتراء في الخارج، وعن أعمال محتملة يمكننا القيام بها. طوال الوقت كانت الساعة الرملية تفرغ.

وبمرور الأيام صرنا أقل عربيةً وأكثر أنجلزةً، مثل جدار يخبو لونه شيئًا فشيئًا بسبب الطقس.

لعلني لهذا السبب رضخت لهذه الأفكار وأنا أسير عائدًا إلى بيتي في شيبردز بُش، إلى الشقة نفسها التي اكتريتها طوال السنوات الاثنتين والثلاثين الماضية، تاركًا عقلي يعود إلى الماضي. لعلني أجد نفسي هناك، أو أصادف تفصيلًا مهمًّا أغفلته قد يعينني على حاضري. فحتى إذا بقيت واقفًا في ساحة سانت جيمس، متأملًا كل ما حدث منذ آخر يوم كنت فيه هنا، فإن إخلاصي ليس للماضي وإنما للحاضر.

٥٢

بعد سفر خالي أسامة بأيام قليلة هاتفتُ أهلي. وضع أبي وأمي سماعة الهاتف بينهما وتناوبا الكلام قائلَين أحيانًا الشيء نفسه في وقت واحد. كان صوتاهما مختلفين اختلافًا لا يُشعَر به، كأن رذاذًا غشيهما. شكراني على الهدايا.

قالت أمي: «وأفضل الهدايا كانت رؤيتك».

قال لها أبي: «أتتخيَّلين أنهما التقيا في وسط الشارع!».

قالت: «قدر مبارك».

قال: «أمرٌ مقدَّر. شارع كنسنجتن العام».

قالت أمي: «سنؤطِّر الصورة».

تابع أبي قائلًا: «تأكدنا أن أسامة قال لنا كل شيء بما في ذلك اسم الشارع الذي وجدك فيه».

قالت له أمي: «الصورة جميلة جدًّا. وأن نرى وجهه».

قال أبي: «منوّر يا بني».

قالت أمي: «لا تقلق يا خالد يا حبيبي. الوقت يمر».

هنا لم يتكلَّم أحد.

قال أبي قاطعًا الصمت: «نعم. نشكر الله على أن معظم الأخبار سارَّة. تدرِّس وقريبًا ستبدأ في مشروع الدكتوراة. ممتاز».

«نعم، نحن فخورون بك»، قالت أمي بنبرة إصرار، «لا تقلق، الوقت...». وصمتت.

همس لها أبي: «لا بأس، لا بأس».

بعد أربع سنوات، في عام ١٩٩٢، بدأ النظام الليبي بتخفيف التضييق على السفر. وأصبحت حكومة بريطانيا تمنح الليبيين تأشيرات الدخول مرة أخرى بعد توقفها عن منحها إثر حادثة إطلاق النار. أخيرًا استطاع والداي وسعاد زيارتي. لم أرهم منذ نحو تسع سنوات، منذ أن كنت في السابعة عشرة من عمري. وقد بلغت الآن السادسة والعشرين، لي لحية وألبس نظارة. اشتريت فراشين فرديين من سوق شيبردز بُش وحملتهما على ظهري إلى البيت، رتَّبتُ الشقة وفركتُ الحمام ونظَّفتُ النوافذ. بينما كنت أنتظر في ردهة القادمين بمطار هيثرو، ناظرًا إلى المسافرين يخرجون من الأبواب الدَّوَّارة، شعرت بدُوار. ما فتئتُ أعتقد أني رأيتهم. وفجأةً كانوا هناك، حقيقيين بلا ريب، يملؤون المساحة التي شغلوها. تعانقنا وتشبَّث بعضنا ببعض. نظر الناس إلى جماعتنا الصغيرة بفضول وسعادة. عبث أبي بشعري وضحك وشدَّ لحيتي.

«لم تتغيَّر»، قالت سعاد مصفِّقةً بيديها، وكرَّرت قائلة: «لم يتغيَّر».

نادتني أمي: «خَلُود»، وكان سماع الكلمة علنًا أشبه برسولٍ جاء من الماضي.

عندما نزلنا في محطة شيبردز بُش كنت فخورًا بإطلاعهم على المكان حيث أعيش. حين دخلنا شقتي التفتت أمي وعانقتني عناقًا قويًا وطويلًا.

اعتذرت لصغر شقتي. نام والداي على السرير ونمت وسعاد على الفراشين في الليل وطويناهما في الصباح. توقفتُ عن الشعور بالذنب حيال ذلك عندما قال أبي بنبرة أشعرتني بصدق كلامه: «هذا هو الترتيب المثالي. عائلتي كلها تنام في غرفة واحدة. لا أدري كيف لم يخطر لنا ذلك طيلة هذه الأعوام».

روينا الحكايات حتى تقدَّم الليل، وكلما صمتنا قالت سعاد أو أمي: «خلُود، وماذا بعد؟» فأروي قصة من السنوات التي عشناها مفترقين. حينما أعجز عن التفكير في شيء أختلق الأشياء أو أروي حكاية مستعارة مدَّعيًا أنها وقعت لي. تآلفنا على نحو تلقائي، براحةٍ لا تكلُّف فيها. في الليل، كانت هناك لحظات عندما أستيقظ وأنصتُ إلى أنفاسهم الخفيفة فأشعر بحنان شجيّ نحوهم.

أحبَّت سعاد السير دون أن يلاحظها أحد، دون أن ينظر إليها أحد، دونما حاجة إلى القلق من اعتقاد الناس إن كانت تلبس ثيابًا ملائمة أم لا. أخذتُها في جولة في المدينة، يتأبَّط كل منّا ذراع

الآخر، ومن حينٍ لآخر كانت تثني على معرفتي بالمدينة. طيلة حياتي لم أشعر بمثل هذا القرب من أحد هكذا.

«اشتقت إليك كثيرًا»، كانت تقول بعد صمت وتجذبني إليها. دائمًا كنت أجيبها بأنني أنا أيضًا اشتقت إليها. ثم تريح رأسها على كتفي وتبقى هناك لحظة. عندما سألتها لماذا لَمْ تتزوج وخطيبها بعد قالت: «إننا ننتظر عودة شخص عزيز إلى الوطن».

قلت: «عِديني بألا تفعلي ذلك».

قالت: «لقد أخبرنا خالي أسامة، لكن لا تقلق فالأمور تتغير. كثيرون مثلك ممن انتقدوا النظام نالوا العفو فيما بعد».

«لا تنتظروا»، قلت ويداي تطوّقان ذراعيها بقوة.

٥٣

لبستُ بيجامتي في الحمام. لم أخلع ثيابي أمامهم قطّ. كلما تعانقنا رجوتُ ألَّا تستطيع أيديهم قراءة النَّدَب. ذات مساء قررتُ إخبارهم. طهت أمي الطعام. أكلنا مجتمعين حول الطاولة الصغيرة في المطبخ ثم جلسنا في الغرفة الرئيسة. تسارع خفقان قلبي. لماذا تخبرهم؟ ما نفع ذلك؟ ثم جاء يوم السبت، وأرادت أمي وسعاد الذهاب للتسوق. قررتُ وأبي البقاء في البيت ولقاءهما في المدينة بعد ذلك للعشاء.

فجأةً سمعتُني أقول: «عندي شيء أريد أن أقوله لك. شيء مهم».

رفع نظره إليَّ، وفكرت أنه هكذا بدا وهو صغير السن، لمَّا كان في عمري.

«حضرتُ المظاهرة في إبريل ١٩٨٤، العام الذي غادرتُ فيه البلاد. لهذا السبب لم أستطع العودة».

حتى تلك اللحظة بدا على ما يرام.

قلت: «كنتُ بين المصابين».

انتفض واقفًا على رجليه، وجهه متجهِّم وجزع.

قال: «أين؟».

«في ساحة سانت جيمس، أمام السفارة».

«ماذا تقصد بأنك أُصِبت؟ أصبت أين؟».

قلت: «إصابة خفيفة فقط».

«أين؟» كرَّر، وأصبحت الكلمة أمرًا «أين؟».

«هنا»، قلت وأشرت إلى صدري.

تحرَّكت أصابعه المجنونة على جسدي محاولًا فكَّ أزرار قميصي وخلعه عني في وقت واحد. أوليته ظهري وفككتها بنفسي. أمسك بقميصي التحتي وبحركة واحدة رفعه. الطفل الذي كنتُه يومًا سلَّم له ذراعيه. ما حدث بعد ذلك كسرني تاركًا فيَّ صدعًا. أبي، أطول رجل عرفت، انحنى وطفق يتتبَّع النَّدَب بأصابعه، يقرؤه، ويدور حول جسدي متتبِّعًا امتداد خطِّه، والدموع تنهمر على وجهه.

همس لنفسه: «ابني، ابني».

قلت له إن الأمر لم يكن بذلك السوء، وإنني شُفِيتُ سريعًا، ولم تكن هناك مضاعفات. لا شيء من ذلك. ما فتئتُ أكرِّر قائلًا: «بصدق، أنا بخير».

صفع خدي. ليس بقوة. ليس بقوة أبدًا. كان عبثًا أكثر منه عقابًا. صفعني ثانيةً، لكنه كان صفعًا هيِّنًا مثل المرة الأولى. ثم اعتذر وقبَّل الخد الذي صفعه.

«ما كان ينبغي لك» قال ووجهه متغضّن من الألم: «ما كان ينبغي لك، ما كان ينبغي لك».

حتى اليوم لا أعلم ماذا قصد بتلك الكلمات، ما كان ينبغي أن أذهب إلى المظاهرة، أو أن تُطلَق عليَّ النار، أو أن أكتم الأمر عنه. ربما الأمور الثلاثة كلها. أو لعلّه لم يكن يكلّمني أنا، بل يكلّم الرجل الذي أطلق عليَّ النار، أو الواقع السياسي برمته الذي جعل فعلًا كهذا ممكنًا. أو لعلّه لم يكن يكلّمني أنا ولا الجاني، بل لم يكن يكلّم إلّا نفسه، وأنه ما كان ينبغي له أن يسمح لي بمغادرة الوطن أبدًا.

«أبي، أرجوك، أنا بخير». لبست قميصي. بدا خائفًا. قلت: «أرجوك اذهب واغسل وجهك. سأعد القهوة».

لم يغلبني الندم من قبل هكذا قط. زحف كثعبان من كاحليَّ إلى عنقي. جلسنا إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة. صببتُ القهوة.

أصرَّ على معرفة التفاصيل كلها: مع من ذهبت، ما الذي أقنعني بالذهاب، وغير ذلك. كانت أول مرة أشارك فيها أحدًا التفاصيل كاملةً دون أن أكتم شيئًا. قلت له إني لم أكن أنوي الانضمام إلى المظاهرة، وإنني ذهبت لمرافقة صديق ورؤية لندن. عبرتْ وجهَهُ مسحةٌ من الراحة.

قلت: «أنت تعرفني».

قال: «أعرفك. لذلك لم أتوقع هذا منك. أخبرنا أسامة أنك كتبت مقالًا. ذلك سيئ كفاية، لكن هذا.. ومن كان الصديق الذي أخذك إلى هناك؟».

قلت: «لم يأخذني إلى هناك. إنما ذهبت بإرادتي. على كل حال، هذا غير مهم الآن».

أراد أن يرى تقرير الطبيب. جلبته له فقرأه كلَّه. ثم راقبته وهو يتبع مسار التفكير نفسه الذي تبعته في تلك الأيام الأولى. هل حاولتُ طلب تغيير التقرير؟

«هل طلبتَ منهم ذلك على نحوٍ ملائم؟ هل أصررت؟».

ثم أراد أن يعرف ما حصل بعد ذلك. أخبرته بكل شيء: عن المستشفى، والإقامة في شقة أهل رنا، والذهاب إلى إسبانيا، والعون والتوجيه اللذين تلقيتهما من البروفيسور ولبروك، كل شيء حتى الحاضر.

«أنا آسف»، قلتُ وقبَّلتُ يده.

قال: «ابني حبيبي، وفوق ذلك اضطُرِرتَ إلى كتم هذا عني طوال هذه السنين».

قلت: «لم يكن عندي خيار».

«عندما أفكر كم كنت وحدك...»، قال وتهدَّج صوته.

فكرت أن أبي يحتاج إليَّ. أمسكت بيده. قلت مرة أخرى: «أنا بخير الآن».

كان من اليسير الكذب عليه وقد كذبت بعاطفة في صوتي، وقلت له إني واثق أنني بفضل ذلك أصبحتُ رجلًا أفضل، وإن الله شاء حدوث ذلك لينقذني من قدر أسوأ، وإن اليوم الذي أستطيع فيه العودة إلى الوطن سيحلّ قريبًا. «لا شيء يدوم إلى الأبد»، قلت، كلمات قالها لي مرات كثيرة عندما كنت صبيًا وجُرِحَتْ ركبتي أو عندما لزمت الفراش بسبب ألم في معدتي أو عندما كان عليَّ المذاكرة لامتحان بلا توقف. أعدتها إليه الآن وذلك عنيَ أنه لم يكن عنده خيار إلا موافقتي. ثم اقتبست القول الشهير: «إن الضربة التي لا تكسر ظهرك تقوِّيه»، المنسوب إلى عمر المختار، وإن كان أبي هو من يقول دومًا أنه ـ عدا فيلم «أسد الصحراء» الذي أخرجه مصطفى العقَّاد ومثَّل فيه أنتوني كوين دور الرجل العظيم ـ لا يوجد دليل تاريخي على أن المختار قال هذه الكلمات يومًا. أشهرتُ هذا السلاح القديم، في حين كان الغضب يتأجج في نفسي طيلة الوقت، وكنت عاجزًا عن تحرير نفسي من صورة وجه أبي، منكسرًا ودامعًا، ضائعًا، منحنيًا أمامي وهو يتبع أثر نَدَبي كأنه يأمل إيجاد طريق العودة إلى الصبي الذي كان يعرفه.

«أريد الذهاب إلى ساحة سانت جيمس لأرى المكان بنفسي».

قلت: «أستطيع أخذك إلى هناك». ثم قلت: «لا، دعنا لا نذهب، من فضلك».

«لماذا؟» سألني، ولما لم أستطع تفسير الأمر قال: «لكنك مُحِقّ».

منذ ذلك الحين أصبح حنونًا وهادئًا. ذهبنا إلى بيكاديللي سيركس، حيث كنا قد خططنا للقاء أمي وسعاد. في خضم الازدحام والأضواء بدا صغيرًا ومترددًا، إنسانًا مليئًا بالشك.

قال: «لا تخبر أمك أبدًا».

فكرت: لكنها ستعرف ما إن تراك. ثم حينها فقط ظهرتا فاستعاد وجهه القديم مبتسمًا.

قال لهما: «قررنا تغيير الخطة. بدلًا من الذهاب إلى مطعم سنأخذ شطائر ونذهب إلى السينما». ثم نظر إليَّ وسأل: «أليس كذلك يا خلُود؟».

داخل السينما قال لسعاد: «اذهبي واجلسي إلى جانب أمك».

عندما أُطفِئت الأضواء شعرتُ به وهو يفكِّر. قرَّب فمه من أذني وهمس: «تنفُّسك، هل استعاد قدرته كاملةً الآن؟».

همستُ: «طبعًا».

«لا ينقطع نفسك؟».

قلت: «أبدًا».

«ولا حتى حين تركض؟».

«ولا حتى ذلك. الشيء الوحيد الذي يعرقلني الآن هو كسلي»، قلت ولما نظرت إلى وجهه لم يكن يبتسم.

قالت أمي مائلة نحو سعاد: «هما في حالة حب».

بعد وقت قصير قلت: «فقط في الأشهر القليلة الأولى، أما الآن فلا شيء».

قال: «جيد».

لا أتذكّر ما شاهدناه. كانت أفكاري مركزة عليه. في منتصف الفيلم، تمامًا في اللحظة التي أمِلْتُ أن يكون أبي مأخوذًا بالقصة، قال وكان نَفَسُه دافئًا على أذني: «لكل طاغية نهاية».

كان ينظر إليّ مترقّبًا ردَّ فعلي. كنت على يقين أن وجهي كوجهه أنارته الشاشة.

قال: «قريبًا ستعود إلى الوطن».

لبثنا صامتَين تحت أضواء السينما الخافتة حتى انتهى الفيلم. وفي طريق العودة بالحافلة سخرت أمي وسعاد من رومانسيتنا.

قالت أمي: «نتركهما عصريَّة واحدة وكل ما يريدانه الآن هو التهامس. ما وراءكما أنتما الاثنان؟ على ماذا تتآمران؟».

تلك الليلة استيقظتُ عدة مرات وفي كل مرة لم أتحرَّك. كنت أسيرَ مخاوف طفولية. ثبتُ في مكاني، وفي الصمت استطعت أن أسمع أبي مستيقظًا كذلك. حين تبدّد الهذيان وأخذ مني التعب كلَّ مأخذ، فكرت أن لا شيء آخر أفعله هنا. لا شيء أقوله، لا شيء أعطيه، ولا شيء أستردّه.

في أيامهم الباقية في لندن، استمر أبي في حنانه وقربه. في الطريق إلى المطار كان يمدّ يده إليَّ دائمًا، ممسكًا ذراعي، ضاغطًا كتفي. في النهاية لما تعانقنا عانقني بقوة حتى شق عليَّ التنفس.

قال: «لا تنسَ ما قلته لك أبدًا».

قالت له أمي: «وما ذاك؟».

قال لها: «لا دخل لكِ. هذا بيني وبين ابني».

ذلك المساء ذهبت لرؤية هانا. كانت أرواح أهلي تغمرني - في ثيابي وشعري - وأردت أن أكون معها قبل أن يتلاشى هذا. أخبرتها عن زيارتهم وعما فعلناه معًا، وعن الأطباق التي أعدُّوها لي، وعن أحاديثنا الليلية في الظلام. كان أكثر ما استظرفته واقع نومنا جميعًا في الغرفة نفسها. قلت لها إنَّ فكيَّ آلماني من التَّبسُّم في تلك الأيام القليلة الماضية.

قالت: «أتمنى لو قابلتهم».

قلت: «ستقابلينهم. المرة المقبلة».

٥٤

في الكريسماس التالي، دعتني هانا إلى بيت أبويها في إيلنج. كان جمعًا عائليًا كبيرًا ضمَّ عددًا من إخوة أهلها وأبنائهم. كان لها أخ واحد أكبر منها، وقد حضر هو أيضًا. اسمه هنري. أبواها كان اسمهما ديفيد وستفاني، إلا أن الجميع دعاهما ديف وستف. شيء في مسلكهم أوحى بأن هانا قد روت لهم عن حادثة إطلاق النار. لم أكترث لهذا. كان هنري في الجيش وقاتل في حرب الفوكلاند. معرفتنا بأن كلينا واجه الرصاص خلقت بيننا ألفة صامتة. خرج عدد من شباب العائلة إلى الحديقة يتحدثون ويدخنون في الظلام. عندما اقتربتُ صمتوا صمت من يتحمَّس للسماع منك. بقيتُ وهانا حتى ذهب الجميع. ساعدنا على ترتيب المكان. تناوبت وأبوها على غسل الأطباق في مغسلة المطبخ. كلما ناولته طبقًا نظيفًا جفَّفه من فوره واستعد للطبق الذي يليه. في الخلفية استمرت موسيقى جون كولترين دافئة ومنتظمة.

لما فرغنا من ترتيب الأشياء أصرَّ ديف على بقائنا لشراب أخير. وضعتْ ستف الإبريق على النار وسألت إذا كنا نريد شرب شاي

البابونج معها. خفَّض ديف صوت موسيقى كولترين حتى صار كالهمس وصبَّ وسكي في ثلاث كؤوس صغيرة. سألني عن والديَّ. أجبته، لكن باقتضاب لأنني لم أرغب في الحديث عنهما حينها. روت لهما هانا عن بيتنا في بنغازي ووصفته بدقة مدهشة.

«أريد أن أزوره ذات يوم»، قالت، ونظر إليها أمها وأبوها. ثم أخبرتُهما أنه في أثناء زيارة والديَّ وأختي نمنا جميعًا في غرفة واحدة.

«ظريف»، قالت ستف وابتسم ديف.

باتت هانا في شقتي تلك الليلة. كنا نتكلم ونضحك طوال الطريق إلى الشقة. لكن في الفراش، بعد أن أطفأتُ الضوء تغيَّر المزاج. كانت صامتة، لكنني كنت أعرف أنها لم تكن نائمة. ثم سمعت أنفاسها تتقطَّع. أضأت المصباح وسألتها ما الخطب مرارًا. هزَّت رأسها ولم تقل شيئًا، وكانت دموعها تنهمر. عندما حاولت عناقها لم تلن للعناق. بعد دقائق جلسنا إلى طاولة المطبخ ومعنا كأسا ماء. انتظرتُ وخفق قلبي في صدري. لم أعرف ما الخطب ومع ذلك ظننتُ أني عرفت لأنها لما قالت أخيرًا: «كأنك على العتبة دائمًا»، قلت لها: «أنا آسف». جاء ردِّي متعجِّلًا فكان له أثر معاكس. نظرتْ إليَّ بجسارة، مرتابةً فيمن أكون حقًا. قالت: «لا أرغب أن أعيش هكذا». ثم فاجأتني، مدَّت يدها فوق يدي، واستكان وجهها: «أريدك أن تكون معي، لكني أريدك أن تكون معي حقًّا».

بعد أسابيع قليلة، في أصيل غائم من أصائل فبراير، كنت في حافلة تسير في شارع ريجنت ستريت عندما لمحتُ هانا وأمها تمشيان على الرصيف المزدحم. بدت هانا منهكة لكنها صبورة. كانت أمها خلفها بنصف خطوة، وقد بدت واهنة قليلًا، كأن هذا كله كان شديد الوطأة عليها لولا وجود ابنتها إلى جانبها. شيءٌ في المشهد أثّر فيَّ تأثيرًا شديدًا وما زلت أجهل السبب.

٥٥

انضمَّت رنا إلى شركة والدها للهندسة المعمارية في عمَّان، وبعد أعوام قليلة تقاعد وولَّاها أمر الشركة. فتحت مكتبًا في بيروت وانتقلت إلى هناك. بدا أن المسؤولية أثقلت كاهلها وأَنْشَطَتْهَا كذلك. كانت تزور لندن كل عام أو نحو ذلك وتخبرني بتفاصيل معقَّدة شتَّى عمَّا واجهته من خلافات ومشكلات مختلفة: زميل مزعج كان يتحدَّى سُلْطتها باستمرار، ذوق زبونٍ تعوزه المغامرة، المطالب المالية لمسؤولٍ فاسد مقابل منحِ التصاريح وأذونِ التخطيط اللازمة. تحدَّثتْ أيضًا عن أصدقائها في بيروت: الجميع مشغولون جدًّا ولم يعد هناك وقت للتسكع.

«هل تذكر عندما كنا أنا وأنتَ نقضي ساعات في شقتك لا نفعل شيئًا أبدًا؟».

ربما، ككل لقاءات الأصدقاء الذين يعيش بعضهم بعيدًا عن بعضهم الآخر، أخذت هذه اللقاءات طابع التقارير، حيث يحاول كل منَّا تعداد الأشياء التي حدثت منذ آخر مرة التقينا. عندما

نتوادع، أعود إلى عزلتي يرافقني شعور بالندم. كانت حياتها أكثر حركة وامتلاءً بالآخرين من حياتي. حياة كنت واثقًا أن المرء سيسهل عليه أن ينشغل فيها عن نفسه بحاجات الآخرين. وكانت هناك أشياء أخرى استخلصتُها من هذه اللقاءات. كيف تغيَّرت رنا؛ كأنها عادت إلى حياة متوقَّعة. وكيف بدا أن هذا قوّى في نفسها ثقةَ ابنةِ البلد التي تعرف إلى أين تنتمي. كانت تستأجر غرفة بأحد الفنادق في هايد بارك كورنر وتقضي يومين أو ثلاثة أيام تشتري الثياب وتزور المتاحف. دائمًا ما كانت في غاية السعادة، حتى إنني تساءلت إن كان هذا هو الغرض الذي وُجِدَتْ له لندن. مع أن العيش هنا كثيرًا ما يبدو كأنه عمل شاق، لا بدَّ أن الزيارة تبدو كالحياة نفسها.

خطبها مصمِّمُ جرافيك أردني، اسمه حيدر وقد أتى معها إلى لندن في رحلة من هذه الرحلات. كان في البداية متوترًا قليلًا وهذا وتَّرني أنا أيضًا، لكننا في آخر الأمر استرحنا لهذا اللقاء، فخرجتُ وقد رأيته رجلًا محترمًا يُعتمَد عليه. كانت كلما نظرت إليه بدت محرجة وفخورة أيضًا. وحينما تكون في منتصف سرد قصة، تسترخي الخطوط التي على وجهه وتنفرج. أتذكَّر لمَّا فكَّرتُ: لا بدَّ أن هذا هو معنى أن يحبَّ المرءُ. الحب بوصفه مكانًا للراحة. كانا قد حدَّدا موعد الزفاف وألحَّا على مجيئي إلى بيروت لحضوره.

قال حيدر: «لن نقبل رفضك».

قالت رنا: «ستكون أنت إشبيني».

قلت إنني سأكون هناك وحاولتُ تجاهل الشك في عينيها. ولمَّا لم أذهب، غضبتْ مني غضبًا شديدًا.

تزوَّجا في عام ١٩٩٣. بعد عام، زارت لندن وحدها. أرادت أن نلتقي للعشاء في مطعم الفندق حيث كانت تقيم. بدت مشغولة البال، ونُودِيَتْ إلى ردهة الاستقبال مرتين لاستلام مكالمات.

قالت: «مشاكل في العمل. ليس من المفترض أن أسافر».

حين سألتها عن حيدر قالت إنه بخير وابتسمت. رافقتُها إلى المصعد، وبعد أن ضغطتْ زرَّه قالت: «أخضع لبعض الفحوصات الطبية». وقبل أن يُغلَق باب المصعد أضافت قائلة: «لا شيء خطير».

في العام التالي، ١٩٩٥، بعد مرور أحد عشر عامًا على إصابتي بالرصاص، هاتفتني رنا وطلبت أن أقابلها في باريس. ستذهب إلى هناك للعلاج. لم ترغب في قول أكثر من ذلك. إلَّا أنها قالت بعد ذلك: «جراحة في الدماغ. ليس عندي خيار. فشل العلاج هنا. حسمت أمري». وتابعت: «وما لك عذر، إنه الصيف، المدارس معطَّلة، ويوجد الآن قطار بين لندن وباريس. ثم إنني لا أريدك أن تأتي، إنني أحتاج إليك».

قلت: «سأكون هناك. متى ستصلين أنت وحيدر؟».

قالت: «حيدر لن يأتي. لا أحد يعرف. لم أستطع احتمال الأمر. ساعدني طبيبي على إقناع حيدر ووالديَّ بأنني أتعافى جيدًا. قلت لهم إني ذاهبة إلى باريس للقاء زبون».

قلت: «ينبغي أن تخبريهم».

«التعامل مع مخاوف الآخرين أمرٌ صعب. اعتقدتُ أنك أنت خصوصًا ستفهم ذلك».

٥٦

تلك كانت الرحلة التي جمعتني بحسام زوة وجهًا لوجه، ذلك الكاتب الذي ألقى ظلًّا طويلًا على حياتي.

اخترت الفندق في الغالب لقربه من المستشفى ـ ليس قريبًا بحيث يمكنني الذهاب والإياب بسرعة على نحوٍ متكرر، غير أنه لا يبعد أكثر من مسير نصف ساعة ـ ولسعره الزهيد، فقد خشيت أن أمكث في باريس مدة طويلة قليلًا. ركبتُ القطار، القطار نفسه الذي ركبه حسام قبل قليل. طوال الطريق كنت أفكِّر في رنا التي كانت هي أيضًا تنطلق من بيروت في ذلك اليوم بعد أن ألقت أكاذيبَها الصغيرةَ في آذانِ أحبِّ الناس إليها. كان التفكير فيها، إضافةً إلى قلقي من السفر ـ من الابتعاد عن حدود حياتي اليومية ـ قد جعلاني كئيب البال وملتصقًا بالنافذة. أخذت أتفرَّج ونحن نشقُّ طريقنا خارجين من لندن إلى سُرِّي ثم إلى كِنت. تركت مقعدي ووقفت بين العربات، حيث بصعوبةٍ سمعتُ شذرات متقطعة من زقزقة العصافير. ثم ولجنا النفق تحت البحر. مضت دقائق قبل أن يبدأ القطار الصعود بمشقة. عندما خرجنا كان الضوء وفيرًا وناعمًا وساطعًا. ملأ الفراغَ كلَّه بين الأرض والسماء. بدا المشهد كأنه في

إنجلترا، إلَّا أن ذلك الضياء يدلُّكَ على أنها بلادٌ مختلفة. ثم، مثلما ينزلق مفتاح في قفل، ولج القطارُ باريس.

كان من المتوقَّع أن تهبط الطائرة التي أقلَّت رنا بعد نحو ساعتين. تخيَّلتُها في مقعدها، ورأسها الجميل بشعره الأسود الكثيف يقودها إلى مِبْضَع الفرنسي، الجرَّاح الشهير الذي أوصى به طبيبُها اللبناني الكتوم؛ الشخص الوحيد الآخر الذي كان يعرف الحقيقة غيري.

في محطة جار دو نورد، لم أرغب في هبوط السلالم للنزول إلى المترو. عوضًا عن ذلك مشيتُ، والناسُ، ولونُ الأشياء وطريقتُها، ذلك التوقيعُ الفريدُ الذي تبتدعه كلُّ مدينة لنفسها وتحافظ عليه بطريقةٍ ما، هذا كلُّه أشعرني كأني كنت أدخل أداءً استعراضيًّا.

عندما دخلت الفندق بدا الرجل الجالس خلف مكتب الاستقبال مألوفًا. لكن، كيف أمكنه أن يكون مألوفًا؟ كيف أمكنني التعرف إلى هذا الرجل فقط بناءً على كتاب قصصٍ قصيرةٍ قرأتُه منذ أكثر من عَقْد من الزمان، وعلى سماع صوته يقول كلمة واحدة لا غير، «نعم»، في تلك المقابلة في إذاعة البي بي سي؟ أذكر ما قاله لي هنري يومًا إنَّ في نثر الكاتب، في أصوات جُمَلِه وإيقاعها «يكمن المنطق الداخلي للشخص». مهما كان ذلك، فما شعرت به وأنا أدخل بهو الفندق، وباغتني بيقين شديد هو أنني، بطريقةٍ ما، أعرف ذلك الغريب الجالس خلف مكتب الاستقبال.

«مرحبًا يا سيِّد...» قال بالإنجليزية متصفِّحًا جوازي البريطاني، «يا سيِّد خالد عبد الهادي».

نطق بالاسم نطقًا صحيحًا. اتسمت لكنته بالسِّمة المهذَّبة التي تميِّز لكنة متعلِّم من شمال إفريقيا، وإن ظهر ذلك على نحوٍ طفيفٍ جدًّا. ولمَّا كانت هذه باريس، فقد حدستُ أن يكون من أحد المستعمرات الفرنسية السابقة: الجزائر أو تونس أو المغرب. كنت أعرف هذه اللعبة: لن يسألني من أين أنا وسأتبع الطريقة نفسها. أول من يطرف بصرُه يخسر. إنه امتحانُ انضباطِ المهاجر، في الغالب امتحان قديم، فغريزة أن تمر دون أن تُلاحَظ، أن يحجب المرء نفسه، لا بد من غير ريبٍ أن تكون غريزة قديمةً قِدَم الزمان، قديمةً قِدَم الغربة، قديمةً قِدَم يوم طُرِدَ آدم وحواء من الجنة وهبوطهما إلى الأرض؛ حيث قُدِّر لهما العيش في جهتين متقابلتين من الكوكب الخاوي. رأيت نفسي بارعًا في هذا ـ بارعًا جدًّا في الحقيقة ـ لكنه كان أكبر مني سنًّا، ولم يبدُ أنه يتمتع بخبرة أكثر مني فحسب، بل بدا أيضًا كرجل عاش أكثر من غيره في الوقت الذي مُنِحَ إيَّاه حتى الآن. كنت في التاسعة والعشرين من عمري، وقد حسبتُ أنه كان يكبرني بنحو عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، إلا أنه في الواقع كان يكبرني بست سنوات فقط. ارتسمت شفتاه في خطٍّ مستقيم لا يُلمِح إلى تبسُّم ولا إلى عبوس. كان الجلد في جانبيْ شفتيه حائل اللون قليلًا. لعلَّه نجا من حريق منذ زمن بعيد. وقد اشتدَّ الجلد عند الوجنتين كجلد طبل. كان ينبئ بالقوة والسيطرة وبشيء آخر بعيد

المنال: عزم شخصٍ مختبئ. وجهه كلُّه كان مُوثَّقًا بعينيه، اللتين تسيطران عليك بقوة. بئران عميقتان. كأنَّ أثر كل شيءٍ شَهِدَتَاه كان محفوظًا فيهما.

قال وهو يناولني مفتاح غرفتي: «أرجو أن تستمتع بإقامتك».

كانت في إنجليزيته مسحة من لكنة إيرلندية.

قلت: «شكرًا لك. وما اسمك؟».

«سام»، قال وحاول الابتسام.

قلت لنفسي إنني أعرف هذا أيضًا: الشعور بالخزي لإخفاء المرء هُوِيَّته، وانعدام الحياء الذي يهبّ للدفاع عنًّا. شكرته وأغرتني نفسي بقول المزيد، بكشف شيء من خططي له. وهكذا، مع أنني كنت قد اطَّلعتُ على الطريق في خارطتي، سألته عن الاتجاهات إلى المستشفى.

قلت: «لا، لا أنوي ركوب المترو».

قال: «في هذه الحال، c'est une belle promenade».

بدت الفرنسية هنا مقصودة، نائبةً عن اللغة المتخفية التي يعلم كلانا أننا نتشاركها.

قلت: «لا أتكلَّم الفرنسية».

قال: «المعذرة. المشي يا سيدي فكرة ممتازة. أربعون دقيقة في الغالب. هناك مقاهٍ لطيفة على الطريق إذا راقك ذلك».

نعم، مؤكَّد أن اللكنة كانت إيرلندية. شكرته وارتقيت السلالم إلى غرفتي. تشوَّقتُ إلى إمكانية النوم في فراش مجهول، فراش لن يكون فراشي أبدًا مهما كان عدد الليالي التي سأقضيها هنا. فكَّرتُ؛ سام، أيٍّ اسمٍ هذا يتخفَّى المرء وراءه. إلَّا أن هذا الحكم الضحل تبدَّد بعد ذلك، وظهر في إثره ذلك الهدوء السحري الذي لا يتفتَّح فينا إلَّا من حين لآخر عندما تُتَابع أفكارنا الشاردة مسيرها كأننا أصبحنا ـ مصادفةً وبأكثر الانعطافات غير المتوقعة ـ أحرارًا من عادات عقولنا. وجدت نفسي مستمتعًا بظاهر الرجل العصيّ على النفاذ. فكَّرتُ؛ لِمَ هذا التوجس من المخفيّ، عندما تكون هناك لذَّة في المُبْهَم؟ ألا يكشف لنا النظر إلى إنسان مسربلٍ بالثياب أكثر مما يكشفه لنا النظر إليه عاريًا؟

كانت الغرفة صغيرة وعادية، وبها نافذة كبيرة تشرف على المبنى المقابل. بعض نوافذ الجهة المقابلة كانت مُسدَلة الستائر، وبعضها مكشوفة، وبعضها الآخر، كنافذتي، كانت مفتوحة. خلالها استطعت أن أرى مطبخًا، غرفة نوم، مائدة عليها صحن فارغ. فكرت أنني إذا كنت سعيد الحظ، فقد ألمح شخصًا دون أن ينتبه إليَّ، نائمًا أو يقرأ كتابًا، أو زوجين يتعانقان أو يجلسان بهدوء، وربما رافقتهما موسيقى لا يمكن سماعها. استحممتُ وحلقتُ ذقني ولبست ثيابًا نظيفة. قال سام وأنا أناوله المفتاح: «أرجو لك مشوارًا لطيفًا يا سيد خالد».

٥٧

أبلِغتُ في المستشفى أن رنا متوقع وصولها في أي لحظة، ويمكنني الانتظار في الغرفة المخصصة لها. قادتني إلى الغرفة ممرضة في خطوتها انحراف يسير جعلها تمشي مشية مهذبة ومتردِّدة. بعد قليل، دخل الجرَّاح الشهير وعرَّف بنفسه. سألني وعيناه تنظران إلى السرير الخالي عن القرابة بيني وبين المريضة.

قلت: «هي صديقتي».

ابتسم بوهن. قال: «وصلت مدام لمسي. إنها تكمل التسجيل».

خرج من الغرفة. وقفت عند النافذة. مشهد للشارع الجانبي. يمكنك التظاهر بأنك في فندق. بعد دقائق معدودة، سمعت صوت الممرضة آتيًا من الممر. فُتِح الباب وظهرت رنا. تبسَّمتْ ما إن رأتني. تعانقنا.

قالت لي قرب أذني: «شكرًا لك».

أشارت الممرضة على رنا بتبديل ثيابها ثم بهدوء أغلقت الباب وراءها.

قالت رنا ناظرة حوالي الغرفة: «إنها أفضل مما ظننت».

قلت: «وعندك منظر شارع هادئ جميل».

قالت: «ومن يحتاج فندق ريتز؟».

خرجتُ لتتمكّن من تبديل ثيابها والاستقرار. هبطتُ السلالم ببطء. فكّرتُ، ماذا لو لم تنجُ؟ أو خرجت معاقة، عاجزة عن المشي أو الكلام أو النظر؟ لازمتني هذه المخاوف طوال الأيام التي لبثتها رنا في المستشفى. وجدت متجرًا صغيرًا فاشتريت رقائق بطاطا وبسكويتًا وزجاجات ماء. عندما عدت كانت تلبس ثوبًا فاتح الزرقة من ثياب المستشفى وقد اندسّت تحت الأغطية. بدت أضأل مما كانت. سألتني عن حالي.

قلت: «سعيد جدًّا بوجودي معك».

تحدَّثنا عن باريس، والطقس، وعن مطعم جديد قرأتُ عنه في مجلة الطائرة.

قالت: «فلنذهب بعد انتهاء كلِّ هذا».

قلت: «بالتأكيد».

بعد لحظة من الصمت سألتها: «متأكدة من أنك لا تودين إبلاغ عائلتك؟».

قالت: «مئة بالمئة. سينتهي هذا قريبًا. أسابيع قليلة في الغالب».

«ألن يَشُكُّوا؟».

«سأقول إن العمل يأخذ وقتًا أطول من المتوقَّع. على كل حال، ليس مكروهًا أن نتباعد أنا وحيدر قليلًا. هو يعرف أني أخفي شيئًا. إخفاء الأشياء عمل شاق. عليك أن تراقب نفسك، حتى مشيتك

وكيف تأكل وتنام. وأنا سيئة جدًّا ـ كما تعلم ـ كذابة سيئة جدًّا. سابقًا كنت رديئة في الكذب لأنني لم أعرف كيف أكذب، وأما الآن، فأنا رديئة في ذلك لأنني أعرف كيف أكذب. تزوجت عن حُبّ، لكن حتى لهذا حدود. لكل الزيجات حدود. السِّرّ هو أن تعرف أين تكمن هذه الحدود. ليس السبب أنني لا أريد أن أقلقه أو أن أقلق والديَّ والجميع، إنما لأنني لن أستطيع احتمال ذلك».

سكتتْ وانتظرتُ حتى عاد الهدوء إلى وجهها.

«في الطائرة، ونحن فوق البحر، تذكَّرتُ عندما كنت طفلة وكانوا يكررون لنا في المدرسة تلك الشعارات عن أنك عضو في جسد واحد، جسد عائلتك، مجتمعك، العالم العربي، البشرية. أتذكر؟».

قلت: «نعم أذكر».

«قالوا لنا إن كنت بصحة جيدة فسائر جسدك بصحة جيدة. في ذلك الحين اعتقدت أن هذا سخيف، لكن هذا ما أشعر به تمامًا».

امتلأت عيناها بالدموع. لم أقل شيئًا. قلت لنفسي: يجب أن تساعدها. لهذا اختارتك. لا تخذلها.

قالت وقد بدا وجهها جادًّا الآن: «مهما فعلت لا تجلب زهورًا».

ضحكتُ فضحِكَتْ.

«طبعًا سأجلب زهورًا. أنت تحبين الزهور».

«ليس في المستشفى، لا أحبها».

«سأجلب زهورًا».

٥٨

كان ينبغي إجراء عددٍ من الفحوص قبل الجراحة. وقد استغرق ذلك أيامًا عديدة. كلَّ يوم كنت أزور رنا في بداية الأصيل وأمكث حتى المساء. رأيت سام كلما خرجت من الفندق أو عدت إليه. كان دائمًا هناك. ظللنا نتبادل السلام باقتضاب وبالإنجليزية. في بعض الأحيان كنت أقول: «عائد إلى المستشفى»، آملًا أن أثير استفسارًا أو قولًا عابرًا. لم يتحرَّك قطّ. لكن بمرور كل يوم، بدا أن الهواء حوله يصبح أكثر توترًا. بدلًا من النظر إلى الردهة الصغيرة - التي بدت في البداية لمَّا وصلت كأنها مملكته الخاصة - أصبحتُ أجده في كثير من الأحيان مطرق الرأس، يداه تسندان جبهته، فأظنه منهمكًا في كتاب. إلَّا أنني حين أدنو منه أجده محدِّقًا إلى فراغ مطبق، مواجهًا سطح المنضدة الخشبي، فيُجفِلُهُ ظهوري المفاجئ.

سواءٌ أكان السبب مغامرة الوجود في مدينة جديدة، أم القصد الطيب للاعتناء برنا، أم الشعور الغامض بالنصر، بإحرازي اليد العليا في لعبة المهاجر التي كنت ألعبها مع الغريب الجالس خلف مكتب الاستقبال، فقد أشرق مزاجي. ذات أصيلٍ حين وصلت

إلى المستشفى، بدأت أبادل الممرضات التحيات المعتادة ثم أخذت أمازحهن.

«أعني أن الديكور هنا كئيب حقًا. انظرن أيتها السيدات إلى ثيابكن. أنتن بحاجة إلى توسيع لوحة الألوان. أقترح أن تَتُزِن».

ضَحِكْنَ.

تابعت قائلًا: «والغرف! هل من فرصة لوجود ميني بار؟ بالله عليكن، فلتجلبن بيانو كبيرًا. وإن تعذَّر هذا فليكن تلفازًا ومشغِّل فيديو على الأقل».

بعد بضع ساعات طُرِق الباب، وأُدخِلَت طاولة دفعتها ممرضات متورِّدات الوجنات. كان عليها تلفاز ومشغِّل فيديو. دمعت عينا رنا فرحًا فأدهشني ذلك. هُرِعَت الممرضات إليها وطفقن يحضِنَّها.

ذهبتُ إلى فَنَاك، متجر أوصت به ممرضة، وقضيت الأصيل أشتري أشرطة أفلام. في البداية، فكرت في جلب أفلام جديدة، لكنني بعد ذلك تذكرت أيامنا في إدنبره وجلبت بعض الأفلام الكلاسيكية القديمة التي شاهدناها هناك معًا. «محطة القاهرة»، «الكسوف ـ L'Eclisse»، «النَّشَّال ـ Pickpocket»، ووجدت بأعجوبة، فيلم رنا المفضَّل «رحلة إلى إيطاليا Viggio in Italia»، الذي رأته في ذلك الحين أفضل ما أُنتِجَ من أفلام.

تذكَّرتُ أنها قالت: «لو كان مبنًى لكان شيئًا متواضعًا لكنه عظيم، لا يكاد يراه مَن لا يرى حق الرؤية».

تذكرت مشهد الزوجين - اللذين مثَّل دورهما إنجرِد بيرجمان وجورج ساندرز، واللذين عندما يصلان إلى نابولي يدركان أن حياتهما معًا قد أصبحت خالية من الحب - حين يؤخذان إلى موقع أثري في بومبِي ويشهدان نبش الهيئة الشبحية لزوجين آخرين مدفونين في الرماد منذ نحو ألفَي سنة خلت لمَّا ثار بركان جبل فِيسوفيوس، متعانقين إلى الأبد. لا شيء ظل على حاله بعد ذلك.

بينما كنت أنتظر في الطابور لأدفع، تساءلت إن كانت رنا ما تزال تحمل الشعور نفسه نحو فيلم «رحلة إلى إيطاليا»، وإن كانت قد شاهدته في الأعوام الأحد عشر التالية. ثم حاولت أن أتخيَّل إلى أين ستؤول أشرطة الفيديو هذه التي في السَّلَّة، إلى بيت مَن؟ سيكون مزعجًا جدًّا حملها إلى بيروت أو لندن. فكَّرت أنها، في الغالب، ستؤول إلى متجر سلعٍ مستعملة في باريس ليشتريها أناسٌ لن يعرفوا أبدًا في أي ظرفٍ من الظروف اشتُرِيَت في الأصل. دفعتُ وما إن خرجت إلى الشارع، ممسكًا الكيس المليء بالأشرطة، حتى شعرت بحماسة طفولية. لم أتوقف عن التَّبسُّم لكل من مررت بهم. شعرت بمحبة بالغة نحوها، وبرغبة عميقة في أن تنال هي وحيدر السعادة. فكرت أنها كانت مخطئة بخصوص حدود الزواج. وحتى لو كانت مُحِقَّة وكانت هناك حدود، فلا ينبغي قبولها أبدًا. توقفتُ عند مخبز وجلبتُ صندوق جاتو كبيرًا للممرضات.

٥٩

قضينا الأصائل القليلة التالية مستلقِيَين جنبًا إلى جنب على سرير المستشفى نشاهد الأفلام. كثيرًا ما كانت تغفو وتفيق طالبةً أن أروي لها ما فاتها. أصبح الأمر مزحتنا. «ماذا حدث، ماذا حدث؟» كانت تقول، ولا أكاد أخبرها حتى يتكرر الأمر بعد لحظات قليلة. في بعض الأحيان كنت أخفض الصوت وأنصت إلى تنفُّسها الممتد. كانت تضعف. كنا وحيدَين وبعيدَين، كأننا مختبئان، في مستشفى ببلاد أجنبية لا نعرف فيها أحدًا ولا نجيد لغتها إلَّا قليلًا.

بعد ذلك في المساء قالت للطبيب: «لا بدَّ أن هذا هو ما يختبره المرء وهو ينتظر يوم مبارزته».

قال: «لكن يا مدام، نحن لن ندخل معركة».

قالت له: «أنت لن تفعل يا دكتور».

جاء اليوم الموعود. سلَّمتني رنا رقم هاتف حيدر دون أن توصيني بما أقول. ثم انتحى بي الطبيب جانبًا ونبَّهني إلى أن الجراحة ستستغرق ساعات. «خمسًا على الأقل»، قال وكان صوته قلقًا ومتحمسًا.

حاولت المغادرة. لكنني لم أستطع. في الحقيقة، لم أكد أفارق المقعد في غرفة الانتظار الخالية. عادتني ذكرى أيامي في المستشفى. تفصيلٌ واحدٌ على الخصوص. كنت قد نسيته حتى ذلك الحين. كان عن حلم أخذ ينتابني بعد العملية مباشرة. أُوشِكُ أن أعبر شارعًا ثم أكاد أُدْهَس. أستفيق مذعورًا وأقول لنفسي عليَّ النظر في الاتجاهين في المرة القادمة. إلَّا أن الأمر يتكرَّر في كل مرة. تفاقم الأمر حتى صرت لا أنام إلا بصعوبة. قلت للممرضة كلمنت إن الكابوس نفسه يعاودني.

قالت: «هل توشك أن تعبر طريقًا؟ تحيد عن الرصيف فتكاد تُدهَس، صحيح؟».

قلت: «بالضبط. كيف تعرفين؟».

سَرَّها تعجبي. «إنها مُسكِّنات الألم يا عزيزي. أثر جانبي شائع. سنغيِّرها وستكون على أفضل ما يرام».

بعد سبع ساعات ظهر طبيب رنا.

قال: «سارت العملية على نحو جيد جدًّا. مثلما رجونا. والآن تبدأ المرحلة الحرجة. ستكون في العناية المشدَّدة أيامًا قليلة. لن تستطيع أن تراها، لكن لا تقلق، فأنا سعيد بسير الأمر».

شكرته ولم أملك نفسي فعانقت الرجل.

٦٠

لم ألاحظ أن جسدي كله كان يرتجف إلَّا لمَّا خرجت إلى الشارع. كان الليل يكتنف المدينة. بدت الأضواء الكهرمانية الناعمة المنبعثة من المقاهي والمطاعم دافئة ومغرية. جوعٌ حسِّيٌّ دوَّم في عروقي. رغبتُ أن أشرب وآكل وأستلقي عاريًا إلى جانب إحداهن، أن أحرق أو أكسر شيئًا في داخلي.

بعد عدة ساعات كنت أمشي عائدًا إلى الفندق والدنيا من حولي تدور قليلًا، الرصيف طريّ كطراوة ترامبولين. كنت متعبًا وخجِلًا ولم أستطع أن أتخيَّل الذهاب إلى النوم. أخذت أستنشق بعمق راغبًا في تنظيف منخريَّ. المومس التي كنت معها كانت مغربية. نطقتْ باسمي نطقًا صحيحًا ثم قالت: «أعلم أنه ليس اسمك الحقيقي». قالت إنها لا تعتقد أنه أمرٌ غريب أنني أريد الاستلقاء إلى جانبها ولا أفعل شيئًا. «أنت لطيف»، قالت، وأحزنني وجودي إلى جانبها متنشِّقًا عرقها وعرق الآخرين. خمَّنتُ أنها هي أيضًا كانت في أواخر العشرينيات من عمرها. حضنتها من الخلف واستراح رأسها وشعرها المضطرب على ذراعي. راقبتُ قفاها، حيث كان النبض الخافت يخفق.

قلت: «فكِّري فيما شئتِ، لكنَّ خالد هو اسمي الحقيقي».

بعد دقائق ـ كان يمكن أن تكون ساعة ـ وكزتني فأيقظتني، وكانت عيناها على النَّدَب. ألم تلاحظه حتى ذلك الحين؟ لبستُ ثيابي ودفعتُ لها وغادرت. ثم فكَّرتُ؛ كان ينبغي أن أضاجعها، لكان ذلك أخفَّ شناعةً.

عندما دخلت الردهة ورأيت سام على عادته غارقًا في تحديقه المُطْرِق، انفجرتُ ضاحكًا. «إذًا»، قلت رافعًا صوتي أعلى مما قصدت، «أنت تقول... لا، أنت في الحقيقة لا تقول، لا تقول أبدًا، تصرّ على أن اسمك سام».

كان هناك خوف في عينيه، بل ارتياح غامض أيضًا، كأنه يقول: أخيرًا، ها هو ذا.

صحتُ صياحًا أعلى: «حسنًا، إذا كنت أنت سام فأنا كافكا».

جاء الحمَّال الليلي، وقد بدا مستعدًّا للتَّصرُّف. أشار إليه سام بالابتعاد واندفع نحوي مادًّا يديه. كنت موقنًا أنه سيضربني، أو يصفعني، أو يلكمني. شددتُ قبضتيَّ وقد بلغ الذعر ركبتيَّ. لكنه أمسك بذراعي بثقة غريبة. بهدوءٍ قال للحمَّال أن يعتني بالمكان في غيابه. استجاب الرجل للتعليمات شاكرًا، وهذا جعلني أعتقد أن سام معروف بين زملائه بحسن التَّصرُّف في حالات الطوارئ. قادني إلى الخارج، وسحبني إلى جانبه طوال الطريق إلى ناصية الشارع.

«أتعرف ما أشتهي؟» فجأةً قال بصوت منخفض لكن فيه رعشة، «Un bon chocolat chaud». نظر إليَّ وحين لم أُجِب

قال: «أتحب شوكولاه ساخنة يا سيد كافكا؟» وقبل أن أجيب نظر يمنةً ويسرةً وجذبني لنعبر الشارع. «يوجد مكان ممتاز قريب. ربما ما زال مفتوحًا».

مشيت إلى جانبه بلا حول ولا قوة. أصبحت الأرض الآن صلبة كحقيقة راسخة. كان الهواء باردًا. لم أنتبه إلى أن السماء أمطرت. كان الأسفلت لامعًا. ارتدَّت عليه شظايا الضوء كزجاج مكسور. لمستُ قمة رأسي بيدي الطليقة فوجدت شعري رطبًا.

«آسف»، قلت، لكنه كان يتكلَّم قائلًا: «في نهاية المطاف...».

قاطعته: «أقصد إنْ كنتُ قد سبَّبت مشكلة».

سكتَ، ودون أن يلتفت لكلامي تابع قائلًا: «المطبخ الفرنسي متوسط المستوى قليلًا مع كل ما يقوله الناس عنه»، ثم أضاف، خافضًا صوته كأننا عرضةٌ لأن يسمعنا أحد: «انتبه، لا شيء، لا شيء أبدًا يمكنك قوله هنا أكثر إساءة من ذلك. تجديف محض. أقصد أن الطعام جيد، لكن لو أنهم لم يكونوا شديدي التعنت بشأنه لكان أفضل. حسب ذوقي، فإن درنة تتفوق عليهم في كل وقت».

سماع اسم تلك المدينة الغالية المألوفة حيث وُلِدَت أمي، المكان الذي كان يأخذنا إليه والداي في الصيف، وسماعه يُنطَق نطقًا صحيحًا على هذا النحو، جمَّدني في مكاني.

«تعالَ»، قال وهو ينظر إليَّ مباشرةً.

كطفلٍ أطعته وتابعت المشي إلى جانبه.

انتقل إلى العربية متحدِّثًا بلكنة بنغازية أصيلة، اللهجة الأقرب إلى قلبي بين لهجات العالم كلِّها. ما يقال بها ليس أقوالًا عابرة، بل بنًى معروفة وموثوقة كالبيت الذي فيه وُلِدْتُ. لا أستطيع أن أكون موضوعيًّا بخصوص هذا. لا أستطيع الحكم إذا ما كانت لهجة جميلةً أو قبيحة. لا بد أن رؤساءه الذين اختاروه لهذه المهمة عرفوا هذا عني. ما أغباني لمَّا حسبتُ أن جوازي البريطاني سيخفي أصولي وقد نصَّ بوضوح على أن «بنغازي» هي مسقط رأسي. اشتقت إلى تلك المدينة شوقًا عنيفًا، إلى كنف أهلي الدافئ، ورأيت في عين عقلي -بوضوح شديد، لكأنه أمام ناظري- عنقَ أمي، وانثناءه القوي والرقيق والمضياف. تذكَّرتُ، كأني عدت صبيًّا، رغبتي الشديدة في أن أستلقي كُلِّي هناك. سرى الذعر فيَّ. تساءلت: أهذه هي لحظة إعادتي قسرًا، لاستعراضي على التلفاز، حيث سيُطلَب مني، شأن كثيرين قبلي، أن أعترف بذنوبي ثم أثني على النظام وإلَّا جُعِلتُ عبرةً لمن لا يعتبر؟ اركض. هذه لحظة الركض. لكني شعرت بإعياء مَن يركض منذ زمنٍ طويل.

ثم قال: «أتدري ما سأفعل من أجل الحصول على طماطم درنة، ذاك الذي يأتي من السهول المرتفعة. أتعرف الطماطم التي أقصد (لم يكن سؤالًا) له شكل التمر لكنه أحلى طعمًا حتى. أو زيت الزيتون عند عصره أول مرة، وتكون له نكهة الفلفل ويحرق حنجرتك. احتفالات تلك الأيام في السواني، المراعي المعزولة بين البيوت. أتعلم أن تخطيط درنة الفريد

هذا الذي ننسبه إلى الإغريق القدماء قد وضعه الفينيقيون قبلهم بقرون قليلة، لقد كانوا وفق بعض الروايات عاطفيين قليلًا، بمسحة الحنين تلك في فنِّهم، الحنين نفسه الذي أحسّ به الآن وأنا أتذكر زيت زيتوننا، وإكليل الجبل والنعناع، والزعتر البري والميرمية التي نسمِّيها تفاحًا لأن بها شذى التفاح؟ لكن حسبنا هذا. يجب ألا نسمح لأنفسنا بالإفراط في عاطفتنا. أو، أتعرف، فليذهب ذلك إلى الجحيم»، قال رافعًا صوته قليلًا. «ألا تستحق بلادُنا عاطفَتَنا؟».

واجهني، كأن السؤال لم يكن بلاغيًا أبدًا. تساءلت: أيكون هذا امتحانًا أم عتابًا على أفعالي السابقة؟ وقد شككتُ أن اطلاعه، أو رغبته في الإيهام بأنه مطَّلِع ويعرف الفينيقيين، كان أيضًا كلكنته تمامًا، شيئًا هدفه كسب ثقتي.

«طبعًا تستحق»، قال مجيبًا عن سؤاله وتابع المشي. «بل يعتقد بعضهم أنها تستحق دماءنا. لكن دعنا من الحديث عن الدم. ليس الليلة. فلنتحدث بدلًا من ذلك عن درنة «لؤلؤة بَرْقَة»».

هنا ضحك ضحِكًا غريبًا ـ بين نباح وقوقأة ـ ظننت أنه كان إمَّا تعبيرًا عن روحٍ غاضبة وإمَّا تفوُّهًا قلِقًا من رجل كان خائفًا مثلي.

قال مرة أخرى: «لؤلؤة بَرْقَة». تردَّد صدى السُّخرية المريرة في صوته على المباني. «السيدة هاي دروموند هاي. هي صاحبة الفضل في هذه التسمية. جديرٌ بها أن تَخْبُر هذه الأمور، فهي أول امرأة تطير حول العالم في منطاد زيبلين، أتصدِّق هذا؟».

سألته: «ماذا تريد مني؟».

«ماذا أريد منك؟»، قال مدهوشًا، كأنني أنا من أتاه بالأسئلة. «لا شيء أبدًا. كنت فقط أخبرك عن السيدة هاي دروموند هاي».

نظر إلى نافذة في الجهة المقابلة ثم استأنف المشي. فيمَ كان يفكّر؟

تابع قائلًا: «كان عمُّ أبي يعرفها، أترى. أرجو أنني لا أضجرك؟ باهي، هذا مريح. زارت درنة في عشرينيات القرن العشرين وقد أفاضت في وصفها بحماسة بأنها: «بلدة زاخرة ببساتين النخيل والحدائق، والمياه العذبة الوفيرة، والزهور، وعُروش الكُرُوم، والخوخ. جنة عدنٍ حديثة حقيقية». كان عم أبي يناديها باسمها الأول؛ جريس. كانا من القرب بحيث أسرَّت إليه أنها هربت لتجوب العالم بعد زواج لم يدم طويلًا من رجل يكبرها بخمسين عامًا». «جنة عدنٍ حديثة حقيقية»، قال مرة أخرى وسكت.

في أثناء الصمت الذي تلا ذلك سمعت تنفسَّه وبدا متعبًا. أبطأنا المشي.

«لكن أترى ما حصل توًّا؟» قال متأمِّلًا وقد فارقت السخرية صوته. «بلادنا تفعل هـذا. مزهريَّة مكسورة على شواطئ جنوب البحر الأبيض المتوسط. لحظةَ يضربها الضوء، يرتدّ إلى مكان آخر. بدأنا بدرنة وانتهينا إلى امرأة إنجليزية تحلّق في منطاد زيبلين».

قال: «خيرٌ لنا أن نكون شاكرين. اللهم استر عيوبنا كما يقول كبارنا. دعاء سهل ومستعمل كثيرًا. ولكن يا للحكمة الصغيرة التي يحتويها. فلسفة من نوع ما. أحب تواضعه. أقصد أنه كان يمكنهم أن يقولوا: اللهم امحُ عيوبنا. كان هذا سيكون طلبًا طموحًا. لكن «الستر» أفضل. إنه يفترض أن عيش الحياة يعني اقتراف الأخطاء، وأن لا أحد كامل وبالتأكيد لا أحد بريء. ولا حتى أنا وأنت».

صمتَ وأنصتُ إلى صوت كعبيه يخبطان الأرض. أما كعباي فقد كان وقعهما أخفت ويشذّان عن إيقاع خطواته.

قال فجأة: «ليثبريدج. ذاك هو. اسم جريس قبل الزواج». بدا راضيًا. انعطف بنا أسفل شارع جانبي صامت انتهى عند ساحة صغيرة لا يوجد بها إلَّا مقهى واحد. قال: «وانظر، إنه مفتوح».

٦١

من المقهى الصغير فاضت طاولات لا حصر لها، كلها خالية. حتى الساحة كانت خاوية وبدت مؤقَّتة كأنها موقع مسرح. كان الوقت منتصف الليل تقريبًا. اختار سام طاولة في أقصى حدود المقهى الخارجية، فاضُطر النادل الذي رآنا من توِّه إلى قطع أطول مسافة. طلب لنا سام شوكولاه ساخنة وماءً، وقبل أن ينصرف النادل طلب علبة ثقاب. وقد أوضحت هذه الأحاديث القصيرة بينهما أن الرجلين يعرف أحدهما الآخر لكنهما حريصان على إخفاء تعارفهما. كان سام صامتًا. أمَّا الآن وقد جلسنا متقابلين فقد غادرته حماسته أو مهما كان الشيء الذي دفعه إلى الكلام بلا توقف.

«أنت ليبيّ»، قلت، غير أن كلامي لم يخرج واضحًا. كان بين سؤال وجواب.

قال متبرِّمًا: «من فضلك، فلنترك هذه الألاعيب». ثم عدَّل جلسته والتفت ناظرًا إلى نوافذ المبنى الذي كان وراءه. لم يتحرَّك شيء هناك.

تساءلت ما الذي يحرّك الغربان، أولئك الرجال المجهولين الذين ندعوهم بالمنفّذين؟ تذكَّرتُ وجه معلّمي عندما كنت في التاسعة من عمري. كعوب الأحذية الصلبة وهي قادمة في الممر. اندفع رجلان إلى الصف. صفعاه وركلاه. لم يبدأ بعضنا بالبكاء إلَّا بعد أن أخذوه وقد ابيضَّ ظهره من طباشير السبورة. أشد ما هالني، ما أرَّقني تلك الليلة، كان ضجرُ الرجلين نافدي الصبر وهما يقومان بعملهما. منذ ذلك الحين وأنا أقرن العنف السياسي بالضجر ونفاد الصبر. رأيت ذلك في الرجال الثلاثة الواقفين عند نافذة السفارة، الذين غيَّروا مجرى حياتي.

والآن وأنا جالس في الساحة الخالية مقابل سام الذي قد يكون خصمي وقد لا يكون، والذي بدا أنه يسأل نفسه عني السؤال ذاته، فقد أصبحت أنا كذلك عرضة لشعور نفاد الصبر ذاك. وقد فكرت حينها أن احتمال الاختطاف مخيف، إلا أنه النتاج العقلاني الوحيد لكل ما حدث منذ واقعة إطلاق النار. وشعرت بأنني طول هذه المدة كنت أنتظر ـ أكثر من عقد من الزمان ـ إغلاق هذه الحلقة.

تذكَّرت الرجل، في التلفاز، الذي بال في ثيابه خلال التحقيق. أطفأ سام سيجارته وفي الحال أشعل أخرى، ورِجله لم تكف عن الاهتزاز. أحضر النادل ما طلبنا، وهزَّ علبة ثقاب صغيرة قرب أذنه ووضعها أمام سام.

«جرِّبه»، قال سام ممسكًا بكوبه.

رشفت رشفة.

قال: «ليس شديد المرارة».

هززتُ رأسي.

«كيف وجدتني؟» قال، وبسرعة صحَّح كلامه. «أعني الفندق».

قلت: «من مكتب سفريات. اخترته لأنه رخيص وليس بعيدًا عن المستشفى. صديقتي مريضة. ورم في المخ. فتحوا رأسها اليوم». ثم سمعتُ صوتي يعلو. «لست واثقًا مَن تحسبني أكون، ولا مَن تعتقد أني أحسبك تكون، لكن ليس عندي ما أشرحه لك أو أعتذر لك منه. رأيتَ جوازي وتعرف اسمي. خالد عبد الهادي، ابن الأستاذ كمال عبد الهادي».

سماع اسم أبي يُنطَق علنًا، أربكني وثبَّتني في الوقت نفسه.

«كمال عبد الهادي»، قال لنفسه دون ذكر لقب أستاذ، كأنه وأبي يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة. «أليس مدير المدرسة؟».

هنا تغيَّر الهواء حولنا. بنغازي مدينة صغيرة، فلم يكن غريبًا أن يسمع شخصٌ من هناك بأبي، لكن الثقة التي سأل بها السؤال جعلته يبدو كأنه يعرف الجواب. في الوقت نفسه، لم تتلاشَ شكوكه أو انفعاله أو أيٌّ كان ما جعله يتكلَّم بعصبية في الطريق إلى هنا.

قال: «أهلك من وسط البلاد، أليس كذلك؟ لم أقابل والدك. سمعته حسنة. اسمٌ من ذهب كما يقول عرب زمان».

قلت: «هو خير مَنْ أعرف مِنَ الرجال. أخطائي هي أخطائي وحدي».

أصبحت عيناه حادتين وامتد صمته.

«لم تسألني لكني سأخبرك. أنا أيضًا من بنغازي. من سويداء قلبها أيضًا. من الحي نفسه. لعلنا كنَّا جيرانًا. أستخدم لقب سام. أسهل هكذا»، قال وقد بدا متوترًا جدًّا. «لكنَّ اسمي الحقيقي هو حسام، حسام رجب زوَّة. لا أقول لك هذا إلَّا لأني أظن أنك تعرف ذلك أصلًا».

دارت الساحة. المسافات بيننا ـ يدي المستندة إلى الطاولة، الطاولة، الحجارة الرطبة، الأبنية المحيطة، السماء المظلمة فوقنا ـ كلها فقدت ثباتها. لم أمسس سيجارةً منذ أحد عشر عامًا، منذ أن تضرَّرت رئتي، لكن، حينئذ تعطَّشتْ كل خلية في جسدي إلى سيجارة. ضحكتُ. جفل لذلك.

قلت: «آسف. لم أتوقع... ولا في مليون سنة».

أراحه هذا قليلًا، وحينها فقط أدركت كم كان قلقًا.

«ممكن سيجارة؟» سألته وقبل أن يجيب تناولت العلبة.

أشعل عود ثقاب ووقف اللهب ساكنًا تمامًا لكننا شعرنا بحاجة إلى إحاطته بأيدينا. كانت أصابعه باردة. ارتعشت كأن بداخلها محرِّكًا يعمل. ورأيت أن عينيه كانتا على يديَّ أيضًا.

«ولا في مليون سنة»، قلت مرة أخرى نافثًا سحابة دخان كبيرة. سعلتُ، سعلت ثانيةً قبل أن يهدأ صدري. «ظننتُ أنك

شخص آخر»، قلت وسمعتُني أضحك مرة أخرى. «حسبتكَ... ما أريد قوله هو... ظننتُ أن هناك من يتبعني».

قال: «وأنا أيضًا».

ضحكنا معًا، لكنَّ ضحكه هو بدا مضطربًا، كأنه متكلِّف قليلًا - ربما لأن الاعتراف أخجله قليلا - كأن بقيَّةً من شكِّه ما زالت تلحّ. اليوم فقط، وأنا أمشي عائدًا إلى البيت بعد وداعه في المحطة، أستطيع أن أرى كيف طبعت تلك اللحظة صداقتنا وأنها ما زالت غير خالية تمامًا من الارتياب، كأن بعض ما بيننا من إخلاص ومودَّة قد نشأ من ذلك الشك.

«كتابك المدهش أتى في لحظة فارقة في حياتي. حدَّد مسار قراءتي منذ ذلك الحين».

هنا عبر عينيه شيء من مراجعة النفس. بدا مشغولًا بإعادة تقييم مستمرة. ووراء دهشته توهَّجَ بما لا يمكن أن يكون إلَّا الرضا. فكَّرتُ؛ حتى في موقف غريب كهذا لا يسع الكاتب إلَّا أن يتأثر بالإطراء.

«بسبب قصتك «الممنوح والمأخوذ» انتهى بي المطاف إلى دراسة الأدب».

استطردتُ ورويت له عن أيامي الأولى في إدنبره، وعن البروفيسور هنري ولبروك ومقالته «عواقب المعنى في خيانات الترجمة». سمعتُ حماسةً أصيلةً في صوتي وأنا أصف كيف

علَّمتني تلك المقالة أن التأويل هو الشيء الأكثر إثارة في الوجود، «لأنه يعني أن لا شيء ثابت».

واصلتُ الكلام وقلت له، متعجبًا من نفسي وحائرًا في أمرها، إنني شاركت في مظاهرة السفارة عام ١٩٨٤. هنا تغيَّر وجهه تغيُّرًا يسيرًا، ثم سكن واستمر في التحديق إليَّ ذاهلًا. لم يسألني إن كنت بين المصابين. لم يسألني عن أي شيء قط.

«ندمت على الحضور»، قلت وعنيتُ ما قلت، لكنني رغبت أيضًا في تبرئة نفسي. «ليس صحيحًا ما يقوله بعض الناس إن الموت حين يأتي يجلب معه الرضا به. بل العكس، إنْ أردتَ رأيي. إنه يجلب التمرد. لأنك تدرك حينها أنك قضيت كل يوم في حياتك وأنت تتعلَّم كيف تعيش. أنك لا تعرف كيف تفعل أي شيء آخر. خاصةً الموت. واستطعتُ أن أراه؛ السواد. واستطعت أن أرى أيضًا كم كان بلا نهاية. لكن حتى ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر. ما أفزعني هو أنني عرفت حينها أن جزءًا مني، قليلًا من الوعي، سيبقي ويستمر حتى بعد الموت، محبوسًا في العدم والصمت إلى الأبد».

لم أقل هذا لأحد من قبل، وأنا أتكلَّم شعرت بأنني وقعت على شيء أقوله أول مرة، متيقنًا من أنه سيفهمني جيدًا. رويت له عن الممرضة كلمنت، وكيف كانت تدسُّ الأغطية تحتي بحافة كفِّها، وأنني لم أنسَ ذلك قطّ، وأنه كان من أعظم ما خَبُرتُ من أفعال الكرم. إلَّا أن شيئًا ما فيه، لا مبالاة مبهمة، أسكتتني.

هل يشكُّ فيَّ؟ هل أقف، أفكُّ أزرار قميصي، أُريه إصابتي؟ لكن رواية ما حدث كانت لأجلي أنا بقدر ما كانت لأجله.

بسرعةٍ واصلت الحديث وأخبرته عن الرحلة إلى كوستا برافا، وكيف أنني أُغرِمتُ غرامًا عابرًا بصديقة صديقتي، وكيف أن شيئًا ما، لم أكن أعرفه بعد، منعني من السعي في ذلك.

قلت: «ربما كان ضعفًا. أو لعله كان، كما يقول ليو تولستوي في مكان ما؛ الافتقار إلى ضعف لا بد منه».

سكتُ ودون أن أطلب منه أشعلت سيجارة أخرى. ملأ الضباب رئتيَّ.

«تلك العقبة مستمرة»، قلت ووصفت الأيام التي تلت المظاهرة، وحصولي على شقة، ودراستي في بيركْبِك، وكيف أصبحت معلِّمًا مساعدًا في مدرسة قبل إتمام حصولي على مؤهل التدريس.

«تسير على خطى أبيك»، قال، والحقيقة أنني لم يخطر ببالي ذلك التشابه من قبل. «هل رأيت أهلك بعد ذلك؟».

رويت له عن زيارتهم، وعن وجه أبي حين رأى صدري وكم أفزعني ذلك.

خيَّم الصمت. فكَّرتُ؛ إن كانت نيَّاته مسالمة فإن كل ما قلته من شأنه أن يقرِّب أحدنا إلى الآخر. أمَّا إذا نوى خيانتي فقد تثنيه شهادتي، لأن المرء يشقّ عليه أن يدمِّر إنسانًا يعرفه.

إلَّا أن وجهه خلا عندئذ من التحفظ. كان وجهه حقلًا مفتوحًا. وقد اعتقدت أني حقَّقتُ هدفي، فشعرت بأني كنت عريانًا.

تناول علبة السجائر وأشعل سيجارة. نظر بعيدًا نظرةً قلقةً ساكنة، ربما مفكِّرًا فيما قلته له. بدا لي أنه لم يكن يقيِّمه بقدر ما كان يتخيَّله. وقد فكَّرتُ؛ تبًّا له إذا كان ما يزال يشكُّ فيَّ.

تابعت الكلام مشيرًا إلى أبي: «سأكون كاذبًا لو أن جانبًا صغيرًا مني لم يرحِّب بالفجوة. كأن الرصاص لحظة اختراقه جسدي قد أبعد الجميع. ما نفع رجل مصاب؟ من الأشياء التي طالما حيَّرتني في جوزيف كونراد»، قلتُ ورأيت كيف اتسعت عيناه قليلًا، وتنبَّهتا أكثر عند ذكر اسم البولندي، «ما لم أستطع فهمه فيه أبدًا هو أنه عندما وصل إلى إنجلترا أحرق أوراق أبيه. أتعرف هذا؟» سألته كأنما تحدَّثنا عن كونراد قبل هذا.

هزَّ رأسه.

«أعني، ألم تلاحظ أننا ـ نحن الليبيين ـ لا نترك الوطن أبدًا؟ نرحل بعيدًا، وقد نقيم عقودًا، لكننا نظل مربوطين بالوطن. أعتقد أنه إنجاز، إنجاز حقيقي، أن ينسى المرء أباه. أود أن أفعل ذلك. أن أصحو ذات صباح وأبدأ حياتي دون أن أفكِّر فيه».

قال: «نعم». لم أتوقع ذلك. توقَّعته أن يخالفني.

تابعت: «أعني، أنك إذا واجهك الموت فجأةً، إذا واجهك احتمال انتهاء حياتك نهاية قطعيَّة، فإن كل شيء جاء قبل ذلك ـ قوة دوافعك، أسباب قناعاتك، كل ما يحرِّك عقلك وروحك،

كل ما تعرفه وحتى ما لا تعرفه ـ لن يعود نفسه أبدًا. العالم بلاد مختلفة».

فكَّرتُ أن هذا الحديث كلَّه عن نسيان الأب وعن أن اقتراب المرء من الموت قد يمنحه بعض الفطنة، قد يسيء هو تفسيره بأنه نوع من أنواع ذلك الكوكتيل السَّام الذي اشتهرت به أجهزة القذافي الأمنية: المكوَّن من عناصر أولها الاستنكار، فأبوه كان من النظام القديم ومن ثم في الجهة الخطأ من التاريخ، وثانيها التهديد، فالخطر الذي يواجهه عظيم، لكنه إن شاء، فقد يستحيل التهديد فرصة، وثالثها المرافعة دفاعًا عن النفس، وأنه لم يفت الأوان البتَّة على تغيير طرقه القديمة وإدانتها. أي أنني لمَّا بدأت أشعر بالأمان، ربما كان هو لا يزال يقاسي إمكانية أنني جئت إلى هنا لأوقعه في فخ، وأن الغربان التي أوشكت على الخروج من الظلال كانت غرباني أنا. مرةً أخرى فكَّرتُ في الوقوف، وخلع ثيابي حتى الخصر، لأريه ما كنت أرجو إخفاءه على الدوام، في أحواض السباحة العامة، وفي السرير مع العشيقات. تلاشى الإغراء وتلته موجة من العواطف العارية. انهمرت دموعي ولم أخجل من ذلك. شعرت بأنني كنت أبكي بين يديه، أبكي بين يدي الكاتب الذي أثَّر فيَّ وصار الآن رفيق المساء بسبب مصادفة غير متوقَّعة.

٦٢

استأذن حسام، قام مبتعدًا واختفى داخل المقهى. بقيَ النادل عند الباب ناظرًا نحوي بشرود. عندما خرج حسام تبادل الرجلان بضع كلمات، ثم تبعه حسام عائدًا إلى الداخل ولبثا هناك دقائق قبل أن يعود.

«معذرة»، قال وهو يجلس.

أشعل سيجارة أخرى ونفث دخانها ببطء، طفا الدخان فوقنا في هواء الليل الساكن.

«هل تستمتع بالعمل في مدرسة؟».

«كثيرًا».

«ما اسم المدرسة؟».

تردَّدتُ ورأيتُ في عين عقلي إبرةَ تُدخَل عنوةً في نسيج. فكرت أن هذه ستكون أول معلومة تتيح له إيجادي.

«مدرسة باترسي بارك. من غير المعقول أن تكون قد سمعتَ بها».

انثنت شفتاه متبسمتين وقال: «باترسي. وأيُّ مادة تُدرِّس؟».

قلت: «الأدب الإنجليزي».

«أحقًا هذا؟» قال بمسحة تهكُّم. انتبه هو أيضًا إلى ذلك وسعى إلى محوه. «وكيف هم التلاميذ؟ هل هم أذكياء؟».

«ليس تمامًا، لكنني أحبهم. تلاميذ في المستوى السادس، أي أن أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة».

أغمض عينيه ليقول إنه يعلم ما يعني المستوى السادس، وإنه يعرف النظام المدرسي الإنجليزي.

أخبرته كيف أني وأهلي استمعنا إلى قصته في المذياع، وكم أشعرتنا بالفخر، وكذلك كم أدهشتني أنا شخصيًا، وكيف تسلَّلت إلى أحلامي. وتَّره هذا، لكن كان واضحًا أيضًا ـ من العبء الخفي الذي حملته كتفاه ـ أن الأمر أسعده كذلك.

تابعت قائلًا: «وبعد ذلك، بعد إطلاق النار علينا في وَضَح النهار بمدةٍ قصيرة، ظهر كتابك، ذلك الشرارة، ذلك الحزمة من البلاغة. طال انتظارنا له، لكنَّه، حين وصل، جاء في الوقت المناسب تمامًا. كان بمثابة تبرئة للنفس. لم تجلب لنا الممرضة كلمنت نسخة واحدة بل نسختين. وهكذا صار باستطاعة مصطفى، صديقي الذي أُصيب هو أيضًا في ذلك اليوم، أن يقرأ بصوت عالٍ وأتابعه أنا».

قال: «خبِّرني عن مصطفى».

خبَّرته، لكنني أعطيته معلومات سطحية فقط.

مشينا عائدَين إلى الفندق. أصبح الصمت الذي رافقنا متردِّدًا ومرتبكًا. وفي أثنائه تحدَّث حسام برفق وبطء.

قال: «لطالما سعيت إلى أن أكون صادقًا، على الأقل مع نفسي. أومن بأنه لا أخطر من رجل لا يعرف ما يفعل، رجل لا يعرف عقله».

إلى يومي هذا لستُ واثقًا تمامًا مما قصد بذلك. تصافحنا وصعدت السلالم إلى غرفتي متسائلا إن كان ما يزال يرتاب فيَّ.

٦٣

لم أنم حتى ساعات الصباح الباكرة. وعلى النقيض من الأفكار المقلقة التي أرّقتني فقد رأيت في منامي حلمًا لطيفًا لطفًا بديعًا. كنت أمشي مع صديق. ذلك كل شيء. لم تكن هناك قصة ولا حدث. لم يُقَل شيء ولم يحدث شيء. كنا مرتاحَين راحة تامّة فحسب. كان الحلم شديد الوضوح. حتى وأنا أفكر فيه اليوم ـ من هذه المسافة البعيدة ـ أستطيع تذكُّره بدقة، وأستطيع كذلك استحضار الأثر المشرق الذي خلّفه، الشعور المطمئن بأني قد عُثِرَ عليَّ حين رغبتُ في ذلك تمامًا.

لم أخرج من الفندق حتى أول العصر. لم يكن حسام عند مكتب الاستقبال. في مكانه كانت امرأة. وجهها نَضِر وأسمر بسبب الشمس، وقد لبست قميصًا مكويًّا باهت الزرقة بلون سماء الصباح الصافية. وقفتْ تتصفّح أوراقًا. ناولتُها مفتاح غرفتي، لكنني رجعت بعد ذلك لأسألها إن كانت تعرف متى يعود سام.

قالت: «زميلي عنده عطلة الآن».

قلت: «لكنه كان هنا أمس. أعني، هل تعرفين متى سيعود؟».

قالت: «أظن بعد أيام قليلة. هل تريد أن أساعدك في شيء؟».

شكرتُها وخرجتُ. فكَّرتُ أنه هرب، وتخيَّلته يجمع أمتعته التي تصوَّرتها قليلة جدًّا. جرَّبت استرجاع مساري لأعود إلى المقهى. مشيت في الساحة دون أن أتعرف إليها ودُرْتُ أكثر من مرة قبل أن أعثر عليها مرة أخرى. بدت أكبر وكذلك المقهى بدا مختلفًا، حاله أسطع نورًا، وقد شُغِلَت معظم الطاولات في الخارج للغداء. عرفني النادل وابتسم بخفاء وهو يستمع إلى طلبي. اشتهيت الطعام. طلبت كأس نبيذ وسَلَطَة لأفتتح بها، وشريحة لحم، وبطاطا مقليَّة. ثم طلبت قهوة وطبق حلويات. عِدَّة من نوافذ المباني المحيطة كانت مفتوحة. خرجتْ منها أصوات لم تكد تُسمَع: شذرات حديث، أدوات طعام على صحون، مقعد يُحَرَّك، طفل يضحك. كنت أرفع بصري كلما دخل أحد إلى الساحة.

بينما كنت أدفع الفاتورة سألت النادل: «رفيقي ليلة البارحة، هل تتوقع مجيئه لاحقًا اليوم؟».

نظر إليَّ لحظةً وقال: «لا أعرف يا سيدي».

مشيت إلى المستشفى. كانت الممرضات مبتهجات. كانت صحة رنا تتحسَّن تحسُّنًا كبيرًا. توقَّعْنَ خروجها من العناية المركَّزة في أقل من أسبوع.

سألتُ: «أليس ذلك أطول مما توقَّعه الطبيب؟».

«بلى، فقد كانت عملية شديدة»، قالت إحداهن، لعلها كانت تترجم الكلام ترجمة حرفية من الفرنسية.

خرجتُ ومشيتُ بلا هدف، تدفعني خفّة جديدة. فكرتُ؛ كيف سيكون المضيُّ قُدُمًا من هنا مع افتراض أن الآتي أفضل، أن تعيش دون أن يشتّتك الخوف؟ فكرتُ في هانا. وقفتُ عند صندوق هاتف وأدرتُ رقم هاتفها الذي لم يفارقني قط. ردّتْ فخفق قلبي.

قلت: «هذا أنا».

لم نتكلّم منذ بضعة أسابيع، إلا أن صوتها جاء نشيطًا واضحًا كعصفور حطّ على غصن.

«أنا في باريس. أكلمكِ من هاتف عمومي. قد ينقطع الاتصال بسرعة. كل ما في الأمر أنني فكرت فيك».

«جيّد»، قالت مستاءة وآملةً إخفاء استيائها بشيء من السخرية. «ينبغي أن تفعل ذلك أكثر».

٦٤

عندما عدت إلى الفندق، كان هناك مظروف أبيض صغير على الأرض وأنا أدخل غرفتي. لم يُكتَب شيء على ظهره.

عزيزي خالد،

شكرًا على رفقتك البارحة. إذا لم تكن مشغولًا هذا المساء فسأسعد بلقائك مرة أخرى. ستجدني في المقهى نفسه منذ السادسة مساء.

المخلص،
حسام

انثنى الخطُّ على نفسه، جملةٌ واحدة تمضي في استرسال مستمرٍّ، لا يرتفع الخطُّ حتى في الفراغات. لم يهرب. غير أن ما لم أعرفه حينئذٍ ـ ولن أعرفه إلَّا بعد ذلك بسنوات ـ هو أن حسام حين عاد إلى سكنه الليلة الماضية هاتف بنغازي وطلب من أخيه الأكبر وليد أن يتحرَّى عني. ثم في الصباح، هاتف مدرستي ليستوثق من أن فيها مُعلِّمًا باسمي. بعد ذلك، اتصل بقسم الأدب في جامعة إدنبره واستطاع حملهم على تأكيد أن أستاذًا في الأدب ما بعد الاستعماري اسمه هنري ولبروك عمل هناك

في المدة التي ارتدتُ فيها الجامعة. ثم عاد وهاتف بنغازي. سأل أخوه هنا وهناك واكتشف أننا من أقدم العائلات في الحي، وأننا نحيا حياة هادئة «غير طامعين في مال ولا جاه»، وأن الأب يفخر بتحصيل ابنه العلمي وفوزه بمنحة في جامعة عريقة في بريطانيا. علمتُ بعد ذلك أيضًا، فقد أفصح لي عن هذه التفاصيل على مرِّ سنين - كلما تقاربنا شعرت بأني أفهم عقله أكثر - أنه قام بفعلٍ ما كنت لأتوقعه بتاتًا، ومع أنني أفهم فهمًا تامًّا سبب إقدامه عليه، ما زلت عاجزًا عن مسامحته تمامًا. طلب إلى صديق له من أيام الجامعة كان قد أصبح طبيبًا يعمل في قطاع الصحة البريطاني، أن يتأكد إن كانت ممرضة تدعى ريتشل كلمنت قد عملت في مستشفى وستمنستر في منتصف الثمانينيات. لا بدّ أن ذلك لم يكن هيّنًا، فالمستشفى قد أُغلِق قبل لقائي حسام بعامين، ونُقِلَت موارده من بيمليكو إلى مستشفى تشيلسي وَوستمنستر الجديد في فولهام رود. لذا أتخيَّل أن صديقه الطبيب كان عليه أن ينبش ويفتِّش كثيرًا. رأيت في عين عقلي حسام وصديقه وهما يقتفيان أثر الممرضة كلمنت. بين كل ما عَلِمتُهُ من بحوثه عني كان هذا التفصيل أكثر ما أزعجني. بان من تغيُّر لون وجهه وهو يخبرني بهذا أنه استطاع أن يرى استيائي. وبهذه الطريقة، بحلول ظهر اليوم الذي تلا لقاءنا، كان حسام قد جمع أجوبته كلها، واطمأن - أقصى اطمئنان قد يبلغه من هو في حاله - إلى أنني لم أكن عدوَّه.

في أول المساء انطلقتُ إلى المقهى. دقَّ جرس الكنيسة معلنًا السادسة وأنا ألج الساحة. شُغِلَتْ معظم الطاولات خارج المقهى. كان وقت الراحة في نهاية نهار عمل وقبل العشاء بقليل. جلس حسام إلى طاولة في الظل قريبًا من المدخل يقرأ صحيفة. حتى من هذه المسافة كان واضحًا أن هيئته كلها تغيَّرت. عندما رآني ابتسم بانشراح وبلا تكلُّف.

بسبب العادة العصبية التي نشأت الليلة الماضية، حاولت استئناف سرد تفاصيل من حياتي، تفاصيل منتقاة لإثارة إعجاب رفيقي وطمأنته، إلا أنني ما إن بدأت بقول شيء أو آخر له عن أيامي في إدنبره حتى بدا غير مكترث، وبشيء من الاعتذار، كأنما حمَّل نفسه مسؤولية إلهامي بالحاجة إلى تبرئة نفسي، نظر صوب الساحة، إلى بقع الضوء الصغيرة والمتضائلة من أشعة شمس المساء. سألني عن لندن.

«هل أنت سعيد هناك؟ أتحبها؟».

فضح السؤال حبَّه لندن. في الحقيقة، بدا أن مجرَّد ذكر لندن يبهجه. بدأ يخبرني أنه كتب القصة القصيرة التي سَمِعتُها في المذياع عندما كان في العشرين من عمره وما يزال في جامعة دبلن، لكنه كتب بقيَّة الكتاب بعد ذلك بزمن حين تخرَّج وانتقل إلى لندن. لهذا فإن هذين الأمرين مرتبطان عنده.

«في لندن، أكتب أو لا أكتب. وفي أي مكان آخر أعيش فحسب».

«هل صحيح أنك ومحمد مصطفى رمضان صديقان؟».

«عرفته معرفة بسيطة في بنغازي. كان في الواقع صديق شقيقي الأكبر. لكنني كنت ألتقيه بعد ذلك كلما زرت لندن في العُطَل. غالبًا كنت أقضي الصيف هناك. وقد اقتربنا أكثر في تلك الأوقات. كان يشجعني وكان طيبًا معي».

بعد قليل من الصمت قال: «صديق. يا لها من كلمة! معظمنا يستعملها لوصف أناس لا يكاد يعرفهم. مع أنها شيء مدهش».

٦٥

قضينا معظم الأيام التالية معًا. انقلب الدور فكان هو من يتحدث أكثر. أذكر كيف أردت حينئذٍ، وحتى بعد ذلك بزمن، أن أكون حسام، مع كل ما تنطوي عليه هذه الأماني من مهانة. لكنَّ حسام لم يكن يومًا قدوةً لي. كان خيالًا، والأخيلة قد تبني حياة وقد تهدمها. كان يلبس ثيابه باعتناء، ولكنه يلبس فقط مجموعة مختارة صغيرة من عناصر أنيقة الصنع: لا أكثر من ثلاثة أو أربعة بناطيل وسُتَر، ومثلها تقريبًا من القمصان، وحذاء واحد وآخر برقبة طويلة، كلها تبدو قديمة وحسنة الاستعمال، تعطي الانطباع بأنها لم تُصنَع له فحسب، بل إنه هو من صنعها كذلك. كثيرًا ما كان هناك تفصيل مُعَبِّر؛ كُمُّ قميصٍ مخيط خياطة حسنة، طوق سترة لا ضيق جدًّا ولا عريض جدًا.

كلما سألته عن كتابته خفَّت حماسته. فضَّل أن يروي قصصًا شخصية مأخوذة من طفولته في ليبيا، والمدرسة الداخلية في إنجلترا، والجامعة في دبلن، وسنوات إقامته في لندن، والمدن الأوروبية الكثيرة التي حاول العيش فيها. بدا أنه كان يتذكَّر كل تفصيل وهو يرويه، مسترجعًا شذرات يتفحصها تحت الضوء.

مرَّ الوقت بسرعة وبغرابة، إذ كثيرًا ما شعرت بأن صحبته كانت تسحرني وتحبسني في وقت واحد، فكنت لا أريده أن يتوقف أبدًا وأرغب مع ذلك في الفرار، في أن أركض وأقف أمام لوحة، أو أشاهد فيلمًا، أو أقابل شخصًا جديدًا. حالة التناقض هذه صعَّبت عليَّ أن أعرف كيف قضيت وقتي في نهاية كل يوم.

لم أتوقع أن يطابق أسلوبُ حديثه أسلوبَ كتابته، ومع ذلك صدمتني المسافة بين الاثنين. كان مهتمًّا بمن يتصرفون تصرفات مقنعة ومحيرة في وقت واحد، لكن خطابه كان يميل إلى الفكاهة ويتحرك مثلما كانت تتحرك تلك الأصائل والأمسيات، بطريقة متروِّية ورفيقة. بينما كان نثره على الصفحة «هزيلًا» كما وصفه مصطفى، مكتوبًا في جمل قصيرة متقطِّعة، كانت اللغة هنا متأنية ومضت القصص في مسارٍ طويل، متخذة استطرادات عديدة. أحبَّ الأداء نفسه، فرصة لاستعراض تفوُّقه في اللغة العربية، متمكِّنًا من تقيُّدها المهيب بالقواعد ومشرِّعًا تعاليها بِسُبُلٍ أثارت حنيني وأسفي على تركي لها تذبل فيَّ. لعل ذلك كان جزءًا من غرضه: أن يساعد على إيقاظ شغفي بلغتي الأم. وأحيانًا تساءلت إن كان يروي لي هذه القصص والذكريات لأنه يريدني أن أحدِّد موقعه في جغرافيا أوسع.

٦٦

خرجت رنا من العناية المركزة وعادت إلى غرفتها. كان التلفاز ومشغِّل الفيديو، ومكتبة الأفلام الصغيرة التي اشتريتها، لا تزال هناك. عندما دخلتُ كانت رنا على السرير ورأسها محلوق كله وضُمِدَ أعلاه بضمائد بيضاء، وقد احمرَّ وجهها وانتفخ قليلًا. كانت تتكلَّم في الهاتف ضاغطةً السماعة على أذنها بقوة حتى ابيضَّت. كانت تبكي. حجبتْ وجهها عني. وقفتُ عند النافذة أنظر خارجها.

«أعرف»، ظلت تكرِّر بالعربية. «آسفة. وأنا أيضًا أحبك يا حبيبي. نعم سأخبره. هو هنا إذا أردت أن تكلِّمه. أوكي». ناولتني الهاتف. «إنه حيدر». لمَّا تردَّدتُ قالت: «من فضلك».

«حيدر»، قلت محاولًا أن أكون مبتهجًا. «أهنئك على سلامة رنا. إنها في أفضل حال».

«أكره الأسرار»، قال بفظاظة ورصانة. فكرتُ: لا بد أنه يلومني. «كل ما أريد أن أعرفه الآن هو إن كانت بخير، من فضلك قل لي الحقيقة».

«كلّمتُ الطبيب وطمأنني بأن العملية ناجحة. الممرضات سعيدات جدًا أيضًا. وقُلْنَ إن العملية سارت كأفضل ما يكون».

قال: «حقًّا؟».

قلت: «وتربة جدي».

قال: «شكرًا لك. شكرًا لك».

قلت: «إنها شجاعة جدًّا».

«أعرف»، قال بصوت دامع لا يكاد يُسمَع. بعد ثوانٍ قال: «سأكون هناك غدًا».

«هذا خبر ممتاز»، حرصت على أن أقول له ذلك.

«كنت سآتي اليوم لكنني لم أجد رحلة. لا أصدِّق أنها لم تخبرني». كان هناك شيء في قوله ذاك جعله يبدو كسؤال.

«سأكون في انتظار رؤيتك»، قلت، لأني لم أعرف ما أقول غير ذلك. ثم تساءلتُ إن بدت نبرة الكلام نبرة عتاب.

سألني: «كيف أستطيع التواصل معك؟».

أعطيته رقم هاتف الفندق.

حين أغلقتُ الهاتف غطَّت رنا وجهها. وضعتُ يديَّ حول كاحليها. نظرتْ إليَّ.

قالت: «حاولت أن أتظاهر».

قلت: «أعرف أنك فعلتِ. يسعدني أنك أخبرتِه. ويسعدني أنه سيأتي».

قالت: «أنا أيضًا».

٦٧

في وقتٍ مبكّر من اليوم التالي، بدأ الهاتف في غرفتي يرنّ ولم أكن قد سمعت صوته قبل ذلك قطّ. كان ذلك حيدر مهاتفًا من مطار بيروت. كان من المتوقع أن تهبط طائرته ظهرًا تقريبًا. بعد صمت قصير قال: «هل سنراك، غدًا ربما؟».

فكرت أنه لهذا هاتفني. أراد أن يكون وحده مع زوجته. أراد أن يصل دون أن يكون هناك شخص ثالث.

قلت: «بالطبع».

قال: «إلى الغد إذًا».

ذهبت بعد ذلك بيوم، حتى أمنحهما وقتًا أطول ليكونا معًا، وأيضًا لأنني كنت متوترًا من لقاء حيدر. وكنت محقًّا في ذلك. كان مُحْرَجًا، ضغط يدي بقوة، وفي صوته كبرياء فجَّة. كذلك بدا مرهقًا وتحت عينيه هالات سوداء. أخبرتني الممرضات بأنه لم يخرج من المستشفى منذ وصوله وكان ينام على الكرسي إلى جانب زوجته. أخذته وساعدته على الإقامة في فندق قريب. قلت له أن يأخذ نصيبًا من الراحة وإنني سأعود في الأصيل. خرجت

شاعرًا بانفصال عمًّا حولي. سبب وجودي في باريس لم يعد له معنى. عندما عدت لاصطحاب حيدر، وجدته في حال أفضل. سألني إن كان يروقني أن نتمشى.

قال مرة أخرى: «ما زلت لا أصدِّق أنها لم تخبرني».

لم أقل شيئًا، حاولت تغيير الموضوع، لكنه بعد قليل من الصمت قال، كمن يخاطب نفسه: «لماذا فَعَلَتْ ذلك؟».

قلت: «لقد وقع لي شيء فظيع. أنا واثق بأن رنا أخبرتك. وأنا أيضًا لم أرغب أن يعرف أحبُّ الناس إليَّ بما حدث».

قال: «أنت صديق طيب».

«أحبها مثلما أحب أختي»، قلت له ورجوت ألا يرتاب فيَّ. قلت: «ينبغي أن نحتفل. لقد نجت رنا وهذا هو المهم».

سحبته لندخل مخبزًا أنيقًا، واشترينا صندوقًا كبيرًا يحوي أشياء لذيذة. أصرَّ على الدفع. حين عدنا إلى المستشفى قالت الممرضات شيئًا بالفرنسية فردَّ حيدر بسهولة. ثم شرح لي أنهن كنَّ يغظنني لأنني مولعٌ بالحلوى.

وجدنا رنا جالسة على السرير. علت وجهها ابتسامة واسعة عندما رأتنا ندخل معًا.

٦٨

عندما حلَّ يومي الأخير في باريس أخبرني حسام بمعلومة لم أتوقعها قطّ.

كان يومًا مشمسًا. اقترح أن نمشي إلى جاردان سوفاج سانت فنسنت، حديقة صغيرة تقع خلف كاتدرائية القلب المقدَّس في مونمارتر.

قال: «حديقة بريَّة. دائمًا مغلقة تقريبًا، لكن هل نحاول؟».

لا أعرف لماذا، لكنني فكَّرت منذ ذلك الحين أنه عقد اتفاقًا سِرِّيًّا بينه وبين نفسه: إذا كانت الحديقة مفتوحة فسيخبرني، وإذا لم تكن مفتوحة فسنعود أدراجنا ولن أعرف أبدًا.

انعطف حديثنا ونحن نصعد الطريق شمالًا. من حين لآخر كان يشير إلى مكان عاش فيه كاتب أو فنَّان ذات يوم. سأتذكَّر هذا لاحقًا عندما انتقل هو إلى لندن في نهاية المطاف وفعل الشيء نفسه هنا، ولكن بثقة أكبر. في باريس كان بلا مرسى.

سألته ونحن نعبر الجسر فوق نهر السّين: «هل تفكِّر في العودة إلى لندن؟».

«مضحكٌ أن تقول ذلك»، قال مشيرًا إلى مبنى بديع على ضفة النهر الشمالية. «أترى ذلك الطابق العلوي كلّه؟»، قال وفي صوته شيءٌ من فكاهة مزهوَّة: «اشترى أبي عقارات في أسفاره، ثم خسرها واحدًا بعد الآخر. هذا كان آخرها ـ من دون أن نحسب شيئًا في كاليفورنيا البعيدة ـ وحتى وقت قريب اعتقدتُ أن هناك فرصة لاسترجاعه. منذ شهر فقدت الأمل في ذلك. الجري وراء الأشياء عمل أحمق».

ما إن انعطفنا عائدَين إلى الشوارع حتى قال: «كثيرٌ ممن يطلق عليهم العائلات النبيلة ليسوا نبلاء إلَّا لأنهم أحسنوا الوقوف في جانب المنتصر قرونًا».

لم أخبره بما رواه لنا أبي، ولا بأي شيء عن تلك الأصائل التي قضاها أهلي يناقشون تاريخ آل زوة بعد سماعهم قصته القصيرة في المذياع. بدلًا من ذلك قلت له، وفقط لإرضائه: «لست واثقًا من ذلك. هناك أشياء تستحق الفخر».

احمرَّ خدُّه وقال: «أشكُّ في ذلك كثيرًا».

اعتقدت، ربما من غير إنصاف، أنه تعلَّم هذه العادة في مدرسة داخلية إنجليزية؛ وهي أن يدَّعيَ لنفسه شرفًا في حين يبدو أنه يستنكره.

وصلنا إلى جاردان سوفاج سانت فنسنت ووجدناها مفتوحة.

«لم أخبرك، لكن فقط خشية أن تفقد اهتمامك، فهذا المكان دائمًا مغلق. طوال السنوات التي عشتها هنا هذه أول مرة أدخله».

ثم مضى يخبرني عن الحديقة، كيف كانت جزءًا من قطعة أرض بور قديمة، وأن الأشجار والنباتات والأزهار كلها نبتت من تلقاء نفسها. «بستان برّيّ صغير دُسّ داخل المدينة».

مشينا في المسارات، وعلى صغر الحديقة كان الهواء فيها ثقيلًا. اتّكأنا على السياج عند بركة غطّتها كلّها طبقة متصلة من طحالب خضراء فاقعة. تساءلت عمّا يقبع في المياه المظلمة في الأسفل وكم يمتد عمقها. شعرتُ بالإغراء لأن ألقي حصاة، أن أمزّق السطح وأفتحه.

«أنا أيضًا كنتُ هناك»، قال وكان صوته حذِرًا ومنخفضًا. تابع وهو ينظر إلى الخضرة الفسفورية: «من المحتمل حتى أننا في وقت ما، أنا وأنت، وقفنا مثل وقوفنا الآن، جنبًا إلى جنب». التفت إليّ، غير واثق إن كنت قد فهمت قصده.

صمّمتُ على عدم الإفصاح بشيء، على التّشبُّث بمظهر مُتّزِن. ظننتُ أنني عرفت كل ما احتجت إلى معرفته عن أحداث ذلك اليوم. ومع ذلك، تخيّلت الآخرين ـ أولئك الكثيرين الذين حضروا المظاهرة ثم استأنفوا حياتهم ـ قادرين على المغادرة، مشيًا على أقدامهم. أشعر كأنني تحت الماء عندما أفكّر فيهم، لأن التفكير فيهم يعني أن أتخيّل تلك النسخة الأخرى مني، غير المصابة، التي عادت بالحافلة إلى إدنبره، واستطاعت السفر إلى الوطن لقضاء الصيف، لتنام في بيتها، وتسبح في بحر طفولتها. الخط الذي يفصلني الآن عن نفسي السابقة هو الفجوة التي أبقى

غير قادر على عبورها. لا يمكنك أن تكون شخصين في وقت واحد. استمر حسام ينظر إليَّ منتظرًا ردَّ فعل. وفكَّرتُ حينها، وقد بدأنا من توِّنا نستأنس بهذه الأرضية المشتركة التي اكتشفناها حديثًا، فكَّرتُ أن عهدي مع القدر قد تحطَّم يومَ إطلاق النار، في حين قويَ عهده هو.

«أنا أيضًا وصلت متأخرًا. ومثلك انتهى بي الأمر هناك بقرار متهوِّر اتخذته في اللحظة الأخيرة. لكن، على النقيض منك ومن صديقك مصطفى، لم أحضر قناعًا. بدلًا من ذلك، ربطت منديلي حول وجهي. أنت مُحِقّ: يستطيع المرء أن يحسَّ فورًا بأن شيئًا فظيعًا على وشك الحدوث»، قال وكان في صوته شيء من الندم. ثم سألني: «أين كنت تقف؟» وقبل أن أجيب قال: «أنا كنتُ في الوسط تمامًا».

حتى عندما قال هذا، لم يتصوَّره عقلي داخل الحشد، بل في جانب منه، واقفًا على الرصيف، مراقبًا المشهد من مسافة، ثم لمَّا عمَّت الفوضى مشى مبتعدًا كأن شيئًا لم يحدث. منذ زمن طويل كنت جالسًا مع أبي في مقهى من مقاهي بنغازي. كان يحدِّث شخصًا يعرفه، وكنت أحلم أحلام يقظة وأنا أنظر من النافذة. فجأةً استحوذ عليَّ هاجس مظلم. حينها فقط وقعت عيناي على امرأة تعبر الشارع. رأيتها تُلقَى في الهواء، ثيابها ترفرف، ثم تهوي على الأسفلت حيث رقدت ساكنةً تمامًا. السيارة التي صدمتها وقفت وقوفًا زاعقًا على بعد أقدام قليلة. لم أستطع قطّ تفسير إحساسي بالأمر قبل حدوثه.

قال حسام: «عندما فتح أولئك الرجال النافذة، انتقلتُ إلى الصفوف الخلفية. لحظةَ بدأ إطلاق النار لا بد أنني ركضت، لأنني وجدت نفسي فجأة مقطَّع الأنفاس في الزاوية، على الشارع الصغير المفضي إلى ريجنت ستريت سانت جيمس».

سمعتُني أقول: «تشارلز الثاني».

قال: «نعم، ربما هو. كنت مبتلًا. جسدي كلّه. انعطفت يسارًا صاعدًا إلى ريجنت ستريت، لكنني، بعد ذلك، ظننت أن هناك من يتبعني فوقفت في محطة الحافلات. تلكأت هناك لحظةً قبل أن أواصل سيري منعطفًا يسارًا مرة أخرى، نازلًا إلى شارع جيريمن. كنت في الحقيقة أدور عائدًا. عرفت ذلك لكن لم تكن بيدي حيلة. وصلت إلى ذلك الشارع الصغير، ما اسمه؟».

تابعت النظر إلى سطح الماء المغطَّى. بدت الطحالب الخضراء الآن كطبقة معدنية، صلبة لا تلين، تخطف الضوء. «تعتقد أنك رجل؟»، سمعتُ هذه الكلمات التي توقَّعت أن يقولها المتنصِّت، بعد أن تنحنح خلال مدة الصمت، عندما ذهب أبي لمناداة أمي وسعاد. سمعتها بدقة مدهشة، قيلت بفتور وبالنبرة الغامضة نفسها، كأن ضابط المخابرات كان مستلقيًا على ظهره.

قال مرة أخرى: «ما كان ذلك الشارع؟ أتعرف الشارع الذي يعيدك إلى الساحة، حيث لجأ إليه المصابون حتى وصلت سيارات الإسعاف؟».

شارع دوق يورك، فكَّرتُ في نفسي، وتذكَّرت عندما أخبرته أول مرة عن تجربتي في ذلك اليوم، كيف أهملتُ ذكر شارع دوق يورك عمدًا، لأنني لحظةَ رأيت نفسي جالسًا هناك على الرصيف، أنزف قرب مجرى التصريف، حاد عقلي عنه. بدت لي ساحة سانت جيمس الآن النواةَ وسط حياتي، المكان الذي منه انفرط كل شيء. كأنها الشمس بالنسبة إلى النظام الشمسي، دارت حياتي حول هذه الساحة. ومنذ ذلك اليوم لم أستطع الاقتراب منها. لم أقترب منها إلا الليلة، الليلة نفسها التي ودَّعتُ فيها حسام وداعًا بدا كأنه الوداع الأخير.

اضطرب في نفسي تمرُّد عنيف ونحن نخرج من الحديقة ونعاود الدخول إلى الشوارع المرصوفة بالحصى، راجعَيْن جنوبًا عبر باريس. قلت لنفسي إن الحريةَ هي أيضًا الحرية في ألَّا نشك، ألَّا نخاف وألَّا نَحْسِد.

«هل رأيتَني؟» سألته بعد انتقاله من تلك المحادثة بوقتٍ طويل، حيث كان بدلًا من ذلك يخبرني عما يبدو أن خوليو كورتاثار قد قاله في مكان ما عن تخطيط مدينة باريس، الذي اعتقد الكاتب الأرجنتيني الراحل أنه يشبه الجملة المثالية، تلك التي تنتهي، كمفترق طرقٍ باريسي، بثلاثة أقوال أو أكثر يمكن الانطلاق منها. «أقصد أنك عندما وقفتَ في أول شارع دوق يورك، هل رأيتني؟ كنتُ أول الواصلين هناك. جلست على الرصيف. كنتُ في الجهة اليسرى للمكان الذي كنت أنت فيه. أسندني شرطي

من الخلف، منعني من السقوط. لا بد أنه كان مشهدًا غير معتاد. كان وجه الشرطي غريبًا، وعاديًا أيضًا كأي وجه. مثل جوكر في لعبة ورق. يمكن أن يكون أي شخص. ألا يبدو أي شيء من هذا مألوفًا لك؟».

راقبني بانفتاح، بنظرة تعاطف صادقة. قال: «رأيت بعض الأشخاص على الأرض، لكن المكان كان مطوَّقًا. كانت هناك فوضى. انصرفت حين سمعت سيارات الإسعاف».

وإلى أين ذهبتَ؟ أردتُ أن أسأله، لكنني أوقفتُ نفسي. أوقفتُ نفسي لأنني اعتقدت أن قصته أقل أهمية من قصتي، وأن هذا الأمر بحاجة إلى أن يُعبَّر عنه بطريقةٍ ما، حتى إن كان ذلك بصمت. لكني علمت بعد ذلك أن حسام ـ بحلول وقت وصولي إلى مستشفى وستمنستر، وعندما كان ذلك الطبيب الشاب المذعور يصيح: «هنا» ـ كان قد ابتعد حتى وصل إلى حديقة هايد بارك، «ماشيًا إلى البيت»، كما قال، «يرافقني إحساس بأنني انتزِعتُ من فم الوحش. مثل نوح والحوت». لم يقل لي هذا في باريس، إنما بعد خمسة عشر عامًا، في كافيه سيرانو، المكان الذي اعتدنا ارتياده في شارع هولاند بارك. كان مساء خريفيًا دافئًا في نوفمبر عام ٢٠١٠. التقينا لنحتفل بعيد ميلاده الخمسين. كان قد بدأ الشرب قبل أن نلتقي، وبعد أن شربنا الدفعة الأولى سُرعان ما أصبح سكرانَ وممتلئًا بالحنين. حين قال: «انتزِعتُ من فم الوحش»، كان في كلامه لمحةٌ من تهنئة النفس على ذلك.

لم أستطع فهم ذلك وتساءلت إن كان حسام، خلافًا لكل ما قاله لي، يؤمن حقًا بإرادة إلهية تراقب شؤون البشر، قد قرَّرتْ - وفق منطقها الغامض - إنقاذَ شخص وإلقاءَ آخر في مهبِّ الريح؛ فأيُّ شيءٍ سوى ذلك - قلت لنفسي حينها - سيفسِّر حدَّة اللذة الأخلاقية التي سمعتها في صوته حينئذٍ؟ حدَّقتُ إلى مشروبات الكوكتيل الملوَّنة بيننا، التي بدت فجأةً مشرقةً ومبهجةً على نحو بشع. أزعجني حسام بانعدام مراعاته لي، بتعزِّيه بحظِّه السعيد، وهو يعرف تمام المعرفة ما حدث لي. اختلاف تجاربنا في ذلك اليوم اختلافًا عميقًا، رغم تشابهها، كان أمرًا شنيعًا. ولعل حضوري، جلوسي قبالته، كان هو ما ذكَّره بحظِّه السعيد، أو حتى عزَّاه في عيد ميلاده الخمسين بجعل الماضي، وكل ما حدث حتى تلك اللحظة، يبدو مقدَّرًا من ربٍّ رحيم، محا أخطاءه ووضعه في مركز حياته تمامًا، حتى كأنه صار فجأةً يشعُّ بالسعادة. وما إن فكَّرت في ذلك حتى قال: «أليس من السِّحر أننا على قيد الحياة؟».

حاولت الابتسام. رفعت كأسي. قلت: «عيد ميلاد سعيد».

ومع أنني كنت أنظر إليه وأتكلَّم، كان عقلي قد عاد إلى ساحة سانت جيمس، أو على نحوٍ أدق، إلى شارع دوق يورك، قرب مجرى التصريف نفسه حيث جلست، وقد رأيت، في عين عقلي، البيتَ المقابل وفيه الرجل ذو المظهر غير المكترث الذي وقف عند النافذة بلا تعابير، متفرِّجًا عليَّ وأنا أنزف، بوجهٍ أخذ يزورني في أحلامي منذ ذلك الحين، وما زال يبدو لي أنه وجه الحياة غير

المبالي. وأنا جالس مع حسام في كافيه سيرانو، عائدًا بفكري إلى تلك اللحظة في شارع دوق يورك، تذكَّرت كلمات أرسطو التي قرأها لي أبي، ومن ثمَّ بعربية ابن رشد، وهي «ليست اللذة ما يصبو إليه الحكيم، بل التَّحرُّر من الألم». والآن أعود إلى شارع دوق يورك متحرِّرًا من الألم تقريبًا. أمشي إلى الزاوية حيث وقف حسام بلا قناع، يرقب المشهد مع متفرجين آخرين. ثم تابع طريقه إلى شارع جيرمين، مسرعًا الخطى، راكضًا تقريبًا، كما أخبرني عندما ذكر الأمر أول مرة، في ذلك اليوم ونحن نمشي عائدَين من جاردان سوفاج سانت فنسنت. قال: «كنت أقف كل عشرين قدمًا أو نحو ذلك، مفكِّرًا في العودة. لأفعل ماذا، لم أعرف. إلا أن المضيَّ كأن شيئًا لم يحدث كان أمرًا مجنونًا جدًّا. وكل شيء حولي ألحَّ على أن شيئًا لم يحدث. كانت المتاجر مفتوحة، والناس في غفلة تامة، كأن ما شهدته توًّا كان حدثًا لم يقع إلا في عقلي. نعم، قال: «لذلك أردت أن أعود. كان ذلك نقيض الجنون».

٦٩

استمرت رنا في التَّحسُّن. غادرتْ المستشفى وانتقلتْ مع حيدر إلى فندق أجمل قرب حديقة لوكسمبورج. كلما زرتهما شربنا الشاي في بهو الفندق. الدليل الوحيد الذي بقي كان انطباعًا في عينيها، نظرة ارتباكٍ هادئة.

في ليلتي الأخيرة في باريس، كانت متعافية بما يكفي لتخرج لعشاء احتفالي. لم نذهب إلى المطعم الذي قرأتْ عنه في مجلة الطائرة، بل إلى آخر اختاره حيدر، مكان فاخر بسقوف عالية وثُريَّات. في الجانب المقابل من الغرفة لاحظتُ رجلين يجلسان إلى طاولة لأربعة أشخاص. لم يجلسا متقابلين، بل جنبًا إلى جنب وظهراهما يستندان إلى حائط طويل مغطّى بمرايا كبيرة. لم يكادا يتبادلان النظر. بل تابعا باهتمام فاتر ما يدور حولهما من أحداث مختلفة: الزبائن الذين كانوا يأتون ويذهبون، والنُّدُل البارعون، على قلَّة عددهم، الذين كانوا يتنقلون بين الموائد بانتظام بديع. بدا الرجلان في السبعينيات من عمريهما، وقد لبسا ثيابًا أنيقة لا مبالغة فيها بدت مريحة وحسنة الاستعمال. لكن، لا، لم يكونا أخوين، فمع أنهما متشابهان، كان تشابههما

في السلوك أكثرَ من الملامح. ولم يبدُ أنهما عاشقان. لم يكن اتحادهما اتحاد زوجين، بل اتحاد شخصين مستقلين. قرّرتُ أنهما كانا صديقين قديمين يعرف أحدهما الآخر معرفة حميمة، شهدا معًا الكثير وبلغا شيخوختهما هذه دون كثير من الدراما، وأصبحا الآن ينعمان بالثقة المريحة التي لا بدّ أنها تأتي مع إنجاز كهذا. لبثتُ أراقبهما خفية، وأنا شاكر طوال الوقت لأن رنا كانت بخير، وقد ارتدت البدلة الكستنائية الجديدة الجميلة التي اشتراها حيدر. لقد تمكّن من تقدير مقاسها بدقّة، وهي حقيقة أدهشتها وأسعدتها. ما فتئتْ تقول: «كأنها خيطت لي» النسيج الناعم الملتف براحة على كتفيها. الحنان بينه وبينها. هذا كلّه أثار فيّ تفاؤلا سعيدًا. تعاهدنا نحن الثلاثة على العودة إلى باريس. عندئذٍ فقط سمح الصديقان، الجالسان في الجانب المقابل من الغرفة، لعيونهما بأن تحطّ علينا بضع ثوانٍ. مازحني حيدر في خوفي من الطيران ثم قال: «كم أرجو أن تزورنا في بيروت». عندما أُحضِرَت الفاتورة أصرَّ على الدفع ولم أجادل.

وقفنا خارج المطعم بانتظار سيارة أجرة. لمّا وصلت السيارة قلت إني سأمشي. بدت رنا قلقة. ودَّعتُ حيدر أوَّلًا. عندما ذهبت لأعانق رنا، احمرَّت عيناها. تراجع حيدر حريصًا على ألا يستعجل اللحظة. قدَّرتُ تصرفه ذاك. همستُ قرب أذنها مباشرة: «أشكركِ على دعوتي للمجيء. هذا أعظم إطراء مُنِحَ لي».

لم تستطع الكلام. تمسَّك أحدنا بالآخر. انتظر حيدر. انتظر سائقُ سيارة الأجرة. وقعت عيناي على الصديقين المُسِنَّين

اللذين كانا ما يزالان داخل المطعم، جالسين في النور الذهبي. ظهرا مختلفين من هنا في الخارج. ضجران قليلًا أو تائهان بعض الشيء. فتحتُ باب السيارة وركبها رنا وحيدر. نظرت رنا وراءها والسيارة تسرع مبتعدة.

انتهى المطاف بأشرطة الفيديو في بيتها في بيروت. ما زالت أحيانًا ترسل صورة لتلفازها، وهو يضيء بزرقةٍ في الظلام، وفي الصورة لقطةٌ من أحد أفلامنا. وسوى ذلك لم نتكلَّم عن باريس قطُّ. لا تأتي إلى لندن إلَّا نادرًا الآن. الأطفال، الوالدان المتقدمان في السّن، ضيق الوقت.

٧٠

كان الوقت متأخرًا لمَّا وصلتُ إلى الفندق. عاد حسام خلف مكتب الاستقبال، وقد بدا أكثر ثقة من ذي قبل. قال إنه كان ينتظرني وأصرَّ على أن نخرج لشرب براندي قبل صعودي للنوم. نادى الحمَّال الليلي وطلب منه أن يأخذ مكانه. ابتسم الرجل، وبدا مسرورًا لأنني وحسام أصبحنا صديقين. عدنا إلى المقهى الذي في الساحة. كان الوقت يقترب من منتصف الليل، ومثلما جئنا إلى هنا أول مرة وجدنا المقهى مفتوحًا وخاليًا تمامًا. كان حسام بمزاج مَرِح. الآن وقد أوشكتُ على المغادرة، أراد أن يحتفل بلقائنا غير المتوقَّع، ولم يسعني إلا أن أشعر بأنه أراد أن يحتفل أيضًا بالراحة والمجهولية اللتين سيأتي بهما رحيلي. تكلَّم عن لندن سائلًا عن المزاج السياسي حينئذ وعن أسعار الإيجار وغير ذلك. بذلت جهدي لأجيبه، وأنا أسمع في صوتي حماسة شديدة، وأحسُّ بغريزة البائع الحيوانية القديمة تلك التي تعلَّمتُها، قبل الدراسة في بيركْبِك وفي أثنائها، عندما عملتُ في متجر ثياب فاخرة في كِنجز رود وأصبحت أعرف متى أقترب ومتى أتريَّث.

تَبعَ ذلك صمت. افترضتُ أنه كان يفكّر فيما قلته له. رفع بصره إلى المباني المحيطة بالساحة.

«عرفتُ فتاة عاشت هنا. جزائرية. كانت عندها دراجة برفٍّ فوق العجلة الخلفية، متين بما يكفي للجلوس عليه. ذات يوم أخذتني في جولة حول المكان. كان عليَّ أن أرفع قدميَّ بعيدًا عن الطريق. تمسّكتُ بأسفل مقعدها بأطراف أصابعي. من حين لآخر، كان عليَّ أن أضع يدي على خصرها لأثبّت نفسي. أخذتْ تدوس الدواستين، وهي تعلو وتجلس، والهواء يهبّ خلال ثوبها، خلال شعرها. شممتُ عطرها، نفحات خفيفة من صابون وشامبو، وشيئًا آخر كان يخصُّها وحدها: جسدها وأيامها ولياليها. أرادت أن تأخذني إلى الدائرة التاسعة. كنت قد انتقلت توًّا إلى هنا. لم أكن أعرف المكان جيدًا. أذكر أننا توقفنا وأكلنا شطائر لحم بقر مملّح ونحن واقفان على الرصيف، ثم أسرعنا إلى مكتبة أرادتْ أن أراها. لا أعرف ما كان اسمها وفشلتُ في إيجادها منذ ذلك الحين. ارتفعتْ نوافذها واستدارت كأنصاف أقمار في القمة. كتب كثيرة جدًّا، أناس قليلون جدًّا انحنوا فوقها. تابعنا طريقنا. وقفتْ في وسط شارع غير مميَّز، رفعت نظرها إلى إحدى النوافذ وقالت: «سكنت جدتي هنا في تلك السنوات المبكرة المتوترة قبل حصولها على أوراق الإقامة». وضعتْ رِجلها على الدواسة اليمنى واندفعتْ إلى الأمام. تمسكتُ بها بكلتا يديَّ. دارت العجلتان وكان الهواء شيئًا لطيفًا».

أخذ النادل كأسينا الفارغتين وسألنا إن أردنا دفعة أخرى من المشروبات.

«ولِمَ لا بالله عليك؟» قال له حسام فتبسَّم الرجل.

«نجمة، ذاك كان اسمها. ولي أخت اسمها نجمة. الأصغر في العائلة. لا أكاد أعرفها الآن. عدنا إلى شقتها»، قال مشيرًا إلى مبنى مقابل. التفتُ لأرى. «الشقة التي في الزاوية، في الطابق العلوي. كان يومًا حارًا. فَتَحَتْ جميع النوافذ فهبَّ نسيمٌ بِرِقَّةٍ في أرجاء الغرفة. تربَّعنا جالسَين على أرض الخشب الباردة. أتذكر ركبتيها بوضوحٍ شديد، كم كانتا قويتين وناعمتين».

بينما كنت أسمع حسام، رأيت ركبتَيْ هانا: في البداية بدا أن لهما لونًا معيَّنًا، لكنه بعد ذلك صار ورديًّا ضبابيًّا تحت البشرة اللوزية، وريد شديد الخضرة يعبرها، لون الجلد الأزرق الباهت البعيد.

«كانت قدماها الحافيتان مبقَّعتين قليلًا من نعليها الجلد. تركتْ الأحزمةُ هالات حول كاحليها. كانت أصابع رجليها مفتوحة وحُرَّة. أعدَّت شايًا يابانيًّا. قالت: «ينبغي أن يكون كل شيء دقيقًا. عليك أن تصبر». ابتسمت. أذكر أنني رغبت كثيرًا في أن تقول لي حينها شيئًا لم تقله لأحد قطّ. جهز الشاي. صبتّه وشربناه بصمت. أتساءل كيف انتهى بها الحال».

سألته: «ألستما على اتصال؟».

«أعتقد أنها ما زالت في باريس لكنني لست متأكدًا. على كل حال، مشكلتي»، قال وسكت. «حسنًا، لها اسم واحد لا غير: كلير. افترقنا منذ زمنٍ طويل، إلا أنها ما زالت قادرة على الظهور بيني وبين كل امرأة أخرى، حتى نجمة السماوية تلك. هو ليس حبًّا بالضبط».

حتى ذلك الحين لم يقل لي حسام إلا القليل عن كلير. عرفت أنها من دبلن، أنهما التقيا في الجامعة هناك، أن علاقتهما بين وصل وانقطاع منذ سنوات. إلا أن الأمر المهم لم يكن فيما قاله عنها بقدر ما كان في الطريقة التي يرقُّ بها صوته حين يذكر اسمها.

ثم قال: «علمتُ مؤخَّرًا أنها اشترت بيتًا في شمال لندن. حصلتْ على عمل في مؤسسة خيرية قانونية تساعد طالبي اللجوء».

٧١

كان مصطفى متحمِّسًا وقد أسره الفضول لأني التقيت حسام زوة. في البداية لم يصدِّق. بخدَّين متورِّدين حماسةً أراد أن يعرف كيف حدث ذلك، عن ماذا تحدثنا، كيف بدا حسام.

قال: «أريد كل التفاصيل».

قدَّمت له تقريرًا صادقًا عما جرى وأسعدني أن أعيش التجربة ثانيةً. لكن سرعان ما تلاشت الجِدَّة، وداخَلَ الشَّكُّ صوته مثل لطخة أخذت تنتشر. بدأ يطلق أحكامًا كانت شديدة الإزعاج لأنها وافقت الأحكام التي كنت أقاومها في الخفاء.

قال مصطفى: «إنه خائف. بَالَغَ في أهمية قصصه وسمح لنفسه بالذبول في عمل غير مفيد. دليل على أن الموهبة وحدها لا تكفي. الشجاعة مطلوبة أيضًا. الشجاعة التي من الواضح أنه لا يملكها. عرفت هذا من تلك المقابلة».

كانت لحكمه القوةُ العنيفة لبابٍ يُصفَق. وقد بقيَ حكمه هذا مقنعًا، مع أنني كنت أعرف مصطفى جيدًا، واعتقدتُ أني أعرف كيف يعمل عقله، إذ لم يكن يحرِّكه في كثير من الأحيان

التفكير، بل اندفاع شديد كان يأخذه إلى أماكن لم يكن يتوقعها ولا يرغبها بالضرورة.

قال: «احذر. لا تسلّم له ثقتك كاملةً. لا شيء أخطر من كاتب يتخلَّى عن الكتابة. تذكَّر ما حدث للصادق النيهوم».

كانت تلك حجة قديمة. كنت ما أزال أجد مقالات النيهوم مثيرة للاهتمام، في حين أن مصطفى شطبه شطبًا تامًّا، لأن الكاتب الليبي، بعد أن غادر البلاد وواجه مصاعب الغربة، قَبِل المال من الدكتاتورية.

قلت: «النيهوم لم يعد قطّ».

قال مصطفى: «لكان أشرف له لو عاد. ما إن تقبل مال القذافي حتى ينتهي أمرك. ورأيتَ ما حلَّ بكتابته، كيف أصبحت باطنية ومجرَّدة. هذيان مدمن حشيش».

قلت: «حسام مختلف. أولا، لقد توقف عن الكتابة تمامًا».

قال مصطفى: «بالضبط».

قلت في نفسي إن آخر شيء أريد أن أفعله هو الجدال بشأن الصادق النيهوم. طلبت الفاتورة. كنت مسرورًا لأني لم أخبر مصطفى بأهم تفصيل: أن حسام كان في المظاهرة. كنت واثقًا من أن وجوده هناك ورفضه التحدث في المذياع رغم ذلك من شأنه أن يزيد من عدم رضا مصطفى عنه.

تعانقنا على الرصيف خارج المقهى ومشيت إلى الشقة وحيدًا، تمامًا مثلما أفعل الآن. فكَّرتُ؛ كيف أصبحنا مُزَعزَعين

هكذا؟ حاولت أن أتخيَّل الشخصين اللذين كنا سنصير إليهما أنا ومصطفى لو لم نغادر وكنا، بدلًا من ذلك، نلتقي في مقهى من مقاهي بنغازي. تخيَّلت أن ذينك الاثنين، وقد اندمجا في المجتمع الذي كوَّنهما، لن يكون عندهما وقت كافٍ للاستماع إلى الماضي. نحتاج إلى عائلاتنا والتزاماتنا نحو الآخرين لإسكات ما لا يقال وما لا يمكن أن يقال. تخيَّلتُ أطفالًا. تخيَّلتُ أصواتًا متنوعة. تخيَّلتُ طقوسًا وعادات. تخيَّلتُ أني لا أطبخ لنفسي فقط، وتخيَّلتُ أنني يُطبَخ لي. أردتُ، أكثر من أي شيء آخر، رغبات الآخرين ومطالبهم. تلك نُسَخٌ من نفسي تستمر في الظلام.

هاتفتُ هانا فكان ذلك كأني أفتح نافذة وأستنشق الهواء.

٧٢

بعد بضعة أشهر هاتفني حسام. كان في لندن.

قال: «فكرت في قضاء بضعة أيام هنا، لأرى كلير وأراك يا صديقي الجديد. اشتقت لهذه المدينة القديمة».

تخيَّلته ينظر من نافذة وهو يقول هذا. كان يقيم في فندق في بادنجتن، يملكه ابن عمٍّ له. قابلته هناك وانطلقنا. مشينا في أنحاء المدينة التي كان يعرفها أحسن مني، إلَّا أن معرفته كانت قديمة قليلًا. أخذ يعود إلى أماكن لم تعد موجودة. وما عدا كلير، لم يبدُ أن له أصدقاء هنا، أو أشخاصًا حرص على الحفاظ على صداقتهم.

مرةً صادفنا شخصًا كان يعرفه، إنجليزيًّا بوجهٍ لطيف وسَمْح. كان واضحًا أنه فرح لرؤية حسام، وما فتئ ينظر إليَّ متوقعًا أن يعرِّف حسام أحدَنا بالآخر. لم يحدث شيء من هذا، ولمَّا تابعنا السير لم ينبس حسام بكلمة. غير أنه عرَّفني بكلير.

لا أعلم ما كنت أتوقَّع، لكن أيًّا كان توقعي لم يمتَّ بصلة إلى المرأة التي قابلتها. دعاني حسام إلى بيتها قائلًا إنها تتطلَّع

إلى لقائي وإنها ستعدُّ عشاء. توقفتُ لشراء زجاجة نبيذ واستغرقتُ وقتًا طويلًا في اختيارها. قابلني حسام عند الباب. كان أكثر حيوية من المعتاد. استطعت أن أشمّ رائحة الطبيخ، وعندما مررنا خلال المطبخ سمعت صوت قِدْر يغلي بهدوء. لم أرَ كلير في أي مكان. شكرني حسام على النبيذ، وسألني عمّا أريد أن أشرب، ثم قادني إلى الصالة. انعطفنا عند الزاوية فرأيتها جالسة على الأريكة طاوية رجليها، وقرب مرفقها على المنضدة الجانبية كان هناك مصباح مغطى يضيء. كان ثوبها بسيطًا ولونه بلون جلدها نفسه تقريبًا. وكان شعرها الكستنائي مربوطًا إلى الخلف، جاعلا وجهها عاريًا وجميلًا. فكّرتُ؛ وجهٌ عملي، وجهٌ مطّلع على شؤون البشر. كل شحمةٍ من شحمتَيْ أذنيها كانت مزّينة بلؤلؤة صغيرة. نهضت على قدميها.

طوال المساء عَبَرَ بينهما تعاطف واضح. إذا تكلّمت هي ظهر على وجه حسام تعبيرُ فضولٍ لطيف، وهو ما أدهشني قليلًا، لأني لم أعتقد حينئذٍ أن الأصدقاء القدامى أو العشّاق يستطيعون الاستمرار في إثارة إعجاب بعضهم ببعض. اهتمامه زادها جمالًا وجعل استقلالها يبدو كشيء ثمين. هدّأه ذلك، لكنه تركه أيضًا كمن يبحث عن شيءٍ ما. قام عدة مرات، قصد المطبخ وعاد بلا شيء. في لحظة من اللحظات بعد العشاء، عندما كان يصبُّ القهوة، حطّت يدها اليسرى على يمناه. وريدٌ باهت الخضرة امتد على أناملها الثابتة وتلاشى في أعلى ذراعها. ذات مساء في باريس، قال لي حسام إنه يعتقد أن أهم الأحداث الإنسانية لا يقع

في ساحات المعارك، بل في الساعات الهادئة. كلماته، الساعات الهادئة، خطرت ببالي حينها.

تحدَّثتْ عن عملها، اشتكت من المعاملة الظالمة التي كثيرًا ما يُعامل بها المهاجرون، من تعقيدات ما كان مطلوبًا، وصعوبة التوصل إلى حلول سهلة. سألتني إن كنت قد زرت إيرلندا، ثم طلبت مني أن أحكي لها عن بنغازي.

قالت لي: «هو لا يحب التحدث عنها».

لم يتكلَّم حسام. لم يفصح وجهه عن شيء.

٧٣

بعد عدَّة أشهر، استقال حسام من عمله في الفندق وسلَّم الشقة التي عاش فيها طيلة السنوات الأربع الماضية في باريس. وصل إلى فندق ابن عمه في بادنجتن ومعه حقيبتان صغيرتان. كان متحمسًا ومتوترًا. أسابيع مرَّت دون أن يجد شقة. كونه بلا عمل ويقيم في سكن مؤقت صعَّبا الأمر، إلا أن هذا لم يكن إلَّا جزءًا من المشكلة. لم يبذل جهدًا كافيًا. بل فضَّل أن يجول في المدينة.

ذات أصيل قال لي: «أقلقتني فكرة العودة، لكنني حقًّا أجد نفسي مرة أخرى هنا».

كان الزوجان اللذان يسكنان الشقة التي في الأسفل قد أخلياها منذ أسابيع والمكان ما يزال فارغًا. هاتفت المالك وقال إنه كان ينوي صيانتها ولم يتفرغ لذلك بعد، غير أنه سيُسرّ أن يريها صديقي على وضعها الحالي. تركتُ الأمر عدَّة أيام ثم ذكرته لحسام.

«أكيد»، قال، لكن ليس بالحماسة التي أملتُها.

أحضرته إلى الشقة. كان المكان متعبًا ومظلمًا قليلًا، لكنه كبير وله منفذ إلى حديقة خاصة. أتذكره عندما وقف لحظةً في غرفة

المعيشة الفارغة ناظرًا للأسفل إلى قدميه. بطريقةٍ ما، عرفت فيما كان يفكّر. أن يعيش قريبًا جدًّا من شخص يعرفه. ففي كل الأحوال، أن تعود إلى البيت يعني أن تختفي. أنا كذلك كنت أخاف أن أُرَى. ذهبتُ والمالك إلى الغرفة الأخرى. تحدثنا عن التغييرات التي كانت تحدث في الحي، عن مركز التسوق الجديد، المُخطَّط له أن يكون الأكبر في أوروبا، وخشيتنا مما قد يسببه من تأثيرات سلبية على أسواق الحي، ثم اتفق كلانا ـ دون أن نذكر أي أسباب ـ على أنه في المجمل قد يعود بالفائدة على المنطقة. لحق بنا حسام وسأل عن الإيجار. قال المالك إنه لا يرى سببًا لرفعه أكثر مما كان يدفعه المستأجرون السابقون. نظر إليّ وكرَّر ما سمعته يقوله من قبل؛ وهو أنه ليس أحد أولئك الذين يجدون لذة في رفع الإيجارات. شهدتُ على حقيقة أنه رجل محترم وأنني طالما قدّرتُ هذا فيه. هذا أسعدهما كليهما. تصافحا.

ما زلت أتذكّر يومَ انتقل حسام إلى الشقة، كم فرحتُ وتحمست، وكم كانت تلك الفرحة والحماسة تنتميان إلى الطفولة، إلى مجيء أبناء عمومتي المفضَّلين للإقامة عندنا، أو إلى توجهنا شرقًا خارج بنغازي إلى الجبال، إلى بلاد أمي. ملأنا السيارة وغادرنا المدينة. كان ذلك هو الجزء الأجمل. لم أشعر بهذا الشعور منذ ذلك الحين. أدهشني أنه عندما أصبح حسام جاري لم يتغيَّر شيء من ملامح حياتي، ومع ذلك كان كل شيء مختلفًا. جُمِّعَت أجزائي مرة أخرى، وصار لي من يرافقني، وأصبحت حياتي في لندن، التي كنت أعزُّها بفخرٍ هادئ، تمنحني الشعور

بأني جزء من عائلة أستطيع أن أقاسمها شرابًا أو وجبة أو قهوة أو نزهة بعفويَّة، دون الحاجة المرهقة إلى التخطيط والترتيب.

حدث هذا كله بسرعة كبيرة فلم يكن عندي وقت لإخبار مصطفى. عندما أخبرته، كان حريصًا على ألَّا يعبِّر عن دهشته. غير أنني كنت أعرف هذا عنه: كلما زاد اندهاشه أو تأثُّره قَلَّت رغبته في إظهار ذلك.

«هذا يفسِّر الأمر إذًا»، كان كل ما قال.

«يفسِّر ماذا؟» سألته بشيء من نبرة تحدٍّ في صوتي.

«لا شيء»، قال، راضيًا بقدرته على استثارتي. «إنك اختفيت فحسب، هذا كل شيء. لم أسمع منك أيامًا. إذًا متى ستعرِّفني بصديقك الجديد المشهور؟».

أهملت الأمر مدة طويلة قدر ما استطعت، وعندما خطَّطتُ للقائنا جميعًا خفق قلبي خفقانًا شديدًا وأنا أمشي إلى المقهى. لم يَسِرِ اللقاء على نحو سيئ، لكنه أيضًا لم يَسِرْ سيرًا حسنًا. تكلَّم مصطفى بلا نهاية، وكان صاخبًا ومزهوًّا، وبدا من كل ما قاله كأنه كان يتبجَّح. في لحظة ما في الحديث، أخذ يكرِّر لحسام أنه لم يستطع تصديق أن حسام لم يقرأ ميلان كونديرا قطّ.

أسند حسام ظهره إلى الخلف وانتظر حتى انتهى مصطفى. عندما غادرنا قال بنبرة تعاطف صادقة: «صديقك متوتر قليلًا».

«هو معجب بك»، قلت، وكان ما قلته حقيقةً وكذبةً أيضًا.

٧٤

عندما وصل حسام من باريس ومعه حقيبتان صغيرتان فقط، ظننت أن بقية أمتعته كانت في التخزين، وستُنقَل ما إن يستقر. لكن لم يكن هناك شيء آخر. كانت محتويات تلك الحقيبتين كلَّ ما ملك. إحداهما حملت كتبًا والأخرى ثيابًا. كانت طريقته تقضي بأنه خيرٌ له أن يمتلك ثيابًا قليلةً حسنةَ الصنع من أن يضطر إلى استبدالها باستمرار. أصبحتُ بحلول ذلك الوقت على دراية بملابسه، وأكَّد على أنه لا جدوى من اقتناء كتاب ما لم ينوِ المرء قراءته مرات عديدة.

قال: «وفي هذه الحال، تكون طبعة ممتازة. لكن أن يكون هناك عدد لا يحصى من الكتب على الرف فقط لأن المرء قرأها أو قد يقرؤها يومًا، فهذا أمر سخيف. ثم، هل هناك شيء أكثر كآبة من حائط كتب؟ لكنك، يا عزيزي، لا توافقني. مثل مونتين، تعتقد أن وجود الكتب في غرفتك فحسب يثقِّفك، أن غاية الكتب ليست القراءة فقط بل أن يُعاش معها أيضًا».

كان كلما زارني في الطابق العلوي ووقعت عيناه على حائط كتبي، عَبَرَ وجهه شيءٌ يشبه البهجة والأسف، كأن

ما وجده - في سريرته - مزعجًا لم يكن منظر عدد كبير من الكتب، بل الاستقرار الذي يفترضه اقتناء كهذا. القراءة تستدعي أن يكون المرء ساكنًا. كذلك الكتابة.

استعار كتبًا مني، ومن المكتبة العامة، وأحيانًا سِرًّا من متاجر بيع الكتب، مختلِسًا إيَّاها، فيقرؤها بحذر، حريصًا على ألَّا يجعِّد كعوب الكتب أو يترك أي علامات، ثم يعيدها دون أن يلاحظه أحد.

حينما صارحني بهذا أول مرة قال: «أحب الفكرة، أن يُقرَأ كتاب جديد دون أن يعرف مقتنيه القادم ذلك أبدًا. سِرٌّ بيني وبين الصفحات فقط».

بخلاف هذا، قلَّما تجاوز حدود الثلاثين كتابًا أو نحو ذلك التي كان يمتلكها. شعرت بأن هذا لم يكن فقط بدافع الرغبة في أن يكون مقتصِدًا، أن يبقى خفيفًا، أن يكون قادرًا على الانتقال في أي لحظة، بل أيضًا الرغبة في أن يقيم - إنْ لم يتجذَّر في مكان مادي - على نحوٍ مستمر في منطقة أدبية ما، بأحيائها المألوفة، بسطورها المحبوبة شبه المنسيَّة، وأن يعرف، على مدى حياته، قدر الإمكان عن كتب قليلة، حتى تصبح كأنها وطنه الأم.

وراء أحاديثنا عن الأدب دائمًا ما كانت تكمن أمنيتي في أن يكتب مرة أخرى. اقترحت عليه أن يؤلِّف كتابًا عن عادته في إعادة قراءة الكتب.

قلت: «نوع من المذكرات التي تدوِّن فيها أفكارك وكيف تتغيَّر بمرور الزمن. سِجِلّ قراءات متأنية لكاتب».

لم يكن بمقدوري تفادي ذلك. لم أستطع إلَّا الإيمان بأنه، في جوهره، كاتب. في كثير من الأحيان كنت أسمع صوتي مبطَّنًا بالتشجيع والعتاب. كان يسمعه هو أيضًا. كلما تقاربنا زادت صعوبة إخفاء مثل هذه الأشواق.

٧٥

ساد الليل حولي. أخيرًا أغادر ساحة سانت جيمس. لا نعمة ولا لعنة. دع أماكنك الأخرى كلَّها تذهب. لندن هي حيث أنت.

أصل إلى هايد بارك. إنها التاسعة مساء. غاب الشفق. الليلة غير المقمرة سوداء. لا يعكِّرها إلا بريق منعكس، يمكِّن من تمييز أشكال هياكل الأشجار الضخمة العارية من الأوراق. لم أكفَّ قطُّ عن الخوف من الظلام. كل ما في الأمر أنني صرتُ أقدَرَ على تحمُّله. كلما توغَّلت في الحديقة أمست المدينة أقلَّ وضوحًا. أصواتها ممتدة وخافتة في البعيد. الهواء هنا رطبٌ وساكنٌ وأسود كسواد مِحْبَرَة.

انتقل حسام إلى لندن وصرنا جارَين في عام ١٩٩٦. حتى ذلك الحين، كنت قد عشتُ في الشقة نفسها اثنيْ عشر عامًا، أمَّا هو فمنذ مغادرته بنغازي كان قد تنقَّل بين نحو ست مدن. بعد تخرُّجه في كلية ترينيتي بدبلن، قصد لندن وكتب مجموعة القصص القصيرة، زائرًا إيرلندا من حين لآخر ليرى كلير. ثم بعد نشر كتابه بوقت قصير، وتمامًا عندما كنت أبدأ حياتي الجديدة وغير الأكيدة في لندن، قام بمحاولات عديدة لبدء حياة في مكان

آخر، ودائمًا، مثلما قال، «بنية صادقة في الاستقرار إلى الأبد». جرَّب برشلونة، تعلَّم الإسبانية والكتالونية، ثم، لمَّا كان يجيد الإيطالية لأنه تعلَّمها وهو صغير في ليبيا، انتقل إلى نابولي. بعد عام أو عامين، توجَّه شمالًا إلى ميلانو، ليعود بعد ذلك إلى نابولي. ثم ذهب للعيش مع كلير في دبلن قبل أن ينتقل في النهاية إلى لندن مرة أخرى. بعد ذلك بمدة قصيرة، ذهب إلى باريس. قال إن هذه كانت أنجح محاولاته لأنه تمكَّن من البقاء هناك أربعة أعوام، إلى أن التقينا أنا وهو. ظلَّ الدافع وراء كل انتقالٍ من تلك الانتقالات غامضًا.

هذا كلُّه جعل حياته هنا تبدو كأنها توقُّف مؤقَّت. كثيرًا ما كنا نذهب إلى حانته المفضَّلة في سوهو؛ فرنش هاوس. ذات ليلة شربنا وأكلنا ثم شربنا مرة أخرى. أخذ حسام يُحدِّث الجالسين إلى الطاولة المجاورة وروى قصة. لا أتذكر أكثرها، إلا أنني أتذكر وجوه أولئك الغرباء، اهتمامهم الراضخ وبهجتهم. وأتذكر وجه حسام كذلك، مستمتعًا بقوة سرده للحكايات. وأتذكر أنني فكَّرتُ: هذا ما يحدث عندما يتوقف كاتبٌ عن الكتابة. حاولت طرد هذه الفكرة بالابتسام، لكني أعتقد أنه قرأها على وجهي. توقَّف جزءًا من الثانية قبل أن يستمر، لكنه فعل ذلك بحماسة أقل.

انتهى بنا المطاف بالذهاب إلى البيت خلال هايد بارك، على الطريق نفسه الذي أسلكه الآن ويتبع بحيرة سيربنتين. كانت تلك الليلة شديدة البرودة، ولمَّا أحاط بنا الليل أكثر فأكثر شرع يتكلَّم.

بدا صوته مختلفًا، وحال الظلام دون قراءة وجهه. بدأ يتكلَّم عن وجود تناقض، هُوَّة تتسع ولا يمكن ردمها، بين حقيقة أنه ما عاد كاتبًا وبين الأفكار التي لا تنفكُّ تخطر له لكتابة أعمال جديدة.

قال: «تأتي وتحوم كخفافيش».

قلت: «أعتقد أنك لو أمعنت النظر لوجدت أنها طيور أبي الحناء».

«ربما»، وبدا فخورًا قليلًا.

وهكذا، قررت أن أستمر. «من الخطر تجاهل مثل هذه الهِبَات».

«ربما»، قال مرة أخرى. «لكنني لم أكن كاتبًا إلا مرةً واحدة. ذلك انتهى منذ زمن بعيد. يجب أن أرضى بالقدر».

قلت: «لكنَّ هذه الأفكار قدرك أيضًا. لهذا اشتُقَّ اسمُ الموهبة من الهِبَة. لستَ إلا وصيًّا».

«أرفض ذلك»، قال ولم يتكلَّم بعد هذا.

بدلًا من ذلك، أصغينا إلى صمت الليل المتكثِّف حولنا.

الآن وقد أصبح يسكن الشقة السُّفليَّة، بدأ يفعل ما ظننت أنه كان يفعله في تلك المدن الأخرى التي عاش فيها، منتقلًا من وظيفة يؤديها مُكْرَهًا إلى أخرى. كان يجد عملًا في متجر بيع كتب أو يعمل نادلًا في مطعم ليخرج منه بعد أشهر قليلة فقط، غالبًا دون أن يقدِّم أي توضيح لربِّ عمله. في أكثر من مناسبة، تحدَّث عن العودة إلى باريس أو نابولي. فكَّر أيضًا في أماكن جديدة، حيث المعيشة كانت أرخص: لشبونة، تريستي، باليرمو،

فاليتا. حين سألته قال، لا، لم يكن يعرف أحدًا في تلك الأماكن. كان يتنقَّل في عقله من مدينة إلى أخرى، مستعيرًا كتبًا عن كلٍّ منها، بدت له الحياة فكرة أكثر من واقع.

اطمأننتُ قليلًا عندما زرته ووجدت خارطة جديدة لغرب لندن مثبَّتة على حائط المطبخ. امتدت من شيبردز بُش إلى رويال ألبرت هول. كان قد علَّم مواقع عديدة عليها بعلامة X سوداء، ومستعملًا قلم ماركر أحمر كتب الحروف الأولى لأسماء إلى جانب كل موقع: ف و، ف م ف، ج ك، ع ب، تي إس إي، ر ل س، وهكذا. لمَّا رآني أعاينها قال: «لأنَّ أولئك الذين يُفْقَدون في البحر يجب أن ينظروا إلى النجوم». أدهشني أن كثيرًا من الكُتَّاب الذين قرأناهم وأُعجِبنا بهم قد عاشوا ذات يوم قريبًا جدًّا من حيث كنَّا. هذه الحقيقة أبهجت حسام أيضًا.

قال: «فلنزرهم جميعًا».

«ف و» كانت فرجينيا وُلْف. اتفقنا أن نقصد بيتها أولًا.

قال مُقَدِّرًا: «إنه على بعد أكثر من ميلين فقط من بابنا الأمامي». وقفنا أمام المبنى الأبيض في شارع هايد بارك جيت. هنا حيث وُلِدَت وُلْف وعاشت العقدين الأوَّلين من حياتها، اللذين حرص حسام على الإشارة إلى أنهما كانا «ثلث المدة التي عاشتها على هذه الأرض». تسكَّعنا على سلالم المبنى، كأن هناك من ينتظرنا، ثم مشينا الأقدام القليلة إلى هايد بارك وحاولنا أن نخمِّن من أي بوابة كانت تدخل.

لم يكن مثل هذا الحج إلى بيوت الكُتَّاب والكاتبات يثير اهتمامي قطّ، غير أنه كان من المستحيل ألَّا أُفتَتَن بالحقيقة العملية المتمثلة في أنَّ وُلْف عاشت هنا يومًا، ودخلت إلى العالم خارجةً من هذا الباب عينه وانسحبت منزويةً وراءه. لقد جعل هذا الواقع كتبها أكثر إعجازًا، لأنها تمكّنت من الوجود في عالم مليء بالتغيُّرات المتنوِّعة، حيث بخطوة خاطئة واحدة يمكن أن يتغيَّر كل شيء. بدأتُ أجد في الأمر تحصينًا أيضًا، في أن أتتبَّع دروب هؤلاء النساء والرجال الذين ماتوا منذ زمن بعيد، الذين شعرتُ معهن ومعهم بألفة حميمة بطرق قلَّما شعرت بها مع أشخاص أحياء. في شارع كامبدن هِل رود، الذي يبعد ميلًا ونصف ميل، عاش ذات يوم فورد مادوكس فورد. وقفنا في الخارج على الرصيف المقابل وتصوَّرنا دي إتش لورنس يصل دون ميعاد، كما تقول القصة، ويتمكَّن بطريقةٍ ما من الدخول كلص.

عاش جوزيف كونراد عامًا أو عامين في مكانٍ قريب. لم تكن هذه مصادفة، فقد كان هو وفورد صديقين حميمين. مشينا بين البيتين وتخيَّلناهما يتزاوران.

عاش عزرا باوند في منزل رقم ١٠ بشارع كنسنجتن تشيرش ووك الذي يبعد نحو ١,٧ ميلا عن شارعنا، في كوخ صغير أسفل الطريق المسدود الهادئ. حاكى كلانا فتح سحَّابيْ بنطالينا والتَّبوُّل أمام باب بيته مباشرة. بعد أيام قليلة، عدنا إلى باوند ومشينا ثلث ميل أو نحو ذلك شرقًا إلى منزل رقم ٣ بشارع كنسنجتن كورت جاردنز

حيث عاش تي إس إليوت. الاثنان كانا صديقين أيضًا. حاولنا تخيُّلهما يمشيان جيئة وذهابًا، لكنَّ الأمر كان أقل متعة، لأن كلينا لم يستطع أن يغفر لباوند إعجابه بموسوليني.

عاش هنري جيمس ما يقرب من اثنيْ عشر عامًا في منزل رقم ٣٤ دي فير جاردنز الذي يبعد ميلين، على مرمى حجر من سكن وُلْف وإليوت. لكنَّ الأكثر إثارة من ذلك كلِّه، إلى جوارنا مباشرةً في شيبردز بُش - «قريبًا جدًّا»، قال حسام، «حتى إننا لو ناديناه باسمه من نافذة مطبخك لَسَمِعَنَا» - كان روبرت لويس ستفنسن بعينه، الكاتب الأحبّ إليَّ وإلى حسام. وقفنا أمام ما ظنَّه حسام باب بيته. لم تكن هناك لافتة، لكنه أصرَّ على أن هذا كان بيته.

قلت: «ينبغي أن نزور الأحياء».

بدا حسام حائرًا. قال: «من؟».

«لا أعرف. المرأة التي تدير المخبز في آخر الشارع. أي أحد، أي أحد حيّ. الكُتّاب أيضًا. الطيب صالح مثلًا يعيش في لندن. لِمَ لا نزوره، ونحمل له زهورًا وخبزًا؟»

أدركت وأنا أتحدَّث أنني كنت، مرةً أخرى، أحاول أن أقول له إن عليه أن يكتب، أن يكفَّ عنه هذه الرومانسية التاريخية ويجدَّ في العمل. كان العالم يحترق.

قلت: «أتعلم مثلًا أن بورخس لم يكن يحب رحلات الحج هذه، عدَّها عقيمة، واعتقد أنها تحقِّق عكس هدفها تمامًا».

بدا مثقل الكاهل مرة أخرى. قال: «على كل حال، انتهينا تقريبًا».

شيءٌ ما في الطريقة التي قال بها ذلك أثار قلقي. كان عندئذٍ أن ذكر الكاتب الأخير. لقد نظَّم زياراتنا من الأبعد إلى الأقرب، مثل شبكة تُشَدّ أو حبل مشنقة يضيق. كان الأقرب والأخير دامبودزو ماريتشيرا، الإفريقي مثلنا، المؤلف الذي صادفتُ كتابه في المكتبة خلال أيامي الأولى هنا، وقد جذبتني إليه تعابيرُ وجهه الشاب في الصورة التي بالأسود والأبيض، وأربكتني أيضًا. عَلِمَ حسام، من خلال بحثه، أن ماريتشيرا بعد ترعرعه في أحياء هراري الفقيرة، وفوزه بأعجوبة بمنحة دراسية في جامعة أكسفورد، ثم ثورته على الجامعة وتسكُّعه في الشوارع، انتهى به الأمر إلى النوم في العراء في شيبردز بُش. كان حسام واثقًا تمامًا من المكان الذي أقام عليه الكاتب بيته المؤقت على الرصيف. كان خارج محطة مترو الأنفاق المحلية مباشرةً، عند المدخل القديم. أصرَّ على أن نذهب إلى هناك. تريَّث في الشارع المقابل هنيهةً. ثم عبرنا في اللحظة الخطأ وكان علينا أن نركض.

قال: «ينبغي أن نجلس على الأرض حيث جلس».

حاولت أن أضحك، لكنه كان جادًا، جادًا أكثر مما رأيته من قبل. صعقتني برودة الرصيف، كأن كل شيء صلب وبارد في العالم قد تسرَّب إلى هناك. استدرتُ حتّى كأنني أقعد على خصري. صفوفٌ وصفوفٌ من الأقدام كانت تضرب الأرض أمامنا. حاولت أن أبدو مستمتعًا. لكنني حين التفتُ تاليًا إلى حسام رأيت عينيه ممتلئتين بالدموع.

٧٦

بدلًا من أن تكون خارطةُ كُتَّابِ حسام مجرَّةً من نجومٍ يهتدي بها، استحالت مَسْحًا لحالة عدم الاستقرار المتأصِّلة في لندن. مات لورنس في نيو مكسيكو. بقيَ كونراد بلا جذور إلى النهاية، حتى إنه ندم على إنجاب طفل في إنجلترا، حيث لم يكن له أقارب. وَجْهُ إليوت قال كل شيء؛ «حساسيةٌ لم تكن حُرَّة إلَّا في الداخل، أمَّا كل الأشكال الخارجية فكان لا بدَّ من السيطرة عليها بصرامة». حتى فورد، «على ثقته بالحاضرة الإنجليزية، كان عليه أن يخرج في النهاية». كان حسام موقنًا بأن حتى ذلك الأصيل الأخير، عندما حَشَتْ وُلْف جيوبَ معطفها بالحجارة ومشت إلى نهر أُوز، كان دليلًا على إخفاق لندن في أن تكون مأوى رفيقًا لأي شخص لم يكن جزءًا مما سمَّاه هو «الأرثوذكسية». ليخبرني بما كان يقصد قال إنه سيحتاج إلى استعارة روايات جِين رِيس التي كانت بحوزتي. بعد بضعة أيام عاد وبدا في غاية الحماسة. حاملًا بيده «بعد ترك السيد ماكِنزي»، قرأ السطور التي تصف خواطر جوليا مارتن، وهي الراغبة بشدَّة في بناء حياة لها في لندن، حيث

تفكِّر: «هذا المكان يقول لك طوال الوقت: اكسب المال، اكسب المال، اكسب المال، وإلَّا فلتكن ملعونًا إلى الأبد»، تمامًا مثلما تقول لك باريس: «اِنسَ، انسَ، أطلق لنفسك العنان».

أعتقد أني عندما أنظر إلى الوراء أجد أن العلامات كلها كانت هناك، أن أفضل ما استطعت تمنِّيه هو أن يعيش صديقي قريبًا مني ما دام ممكنًا له أن يبقى في مكان واحد، أنني لا أستطيع أبدًا أن أعدَّ صحبته أمرًا من المسلَّمات. إضافة إلى ذلك، فإن المكان الذي يختاره المغترب ليعيش فيه يختاره حتمًا كيفما اتفق.

بدأ يرى كلير أكثر فأكثر. كانت مفيدة له، فقد خفَّفت من شعوره بعدم الاستقرار. بيتها في شمال لندن كان بحاجةٍ إلى إجراء أعمال صيانة. انتقلت معه في الشقة السفلية بينما أُجريت الصيانة. في الليل، كان ضوء شقتهما يتسلَّل بين بعض الشقوق في ألواح الأرضية، وغالبًا ما كنت أخلد إلى النوم على صوتيهما الهامسين برفق. إحساسي بالاكتمال بفضل عيش حسام في الطابق السفلي تضاعف بوجود كلير هناك أيضًا. ومع ذلك، طوال الوقت لازمني إحساسٌ بأن الأرض كانت تتحرَّك تحتي. بعد بضعة أشهر، عندما أصبح بيت كلير جاهزًا، أخبرني حسام بما كنت أشكُّ فيه، وهو أنه سينتقل معها. كان قد سلَّم المالك إشعارًا بذلك. كنت مجروحًا وغاضبًا ومحرجًا لأني كنت مجروحًا وغاضبًا ولذلك أخفيت تلك المشاعر، وحاولت تفسير حزني في ضوء سرعة الخبر غير المتوقع.

قلت: «كان بإمكانك أن تخبرني من قبل».

عانقني وقال: «أنت طيب دائمًا وأنا أحبك لذلك. أينما كنتُ ستكون جاري دائمًا».

لمَّا اقترب الموعد، بـدأ يتوتر. حَسَبَ المسافة من شيبردز بُش إلى كينتيش تاون بمحطات المترو، ثم بعدد الدقائق التي ستستغرقها الحافلة، ولأنني بدأت بركوب الدراجة إلى العمل، حدَّد أيضًا أفضل طريق لقطع الأميال الستة بالدراجة.

يومَ انتقاله وكلير، تغيَّر البيت وحتى الشارع. بل تغيَّرت أيضًا شيبردز بُش ولندن بأكملهما. عندما وقفتُ عند نافذة مطبخي، حاولت ألا أنظر إلى الأسفل، إلى ما كان من قبلُ حديقتهما.

كان بيت كلير جميلًا، الأرضية مصنوعة من ألواح خشب قُطِعت حديثًا وقد اتسقت اتساقًا تامًّا. كانت تملك البيت، ولم يكن هناك أحد فوقه ولا تحته. قال لي حسام إنها أرادت أطفالًا.

أصبحنا أنا وهو نلتقي في وسط المدينة في حانة فرنش هاوس. أحيانًا كنت آخذه للتفرُّج على مسرحية. سكن مصطفى في الشمال كذلك، ولذا كنا نلتقي بعض الأحيان في بيته، لكنني لم أستمتع بتلك الأماسي كثيرًا. كنت واثقًا أن صديقيَّ مثَّلا جزأين منفصلين ومتناقضين من حياتي عليَّ أن أحفظ التوازن بينهما بطريقة ما، وأنهما ما كانا ليلتقيا أبدًا لو لم يكن لقاؤهما لأجلي. لكن الزمن سيثبت خطئي. عندما التقيا في ساحة المعركة في ليبيا، أصبحا متقاربين أكثر من قربي إلى أي واحد منهما.

٧٧

انقضت الأعوام واستقر كل واحد منَّا في حياته استقرارًا أعمق. الصورة التي كانت كثيرًا ما تخطر بالبال هي صورة أثاث خارجي يغوص في الأرض. صار واضحًا وقتها أن النظام الليبي قد انتصر. لم تكن هناك معارضة جادة يمكن الحديث عنها، وثبتت أركان الدكتاتورية على نحو لم تعهده من قبل. ما عادت بحاجة إلى اغتيال منتقديها ولا إلى اختطافهم، لأن مثل هذه الأساليب، من وجهة نظرها، قد حققت غرضها فعلًا. أصبح مصطفى مدير وكالة عقارية محلية، وعمل حسام كاتب مراجعاتٍ أدبية في صحيفة عربية مقرها لندن، ناشرًا كتاباته باسمه الحقيقي. لأول مرة منذ عمله في الفندق بباريس أصبح يحصل على مرتَّب سنويّ مع عُطَلٍ مدفوعة الأجر ومعاشٍ تقاعديّ. كان العمل خفيفًا واستطاعَ تأديته في البيت. لم ينجب هو وكلير أطفالًا، إلَّا أن حياتهما معًا بدت جيدة ومُحِبَّة، على الأقل كما يبدو في الظاهر، لأنه أصبح الآن لا يكاد يفصح عن أي تفاصيل خاصة أبدًا. كثيرًا ما كانا يذهبان إلى دفِن، لم يعرفا أحدًا فيها لكنهما أحبَّا المشي في التلال، والسباحة عاريين في نهر دارت حتى في عزِّ الشتاء.

كنا نمازحهما في هذا، فنقول إن مزاج كلير الأوروبي الشمالي قد غلب روحه المتوسطية.

قالت كلير: «سأختار الروح المتوسطية، شكرًا جزيلًا لكما. إنه صديقكما من يصرُّ دائمًا على تلك الغطسات الثلجية».

ذات يوم من أيام السبت، دعوتهم جميعًا للعشاء. أردت أخيرًا أن أعرِّفهم إلى هانا. قرَّرتُ أن أُعِدَّ الكُسْكُسي وجاءت هانا في وقت مبكِّر لتساعدني. صار الطبق شديد التعقيد وارتكبتُ أخطاء عديدة. عندما رأت هانا مدى ارتباكي اقترحت أن نطلب بدلًا من ذلك أكلًا هنديًا، وقالت إنها تعرف مطعمًا جيدًا. رتَّبنا المطبخ، وحين وصل الأكل وزَّعناه في أطباق ثم وضعناه في الفرن ليبقى دافئًا. حينها فقط أصبحت هانا متوترة قليلًا. جلست ونظرت إليَّ. سكبتُ لنا شرابًا وبعد بضع دقائق رنَّ جرس الباب: مصطفى وحسام وكلير، وصلوا جميعهم معًا. اشترى مصطفى هدية لهانا. فاجأني هذا، فاجأتني أيضًا عنايته في الاختيار. كتاب مقالات لروبرت هاس.

قال: «أذكر أن خالد قال لي إنك تحبين هذا الكاتب».

قلت: «كان ذلك منذ سنوات».

ابتسم لي بعينين حانيتين. قال: أتذكَّر»، ثم قال لهانا: «أرجو ألا تكوني قد اقتنيته من قبل».

تأثَّرت هانا بوضوح. مالت وقبَّلت خدَّيه.

في لحظة من اللحظات في المساء، جلس مصطفى وحسام إلى جانبَيْ هانا وشرعا يختبرانها.

«خبِّرينا الحقيقة عن صاحبنا».

«لماذا أخفاكِ عنَّا طوال هذا الوقت؟».

«إذا ضايقك، تعالَي إلينا فورًا».

قالت لها كلير ألا تعيرهما اهتمامًا، وإن كل واحد منَّا ـ نحن الثلاثة ـ مجنون بالقَدْر نفسه.

كان الطعام شهيًّا جدًّا وحارًّا جدًّا، حتى إننا جميعًا لم نستطع التوقف عن الأكل والتَّعرُّق. بعد ذلك تحوَّل الحديث إلى الأدب، وحتى مصطفى بدا مستمتعًا به. كان واضحًا أن هانا استمتعت بوقتها. بعد مغادرتهم، ظلَّت تقول وتكرِّر أنهم كانوا لطيفين. امتلأت نشاطًا، ولم ترغب في المغادرة. عندما احتضنتها في السرير، شعرت بأني شاكرٌ لها وشاكرٌ لأصدقائي.

٧٨

تعوّدت أنا وحسام ومصطفى عادةً رائقة تمثَّلت في اللقاء مساءَ أول جمعة من كل شهر في كافيه سيرانو، المطعم الفرنسي الواقع في شارع هولاند بارك. في أماسي الصيف الدافئة، كنا نجلس حول إحدى الطاولات الصغيرة الموضوعة على الرصيف ونحاول رفع أصواتنا لتكون مسموعة وسط حركة المرور في ساعة الذروة. أمَّا بقيَّة السنة فكنَّا نتشارك إحدى الحجيرات داخل المقهى ونقضي ساعة أو ساعتين قبل أن يقف حسام ويعلن، بالإنجليزية دائمًا: «Must be off (يجب أن أنصرف)»، بنبرة لا تسمح بالمقاومة. في بعض الأحيان، كانت كلير تنضم إلينا، وأحيانًا أخرى هانا أيضًا، لكن في العادة كنا نحن الثلاثة فقط، مما أتاح لنا التحدث بالعربية. كان ذلك في إبريل عام ٢٠١٠.

قال حسام: «هذا الأحد هو الذكرى الثلاثون لاغتيال محمد مصطفى رمضان».

سأل مصطفى: «هل صحيح أنكما كنتما صديقين؟».

قلت: «ثلاثون عامًا مرَّت؟».

«١١ إبريل»، قال حسام ونظر إليَّ كأنني نسيت شيئًا أو أهملته.

سأل مصطفى مرة أخرى: «هل صحيح أنه كانت بينكما معرفة؟».

في المرة التالية عندما التقينا، في مايو، كان حسام متحمسًا.

«لأنكما لستما مهتمين، قررتُ أن أُحيي الذكرى وحدي»، قال، وحين أدرك أننا لم نعرف ما كان يقصد، أوضح بحماسة وجدتها مزعجة، أنه بعد لقائنا آخر مرة بيومين، في اليوم نفسه والساعة نفسها تقريبًا التي أُطلِقَت فيها النار على محمد مصطفى رمضان، ذهب حسام إلى جامع ريجنتس بارك ووقف في الباحة، في مسرح الجريمة.

سأل مصطفى: «وماذا فعلت؟».

قال حسام: «لا شيء. أحضرتُ بعض قصاصات صُحُف وحدَّدتُ البقعة التي سقط فيها».

قال مصطفى: «ربما ستكتب كتابًا».

لم يُجِب حسام، لكن لم يبدُ عليه شيء من الضيق الذي كان ينتابه عادة كلما أُثير موضوع كتابته.

في الأيام التالية حاولت مرات عديدة الاتصال بحسام. عندما ردَّ أخيرًا، بدا صوته مشتَّتًا، وقال إنه مشغول جدًّا لكنه يتطلَّع إلى موعدنا القادم. انتظرتُ تلك الجمعة الأولى من يونيو. طيلة الوقت كان هناك ظلٌّ من التَّوجُّس ينمو في قلبي. بطريقةٍ ما أحسستُ بأن شيئًا ما كان يحدث معه. عندما جاء يوم لقائنا، وصلت مبكرًا إلى كافيه سيرانو. جاء مصطفى في الوقت المحدد. لكن حسام،

الذي كان دائمًا الدقيق في المواعيد، تأخر ساعة تقريبًا. لا أدري ما الذي جعلني أفعل ذلك، لكني، ونحن ننتظر، وجدتُ نفسي أخبر مصطفى بشيء لم أكشفه له من قبل، وكنت قد أخفيته خشية أن يجعله ذلك يتحامل على حسام. أخبرته أن حسام أيضًا كان هناك في المظاهرة. سألني منذ متى أعرف هذا.

قلت: «منذ باريس».

قال: «هذا يجعل تلك المقابلة مع البي بي سي أكثر إثارة للحسرة».

وافقته، رغم اختلافي مع كلامه. كنت أعرف أنني أخون حسام ولم أستطع فهم السبب.

عندما دخل حسام كان مشتَّتًا، ووقف بضع ثوانٍ إلى جانبنا ليقرأ رسالة نصية في هاتفه. حينها فقط رفع بصره واعتذر عن تأخره. كان، مرة أخرى، على تلك الحال نفسها من الحماسة.

«عندي الكثير لأقوله لكما»، قال وهو يلوِّح للنادل. «حصلت على تقرير الشرطة»، قال، ومرة أخرى، لما رآنا في حيرة من أمرنا فيما كان يقصد، قال: «بخصوص جريمة القتل. قتل محمد. مدهش ما يمكنك العثور عليه هذه الأيام في الإنترنت».

«ينبغي أن تؤلف كتابًا عن هذا». اقترح مصطفى مرة أخرى.

لم يكد هذا يوقف حسام. أخرج مفكِّرة صغيرة، وبتلك الحماسة نفسها التي رأيتها فيه من قبل، قال: «الرجلان اللذان أطلقا النار على محمد كانا نجيب القاسمي البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا، وبالحسن المصري البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا.

أتخيَّل أن أكبرهما كان هو الذي قاد التخطيط. حتى لا يثيرا الشكوك، وصل الرجلان في رحلتين منفصلتين من طرابلس. استأجر نجيب القاسمي شقة في برنسِس كورت بشارع كوينزوَي. ذهبت إلى هناك ورفعت ناظري إلى النافذة».

«لماذا فعلتَ ذلك؟» سأله مصطفى باستغراب حقيقي.

«لِمَ لا؟» قال حسام، وتبسَّم بتسامح، مثل خبير يتحمَّل لا مبالاة رجلٍ عادي.

تابع قائلًا: «اكتشفت أيضًا نوع المسدس الذي حمله نجيب القاسمي إلى الجامع. عيار ٣٨ من تشارتر آرمز، مسدس بأسطوانة دوَّارة خاص. الرقم يشير إلى حجم الرصاص: بطول ٣٨ ملم. بحجم المفصل الأول لإبهامك. مسدس أمريكي، صغير بما يكفي لإخفائه في جيب بنطال جينز. تخيلت نجيب القاسمي في ذلك الصباح وهو يأخذ حفنة رصاص إضافية ويدسُّها في الجيب الآخر لتتدافع هناك هي والعملات المعدنية من اليوم السابق».

وصلت كؤوس البيرة، ورشف رشفتين سريعتين. أذكر أنني فكَّرت أنه امتلك الحماسة المشروعة التي يتسم بها مَن ينخرط في عمل إبداعي، كأن الصورة التي رسمها منحته إمكان تجاوز الواقع عينه.

استأنف قائلًا: «بالحسن المصري ذو الثمانية والعشرين عامًا عاش في كورنول جاردنز بجنوب كِنسنجتن. ساحة جميلة في وسطها أرض معشبة بديعة».

قال مصطفى: «ينبغي أن تأتي لتعمل معنا».

أضحكني هذا القول، فضحك مصطفى أكثر.

قال: «يمكننا توظيف كاتب في المكتب».

بدا حسام مدهوشًا قليلًا، وظهر ذلك في مسحة حرج على وجهه. أذكر لمَّا فكرت في نفسي: لا توقفه، دعه يستمر.

واصل حديثه قائلًا: «كل الشقق المحيطة لها مفاتيح لتدخل إلى الأرض المعشبة. الأطفال يلعبون هناك في الأصيل».

قال مصطفى: «لا تقل إنك ذهبت إلى هناك أيضًا».

«ذهبت»، قال حسام ونظر إليَّ نظرة بريئة صادقة.

ما أذكره بعد ذلك هو الصمت الذي غشينا وامتد عندما كان حسام ينظر في مفكِّرته ثانيةً. حتى مصطفى بدا قلقًا قليلًا. لقد استبدل حسام زيارةَ، مواقع عنفٍ سياسي بزيارة منازل الكُتَّاب الذين أُعجِبَ بهم. فكَّرت أن هذا سيمر، وشعرت بحنين جارف إلى تلك الأوقات، إلى قراءتنا المتكررة لكونراد وَوُلْف وإليوت، معًا أو بالتوازي، وهو أكثر تقارب يمكن أن يصل إليه شخصان. ندمتُ على عدم انتباهي عندما أشار إلى ذكرى اغتيال محمد مصطفى رمضان أول مرة. كان ينبغي أن أذهب معه إلى الجامع. أحيانًا ما زلت أعتقد أن ذلك كان يمكن أن يغيِّر مجرى الأمور.

«كان عند بالحسن المصري مسدس مختلف»، استأنف القول وهو يراجع مفكِّرته. «مسدس رِكْ ألماني، وهو أيضًا صغير

الحجم على نحو ملائم. رصاصه أقصر طولًا، ٢٢ مم، تقريبًا بحجم حبات حلوى البولو بالنعناع».

استند مصطفى بمرفقيه على الطاولة ومال نحو حسام.

«لا يوجد دليل»، قال حسام، موجِّهًا كلامه إلى مصطفى الآن، «على أن نجيب أو بالحسن قد فعل أيّ منهما شيئًا كهذا من قبل».

ثم نظر إلى الساعة، وتعذَّر بحجةٍ ما لاضطراره إلى الانصراف، وضع نقودًا على الطاولة وذهب. أذكر أن أكثر ما أزعجني لم يكن سماعه يتحدَّث عن القاتلين بذكر اسميهما الأولين فحسب، بل أيضًا لأنه فعل ذلك بنبرةٍ جعلتهما يبدوان كأنهما كانا صديقين لنا.

٧٩

في الشهر التالي، جاءت كلير إلى المطعم مع حسام. انساب الحديث بيُسْر، مع أن حسام لم يكد يتكلَّم.

ثم لمَّا حلَّ الصمت قال: «أتعرفون يا رفاق صحفيًّا ليبيًّا يُدعى محمود بن نافع؟».

لم يعرفه أيٌّ منَّا.

قال حسام: «عاش هنا. كتب متسترًا بأسماء وهمية كثيرة. كان العثور على مقالاته عملًا شاقًّا»، قال والتفت إلى كلير فابتسمت له تبسُّمًا لطيفًا. قال لها: «بعد أسبوعين بالضبط من اغتيال محمد في الجامع أُطلِقَت النار على محمود بن نافع أيضًا، عند عتبة باب مكتبه في لندن».

«هل ذهبت إلى هناك أيضًا؟» قال مصطفى بابتسام متكلّف غامض.

هزَّ حسام رأسه على نحو غير مقنع، وكلير ما زالت تنظر إليه.

سألتُ: «ما كان نوع المقالات؟».

قال مسرورًا بالسؤال: «فظيعة. تعرف، الموضوعات المعهودة، الدعوة إلى التَّحرُّر، ضد القذافي، لكنها كُتِبت كتابة سيئة».

قال مصطفى وضحك: «طيب، لا بأس، إذًا». وقال لكلير: «لن أتعجَّب إذا اعتقد هذان الاثنان، بأفكارهما الرفيعة في جماليات الأدب، أن المرء يستحق الموت بسبب جملة سيئة».

تظاهرتُ بمشاركته مزاحه، أمسكتْ بيد حسام وقالتْ وفي عينيها فرح صادق: «سنذهب إلى دفِن الأسبوع القادم».

سألها حسام: «حقًّا؟».

«نعم»، قالت له، متعجبة من نسيانه.

بعد افتراقنا ذلك المساء، أرسلتُ إلى حسام رسالة نصية أسأله إذا كنت أستطيع مقابلته وحده قبل مغادرتهما البلدة. ردَّ من فوره قائلًا إنه يودُّ ذلك، فحدَّدنا موعدًا ليزورني ذات مساء. طهوت عشاء، وعندما دخل قال إنه اشتاق إلى شيبردز بُش كثيرًا، وإنه تملَّكته عاطفة شديدة وهو يسير إلى هنا قادمًا من المحطة. سكبتُ له نبيذًا في كأس وسألته عمَّا كان يفعل.

قال: «لا شيء».

«هل اكتشفت مزيدًا من جرائم القتل؟» قلت وكنت شبه متوقِّع أن يضحك، غير أنه بدا سعيدًا بدعوته إلى الحديث عن الموضوع.

قال: «أجل، أجل. إنه بحث لا ينتهي ولندن بئر بلا قرار. مدينة دمٍ ونار».

كنت على حق حين اعتقدت أنه يثق بي، وأنه في غياب سخرية مصطفى يمكنه أن يكون على سجيته بِحُرِّيَّة.

قلت وقلبي يخفق بقوة: «يجب أن أخبرك بأنني قلت لمصطفى إنك كنت في المظاهرة. إني آسف جدًا».

قال: «لا تكن أحمق. ولِمَ لا تخبره؟ هو صديقنا».

ملأت كأسينا، جلست قبالته وطلبت منه أن يخبرني بكل ما اكتشف.

قال: «حسنًا، في يناير عام ١٩٨٠...».

« متى كان ذلك؟» قلت مقاطعًا. «قبل ثلاثة أشهر من تعرّض محمد مصطفى رمضان...».

قال: «بالضبط».

تابعت: «وقبل شهرين من سماعي له يقرأ قصتك في المذياع».

قال: «نعم. في ذلك الشهر، نزل بفندق ماونت رويال في شارع ماربل آرتش طالبٌ لبناني يدعى حسن إلياس بدير، عمره ثلاثة وعشرون عامًا، وبينما كان يركّب قنبلة محلية الصنع فجّر نفسه. لا أحد يعلم سبب نزوله بذلك الفندق ولا مَن كان مقصودًا بتلك القنبلة. لكنني عثرت على صورة له. وجهٌ قلق خجول، في عينيه شيء من الدفء. لا أكفّ عن تخيله خارجًا للمشي قليلا، آخذًا في طريقه على شارع إيدجور رود شيئًا يأكله. ثم أراه متربّعًا على سرير الفندق المفروش توًّا والوسائد مكوّمة خلفه وهو يعمل بهدوء. أحيانًا أستطيع حتى سماع أفكاره. ثم يستحيل كل شيء أبيض».

بدا متأثرًا ومتحمِّسًا أيضًا، أتخيل أن ذلك شبيهٌ بما قد يشعر به فنانٌ بعد انتهاء عمله. حينها تذكرت ما قاله مصطفى؛ إنه لا أخطر من كاتب لا يكتب. أخرج مفكرته، وشككتُ أنه فعل ذلك لإخفاء وجهه إضافةً إلى قراءة النتائج التي توصل إليها.

«في ٢٨ يوليو ١٩٧٨، قبل أن يقتل حسن إلياس بدير نفسه ببضع سنوات، وُضِعت قنبلة تحت سيارة السفير العراقي في لندن. لم يكن في سيارته، لكن الدبلوماسيين الآخرين اللذين كانا فيها أصيبا بجراحٍ خطيرة.

«عام ١٩٧٢، في لندن، دخل ثلاثة شبان منزل الجنرال عبد الرزاق النايف، رئيس الوزراء العراقي الأسبق، ومضوا يرشُّون الرصاص متنقلين من غرفة إلى أخرى. المدهش أن الجنرال نجا. بعد ست سنوات في يوليو ١٩٧٨، كان يهمُّ بركوب سيارة أجرة أمام فندق إنتركونتننتال في شارع هايد بارك كورنر عندما اقترب من ورائه رجل وأطلق عدَّة طلقات. نُقِل الجنرال بسرعة إلى مستشفى وستمنستر، المكان نفسه الذي نُقِلَتْ إليه، لكنه توفي في اليوم التالي».

قلَّب صفحات مفكرته التي امتلأت بخطٍّ متعرِّج ومتَّصل امتد من إحدى حافتيها إلى الأخرى.

قال وهو يقرأ ملاحظاته: «قبل ذلك، في يناير ١٩٧٨، اغتُيِل سعيد حمامي، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، في مكتبه

بحيّ مايفير. وقبل ذلك بأيام قليلة، في ليلة رأس السنة، انفجرت سيارة كانت تقلّ موظفين من السفارة السورية في مايفير».

رفع نظره وكان وجهه مسرورًا.

«أتفهم إذًا ما أعنيه بخصوص لندن؟ وهكذا كان الحال منذ زمن طويل. مثلًا، في الأول من يوليو ١٩٠٩، خرج مادان لال دهينجرا ـ طالبٌ هنديٌّ شاب، سادس أبناء الدكتور صاحب ديتا مال دهينجرا السبعة، وهو جرّاح مدني ثري، هندوسي مؤيد لبريطانيا ـ من شقته في شارع ليدبوري في بيزووتر، وذهب إلى اجتماع للجمعية الوطنية الهندية في المعهد الإمبراطوري بجنوب كنسنجتن، حيث تمكّن من اغتيال المقدّم السير كورازن وايلي، أحد مسؤولي الحكومة البريطانية ـ الهندية. أُعدِم دهينجرا شنقًا في الشهر التالي. عندما صدر حكم الإعدام، شكر القاضي قائلًا: «أفخر بنيل شرف التضحية بحياتي في سبيل قضية وطني». كانت أمنيته الأخيرة قبل الإعدام الاستحمام والحلاقة. أُعدِم في سجن بنتونفيل بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٠٩. في اليوم التالي نُشر بيانٌ له في صحيفة دايلي نيوز. في بيانه وصف دهينجرا نفسه بأنه وطني يسعى لتحرير بلاده. ختم قائلًا: «الدرس الوحيد المطلوب في الهند اليوم هو تعلُّم كيفية الموت، والطريق الوحيد لتعليمه هو أن نموت بأنفسنا، وهكذا أموت وأنال المجد باستشهادي. باندي ماتارام»، التي تعني على ما يبدو «يحيا الوطن»».

تابع وروى قصصًا عديدة كهذه عن الاغتيالات السياسية التي وقعت هنا، وطالت أشخاصًا من جميع الأصناف. شعرت بمطبخي يضيق. عندما غادر، غسلت الأطباق وحاولت إقناع نفسي بأن هذا كله قد يدفعه إلى الكتابة مرة أخرى. لم أستطع التخلص من صورة مفكرته الممتلئة، بنشاطها المجنون والعنيد، كرجلٍ ينكأ جرحًا. تلك الليلة ذهبت إلى الفراش بإحساس عميق بالارتباك، موقنًا بأني أغفلت تفصيلًا مهمًّا.

٨٠

تلك الليلة رأيت حُلْمًا لم أستطع نسيانه. فيه ظهر العالم، كل شيء وكل من عرفتُ، الطبيعة، وحياتي العاطفية - كل عواطفي وأفكاري وآرائي وآمالي وأحلامي وحزني - كل ما بداخلي وخارجي، كقطعة نسيج واحدة، كبيرة بما يكفي لتغطية فراش طفل. كانت القطعة معلَّقة في الهواء، رقيقة مهترئة، تنتفخ بوهن، حافاتها بالية.

في الشهر التالي، هاتفتني كلير. عادت وحسام من دفِن منذ عدة أسابيع.

«أحتاج أن أكلِّمك»، قالت واقترحتْ أن نلتقي بعد بضعة أيام في المعرض الوطني.

وجدتها تنتظر على السلالم. أذكر أني فكَّرت أنها بدت خجلى، أن الانتظار كان نشاطًا محرجًا لها. جلنا في صالات العرض. بدت متوترة، وظلت تتحدث عن لوحة كانت تنظر إليها وعجزت عن فهمها.

«أتودّ رؤيتها؟» قالت، وتوقفتْ لتسأل أحد حرَّاس المتحف عن الاتجاه إلى «لوحات هانس مملنج». لم يبدُ أن الرجل قد فهمها.

«لا بأس»، قالت له وتابعت المشي. قالت: «وُلِدَ هانس مملنج في منتصف القرن الخامس عشر. توفي في نهاية العشرينيات من عمره. رسم هذه الصورة تحديدًا عندما كان في منتصف مراهقته. لم يكن إلا طفلًا. إنها تصوِّر شابًا مستغرقًا في حلم يقظة. أو هكذا ظننت قبل أن أقرأ العنوان».

فجأة كنا أمامها مباشرة. كان عنوانها «شابٌ يصلِّي».

قالت: «لم أستطع فهمها».

نظرتُ إلى الخلفية الشديدة الخضرة، وما زادها خضرة وإشراقًا كان وجه الصبي الشاحب، وسيماه الواضحة والظاهرة، كأن لا أحد، لا أحد حقًا، يستطيع أن يراه. جلسنا على مقعد في وسط الغرفة ونظرنا إليه من هناك. فكَّرت أن أخبر كلير عن حلمي. أردت مشاركتها حيرتي لأنني لم أعد أصلي. توقفت عن الصلاة منذ سنوات وما زلت أجهل السبب. وبينما كنت أفكر في هذا، رأيت الغرفة المهملة بداخلي حيث كنت أصلي وقد تراكم فيها الغبار. هل كانت كلير تصلي؟

ثم قالت: «تخيَّل أن تستطيع، بصرف النظر عن قوة إيمانك، أن تعرف فعلًا ماذا تطلب في دعائك».

تساءلتُ ماذا حدث في دفِن؟

قالت: «لكن أليست رائعة؟ اللوحة كلها متاحة حتى إنك لا تعرف ماذا تصنع بها. وأليس وجهه حلوًا؟».

قلت: «حائر قليلًا».

«نعم»، قالت وابتسمت. «ليس متيقّنًا من وجود الله ولكنه فكّر: لِمَ لا؟ لا مانع من ذلك، فقط من باب الاحتياط».

سرَّني صوت ضحكتها السهل والدافئ. فكَّرت؛ كيف يمكن أن يكون هناك خطب ما؟

ذهبت لأقف أمام اللوحة مرة أخرى. كان شعر الصبي وحاجباه ورموشه مرسومةً بخطوط دقيقة وثابتة، تتوزَّع هنا وهناك كحقولٍ تمشطها الريح.

ثم قالت كلير برفق: «سأخبرك كيف أراها». أصبحت حينها تقف خلفي مباشرةً. «إنها أداء. اللوحة وما تصوِّره».

أومأت برأسي دون أن أفهم ما كانت تقصد. بدأت أرى شيئًا آخر في الصورة. شعرت بيقين، يقين شديد حتى إنني لا أستطيع قول ذلك، بأن ما شغل الصبي كان التعامل مع إمكانية الصلاة، أنه في تلك اللحظة لم يكن يصلي بقدر ما كان يقنع نفسه بقبول الكيفية التي قد يصلي بها، ولأي غاية سيصلي، وهو ما يجب أن يكون، بالتأكيد، نوعًا من الصلاة في حد ذاته.

ثم بعد انتقالنا بوقت طويل، وبعد وقوفنا أمام حفنة من اللوحات الأخرى، فكرتُ؛ لا، حتى ذلك التفسير لم يكن صحيحًا. لم يكن الصبي يتعلَّم قبول الصلاة، بل كان يخلق مساحة، وبفعله هذا وصل، دون قصدٍ، إلى أعمق أعماق نفسه. فكرت أن هذا يفسِّر لماذا يبدو وجهه كوجه شخص يقف على قمة، ينظر إلى مشهد طبيعي شاسع، وعكس ذلك أيضًا، يبدو

كذلك كوجه شخص وصل إلى حدود نفسه، وبأملٍ حَذِر، قرَّر أن ينظر إلى الداخل.

ذهبنا إلى المقهى المجاور، في الطابق السفلي لمعرض البورتريه الوطني. جلسنا بمحاذاة الحائط المنحني وأقدام الناس تسير فوقنا على السقف الزجاجي. فكرت؛ ها هو ذا سيأتي، ما جاءت لتخبرني به.

قلت: «كيف كانت دفِن؟».

نظرت إليَّ متسائلة عما إذا كنت أعرف أكثر مما أفصحتُ.

قالت: «حسنًا، هذا كل ما في الأمر، أعني أننا أمضينا وقتًا ممتعًا. كل شيء كان كالمعتاد. حسام طيب القلب»، قالت وتهدَّج صوتها. «لا يشتكي أبدًا. هل لاحظت ذلك؟».

قلت: «نعم. ماذا حدث؟».

«كان بخير. كان مكتئبًا قليلًا، لكن هذا يحدث أحيانًا»، قالت مومئةً برأسها لنفسها. «كان يومًا لطيفًا مشينا فيه. كان هادئًا، لم يكد يقول كلمة، لكن هذا أيضًا يحدث. ما عدا»، قالت وسكتت وهي تنظر إليَّ بعينين مفتوحتين مرتابتين. «ثمة أوقات، ولطالما كان الحال هكذا، عندما أشعر بهُوَّة تنفتح بداخله. لا أدري. طالما شعرت بذلك وأفزعني. لكن هذا أيضًا يمر. في ذلك اليوم استمر، وفي الليل، ونحن نهمُّ بالخروج من الفندق للعشاء، فجأةً فكَّ مطفأة الحريق من مكانها في الممر ووجهها نحو... حسنًا، نحو لا شيء، لا شيء أبدًا، لم يكن هناك شيء. أفرغ الأسطوانة كلها وهو يصيح بشيء لم أستطع فهمه، شيء بالعربية. كل شيء

غطَاء مسحوق أبيض. تناثر على ذراعيه وعلى حذائينا وبنطالينا. ضحكتُ، أو حاولت الضحك على كل حال، لكنه لم يكن يعبث، كان جادًا تمامًا، وكان وجهه، وجهه... لم أره هكذا من قبل. كأن شيئًا انكسر بداخله، وانكسر قلبي لرؤية ذلك».

قلت: «ماذا تقصدين بشيء انكسر؟».

«قال الشيء نفسه الذي صاح به، لكن بصوت منخفض، لا يكاد يُسمَع. كرَّره مرارًا. صحت به ليتوقف. جاء مدير الفندق راكضًا من الباب».

«وماذا فعل حسام؟».

«لا شيء. التفت إلى الرجل وببطء قال له: النار، النار».

كان أسوأ ما في الأمر - التفصيل الذي رافقني طوال الطريق إلى البيت بعد أن توادعنا أنا وكلير، وبعد محاولتي مواساتها بكلمات مبتذلة بأن كل شيء سيكون على ما يرام وغير ذلك، وإيمائها برأسها دون أن تنظر إليَّ - هو ما قالت إنه حدث بعد أن قال حسام تلك الكلمات. ببطءٍ قادته إلى غرفتهما. جلس على طرف السرير، عاجزًا عن الكلام أو الحركة أو النظر في عينيها. رفعتْ ذقنه، لكنه ظل ينظر للأسفل. كانت هناك لحظة فقط عندما وضع يده على فخذها، سواء أقصد بها المواساة أم طلب المساعدة. قالت لي كلير إنه في النهاية تمكن من تبديل ثيابه واستلقى على الفراش منحنيًا على نفسه طوال الليل بوجهٍ، كما وَصَفَته، «خالٍ تمامًا من العزيمة».

٨١

لمَّا التقينا المرة التالية في كافيه سيرانو كان حسام على سجيَّته تقريبًا. بدت عيناه بطيئتين قليلًا، بحيث كان إذا ثبَّتهما عليَّ بدا كأن الزمن يتوقف جزءًا من الثانية. جلس إلى جانب مصطفى، قبالتي. كانت كتفاه منحنيتين قليلًا. في لحظة من اللحظات، حين ذهب إلى الحمَّام، راقبته، وقد غمرتني رغبة في معانقته. وجهه، الذي كان خاليًا من أي تعبير، امتلأ بالعاطفة لمَّا دخلت كلير إلى المقهى.

قالت: «أحب كيف يمكن توقُّع تصرفاتكم أنتم الثلاثة».

ابتسمت لي عن قصد وهي تهمُّ بالجلوس إلى جانبي، مواجِهةً حسام. لاحظ حسام ذلك. لعلَّه ظنَّ أن كلير أسرَّت إليَّ بشيء أو لعلَّه شكَّ في شيء آخر مختلف تمامًا. توترتُ فرويت حكاية مضحكة تتعلق بالمدرسة حيث كنت أعمل، ثم، ولأن الغضب تمويهٌ عظيم، اشتكيت بحدَّةٍ من تخفيضات الموازنة، وعبَّرت بانفعالٍ عن محبتي لطلابي وقلقي عليهم. قال مصطفى شيئًا عن سوء حكومة ديفيد كاميرون. طلبنا شرابًا، ودون انتظار لحظة صمت، قاطعنا حسام ليروي لنا حُلْمًا رآه الليلة السابقة. كان ينظر

إلى كلير وهو يتكلم، ولم يكن يلتفت إليَّ أنا ومصطفى إلَّا إن قلنا شيئًا، مما كان يعطي انطباعًا بأننا كنَّا نسترق السمع إلى حديث خاص بينه وبين كلير التي كانت تصغي إليه باهتمام وبشيء من الحزن، مخلصةً لكن إخلاصها لا يخلو من الأسئلة، امرأة مستقلة في الحب. كان كل ما يهمني أن حسام كان يروي قصة مرة أخرى، حتى لو كانت حلمًا.

قال حسام: «كنت هنا، في هذا المقهى. لكنَّ سيرانو أصبح متجر أثاث مستعمل. معظمه صينيّ، وبعضه قطع عربية، ومنحوتات إسلامية. رجل مُسِنّ يجلس في الخارج عند المدخل. أدخل وأجد النادل لكنه لا يعرفني. في الحقيقة، فجأة يكون جميع العاملين هنا عربًا، من شمال إفريقيا بالتأكيد، ربما ليبيين حتى. لا يكادون يلاحظونني. إنهم مشغولون بمناقشة ترتيب الأثاث. أشعر بأنني عقبة. أخرج، أمشي بلا هدف، وحين أعود أجدهم قد رتبوا المكان لكنهم ما زالوا يتجادلون. أبحث عن طاولة قهوة للبيت. يبدأ العجوز الجالس في الخارج على الرصيف بالغناء لنفسه برفق. أعرف اللحن لكنني لا أستطيع تحديده. ثم أدرك أن العجوز هو أنا، بعد سنوات من الآن، وبينما أنا كذلك أرى طاولة كتابة. أفكِّر في أنني أخيرًا وجدتها. أبحث عن ورقة السعر، لكن لا يوجد سعر. الآن يمازح الآخرون العجوز. يقول أحدهم: «يا له من صوت يا شيخ!» لكنه، هذا الذي لا أجرؤ على النظر إليه، يتابع الغناء لنفسه. الآن أعرف اللحن. تهويدة كانت جدتي تغنيها لي». يدندن حسام فأعرفها

أنا ومصطفى من فورنا. «يغنيها بإحساس»، قال حسام متحدثًا إلينا الآن، نحن نظيرَيه الليبيين، اللذين غُنِّيت لهما تلك التهويدة نفسها لمَّا كانا طفلين. «لكن الغناء يتطلَّب منه جهدًا كبيرًا. الشباب يلاحظون هذا أيضًا فيكفُّون عن المزاح. هم أيضًا يبدون متأثرين. أستمر في معاينة طاولة الكتابة. لم أعد متأكدًا منها. لها إطارُ خشبٍ سميك. سطحها مكسوّ بمخمل أخضر. أضع يدي على جزء من المخمل البالي. أقرِّر أنها أثقل من قدرتي على حملها إلى البيت».

سأل مصطفى: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

قال حسام: «لا شيء».

«ماذا تقصد بلا شيء؟».

«استيقظت».

قالت كلير: «لا تقلق، ستعقبه الحلقة الثانية».

هذا أضحك حسام. إلَّا أنه استمر في الضحك أكثر مما بدا ضروريًّا، حتى دمعت عيناه.

ثم حاولنا تفسير الحلم. اقترح مصطفى أن المقهى المألوف الذي استحال متجر أثاث كان تلميحًا إلى الخوف من تغيُّر العالم. اقترحتُ أنا أن الحلم يتعلَّق بالكتابة بسبب طاولة الكتابة. أصرَّ مصطفى على أن العجوز كان تعبيرًا عن قلق حسام من التقدم في السِّن بعيدًا عن الوطن. لدهشتي، أثار هذا ردًّا متعاطفًا من حسام.

قال: «ربما، ربما».

تابع مصطفى قائلًا: «على كل حال، أنت هذا المخلوق الغريب: كاتب عربي يعيش في إنجلترا».

«تمامًا كغرابة امرأة إيرلندية تعيش في إنجلترا»، قالت كلير وكنت الوحيد الذي وافقها الرأي.

لم ينظر حسام إلى مصطفى بفظاظة، بل بشيء من كآبة متأمِّلة، كبحرٍ ساكنٍ تحت سماء مكفهرَّة. إلَّا أن حسام وكلير استمعا إلى تفاسيرنا ـ في الأغلب ـ بسيماء مبتهجة ومُواسِيَة في وقت واحد، كأنهما كانا يعرفان مغزى الحلم لكنهما قرَّرا الاحتفاظ به لنفسيهما، بصمت، كما يفعل الأزواج.

مع تقدُّم المساء، تسرَّب اللون إلى وجه حسام، وكانت هناك لحظات عاد فيها تقريبًا إلى نفسه القديمة. لاحظت أن كلير كانت مبتهجة، وأظهرتْ شعورًا هادئًا وعميقًا بالشكر لي ولمصطفى. كلما ضحكتْ انتفخ الوريد الذي في جانب عنقها. لبث الحبيبان مدة أطول من المعتاد. بدت كل دقيقة إضافيّة مكسبًا. عندما نهضا للخروج أصرَّ مصطفى على أن نتناول جميعًا دفعةً أخرى من المشروبات. ذهب إلى حدِّ الحلف بحياة والديه. لم يقل حسام شيئًا. ابتسم فحسب ومشى مبتعدًا، كانت كلير خلفه، وهي تلتفت ناظرة إليَّ بطريقة جعلتني أعتقد أنني في تلك اللحظة أدركت آمالها ومخاوفها، كما أدركت هي آمالي ومخاوفي.

٨٢

رأى مصطفى هذا كلَّه بطريقة مختلفة. دائمًا ما كان يستغرق بضع دقائق حتى يهدأ ما إن يغادر حسام المقهى. كثيرًا ما كان ينزعج منه، لكن انزعاجه اشتد في تلك المناسبة.

قال: «إذًا، هذا يؤكِّد الأمر. لا بد أنه شاهد الفيديو».

سألته: «أي فيديو؟».

«أولًا، هل أخبرَكَ بشيء؟ بدا غريبًا، مثل زومبي. لم يعد إلى الحياة إلا قليلًا في النهاية. وهي، واضح أنها مهمومة. ألم يقولا لك شيئًا؟».

قلت: «ما الفيديو؟».

جاء وجلس إلى جانبي. قال وهو يخرج هاتفه: «هل تذكر الإشاعة التي سمعناها وقت إطلاق النار، أن والد حسام، سِيدي رجب زوة، ظهر على التلفاز ومدح القذافي؟».

«نعم، لكن لم يكن هناك دليل عليها قطّ».

قال: «الآن يوجد دليل، وهو أسوأ من أي شيء يمكننا تخيله. انتظر لحظة». كان مشغولًا بهاتفه. «أحدهم»، قال وسكت.

«أحدهم مؤخرًا... نشره على يوتيوب. في أيام فقط... ثلاثة أيام بالضبط، حصد أكثر من خمسة آلاف مشاهدة. أسرع من أغنية بوب»، قال وضحك ضحكة فظيعة. «ها هو».

شعرت بأن يقينه المرّوع يحبسني. كان مشغولًا بالبحث في جيوبه، وأخرج سماعتَي الأذن، وفكّ أسلاكهما المعقودة.

«أصيب بانهيار عصبي. في دفِن. ذلك ما حدث»، سمعتُني أقول، وفكّرت في نفسي؛ إذا كان هذا ما حدث له، فقد يحدث لي أيضًا، قد يحدث لنا جميعًا. «يجب أن نبقي أعيننا عليه».

«خُذْ»، قال مصطفى وهو يناولني إحدى السماعتين.

فكّرتُ: كيف لم يسمع ما قلته له توًّا، وفي الوقت نفسه، سُرِرْتُ لأنه لم يسمعني. كانت هناك حماسة شديدة في تصرفاته. أخذ السماعة من أصابعي ووضعها في أذني.

قال: «الحياة خائنة، دائمًا تنتظر لتطعنك في الظهر. شاهد شاهد». ضغط زر التشغيل، ثم أوقف الفيديو في الحال. «لاحظ التاريخ»، قال مشيرًا إلى الكتابة الصغيرة أسفل الشاشة.

كُتِبَ فيها: «بُثَّ هذا الفيديو في الأصل بتاريخ ٢٤ إبريل ١٩٨٤».

«أليس هذا مدهشًا؟» قال مصطفى وقد اتحدت الإثارة والسخط اتحادًا تامًّا في صوته. «بعد إطلاق النار علينا بسبعة أيام بالضبط. سبعة أيام». ثم سأل مرّةً أخرى: «أليس هذا مدهشًا؟».

كلما تكلّم مصطفى هكذا، سعت إرادةٌ بداخلي ـ راغبةً في المقاومة ـ إلى اتهامه بالمبالغة. قلت: «شغِّله»، واقترب أحدنا

من الآخر في الكنبة، منسحبَين غريزيًّا إلى الزاوية حتى لا يرى أحد ما كنا نشاهده.

طابق المشهدُ جلسات الاستجواب تلك التي شاهدتُها خفية على شاشة التلفاز في بيتنا عندما كنت صغيرًا. كان التصوير القديم من الثمانينيات مشوَّشًا، وبدت ألوانه الخردلية والوردية والخضراء المائلة إلى الزرقة مُحتَقِنةً بالدَّم وحادَّة، كأنما لُوِّنت باليد. كان واضحًا ما سيقوله: إدانة النظام القديم الذي كان ينتمي إليه ذات يوم، ومَدْح العقيد الشاب. غير أنني كنت مخطئًا. لم يكن البيان الذي قرأه سِيدي رجب زوة ـ عاجزًا عن منع الورقة بين يديه من الارتعاش ـ يتعلق بالماضي ولا بالحاضر، ولا بالملك المخلوع ولا بالقذافي، بل بالمستقبل، بوريثه، وابنه اللامع، الكاتب حسام زوة، الذي وصفه الرجل العجوز في لحظة من اللحظات، وهو ينظر إلى الكاميرا، بأنه «كلب ضال»، تلك الصيغة السَّامَّة التي طاب للنظام الدكتاتوري استعمالها لوصف كل من لم يكن يتفق معه، كل من خرج على القطيع.

شاهد مصطفى المقطع مرات عديدة من قبل، إلا أنه كان مشدوهًا. رأينا والدَ صديقنا، العجوز الجليل، جالسًا في ركن من أركان غرفة أسمنتية بلا نوافذ. في لحظة من اللحظات، يقاطعه صوتٌ شابٌّ قليل الصبر من خلف الكاميرا.

«يا حاج».

يرفع سِيدي رجب زوة بصره إلى الكاميرا.

«أي نوع من القبعات تلك؟».

«معذرة يا بُنَيّ؟» يسأل وعيناه تتسعان ببراءة.

«القبعة. وأنا لستُ ابنك».

يعتذر الرجل المُسِنّ.

يقول صوت آخر: «الشيء الذي على رأسك؟».

هناك ضحكٌ في الخلفية.

«آه»، يقول، ثم يضع يده فوق رأسه وكأن الريح هبَّت توًّا.

«نعلم تمامًا ما هي»، يقول الصوت الأول، الذي يبدو أقرب بكثير إلى الكاميرا ومن ثمّ كان أكثر حميمية لنا.

يقول له الآخر: «يعتقد أننا أغبياء».

«آه، لا أبدًا»، يقول والد حسام، وعيناه تتسعان مرة أخرى.

صوت آخر يقول: «طراز قديم، بشرَّابة، ذيل كلب. أليست تلك قبعة السنوسية القديمة؟».

«هذه؟»، يسأل سِيدي رجب زوة وببطءٍ يخلع القبعة. يطويها بإحكام في يده اليمنى ويقول: «لا، هذه لا علاقة لها بتلك الأمور».

«ألم تسمع؟»، يقول الصوت الأول، لكن الآن بنبرة عملية يكاد يشوبها توجيه لطيف. «لقد وقعت ثورة يا حاج».

لا يقول والد حسام شيئًا.

يأمره الصوت: «استمر. وأسرع. ليس عندنا اليوم كله».

الآن يحدث الشيء الأغرب. يتغيَّر سلوك سِيدي رجب زوة تغيُّرًا تامًّا، فيتضح فجأة أن نظراته الهادئة كانت دليلًا على مجاهدة كبيرة هدفها أن يعرف بسرعة كيف يُخلِّص نفسه. ينتقل من نبرة خفيضة الصوت ومهيبة إلى توكيدات عالية ومُدَوّية تجعل صوته حادًّا في بعض المواضع حتَّى يبدو كأنه صرير وتر مشدود.

«ابني خائن. أحرِّم عليه»، قال وسكت. «أحرِّم. أحرِّم عليه، أحرِّم على حسام رجب زوة. ابني»، صاح وتهدَّج صوته. «من دخول». سكت مرة أخرى، ثم قال بصوت قوي وقادر وخالٍ من التردد: «دخول بيتي، أو حمل اسمي، إلى آخر الزمان».

ثم يميل إلى الأمام وينتفض من البكاء. تقترب الكاميرا. صوت وراءها يهمس: «أبقها هناك».

٨٣

في الأيام والليالي التالية، شاهدت الفيديو مرات عديدة محاولًا طوال الوقت تخيُّل حسام وهو يشاهده. تمنيت لو يقول شيئًا عنه. غير أن صوته بدا بعيدًا وضعيفًا في أحاديثنا القليلة بالهاتف. في اليوم السابق للقائنا التالي في كافيه سيرانو، أرسل رسالة نصية يقول فيها إنه لن يستطيع المجيء. لا شيء أكثر من ذلك. دون تقديم تفسير. أجبته قائلًا: «إذا غيَّرت رأيك فسنكون هناك». لم يغيِّر رأيه فقضيت ومصطفى المساء وحدنا.

«هل تعلم أن إدوارد سعيد كان متزوِّجًا من قبل؟»، قال مصطفى وهو يجلس ملوِّحًا لجذب انتباه النادل إليه. «قبل سنوات من زواجه بمريم سعيد. هل تعلم هذا؟ أستاذة جامعية إستونية ألمانية». أخرج ورقة. «اسمع هذا»، قال وشرع يقرأ كلمات منسوبة إلى الكاتب الفلسطيني، متوقفًا باستعراض عند كل نقطة وفاصلة: «هناك بُعْدٌ رمزيّ للأمر. تزوجتُ أوروبية. لم يكن بيننا شيء مشترك. كانت جميلة جدًّا وذكية جدًّا، تعلَّمت في فاسَر، وهارفرد، وكيمبردج. كانت محنة عظيمة». كرَّر مصطفى الجملة الأخيرة.

قلت له: «هذا ليس شعرًا يا دين أمي».

قال: «ما الذي عكَّر مزاجك؟ قد لا يكون شعرًا، لكنه الحقيقة. كانت مريم، أقول لك إنها كانت مريم ـ عليك الاعتراف بهذا ـ التي نقلت إدوارد سعيد إلى المستوى التالي، وجعلت منه الرجل الذي صار إليه».

قلتُ جملة من الأشياء التي كان باعثها الأساس، لأكون صادقًا، تشتيت انتباه صديقي لا إقناعه. قلت له إن إدوارد سعيد كان ناقدًا ثقافيًا، موسوعيًا، وأمّا حسام فهو فنان. «ذلك شيء مختلف تمامًا. لا أعتقد أن له علاقة بمن يحبّها».

«اسمع، إذا أراد الكاتب أن يبلغ ذروة قدراته، فهو بحاجة إلى الاتصال بالمصدر. «من الجذر ينساب النُّسْغ إلى الفنان»، كما يقول بول كْلِي».

قلت: «يلعن دين بول كْلِي!».

«ما مشكلتك؟ صرتَ تتكلَّم مثلي. وكنتَ أنت من عرفّني إلى هذا القول أصلًا».

«ماذا عن كتاب «الممنوح والمأخوذ»؟ قلت والغضب يكتم صوتي، حتّى صار أضأل وأهدأ، فكأنني كنت أسمع نفسي من بعيد. «أم لعلّك نسيت كيف عبَّر عنَّا، وعبَّر عن كل شيء كُنَّاه، وكل ما فقدناه، وكل ما شعرنا بأننا سنصير إليه، ونحن نرقد هناك في ذاك المستشفى البائس؟».

قال برفق: «نعم، نعم». ثم، بعد صمت مطبق، أضاف بنبرة بلاغية بعض الشيء: «لكنَّ هناك دليلًا واحدًا لا يستطيع أن يدحضه أحد: حسام زوة لم يكتب كلمةً منذ ذلك الحين».

«هذا لا علاقة له بالأمر».

ببطءٍ وهدوء قال مصطفى: «لا يمكنك البقاء متصلًا بالوطن إذا قاسمتَ أجنبيةً فراشَك».

٨٤

في الرابع والعشرين من نوفمبر من ذلك العام ـ أعرف التاريخ لأن التذاكر ما زالت عندي ـ قبل ثورة فبراير ٢٠١١ بثلاثة أشهر، لمَّا لم يكن أيٌّ منَّا يتوقع ما كان سيحدث، حصلتُ على ثلاثة مقاعد رخيصة في الصفوف الخلفية بقاعة رويال فستيفال هول لحضور حفل موسيقي. كان البرنامج روسيًّا: مقطوعة «سكيرتزو فانتاستيك ـ Scherzo fantastique» لسترافينسكي، وكونشيرتو البيانو رقم ٣ على سُلَّم سي لبروكوفييف، والسيمفونية رقم ١١ على سُلَّم صول الصغير لشوستوكوفيتش. كنت أعرف أن حسام معجبٌ بموسيقى بروكوفييف. وتذكَّرت حديث كلير عن شوستوكوفيتش. انتظرتهما في الحانة. رأيتهما قبل أن يرياني. كانا يضحكان وهما يدخلان. غمرني الفرح لرؤيتهما ولرؤية حسام في حالٍ طيبة. عندما جلسنا، اعتذرتُ عن جلوسنا بعيدًا في الخلف. لم نكد نرى المسرح.

قال حسام: «الموسيقى تُسمَع، لا تُرى».

قالت كلير: «إضافة إلى ذلك، كل شيء يُسمَع على نحو أفضل هنا في الخلف».

كانت الموسيقى رائعة، وعندما خرجنا في الاستراحة كنا جميعًا متحمسين. وكان النصف الثاني أكثر إثارة. بعد ذلك قررنا أنه لا يمكننا الافتراق ساعتها، أننا بحاجة إلى الجلوس والتحدث عمَّا سمعناه. سألتهما: إن كانا قد تعشَّيا، فقالا: لا، وإنهما كانا يتضوَّران جوعًا. قصدنا مطعم بيتزا قريبًا وجلسنا إلى طاولة دائرية. كنا مندفعين بحماستنا للحفل الموسيقي، إلى أن جاء الطعام وحينها تغيَّر المزاج.

«أشعر منذ وقت طويل بأن شيئًا فظيعًا سيحدث»، قال حسام، ثم صمت.

أمسكت كلير بيده. انتظرتُ، ولأسباب لا أستطيع فهمها، كنت على يقين تام حينها بأن تلك الكلمات التي قالها في دفِن، «النار، النار»، كانت مرتبطة، بطريقة ما، بهذا الهاجس.

«ما زلت أشعر بهذا»، تابع قائلًا، موجِّهًا هذه الكلمات إلى كلير. أومأت برأسها مواسية.

قال وهو يفلت يدها ويواجهني: «لكنَّ الحياة، التي يمكن ملاحظتها في مسار الأيام المعتاد، يومٌ يمضي وراء الآخر، يجب أن تستمر. وفي الختام، فالأشياءُ، معظمُ شؤوننا، تسير على ما يرام في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

بسرعة وافقتُ أنا وكلير.

تابع قائلًا: «أليس هذا محسوسًا، مثلًا، في ثقة الأطباء، في إرادة الأشجار، في ضوء الشمس، في النهر؟ أن يعيش المرء حياةً ما لا يعني، كما اعتقدتُ في بعض الأحيان، أن يُحكَم عليه بمشاهدة الموت البطيء للأشياء. وقد لا يكون هذا كل ما في الأمر، فالحياة أساسًا وقبل كل شيء ـ بلا شكّ قبل الوطن والدين وانتماءاتنا المختلفة ـ إنما هي للأحياء».

لا يمكنني القول إنني اقتنعت. الحياة للأحياء فلسفة لا يمكن أن يعتمد المرء عليها. ومع ذلك، تأثَّرت كثيرًا حتى كظمت دموعي. سالت دموع كلير وضحكت. ضحكتُ أنا أيضًا.

قال حسام: «الإيرلنديون يبكون على كل شيء».

رمته بمنديلها.

«يبكون ويرمون الأشياء».

عندما عبرنا جسر هنجر فورد، كان هواء نوفمبر البارد منعشًا وسريعًا، وما فتئت أضواء الليل تتكسَّر إلى ألف قطعة على صفحة التيمز غير المستوية. حسام، وهو يمشي في الوسط، تأبَّط ذراع كلير بيد وبالأخرى تأبَّط ذراعي.

«أبي ليس بخير»، قال، وبالعربية أخبرني أن والده أُصيب بجلطة، وخرج منها واهنًا، عاجزًا عن المشي، ويتكلم بلسان بطيء.

قلت: «أنا آسف جدًا. إذا احتاج شيئًا، يمكنني أن أطلب من أبي أن يزوره».

قال متحدثًا بالإنجليزية: «يجب أن أذهب بنفسي وإلَّا فقد لا أراه مرة أخرى».

لزمت كلير الصمت.

قلت: «لا أعرف».

قالت: «واضح جدًا أنها فكرة سيئة».

٨٥

عدا لقاءاتنا الشهرية التي استمرت من دون حسام، فطالما كان عنده عذر، كنت أنا ومصطفى نعيش حياة مستقلة. ربطتنا المحبَّة التي حملها كلٌّ منَّا للآخر والألفة المعقَّدة بين اثنين تقاسما مصيرًا رهيبًا ونجوا منه. لم نتكلَّم عن ذلك قطّ، ولسنواتٍ لم نفعل ذلك. بينما تفرقَّت بنا السُّبُل وباعدت بيننا المسافات، ومهما كانت تلك الفجوات غير مرغوبة أو طبيعية، فقد اتهم أحدنا الآخر سِرًّا. دائمًا كان أحدنا هو المُلام. ما لم أدركه هو أن الصمت كان طوال الوقت يفعل فعله فينا، مفرِّقًا بيننا شيئًا فشيئًا حتى أصبحت روابطنا قليلة ونحيلة. إذا كانت الصداقة، كما تبدو في الغالب، مساحة للسُّكنى، فقد أصبحت مساحتنا صغيرة وغير مضيافة إلى حدٍّ بعيد. ودون أي كلمات، كنا نحن الاثنين قد أقررنا بذلك وتحسَّرنا عليه.

ذاك كان هو التوازن الذي تقاسمناه. لكنْ في يناير عام ٢٠١١، بدأ صديقي القديم يَخْبُر تحوُّلًا، كان جذريًّا بقدر ما كان غير محسوس. كلما كنَّا معًا أحسستُ بقلقه. شعرتُ بأني أتحمَّل

جزءًا من اللوم، فكلما انزعج مصطفى أو حزن، لم يسعني إلا أن أشعر بالمسؤولية. كذلك هو الأمر بالنسبة إليه. لعلَّ ذلك كان صدى الذنب الذي شعر به أحدنا نحو الآخر بسبب ما حدث في ساحة سانت جيمس، كأن كل واحد منَّا أصبح منذ ذلك اليوم والدَ مصير الآخر. أو لعل الأمر لم يكن كذلك البتَّة، وإنما كان كلُّ واحد منَّا يشبه انعكاسًا للآخر، ومن ثم كان أيُّ مزاجٍ مظلم ينعكس ويتضاعف في الحال. يومَ كنا سنلتقي في المرة التالية في كافيه سيرانو، أرسلت إليه رسالة نصية قائلًا إني مريض، وبعد ذلك تملَّكني الندم، فقضيت بقية الأصيل أفكِّر في طريقة للتراجع عن ذلك.

ركَّز الجميع على التقارير الواردة من شمال إفريقيا. كانت المنطقة تموج بأمل التغيير. تحدَّث مناصرو الديمقراطية في الإذاعة والتلفاز بثقة غير مسبوقة. ثم بدأت الأنباء تتوالى عن مظاهرات واسعة النطاق في شوارع تونس. بدا ألا رجعة فيها. أكثر من مراسل إخباري استعمل عبارة «خرج المارد من القمقم».

في الرابع عشر من يناير هرب زين العابدين بن علي من البلاد بعد أن حكمها أربعة وعشرين عامًا. سهرتُ طوال الليل، أشاهد مقاطع فيديو في هاتفي على السرير. مقطع واحد تحديدًا، شاهدتُه عدة مرات. أظهر رجلًا يبلغ منتصف العمر، وحيدًا في شارع رئيسٍ بالعاصمة تونس، في جوف الليل. كان يضع نظارة، سائرًا جيئة وذهابًا بإيقاع ثابت، كمن يحاول تذكُّر شيء. لم يكن هناك

أحد آخر إلا الرجل أو المرأة خلف الكاميرا التي تصوِّر المشهد، متابعةً السائر الوحيد بإحساس عميق على ما يبدو. صاح الرجل بحماسةٍ ملتاعة لكنها منضبطة، مكرِّرًا «بن علي هْرَبْ» مرارًا وتكرارًا، وكان صوته أجشَّ وقويًّا وفارغًا، فبدا أن صداه لم يكن يرتدّ عن المباني الصامتة تحت مصابيح الشارع بأضوائها الزرقاء الكهربائية فحسب، بل ينبثق أيضًا من أعماق أسًى خاص. أثَّر فيَّ ذلك ودمعت عيناي، فقد سمعتُ فيه الأمل، ولو كان للأمل صوت لكان كهذا الصوت. تساءلت كيف تلقَّى مصطفى وحسام هذا الأمر. كنت على يقين أنهما كانا مستيقظين أيضًا.

صباح اليوم التالي، ذهبت إلى العمل وأنا أشعر بالإعياء. أرهقتني الحصص الدراسيّة أكثر من المعتاد، وتلك الأسئلة المتلاحقة طيلة الصباح، التي ظننت أني نجوت منها أو تخلصت منها منذ زمن بعيد، عادت بوطأة أشد. طلابي ليسوا مهتمين بالأدب، فهم غير مقتنعين به. إنهم معرضون دائمًا لخطر السقوط من الحافة، ولذا فإن مهمة المرء ليست تعليمهم بقدر ما يكون لهم حائلًا دون الوقوع، على أمل أنهم يومًا ما، بالعزم المحض على الممارسة، لن يعودوا بحاجة إلينا. شعر زملائي بهذا أيضًا. كنا جميعًا منهكين جدًّا حتى إننا، وللمفارقة، كثيرًا ما شعرنا بأننا زائدون عن الحاجة. وقد اشتد الوضع في حالتي لعدم وجود رباط بيني وبين الطلاب، ذلك النوع من الرباط الذي أتخيل أنه كان سيجمعنا لو كانوا ليبيين أو لو كنت إنجليزيًّا. بدلًا من ذلك،

شعرت بأنني قد أُستَبدَل بسهولة، وأن المكان الذي يحتاج إليَّ حقًّا كان مكانًا آخر.

في استراحة الغداء، سألني بعض زملائي عن الأحداث في شمال إفريقيا. قلت إنني لم أقرأ إلّا العناوين. اهتزَّ هاتفي في جيبي، ورأيت ثلاث مكالمات فائتة من مصطفى. لم يترك رسالة. هاتفته فأجاب فورًا.

قال: «أين أنت يلعن دينك؟».

«في العمل. لماذا؟».

«ألم تسمع الأخبار؟».

«أي أخبار؟».

«عن تونس».

«آه، تلك الأخبار. نعم».

«باهي»، قال بخيبة أمل ظاهرة. بعد لحظة صمت أضاف بيقين متعصب: «القاهرة ستتبعها. وبعد ذلك البلاد».

البلاد كانت تعني دائمًا ليبيا.

قلت: «ربما».

قال: «مئة بالمئة. حتى إنهم يتحدثون عن تاريخ: ١٧ فبراير».

لم أسأله من «هم»، من ناحية لأن السؤال لم يكن مُجْدِيًا ـ إذ كنت سأحصل على إجابة غامضة ـ ومن ناحية أخرى بسبب التعب الذي شعرت به، ولم تكن قلة النوم وحدها قادرة على تفسيره.

أمَّا حسام، من جهة أخرى، فلم يكن مهتمًّا ـ على نحوٍ غريب ـ وكان أكثر تركيزه على صحة أبيه. كان ذلك هو الموضوع الأهم كلما تكلمنا. عندما ذكرتُ الأحداث في تونس ومصر، وإمكان امتدادها إلى ليبيا، بدا حزينًا ومنهكًا.

قال: «دعنا نرى ما سينتج عن ذلك».

قلت له: «أعني؛ فكِّر في الأمر. انتفضت تونس، جارتنا من الغرب، والآن مصر، جارتنا من الشرق. لا بد أنها مسألة وقت لا غير».

لاذ بالصمت ثم قال: «سنرى».

وقف صديقاي الحميمان والليبيان الوحيدان على طرفَيْ نقيض من إرادتي. لم أستطع إلا أن أكون مصطفى مع حسام، وحسام مع مصطفى، كأنه محكوم عليَّ أن أُبقيَ صوتيهما متوازنين على نحوٍ ما.

في الأيام القليلة التالية، تشبثتُ بآمالي بصمت، مراقبًا كل منعطف في الأحداث. غصَّ ميدان التحرير في القاهرة بالمتظاهرين، وبدا أنه لم يعد هناك أي سبيل لتحويل مجرى التيَّار. مرةً، بين الحصص، حبست نفسي في حجيرة من حجيرات دورات المياه في المدرسة وبكيت دافنًا وجهي في يدي، داعيًا الله ألَّا يسمعني أحد، داعيًا، فجأة أصبحت أدعو، أدعو أن ينتهي الطغيان؛ كلمة لم تعد مجرَّدة، لم تعد للشعارات فحسب، بل جريمة حميمة. احترقتُ بالأمل، بالأمل والخوف وبقلة صبر

عنيفة. حاولت كبح ذلك كله في النهار، لكنني كنت أستسلم له تمامًا في الليل. وكان له اسم، الربيع العربي، ظرف مؤقت لكنه لم يعرف قيودًا ولا حدودًا، حالةٌ تخصُّ القلب مثلما تخصُّ البرلمان، وتنتمي إلى الطبيعة، إلى دورة الفصول الأبدية، مؤكِّدةً ما اعتقدتُه دائمًا في سِرِّي: أن الحرية كالزهور آتية لا محالة، وأن الشتاء سيأتي يقينًا، لكنه لن يدوم أبد الدهر.

بقيت على هذه الحال، أنام قليلًا، وأحدِّق إلى هاتفي في الظلام. الجميع كان نشطًا: أختي وأمي، وأصدقائي، وأبناء أخوالي وعمومتي. كنت أتنقَّل ساعاتٍ بين مختلفً وسائل التواصل الاجتماعي. شوقي لأختي ووالديّ، لبيتنا ولبحر طفولتي، شوق طالما تحكَّمت فيه وقيَّدته، ثار الآن جامحًا ولا يعيقه شيء، حرارته ترجفني في بعض الأحيان.

اندفعت سعاد بلا هوادة، ترسل إليَّ رسائل، ومقتطفات من أخبار القاهرة وتونس، وشهادات شخصية لرجال ونساء يغالبون قلوبهم المذعورة. لم أعرف كيف أرد. وأنا، في عامي الخامس والأربعين، كنتُ مُسَمَّرًا في مكاني، في سريري، في غرفتي، في شقتي الصغيرة المستأجرة في شيبردز بُش حيث يمكن طردي منها بإشعار مدته شهر، داخل الحياة الهشَّة التي بنيتها لنفسي خلال السنوات السبع والعشرين الماضية، منذ أن كنت في الثامنة عشرة من عمري. بسبب الطبيعة الفاضحة لهذه التطبيقات، كنت أعلم أن أختي تستطيع أن ترى أنني أتلقَّى رسائلها وأقرؤها.

أراد زملائي في العمل أن يعرفوا رأيي في الربيع العربي، وإذا كانت عائلتي بأمان في الوطن. استدعتني مديرة المدرسة للاستفسار بلطف عن حالي.

قالت: «لاحظت توًّا أنك تبدو متعبًا». عندما لم أقل شيئًا قالت: «أقدِّر أنك لا بد مشغول بالأخبار».

قلت: «إنني بخير، حقًّا».

٨٦

بدأت أتناول حبوبًا منوِّمة، وحاولت الحدَّ من مقدار الأخبار التي كنت أتلقَّاها. لم أردّ على رسائل مصطفى ولا على رسائل سعاد. ثم، في مطلع فبراير، هاتفت مصطفى والتقينا تحت جسر هامر سمِث. مشينا بمحاذاة النهر. بدا عليه القلق.

قال: «إني قلق على علي»، ثم بدأ يتكلَّم عن شيء آخر، عن شقته وأنه يفكِّر في الانتقال.

علي هو شقيق مصطفى الأصغر. كان عليه أن يكبر سريعًا ويتولَّى مسؤوليات أكثر لما لم يعد باستطاعة مصطفى أن يرجع إلى الوطن، مسؤوليات ما فتئت تزيد في السنوات السبع والعشرين الماضية.

سألته: «لماذا أنت قلق؟».

«لا أدري. سمعت شائعات»، قال. «عن حراك حقيقيّ، انتفاضة. يقولون إن تاريخ ١٧ هو اليوم الموعود. من المقرر أن تُقام مظاهرة موازية أمام السفارة»، قال وسكت وهو يلتفت إلى الوراء ناظرًا إلى النهر المتعرِّج. كانت صفحة

الماء هادئة وإن تحركت بسرعة. ثم وهو يواجه ذلك الاتجاه قال: «سأذهب».

قلت: «بعد سبعة وعشرين عامًا».

بدا محاصرًا في زاوية. قال: «الأمر مختلف تمامًا. الآن عندنا فرصة حقيقية».

تفتَّحت محبَّتي لصديقي الآن كجوع في صدري. كنت في داخلي أتصدَّع. سرى القلق في دمي، وفكَّرت في كبح جماحه، اعتراض اندفاعه، منحه فرصة لإعادة النظر. لكن، إعادة النظر في ماذا؟ فكلُّ الأشياء، معظم شؤوننا، تسير على ما يرام في نهاية المطاف، كما قال حسام منذ مدة ليست بعيدة. ثم إنك ربما أقل قلقًا عليه وأكثر قلقًا على نفسك، على ما سيحل بك. أحطتُ كتفيه بذراعي. لم يستجِب، لكنني كنت موقنًا أنه عرف فيما كنت أفكر.

ما لم أعرفه هو أنه كان قد حدَّث ربَّ عمله بشأن الحصول على عطلة بلا أجر، ودون تردُّد قَبِلَ عواقب إنزاله من رتبة مدير فرع. في الحقيقة، كان حُرًّا. في اليوم التالي، هاتفني ساعةَ غدائي، وقد أحاطت به الأصوات وضجيج حركة المرور. بعد واقعة إطلاق النار والحصار، انتقلت السفارة الليبية، عندما أُعيد افتتاحها في النهاية، إلى مبنى جديد في حي نايتسبريدج، مقابل هايد بارك. اختيِر هذا الموقع لأن الرصيف هناك ضيق جدًّا لا يسع إقامة مظاهرة، كما هو حال السفارة الإيرانية التي كانت في

آخر الشارع. أي شخص يرغب في التعبير عن احتجاجه كان عليه أن يقف في الجانب المقابل من الشارع ويصيح معبِّرًا عن سخطه من هناك.

لم يكن يوم ١٧ فبراير قد حلَّ بعد، غير أن جمعًا صغيرًا من الليبيين تجمهر هناك وكان مصطفى منهم. سمعت هتافات: «يسقط الطاغية»، «ليبيا حُرَّة»، وغير ذلك. استلذَّ أسئلتي الحائرة، وكان حينها، في تلك اللحظة، أن ظهرت النبرة الجديدة في صوته: رسمية قليلًا، وهو ينطق باسمي الذي يعرفه حق المعرفة، كأنه كان غرضًا يقع خارجه، شيئًا عليه أن يشقَّ طريقه حوله. رغبته في أن أكون قربه جعلته يتصرف كأننا كنا غريبين.

كل يوم كان هناك، في الأسابيع الثلاثة أو الأربعة التالية، واقفًا في البرد، وقد صار أكثر ارتباطًا بالمجتمع الليبي، الناس أنفسهم الذين حاولنا تجنبهم. في الأماسي كانوا يتعشون جميعًا في بيت أحدهم. بدأ نمط كلامه يتغيَّر، صارت تغلب عليه العاميّة الليبية. لم يعد يتكلم معي بالإنجليزيّة الآن إلا فيما ندر.

٨٧

توقفت عن تناول الحبوب المنوِّمة وسرعان ما عدت إلى السَّهَر معظم الليل. بحثت عن تذاكر سفر إلى بنغازي. أكثر من مرَّة، شعرت بدموعٍ تنساب على وجنتيَّ في الظلام وسمعتها تقطر على وسادتي.

في ١٧ فبراير، بعد صمتٍ دام بضعة أيام، أرسلت سعاد عدة رسائل نصية، واحدة تلو الأخرى، في نحو الساعة الثانية صباحًا بتوقيتها والواحدة صباحًا بتوقيتي.

نحن على سلالم مبنى المحكمة.

مئات، ربما آلاف.

نساء كثيرات.

ماما وبابا هنا أيضًا.

بابا يقول لي أن أقول لك إن الوقت الذي انتظرتَه قد حان.

نحن هنا منذ منتصف الليل.

البحر وراءنا.

مظلم لأن الوقت ليل.

لكننا نستطيع سماعه.
ليتك هنا، ليتك هنا وليتك هنا.
البلاد كلها يدٌ واحدة، نعبر حدودًا خفيَّة معًا.
ماما تقول هذه لحظة الحسم.
دعواتك لنا.

٨٨

انضم إلى الثورة أفـراد من الجيش الليبي المتمركزون في بنغازي، وسرعان ما تحرَّرت المدينة. عمَّت الاحتفالات الشوارع. أصبح مبنى المحكمة مركزًا للاحتفالات. غنَّى الناس ورقصوا، منخرطين في عناق جماعي أخذ يثني صفوفهم ويقيمها كأمواج البحر الشاهد عليهم من خلفهم. وجوهٌ شابَّة لا تقاوم الابتسام، وما لبثتْ أن وحَّدتها الأغنية التي أصبحت نشيد ثورة ١٧ فبراير:

سوف نبقى هنا
كي يزول الألم
سوف نحيا هنا
سوف يحلو النغم

رُفِعَت جميع القيود المفروضة على المكالمات من خلال الإنترنت. كنت أتحدث مع أهلي أو نتبادل الرسائل كل يوم. لم يعد هناك خوف في أصواتنا.

كانت أمي تقول: «قريبًا ستعود إلى الوطن». كانت تقول ذلك تقريبًا كل مرة تتكلم فيها، وكلَّ مرة قلتُ فيها نعم، اعتقدتُ أنني عنيت ما أقول، وليس فقط لأنني لم أعرف كيف أجيب بطريقة أخرى، أو كيف أشرح حقيقة أن بنغازي، وإن كانت أكثر مكان اشتقت إليه، كانت أيضًا أكثر مكان أخاف العودة إليه. إن الحياة التي بنيتها لنفسي هنا قائمة على توازنٍ دقيق. يجب أن أتشبث بها بكلتا يديَّ. إنها الحياة الوحيدة التي أملكها الآن. سيكون عليَّ هجرها لكي أعود، ومع أنني أرغب في هجرها أخشى ألا أقدر على إعادة بناء حياة جديدة، حتى لو كان ذلك في طيَّات الحياة القديمة. أنك تستطيع العودة ما هي إلا خرافة، وخرافةٌ أيضًا أن اقتلاعك من جذورك مرةً يجعلك أقدر على فعل ذلك مرةً أخرى.

«قريبًا ستعود إلى الوطن».

ثم في صباح يوم أحدٍ هاتفني أبي، متظاهرًا بالسؤال عن أسبوعي وكيف مرَّ. شكوتُ إليه ساعات العمل الطويلة، وبالغت في وصف الصعوبات، مؤكِّدًا على نقص عدد الموظفين. لكنه عرف ما كنت أقول حقًّا، وقرَّر أن يخبرني عن شجرة التين القديمة في الفناء، تلك التي كانت تتجنَّب الموت منذ سنوات.

«إنها تزهر فجأة. أوراقها بعرض أطباق العشاء. مكتنزة بالفاكهة. سأعدّ مُربَّى».

عندما لم أقل شيئًا تكلَّم مرة أخرى.

«تكبُر وتعيش ويصير بمقدورك أن تعرف مآل الأمور. سِمَةٌ بعينها، كالطريقة التي يميل بها رأس أحدهم. وأنت، يا ولدي الحبيب، طالما كنت ملاكًا حريصًا، حتى عندما كنت رضيعًا، وُلِدتَ ومعك سلَّة همومك الخاصة».

«إني متفائل يا أبي»، قلت لأنني لم أعرف ما أقول غير ذلك. كنت موقنًا أنه لم يخبر أمي بواقعة إطلاق النار، لكنني مع ذلك قلت: «مهما نتج عن هذه الأحداث، أرجوك لا تذكر ما حدث لي. لا تذكره لأي أحد، خصوصًا أمي وسعاد».

قال: «لن أفعل».

«لا أعتقد أنني أستطيع تحمُّل ذلك»، قلت وتساءلت إن كان يظن أنني أوبِّخه على ما بدر منه حين رأى ندوبي.

قال: «أعدك ما دمت سَتَعِدُني بأنك ستلبسها كوسام شرف. الأحداث اليوم تثبت صحة تصرفك».

كان والداي يتحدثان عني، وليلًا في فراشي تخيَّلت كلماتهما عن الابن الذي لم يستطع العودة إلى الوطن، والآن لم يعد إلى الوطن، الذي ظل ـ في الخامسة والأربعين من عمره ـ أعزب وبلا أطفال. حياته توقفت. خجلتُ، ومع ذلك، في تلك الأيام الأولى بعد سقوط النظام، كانت هناك لحظات شعرتُ فيها باستقرار لم أشعر بمثله من قبل قط. كنت أقف عند ناصية الشارع الذي أقطنه خارج مطعم بيتزا الحي منتظرًا طلبي، فأجدني

مسرورًا بالضوء المألوف، مستشعرًا مسار روتين: أستطيع توقع بقية اليوم، كيف سيتغيَّر الضوء والساعات بعد ذلك.

ثم هاتفتني أمي وهذه المرة سألتني السؤال مباشرة. «لماذا لا تعود إلى الوطن؟ تفهَّمتُ الوضع في السابق. أبوك أخبرني»، غاص قلبي، لكنها بعد ذلك قالت: «كتبتَ مقالة في مجلة الجامعة وسبَّبت لك مشكلة. وماذا في ذلك؟ عفَّى الدهر على ذلك الآن. ما الذي يعرقلك؟».

كان فمي ممتلئًا وفارغًا في وقت واحد. فارغًا لأن كل شيء فيه كان بلا شكل ولا صوت ولا هيئة. وممتلئًا بكل ما شعرت به حينئذٍ وأشعر به الآن. إنَّ ما أودُّ العودةَ إليه لا أستطيع العودة إليه لأنني والمكان تغيَّرنا وما بَنَيْتُهُ هنا قد يكون هشًّا ورقيقًا، لكنه كلَّفني كلَّ ما عندي، وأخشى أنني إذا رحلت فلن تواتيني الإرادة للعودة ومن ثمّ سأضيع مرة أخرى وقد ضعت من قبل وسأبذل ما بوسعي لئلا أكون ضائعًا مرةً أخرى، وأنني لا أعلم إذا كان ذلك جُبنًا أم شجاعة ولا أكترث وقد قررت دون أن أقرِّر، لأنه خياري الوحيد، أن أمتثل للأيام، وأنام حين يكون خيرًا لي أن أنام وأصحو في الوقت المناسب لأهتم بعملي وبالناس الذين يعتمدون عليَّ. أردت أن أقول لها إنني أحب أن أكون شخصًا يُعتمد عليه. أحب حقيقة أن زملائي يعتمدون عليَّ وكذلك طلابي وآباؤهم ومالك الشقة. إنني أرجو أن أكون شخصًا أفضل لأجل هانا، وإنه بين جميع من أعرف هنا لا أحد سواها أفضَل الاعتماد

عليه أو اعتماده عليَّ وإنني آمل أن تلتقيها يومًا وتعرف ما أقصد. إن هؤلاء الناس سيكونون بخير من دوني، لكنني متماسك بفضل مطالبهم وإنني آسف جدًّا لأنني لست إلى جانبها، لست الابن الذي طالما تخيلتُ أن أكونه ورغبتُ في أن أكونه. وإن قطاري لا يمكنه إلا الاستمرار، وإلَّا فإنني أخشى السقوط من على جرف. وأردت أن أقول لها إن الطيران، مفارقة الأرض، كان كالانفصال عنها هي، وأما الآن وأنا على الأرض، فلا أريد أبدًا أن أقتلَع من الأرض مرة أخرى وإنني لأخجل من ذلك، وخجلت منه زمنًا طويلًا لكنني لم أعد خجلا منه. وإنني أعلم أن أبي يشيخ ويحتاج إليَّ وإن سعاد أصبح لها ثلاثة أطفال كنت لهم خالًا غائبًا وإنني لم أمنح أبي وريثًا وأعلم أهمية ذلك له وإن هذا كله ترك فيَّ قناعة بأنه لا ينبغي لأحد أن يترك وطنه أبدًا. إنه مهما يحدث لك عندما تكون في وطنك فإنه يحدث لك وأنت في وطنك. أردت أن أقول لها إن أصدقائي لم يكفُّوا قطُّ عن الرغبة في حياة مختلفة. لكنني نجحتُ، يا أمي، في ألا أرغب في حياةٍ مختلفةٍ معظم الوقت، وفي ذلك شيءٌ من الإنجاز.

٨٩

تابعتُ الأخبار بهوس. كانت الثورة الآن تتجه غربًا نحو العاصمة طرابلس. غير أن النصر لم يكن مؤكّدًا.

ذات أصيل خرجت من الصف ووجدت ثلاث مكالمات فائتة من حسام. حاولت مهاتفته لكن الاتصال تحول مباشرة إلى البريد الصوتي. استمعت إلى الرسالة التي تركها.

«خالد، يا عزيزي»، قال بدفء صادق وبلا أي تردد في صوته. «أنا في المطار، ذاهب لرؤية أبي. أعرف أن الأوضاع مضطربة، لكنني قررت في وقت متأخر ليلة أمس. قد تكون هذه فرصتي الأخيرة لأراه. والآن وأنا ذاهبٌ إليهم، فإن شوقي إليهم جميعًا لا حدَّ له. آسف لأنني لم أتمكن من رؤيتك قبل هذا. لكن من يعلم، قد نلتقي هناك. وداعًا يا صديقي».

جرَّبت مهاتفته مرة أخرى ثم هاتفت كلير. ولمَّا لم تُجِبْ هاتفتُ مصطفى.

قال: «حسنًا فعل. ينبغي أن نتبعه».

في المساء ردَّت كلير على اتصالي. بدأت تسرد لي ـ على غرار ما يفعله الناس عندما يسردون سلسلة من الأحداث التي قادت من الحياة المتوقَّعة الهادئة إلى كارثة، محاولين تحديد التحوُّل المباغت الذي لم يعد بعده شيء مثلما كان ـ كيف أصبح حسام مترددًا جدًّا في الأيام التي أفضت إلى رحيله، عاجزًا عن النوم، يحدِّث عائلته باستمرار بالهاتف، أو هادئًا وشارد الذهن. ثم قالت في مدة الصمت التي تلت ذلك: «ربما هذا أفضل».

قلت: «تتكلمين كأنه لن يعود أبدًا».

قالت: «أخذ كتبه معه».

«لكنه دائمًا ما يأخذ كتبه أينما ذهب».

«بالضبط»، قالت، ثم سمعتها تقول «آسفة» وهي تبكي قبل أن تغلق الخط.

٩٠

في الصباح الباكر من ذلك الأحد رنَّ جرس الباب. كان ذلك مصطفى.

قال: «ما زلت في الفراش؟».

ضغطت له زرَّ فتح الباب وذهبت إلى الحمام. خرجت ووجدته يدخِّن في المطبخ. أعددت قهوة، وحمَّصت بعض الخبز ودهنته بالزُّبْد. جلست قبالته إلى جنب النافذة التي يتسرَّب منها البرد، أمدُّ بصري إلى الحدائق الخلفية الفارغة للبيوت المجاورة والتي تنقصها العناية، وقد اصطفت كطابور أطفال مضطربين وشُعْث. السماء، المحبوسة خلف طبقات الغيوم، ملأت نصف النافذة العلوي. فكرت أنني ينبغي أن أنتقل إلى حيٍّ أفضل. أن أعيش بين الأثرياء، أصحاب الحدائق التي تحظى بالعناية.

قال: «يلعن دين البرد هنا».

قلت: «تعطَّل السَّخَّان. وعد المالك بإصلاحه».

أحاطت يداه بفنجان القهوة، كان بخار خفيف يتصاعد منه ويتلاشى أمام وجهه.

قال: «انضم علي إلى الجبهة. لقد وصلوا إلى راس لانوف. سأسافر بعد يوم غد». ثم قبل أن يطول الصمت قال: «لا أفهمك. إنك تتصرف كأن شيئًا لم يحدث».

انتظرت ريثما يخفُّ الهلع.

ثم قال: «بلادك بحاجة إليك»، وقد قال ذلك بتعاطف، بلا شكٍّ ولا سخرية.

«ما سيحصل سيحصل، بي وبدوني».

قال، ونبرته تغلظ: «إنها نرجسية أن يخفيَ المرء نياته وراء نظريات الحتمية».

كان الصمت الذي أعقب ذلك مستترًا وهائلًا كالسماء الملبَّدة بالغيوم فوقنا.

«سأوصلك إلى المطار»، قلت ولم يرفض.

يومها أخذت عطلة واستأجرت سيارة. لم يكد يقول شيئًا طوال الطريق إلى هيثرو. لكن، بعد ذلك، عندما ولجنا نفقًا يقترب من مبنى المسافرين بدأ يتكلّم.

«لقد جمع العلماء أدلة هي من بين الأقوى إقناعًا حتى الآن على وجود الماء على القمر. اعتُقِد أن سطح القمر كان جافًا، لكن في تسعينيات القرن العشرين عُثِر على بعض المؤشرات على وجود جليد. وقد اكتشف علماء ناسا اليوم وجود الماء، الأمر الذي سيكون له تأثير في البعثات إلى القمر، إذ يبدو أنه يمكن معالجة

الماء واستعماله للشرب. إلّا أن هذا يعني استخراجه من فوهات مظلمة جدرانها شديدة الانحدار حيث يبدو أن درجة الحرارة لا تكاد تصل إلى أكثر من ـ ٢٣٠ درجة مئوية». بعد وقت قصير، بينما كنا نصعد الطريق المنعطِف إلى موقف السيارات وإطارات السيارة تزعق زعيقًا خافتًا، قال: «ألا يقشعرّ بدنك عندما تفكر أن قلب الكون شديد البرودة؟ مصادفة الشمس هي السبب في أن كل هذا...» ولوَّح بيده.

بقيت معه حتى أنهى إجراءات السفر. كان سيطير إلى الإسكندرية ومنها ستقلُّه سيارة إلى الحدود. فاجأتني قوة عناقه. تشبَّث بي وقتًا أطول مما توقَّعت، واعتقدت أنني استطعت الإحساس بخوفه. فكَّرت أن كل هذا الكلام المتعلق برغبته في ذهابي معه لم تكن له علاقة بالسياسة. عندما تحرَّرنا من العناق كانت عيناه حمراوين وبقيت يداه على كتفيَّ.

قلت له: «أيها الوغد المحظوظ»، وحاولت أن أضحك.

ابتسم ابتسامة واهنة ومعقَّدة، ابتسامة كانت مقصودة لنفسه أكثر مما كانت مقصودة لي.

٩١

برحيل صاحبيَّ أصبحت أقف على شفا هاوية. تلك الليلة، بعد أن أعددت العشاء وأكلته في المكان نفسه في المطبخ، وفنجان القهوة الذي شرب مصطفى نصفه لا يزال على الطاولة، وكان باستطاعة جيراني، إن شاؤوا، رؤيتي آكل وحدي، بدأ هاتفي يومض مُظهِرًا رقمًا ليبيًا. كان ذلك مصطفى. توجَّه أسطول كامل من أبناء عمومته من الدرجة الأولى والثانية لاستقباله في الحدود المصرية. بدا صوته مغتبطًا، كأنه أخيرًا وصل إلى قلب الأشياء، حيث لا خوف من المقاطعة، ويمكنه الاعتماد على اهتمام الآخرين فحسب.

نادى: «يا علي، أين السيارة يا رجل؟».

سألته: «هل ذلك أخوك؟».

لكنَّ علي كان يخبره بشيء ما.

«باهي»، أجاب مصطفى بالنبرة العالية نفسها، «إذًا اذهب وأحضرها يا رجل».

يقول علي شيئًا آخر.

يقول له مصطفى: «باهي. سأنتظر هنا إذًا. ربي معاك».

عاد إليَّ وقد تغيَّر صوته قليلًا، وسألني ذلك السؤال الزائد عن الحاجة: «كيف حالك؟».

سألته مرة أخرى: «هل ذلك أخوك؟».

قال: «نعم. عاد من الجبهة عندما سمع عن مجيئي».

«سلِّم عليه من فضلك».

«الصبي نمت عضلاته»، قال: «سأوصل سلامك».

سألته: «كيف هو الشعور بالعودة؟».

«كيف هو؟ جميل. دين أم الجمال. كأنك أُعِدتَ من الموت. هواء يملأ رئتيك».

وها هي مرة أخرى، السِّمة الجديدة الأخرى في صوته، نبرة إلى جانب نبرة العتاب، تلك التي لم أستطع تمييزها فورًا. بدا من صوته قويًّا، مصحوبًا، تلك كانت الكلمة: مصحوبًا.

٩٢

بعد وصول حسام إلى بنغازي بوقت قصير، بدأ يرسل إليَّ رسائل بالبريد الإلكتروني. اتَّسَمَتْ بِسِمَةٍ ليلية، كأنما كُتِبت في جوف الليل، بعد أن نام الجميع وهدأت أحداث اليوم. كان أبوه في البيت، لكنه يرقد على سرير طبي في وسط غرفة كانت سابقًا غرفةَ الطعام في الطابق الأرضي لبيت العائلة. كان هذا هو البيت نفسه الذي وقفتُ خارجه ذات يوم، ويبعد عن بيتنا مسافة قصيرة مشيًا على الأقدام، في وسط البلاد، تلك المنطقة في بنغازي التي ـ بعد ثلاث سنوات، وبعد سقوط النظام بمدة لا بأس بها ـ أجبرت الفصائلُ المتحاربة سكانَها على الإخلاء، فاضطُرَّ والداي إلى الانتقال إلى سكن مؤجَّر. لكن قبل هذا بوقت طويل، عندما وقف بيتنا وبيت حسام سليمين من القنابل والرصاص، كان والد حسام، وقد ضعف عقله، يرقد وحيدًا معظم الوقت، يتعافى. أكثر نشاط البيت كان يتم في الغرف الأقل رسمية في الطابق العلوي. لم يعد سِيدي رجب زوة قادرًا على التعرف إلى هوية الناس من حوله، أفراد عائلته بعينها، وهو الذي عُرِفَ بلقب «الرادار» كما ذكر أبي، لفراسته في الحدس بميول الملك إدريس السِّرِّيَّة،

فكان متسقًا مع طبيعة الملك التي وصفها أبي بـ«كراهيته للسياسة، وطبعه المنزوي، وتفضيله الحلول الهادئة».

كتب حسام في إحدى رسائله الإلكترونية المبكرة:

كلَّ مساء ينسى أبي من أنا، وعلينا أن نلتقي لأول مرة من جديد. يفضِّل التحدث بالإنجليزية. يقول الطبيب إن هذا طبيعي ومتوقع. حينها من المستحيل عدم مسامحته. أجلس إلى جانبه ونتحدَّث مثل مسافرَين في قطار والغرفة تظلم من حولنا. عرفت أشياء كثيرة عن أبي وعن أيام شبابه. تسامحنا دون حاجة إلى تصالح أو تفسير. في مرة من المرات، عرض عليَّ وظيفة. «سأتوسط لك في الوزارة»، قال وعيناه تتسعان بحماسة. غالبًا أبقى إلى جانبه حتى منتصف الليل. في بعض الأصباح يتعرَّف إليَّ، فيكون ذلك كأن الشمس أشرقت. أعدِّل هيئتي، أنهض، وأقبِّل خدَّيه. أول مرة حدث هذا، شيء في وجهه ـ ثقته اللطيفة وحيرته ـ أثار اضطرابي. ربَّت رأسي وقال: «لطالما كنتَ هكذا». وما إن قال هذا حتى اختفى في الضباب مرة أخرى، وتغيرت عيناه وقلبي أيضًا، فأعادني إلى الوراء، إلى ذكريات شبه منسيَّة.

لسبب ما، كان يرفض دائمًا تعليمي السباحة. كلما سألته أمي كان لا يجيب فحسب. ولا بكلمة. وإذا كنت هناك التفت إليَّ وقد ثبّت على وجهه تعبيره اللا نهائي ذاك: المهيب، الفارغ، الذي بلا معنى. مثل الآن إلى حدٍّ ما. لكنَّ أمي كانت عندها طريقتها معه، وكانت تعرف

أن هذا، مثل أسئلة أخرى، هو بمثابة قطرات الماء للأرض. إذا تكرر الأمر بما يكفي، فسيُشَقُّ طريق في النهاية. عندما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، اصطحبتني معهم إلى القارب الذي كان يحتفظ به أهلي في خليج صغير تحفُّه الأشجار قرب مزرعتنا في الجبل الأخضر. كان والداي يستعملانه للتَّسلُّل حول الخليج بحثًا عن أماكن مستورة لا يمكن الوصول إليها من الشارع. بهذه الطريقة تمكنت أمي وأخواتي الثلاث، هنيَّة وسهام ونجمة، من خلع فساتينهن الباهتة وارتداء ملابس السباحة الزاهية التي حصلن عليها في رحلاتهن إلى لندن أو باريس أو ميلانو. غطسن في الماء بلا خجل صائحات ضاحكات، ومع كل غطسة كان القارب الصغير يتأرجح من جانب إلى آخر. طوال الوقت كان أبي يبتسم، ويضع ذراعه على كتفيَّ، وكنا نشاهد أمي وبناتها يسبحن في المياه الشديدة الزرقة، وأشعة الشمس تنعكس على الرمل الشاحب في الأسفل وترقص حولهن. عُدْنَ صاعدات إلى القارب وجلست أخواتي على مناشفهن، وشعورهن تقطر. سأل أبي عدة مرات إن رأى أحد منَّا السكين، ثم بدأ يقطع الخبز بيديه، ويفتحه بأصابعه. بالملعقة وضع فيه التونة والهريسة، ثم بإبهامه ضغط فيه الزيتون الأسود والأخضر. أكلنا باستمتاع كبير. قالت أمي أو أبي، لا أتذكر أيهما، ما سمعتهما يقولانه مرات كثيرة من قبل، عن أن البحر يجعل أبسط الطعام لذيذًا. كان فمي يحترق، لكنني لم أستطع التوقف عن الأكل. ثم استلقى

بعضنا قرب بعض وتنفسنا بيسر والقارب يتمايل. في هذه الرحلات، لم يصحب والداي خدمًا ولا أصدقاء. كان هذا سرّهما. كان هناك اعتراف صامت بهذا، وهو ما أثار أخواتي، إلا أنه أيضًا جعل من المستحيل عليهن أن يكنَّ مرتاحات كل الراحة. كنَّ يتشمَّسن ويتظاهرن بالاسترخاء، إلا أن أقل صوت أو حركة في اليابسة ـ ماعز شارد يتسلق الجرف أو لَقْلَق يصوِّت بمنقاره أو أي طائر كبير آخر يحطُّ على صخرة ـ تفزعهن، وتجعل أيديهن تتناول المنشفة، وتجلب الذعر إلى وجوههن.

جلست أمي وقدماها متدليتان في الماء، مواجهة اليابسة. رأتني أنظر إليها. «تعالَ واجلس إلى جانبي»، قالت، ثم مشت نحوي فاهتز القارب. رفعتني، وكانت أصابعها قوية حول قفصي الصدري، وأجلستني بقربها على حافة القارب. «من الصعب الغرق»، قالت، وكانت أصابع قدميها ترش بالماء. «البحر يدفعك إلى الأعلى. لا تخف».

نظرت خلفي فرأيت أبي يراقبني. بدا نعسانًا قليلًا. قلت لها: «لكنَّ الناس يغرقون طوال الوقت. سفن كاملة».

قال أبي: «البحر صديقك».

كنت محاصرًا. لم يكن هناك مكان أهرب إليه. نظرت إلى أخواتي وكانت عيونهن مغمضة أمام الشمس. فكرت؛ لو كان أخي وليد هنا لشتت الانتباه عني. كان في صمت والديَّ ترقُّب، لم يقطعه إلا ارتطام الماء برفق بالقارب. في تلك الثواني استحال خوفي تحدِّيًا. لم أستطع أن أفهم سبب فرض

طلبِ مثل هذا عليَّ. ضغطت راحتيَّ إلى الأسفل وقفزت من القارب. ضرب الماء صدري وجانب عنقي، وأحرق الملح دواخل منخريَّ. خبطتُ الماء الساكن حتى أصبح أبيض. سمعت صياحًا وأمي تقول: «ليس هكذا». كان الماء أقسى وأثقل مما تخيلت. فجأة كان أبي إلى جانبي، قماش قميصه الأبيض ينتفخ حوله. أتذكر ذراعيه القويتين والرفيقتين وهما تسندانني من الخلف. حبّه وخوفه. أخواتي كُنَّ يضحكن. حتى بعد أن صعدت إلى متن القارب، وتنشَّفت، وقيل كل ما كان ينبغي أن يقال في هذا الشأن، استمرت أمي، وإن بوتيرة أقل، تقول لأبي الذي كان يقود القارب عائدًا، وأحيانًا بهدوء وبتجريد حتى كانت كلماتها تبدو كأنها لم يُقصَد بها أحد آخر سواها: «لم أعتقد أنه سيفعل ذلك حقًّا». واجهتُ الجهة المقابلة ناظرًا خلفي إلى أثر الأمواج، والريح تطيِّر شعري إلى الأمام، وتساءلت؛ ربما لم يكن قصدها أن تحثني على القفز، إنما أرادت تذكير أبي بتعليمي السباحة، ومن ثم فإن كلماتها، وما قالته لي عن البحر وأنا جالس إلى جانبها على حافة القارب، كان موجهًا إليه هو، وأنه حين قال: «البحر صديقك»، كان يقترب من قبول واجبه، ولعلني عرفت ذلك بطريقة ما فقفزت رافضًا تدخُّلَه.

٩٣

بعد صمت دام بضعة أسابيع، أرسل مصطفى رسائل نصية عديدة، واحدة تلو الأخرى، بتتابع سريع:

من المستحيل سدّ الفجوة.

بلادنا غارقة جدًّا في الماضي بحيث إن تجربتنا البريطانية لا تجدي نفعًا هنا.

نحن ظلال.

هنا وهناك.

ظلال.

إلاّ إذا عدنا.

أعني عدنا حقًّا.

كتبت: «وماذا عن التقدم؟» قصدت السؤال بسخرية.

أجاب: «أحيانًا، لتتقدم عليك أن تعود إلى الوراء».

تلقيت منه المزيد من الرسائل النصية المبهمة كهذه، وكلما حاولت معرفة المزيد عما يعنيه، غيَّر الموضوع، أو قال: «لا بد أن تكون هنا لتفهم». وهكذا أصبحت رسائله تشبه منشورات،

كأنني كنت أنا لوحة الإعلانات التي يستعرض فيها أفكاره. توقفت عن الرد من فوري، وأحيانًا ما كنت أرد البتَّة.

بعد بضعة أسابيع أخرى من الصمت، وصلتني هذه الرسائل:

ليس عندي وقت طويل لأخبرك بهذا.
انضممت إلى القتال.
أشياء كثيرة على المحكّ.
إني تارك كل شيء ورائي.
أتجه إلى الأمام. سأقول لك هذا مرة واحدة فقط.
انضم إلينا.
ستعرف عائلتي أين أنا.
تمنَّ التوفيق لصديقك القديم. سامحه على أخطائه.

حاولت مهاتفته، لكنه لم يُجِب. لم أحاول مرة أخرى. ما الفائدة؟ ما كان بوسعي أن أقول؟ لم تكن عندي قناعات كافية لإقناعه بألَّا يقاتل. وقد أقسمت منذ زمن طويل بألَّا أحاول إقناع أحد بما لست متيقِّنًا منه. لعل القتال هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله.

قضيت ذلك اليوم كلَّه كأن النار تحتي. مرات كثيرة تحقَّقتُ من مواعيد القطارات والعبَّارات. حتى إنني سألت مديرة المدرسة عن إمكانية الحصول على إجازة بلا أجر، وقد حرصت على أن تكون نبرتي افتراضية. عندما بدا أنها لم تفهم السؤال قلت: «أعني، هل فعل هذا أحد من قبل؟ أعتقد أن سؤالي هو: ما سياسة المدرسة فيما يتعلق بإجازة بلا أجر؟».

«سياستنا؟» سألت ضاحكة. «سياستنا هي أن يأخذ المعلم إجازة بلا أجر وتغرق السفينة».

في نهاية اليوم ذهبت إلى الشقة وبحثت ثانيةً عن القطارات والعبَّارات. هاتفت حسام طلبًا للنُّصح. قال إنني مجنون لأفكرٍ في الأمر، وإنني كبير السِّن، وإن إصاباتي، على كل حال، كانت أشد من إصابة مصطفى، وقد جعلتني، برأيه، غير قادر على متطلبات الحرب.

قال: «كيف يتهوَّر مصطفى ليقترح ذلك حتى!».

قلت كاذبًا: «لم يقترح. أقصد ليس تمامًا».

قال حسام: «إذا أردت المجيء فتعالَ لترى والديك ووطنك الجميل. تعالَ لتراني. ستسعدنا جميعًا كثيرًا».

لم أسمع من مصطفى شهرًا آخر. هاتفت أهله. أخبرتني أمُّه بأنه بخير.

قالت: «يأتي إلى البيت كل بضعة أسابيع لتغيير ثيابه وأكل طعام جيد والاستراحة عدة أيام. هِمَّته عالية. إيمانه بالله قوي. سننتصر».

كنت على يقين بأن ما قالته عن إيمانه بالله لم يكن إلَّا أمنية من أمنياتها. لم أعرف مصطفى مصلِّيًا قطّ. كنا نصوم رمضان، لكن على سبيل العادة والابتهاج بالعيد المرتبط بالشهر الفضيل. كثيرًا ما كانت آراؤه في المسلمين الملتزمين نقدية، بل حتى ازدرائية.

قالت والدة مصطفى: «ولداي الاثنان في الحرب، الحمد لله».

سألتها إن كانت تحتاج إلى أي شيء.

«مستورة والحمد لله. شكرًا على اتصالك يا ولدي. اعتنِ بنفسك وأخبرنا إن احتجت إلى شيء من هنا».

٩٤

في ربيع ذلك العام، لمَّا لم يكن واضحًا بعد إذا كانت الثورة ستنجح، توفي والد حسام في نومه. فَوْرَ تلقيت رسالته هاتفته.

«نعم»، أجابني ولاذ بالصمت فعرفت أنه كان يبكي.

أعطى الهاتفَ أخاه وليد الذي شكرني على الاتصال قائلًا إن هذا هو حال الدنيا وأراد أن يعرف عن حالي.

قال: «ألن تأتي لزيارتنا؟ الحرية على الأبواب، أو هكذا يقول الجميع».

في الأيام التي أعقبت الدفن والعزاء، عاد حسام إلى كتابة رسائل البريد الإلكتروني إليَّ. هذه الرسائل خصوصًا حملتني إلى الوطن. منذ رحيلي لم أشعر بمثل هذا الارتباط الواضح بوطني. حينئذٍ أدركت أنني ـ بطريقةٍ ما ـ طالما توقعت هذا، ربما حتى منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري وسمعت قصته تُقرَأ في المذياع لأوَّل مرّة، وهو أنه سيكون وسيطًا، وأننا نطلب من الكُتَّاب ما نطلبه من أعز أصدقائنا: مساعدتنا على التصالح مع العالم وتفسيره.

كتب حسام:

طوال الأصيل، يمتلئ البيت عادةً بأخواتي وأطفالهن وأبناء أخوالي وعمومتي وغيرهم. ثم تبدأ النساء في المطبخ بالتخطيط للطعام، فيرسلن الصبية الصغار إلى خارج البيت لجلب هذا وذاك. البارحة، وصلت موجة هذه المطالب إلينا. في البداية كان وليد أعزل، ثم بدأ يسرع في لبس درعه. أخذن يستملنه ويشاكسنه ويتوسلن إليه أن يذهب للبحث عن زيت زيتون، لأنه، بسبب النقص الشديد في الوقت الحالي، كان هو الوحيد الذي يعرف أين يجد بعضًا منه. من المطبخ، قالت أمي بأعلى صوتها حتى يسمعها الجميع: «في هذه المنطقة هو المايسترو». تلك إحدى مجاملاتها العرضية. فهم وليد حقيقة المجاملة، لكن السحر كان قد أُلقِيَ عليه. عرضتُ عليه مرافقته. فعل ما اعتاد فعله حين كنا صغارًا، تظاهر بالتعب وقال: «لا داعي لذلك». إلَّا أنني بدلًا من البقاء هناك نهضت وألححت عليه. من الأفضل أن تكون رجلًا من أن تكون طفلًا. لكن الشيء الغريب أننا ما إن خرجنا واقتربنا من سيارته الواقفة في شمس الظهيرة حتى انتعش مبتهجًا بذهابنا معًا. كانت السيارة شديدة الحرارة. بصعوبة لمست مقبض الباب. فتحنا النوافذ كلها وانطلقنا بسرعة، وقامت الريح بدورها. كان هناك شيء مبهج في الحرارة، كيف تندفع خلال ثيابك وتتغلغل في جسدك. عند إشارة المرور، مدَّ يده وأخذ ينبش درج السيارة. تغيَّرت إضاءة الإشارة وزمَّر السائق الذي كان وراءنا ببوق سيارته ولم يتوقف عن ذلك حتى تحركنا.

قال وليد: «ابحث في الدرج، كاسيتك القديم المفضَّل».

وجدت الكاسيت الأبيض، وقد غطَّاه غبار صحراوي دقيق ونظيف له قدرة على التشبث بأنعم السطوح.

قلت: «أسترال ويكس ـ Astral Weeks»، فضحك ضحكته القديمة المعهودة تلك، كشقوق ممتدة على جدار ثابت.

قال: «ذلك ما كنا نستمع إليه صباح اليوم الذي أوصلتك فيه إلى المطار. كنتَ في الخامسة عشرة وأنا في التاسعة عشرة. صبيان. ما أحلى تلك الأيام!».

ألقمتُ المسجِّلَ الكاسيت. أخرجه، وقلبه إلى الجانب الآخر وبدأ يؤخِّره ويوقفه، ثم يؤخِّره مرارًا. تذكَّرت سيري مبتعدًا عن السيارة ودخولي قاعة المغادرين، الألم في صدري وإثارة السفر كذلك. عثر على الأغنية. استمعنا، وحين غنَّى فان موريسن «واقفز فوق الشجيرات أولًا ـ And jump the hedges first»، السطر الأول في أغنية «شيء حلو ـ sweet thing»، غنَّينا معه. عندما وصل إلى السطر «ولن أتقدّم في العمر هكذا ثانيةً أبدًا And I will never grow so old again»، كنا نغني بقوةٍ في اتّحادٍ تام، مكررين: «شيء حلو، شيء حلو ـ sweet thing/sweet thing».

كنا نتجول بالسيارة الآن بمحاذاة الكورنيش. في أحد جانبيه كان البحر المتلألئ، بتاريخه الأزرق، ومناطقه الشاحبة والمظلمة، وصفحته التي علَّمتها خطوط التيار. صياح النوارس الساحر. وفي الجانب الآخر كانت البلدة. الكاتدرائية الإيطالية القديمة المهجورة الخالية من الصليب، والقباب

العثمانية القديمة المتعبة، وبينها تزاحمت العمارات السكنيّة ذات الطوابق الثلاثة والأربعة والخمسة التي امتلأت بالحياة والثياب المنشورة وأطباق الأقمار الصناعية. كلما وقفنا عند إشارة مرور سلّمنا على أولئك الذين كانوا بجانبنا. فكرت أنني أستطيع العيش هنا إلى الأبد.

توغّلنا في المدينة، وأوقف وليد السيارة عند متجر صغير في حي سكني. طلب مني الانتظار في السيارة. رأيته يكلّم شابًا مفتول العضلات يرتدي قميص تيشيرت أبيض ضيقًا مقطوع الكُمّين عند الكتفين وبخطٍّ رمادي غامق طُبِعَت على صدره كلمة «HERO». أشار إلى مبنى في الجانب الآخر من الطريق، فأسرع وليد إلى هناك واختفى في الداخل. بعد خمس دقائق عاد وهو يجاهد حاملًا صندوقًا ثقيلًا. فتحتُ صندوق السيارة. انخفض مؤخر السيارة قليلًا. بابتسامة رضا قال: «أتعلم ما فعله أخوك توًّا؟» لَكَمَ ذراعي. «صندوق كامل من زيت الزيتون البكر الممتاز من الجبل الأخضر، ومتاجر المدينة كلها خالية منه. لا أحد»، قال بصوت عالٍ ومُتَحَدٍّ ونحن ننطلق بالسيارة، «لا أحد في بنغازي كلها يستطيع فعل هذا».

قلت: «أحسنت».

«الحمد لله»، قال وقد لان صوته، «لكن، بصراحة، إن لأخيك مكانة هنا».

قلت: «وهو كذلك».

قال: «تكسب الكثير حين تكون في مدينتك»، ولزم كلانا الصمت.

تظاهرت بالاستماع إلى فان موريسن الذي كان يغني: «رأيتك هذا الصباح تمشي في طريق لادبروك جروف...». أنت تعرف الأغنية «سلِم سلو سلايدنج-Slim Slow Sliding»، التي تدور أحداثها في منطقتك. أثارت الأغنية حنيني إلى غرب لندن.

«ستفرح أمُّنا»، قال وليد، وبعد ثانيتين قال: «أحب إسعادها».

حاولت أن أبقى مع الأغنية، لكن عقلي كان يقول لي إن شيئًا ينكسر عندما يطول غيابك: العلاقات وأشكال الوجود والأيام - الأيام نفسها، تتحطَّم إلى أنصاف - وغير ذلك كثير مما لا أستطيع وصفه. وتولد أشياء أخرى أيضًا، غير أنه من القسوة مشاركتها الآخرين، لأنها لن تساعد إلا على تذكيرنا وتذكير من تركناهم بما حلَّ محلَّهم. ولذلك تُبقي فمك مغلقًا؛ لأنك لا تريد الاعتراف بمقدار تغيُّرك. لهذا السبب فإن الامتناع عن العودة أبدًا أمرٌ عقلانيٌّ جدًّا (لا تسمع كلام أحد يقول لك غير ذلك)، مع أنني أتمنى لو تعود.

وصلنا إلى البيت وهممت بحمل صندوق الزيت، لكن وليد قال لي أن أتركه هناك، مبتسمًا بخبث. داخل البيت عاد إلى الكلام بصوت ملول وخامل. «فشلنا»، قال رافعًا صوته حتى تسمعه أمي وكل من معها في المطبخ. خرجت أمي حاملةً مئزرها بيدها، وعلى شفتها العليا لآلئ صغيرة من العرق، وقد تورَّد وجهها المتقدم في السِّن.

«لا تقل ذلك»، قالت وعيناها قلقتان بصدق.

قال لها: «أخشى ذلك».

قالت: «ماذا سنفعل؟».

«استعملوا البخار»، قال، وحينها فقط رأت وجهه مقطبًا ليخفي تبسُّمه.

لوَّحت بمئزرها نحوه، ضاربة إياه بقوة. ضحك هو. ثم ضحكنا جميعًا.

قالت له: «يا حمار».

«صندوق كامل أيتها الملكة»، قال وأحاطها بذراعيه وقبَّل رأسها.

كانت عينا أمي فرحتين، وابتسمت ابتسامة جميلة، ممتلئةً بكل ما كانت عليه وما هي عليه: الطفلة، والبالغة، والمرأة المسنَّة، نفوسها المولودة والمحتضرة. فهمت ما قصده وليد.

٩٥

على مواقع التواصل الاجتماعي بدأت تظهر حسابات كثيرة تتحدث عن تميُّز مصطفى في ساحة المعركة.

كتب أحد المساهمين المجهولين: «هناك رجالٌ خلقوا لهذا. يا شباب، تعرفون ما أقصد. فقد رأيتموهم في التجمعات العائلية، والأعراس، والجنائز، وفي الرحلات المدرسية عندما تُثْقَب إحدى إطارات الحافلة فجأة. دائمًا يعرفون ما ينبغي فعله. مصطفى التوني واحد من هؤلاء. ربي يحفظه. ترك حياة الرفاهية السهلة في لندن، حيث كان مدير شركة عقارات دولية كبيرة، ليقاتل في سبيل بلاده».

كتب رجل آخر زعم أنه قاتل إلى جانبه: «له قلبُ جنرال، شجاع لكنه ليس متهوِّرًا، يركب الأخطار الكبيرة، لكنَّه أيضًا ذكي من الناحية الإستراتيجية. سأتبعه إلى أقصى الأرض».

نشرت أمُّه صورًا له في أوضاع مختلفة، مدجَّجًا بالسلاح، وملتفًّا بأحزمة الرصاص، ولم يكن مبتسمًا في أيٍّ منها. بل أظهر وجهه حزنًا أزليًا ومُتعَبًا، كأن هذا هو المصير الذي خشيه سِرًّا. اختفى الكِرش الصغيرة تمامًا. بدت ذراعاه كأنهما منحوتتان،

وكانت لحيته كثَّة وطويلة. كانت له صور وهو يصلي في العراء ورجاله إلى جانبه، وبنادقهم عند أقدامهم. بدت نيته صافية وأنه خاشعٌ خشوعًا جوانيًا صادقًا، حتى ليصعب قبول أنه كان يصلي فقط من باب الالتزام، أو حفاظًا على الروح المعنوية أو تجنبًا للنقد.

سرعان ما أصبح، بين مجموعة مختلفة من الأشخاص الذين انضموا إلى القتال ـ طلاب وأساتذة، أصحاب متاجر ومحامون، قضاة وميكانيكيون، كلهم كانوا غير مدرَّبين وحديثي العهد بالحرب ـ قائدًا لم يتردَّد قطّ في إصدار الأوامر ولا في صفع كل من حاد عن الطريق. في أحد المنشورات أعلن كاتب مجهول قائلًا: «لأن الانضباط ضروري». شعرتُ بأن مصطفى تصرَّف هكذا بمشقَّة كبيرة في أوَّل الأمر، إلا أنني أيقنتُ ـ بطريقةٍ ما ـ أن إثباته لسلطته بمثل هذه التصرفات أصبح أسهل، وصار يصل بسرعةٍ فائقة كضربة سوط، مستفيدًا من قلّة صبره الغامضة تلك التي طالما رافقته. ولذا لم تفاجئني نُتَف الأخبار هذه عن مصطفى، التي جاءت من أشخاص عرفوه أو زعموا أنهم يعرفون أشخاصًا قاتلوا معه. بل إنني وأنا أتأمل صور صديقي وأقرأ ما يقوله الآخرون عنه شعرت بأنني كنت أرى ذاتًا موازية، الذات التي لم أكُنْهَا، الذات التي أخفقتُ في أن أكونها. قضيت تلك الأيام وأنا أحسّ بأنني قد جُعِلتُ توأمين، أُخرجتُ من حياتي. في كثير من الأحيان، لم أكن أنا من يركب الحافلة إلى العمل،

بل كائن خارجي، أراقب النسخة الزائفة مني وأفعل ذلك من مسافة حميمة.

حتى لياليَّ لم تكن آمنة. بدأت أحلم بمصطفى. كثيرًا ما كان يأتي مصحوبًا بكلمات يقولها لي بصوت رقيق، كأننا لا يمكن أن نفترق، نمشي جنبًا إلى جنب مثلما اعتدنا أن نفعل. في حلم من هذه الأحلام، أذهب للقائه في مخبأ ما حيث يستريح ليلته تلك. أقترح أن أطبخ له، لكنه يهزُّ رأسه ويبتسم.

يقول لي: «زناخة جسدك غير المغسول، حتى هي تصبح طبيعيةً، تصبح في بعض الأحيان، وأنت تندفع، أليفةً على نحوٍ مبهج». ثم يقول: «أيام متعَبَة يتابع فيها الجسد مسيره»، عندما استيقظت بدت لي تلك الجملة كأنها مرساة ذلك الحلم.

في حلم آخر يقول: «لذة الصلاة معًا»، ويقول ذلك بشوق متحمِّس، كأنني سبق ورفضت دعوة منه لأن أصلي معه. يستأنف كلامه غير راغب في الإلحاح على الأمر: «نوبات الغثيان المباغتة التي لا تفسير لها».

«نافذة تُرِكَت مفتوحة ومنها لمحت أحداث الحياة المعتادة. امرأة تمسح الأرض. لن أنسى أبدًا تلك المرأة وهي تمسح الأرض»، يقول، ويكاد يبكي. أنا أيضًا أكاد أبكي في الحلم.

في حلم آخر يقبل نحوي ويهمس: «الحياة وكل ما فيها موجودٌ هنا في كل شعاع من أشعة الضوء. الفتيان معي. المسؤولية التي أشعر

بها تجاههم. مجد الحرب الآفل. كيف يُودَع الصبر نفسًا أخرى. البحر حين يُرَى. الطعام، وكيف لا تستطيع مقاومة الإفراط في الأكل؟ ولا مقاومة الامتناع تمامًا عن الأكل. لا توسُّط في الأمر. لا شيء هنا فيه توسُّط». ثم يرتسم الندم على وجهه، متمنيًا لو لم يضطر إلى إخباري بهذا، متمنيًا لو أنني عرفته بنفسي.

٩٦

كتبتُ إلى حسام عن الأحلام وقلت له إنني أفكّر بجِدٍّ في الزيارة. كنت أبحث عن تشجيع. أعتقد ـ لا بل إني متيقِّن ـ أنه لو كان في لندن إبَّان تلك الأيام المحمومة وقال: «هيَّا، لنعُد إلى الوطن»، لفعلت ذلك. غير أن حسام أراد أن يكتب عن شيء آخر. أراد أن يخبرني عن ملك التي، كما سيقول عنها بعد ذلك بكثير: «ظهرت كأنها قدري».

كتب في رسالة بالبريد الإلكتروني:

> هي ابنة ابنة خالة أمي، أصغر سبعة أبناء. وُلِدَت سنةَ غادرتُ الوطن. بعد عام، تُوفيت أمُّها فانتقلت للعيش مع والديَّ. أسكناها في غرفتي القديمة بالطابق العلوي. هي الآن في السادسة والثلاثين من عمرها، عدد السنوات نفسها التي عشتها بعيدًا عن الوطن. حياةٌ عيشت في أثناء الحياة التي عشتها في مكان آخر.
>
> قبل بضعة أيام، كنت أتمشى في الحديقة فسمعت خرير الماء في الحمَّام، والنافذة مفتوحة قليلًا. لم يفعل هذا أحد غيري. فقد أحببت رؤية الأشجار والجدار المتآكل

وأنا تحت الماء. لمحت جسد ملك البرونزي اللامع في غشاوة النور الأخضر. أشحت بنظري ولا أعتقد أنها رأتني. لكن لعلها رأتني، إذ خيَّم صمت حذر بيننا منذ ذلك الحين. منذ نحو عشر سنوات سمعت أنها تزوجت رجلًا أحبَّته، رجلًا لم يختره لها أحد، بل هي من اختارته لنفسها. لكن كما يحدث كثيرًا هنا، قلَّما تنجح مثل هذه الزيجات. ذلك أن فرصة نجاح الزواج دائمًا ضئيلة إذا لم ينل الزوجان حريةً كافية لقضاء الوقت معًا قبل زواجهما، مقارنةً بفرصة نجاحه إذا كان قائمًا على معرفة العائلات المتوارثة. في حالتهما، افترقا بعد الزفاف بثلاثة أيام فقط. لم يعرف أحد السبب، ولم تنبس هي ولا الرجل بكلمة عن الأمر. فكَّرتُ؛ إنه لشيء جدير بالإعجاب. لكن، كما اكتشفت اليوم، الناس لا يتركون الأمر، حتى بعد عقد من الزمان، ما زالت تواجه أسئلة عن زواجها القصير.

وجهها آسِر. ملامحُ كأنها منحوتة نحتًا، وحياة صامتة تُزهِر بشغف. الأنف، يشبه تماثيل شحات القليلة تلك التي تمكنتْ من البقاء سليمة، يتوقف الأنف دون أن يمتد، مع تسطُّح يسير، يجعلها تبدو كأنها تصطدم باستمرار بعقبة العالم. «ثمَّة وجوه تلفت انتباهك بسبب افتقارها الغريب إلى الوضوح في مظهرها كلِّه، مثلما عندما تمشي في الضباب، فتنظر بانتباه إلى شكل غامض قد لا يكون، على كل حال، أعجب وأغرب من علامة طريق فحسب». هل تذكر هذه العبارة من قصة كونراد التي نحبها كثيرًا، «إيمي

فوستر»، عن المغترب الذي يفقد لغته ومعها يفقد طريقه؟ وجدتُها على الإنترنت وأعدتُ قراءتها. لقد حطَّمتْ قلبي أكثر هذه المرة. وقبل أن أتحدث أنا وملك، قبل أن يحدث بيننا الكثير، قبل ذلك كله، بدا فعلًا أن وجهها علامة، علامة كانت تقبل نحوي ببطء من مسافة بعيدة، طوال حياتي. ولقد اتضحت لي الآن وضوحًا كاملًا. وأعرفها. أرجو ألَّا تضحك عليَّ، لكني أعلم الآن أن حياتي كلها كانت وصولًا، قدومًا إلى هذه النقطة. حتى إن سنواتي مع كلير كانت تقودني رويدًا إلى هنا. وإلَّا فما تفسير أنني منذ اللحظة التي رأيت فيها ملك، قبل أن نتبادل أي كلمة، تأثرت بحضورها، وشعرت بالعرفان لحبيبتي القديمة لأنها أرتني كيف أتأثر بحضور حبيبة أخرى. الحب معجزة بقدر ما هو أيضًا مدرسة.

اليوم تغدَّينا جميعًا في الطابق العلوي، جالسين في دائرة كبيرة على أرضية غرفة المعيشة. كان هناك أشخاص أكثر من المعتاد. كانت الأبواب الفرنسية مفتوحة، والشمس المرتفعة جعلت أرضية الشرفة المبلَّطة سيفًا فولاذيًّا لامعًا. النبتات المكتملة النمو المزروعة في الأُصص هناك خفَّفت الضوء. وخلفها في الحديقة تمايلت برفقٍ قممُ أشجار الليمون والخوخ والبرقوق. دخل النسيم وانتشر في الغرفة بسرعة متسقة. في المساء، سيعبق الهواء بروائح أشجار الفاكهة، أمَّا الآن، تحت شمس الظهيرة، فالأشجار تحمل ذلك كله في عروقها.

ما زال وليد يُصرّ على معاملتي كضيف، يملأ صحني كلما فرغ نصفه، وهو يحلف بقبر أبي أن آكُل وما إلى ذلك من هراء. انتبهت أمي إلى ذلك، بقبول متعب في عينيها، قبل أن تقول له: «يكفي، إنك تسد نفسه بفعل ذلك». ثم رُفِعَت الأطباق ومدَّ وليد ساقيه على مفرش الطعام وأشعل سيجارة. «الشاي»، نادى بشرودٍ صوب المطبخ. عندما رأى أني كنت أراقبه قال: «كيف حالك يا حسام باشا؟» ثم بعد حين: «سعداء بعودة كاتبنا العظيم إلى الوطن».

جاءت ملك بالصينية الفضية الكبيرة، وجلست متربعة وبدأت بخلط الشاي.

قال وليد، وقد لاحظ اهتمامي بها بلا شك: «ملك، ابنة خالتك، عاشقة عظيمة للشعر. والآن وقد أصبحت حُرَّة وعزباء»، تابع، «تضيِّع وقتها في قراءة صفحات وصفحات منه وحفظها».

قالت له ملك: «اعقل».

قال: «لكن هذا صحيح. لديك عمليًا مكتبة كاملة في رأسك».

«صحيح»، بإعجاب قالت أمي التي كانت تجلس إلى جانب ملك، وقد شعرتُ بفخر شخصي بهذا الأمر.

ارتاح وجه ملك قليلًا. قالت لأمي: «نعم، لكن منذ متى يهتم وليد بالشعر؟» ثم أضافت قائلة لي: «هل تعلم يا حسام أن أخاك لم يقرأ كتابًا في حياته؟ لست متأكدة كيف اجتاز المدرسة، دع عنك الجامعة».

«هذا صحيح»، قالت مها، زوجة وليد، وقد احمرَّ وجهها من الضحك.

«ربما»، قال وليد للمجتمعين، فالجميع كان يستمع الآن مستطيبًا الصراع المألوف. تابع وليد قائلًا: «لكنَّ ما نريد معرفته جميعًا، وانتظرنا معرفته طوال هذه السنين ـ ومن يدري؛ لعل عودة حسام السعيدة تساعدنا هنا وننجح أخيرًا في كشف اللغز ـ هو ماذا فعلت ابنة خالتنا العزيزة والحبيبة بعريسها ليهرب بعد ثلاثة أيام فقط؟».

ركَّزت ملك على عملها. رفعت إبريق الشاي الكبير إلى أعلى ما استطاعت ذراعها الوصول، وملأت كل كأس من طقم الكؤوس الصغيرة، المزيَّنة حافاتها بأشكال شبكية مُذَهَّبة، ولم تتحرك حتى وصلت الرغوة إلى الأعلى. عبق الهواء برائحة النعناع والميرمية البرية. لم يُظهِر وجهها شيئًا.

قالت أمي لوليد: «تأدَّب».

استمر وليد، موجهًا كلماته إليَّ الآن: «إنه لغز كبير. أعني، على كل حال، ابنة خالتنا العزيزة والحبيبة ذكية، ولمَّاحة، وأصيلة، وليست قبيحة المنظر أبدًا».

قبل أن ينهي كلامه، طارت وسادة وضربت وجهه مباشرة. عديدون ضحكوا ومنهم أمي.

قال وليد وهو يسوِّي نظارته، فاعلًا ذلك ببطء وعلى نحوٍ استعراضي: «وهي قنّاصةٌ أيضًا!».

عديدون انضموا إليه وضحكوا. ابتسمت ملك ابتسامة خفيفة وحذرة. كانت تعلم أنها ما زالت في خطر، وأن الذئب

القاسي لم ينتهِ بعدُ. كانت أيضًا ابتسامة مَن جرَّب هذا الأمر مِن قبل.

قال وليد: «باهي. على راحتك. لكن إن لم تخبرينا عن زواجك القصير، فعلى الأقل نوِّرينا بخصوص شريكك المثالي حتى نبحث عنه».

قالت له أمي: «كفاك حماقة. إنك تحرج البنت وتحرج نفسك».

قال: «لكنه سؤال مثيرٌ للاهتمام. أتذكرين يا أمي كيف كنت تريدين إلهامنا بذوق مغامر في الحديث؟».

«كان ذلك منذ زمن طويل»، قالت أمي وهي تحدِّق إليَّ.

بحنان قال وليد للجميع: «باهي، اسمعوا، لأن ذلك كان خطئي، فسأبدأ، هل أبدأ؟».

عديدون قالوا: نعم!».

«يا ربي!»، قالت زوجته مها، وضحك الآخرون. قالت له: «باهي يا شجاع، ابدأ».

قال رافعًا يده في الهواء بكبرياء ساخرة: «امرأتي المثالية، غيرك يا حبيبتي، هي التي تمثل النموذج الأنثوي نفسه».

قالت له مها: «اخرس».

«في هذا، أستلهم العظيم جبران خليل جبران»، قال وليد، والتفت نحوي وأضاف: «أترى؟ ظلمتني ابنة خالتك ملك لما اتهمتني بالجهل».

قالت ملك: «جبران والقرآن. ذلك هو حدُّك الأقصى».

عديدون ضحكوا، لكن مها، خاصةً، استمتعت بهذه المزحة. ضحكت كثيرًا حتى إن ملك بدأت تسألها بحنان: «لكن يا مها ما الأمر؟ هل أعجبتك هذه؟».

أومأت زوجة وليد برأسها، وما زالت عاجزة عن الكلام، ووجهها يسوَّد أكثر. عديدون أشاروا إليها بسرور، وضحكوا لرؤيتها هكذا.

«المشكلة أن...»، أخيرًا قالت وسكتت.

نظر إليها وليد بحذر وسرور.

«المشكلة أنه حتى هذه لم يقرأها».

ضحك الجميع الآن، حتى وليد.

قال: «امرأة قاسية».

تابعت مها وهي لا تكاد تقدر على الكلام: «إذا تورَّط وكان عليه أن يؤمَّ للصلاة... فإنه لا يستطيع تلاوة إلا سورتين».

قال وليد: «لا تصدقوا هذه الأكاذيب. أستطيع تلاوة ثلاث سور»، وضحك بصوت أعلى من الجميع.

«على كل حال، اسمحي لي بإنهاء كلامي، أيتها المرأة القاسية القلب، وتوقفي عن سلوكك المخزي. لا مزيد من المقاطعات من فضلك».

قالت له مها: «إذا تأدبت».

«سأتأدَّب»، قال وابتسم لها. فبادلته الابتسام. قال لي، ولكن بصوت عالٍ بما يكفي حتى يسمعه الجميع: «أحب زوجتي، لكنها تضطهدني. وهذا لا شيء. ينبغي أن ترى ما تفعله في البيت. تُخرج السوط. تعذبني. إني مرتاح لعودتك. أخيرًا كتف لأبكي عليها».

«إنه ولد أهبل»، قالت أمي لملك وعيناها تدمعان.

قال وليد: «باهي، فلنكن جادين الآن. عندما سُئل جبران، الكاتب اللبناني الكبير وزير النساء المرموق، عن أجمل النساء...».

قالت له مها: «لا يمكنك أن تكون زير نساء مرموقًا. عالم، أو مُفكِّر، أو فنان مرموق، نعم. لكن زير نساء لا».

«عندما سُئل جبران، الكاتب اللبناني الكبير وزير النساء، الذي لم يكن زير نساء مرموقًا أبدًا، عن أجمل النساء، أجاب: أمي. سأله المحاور الأوروبي، الذي لا بد أنه فكَّر؛ ها هو عربي مجنون آخر يهذي عن أمه: مَن غير أمك يا مسيو جبران؟ فأجاب جبران: انعكاس أمي في المرآة. ألحَّ المحاور قائلًا: «نفهم أنك تحب أمك كثيرًا، لكن من أيضًا غيرها وغير انعكاسها في المرآة تمثِّل لك المرأة المثالية؟ فأجاب جبران: ظل أمي وهي تمر».

ضحكتُ، وقد فهمتُ القصة كما هي، عن أن جبران يتجنب السؤال حتى لا يغضب عشيقاته، لكن الحاضرين فهموها فهمًا مختلفًا فأخذوا يعربون عن مديحهم وتقديرهم بحماسة، ولدهشتي، فقد تأثرت أمي حتى دمعت عيناها. هُرِع وليد إليها وحضنها.

«أنت ولد أحمق»، قالت له بصوت مكتوم فوق كتفه.

قبَّل وليد رأسها وعاد إلى مكانه، جالسًا بجانبي، ومتبسِّمًا تَبسُّمَ المنتصر.

«إنه ولد أحمق»، قالت أمي مرة أخرى، وهذه المرة لملك أكثر.

أراحت ملك يدها برفق على ذراع أمي. ثم قالت: «باهي، هذا سهل. وليد يحب زوجته وأمه. وليس هذا أمرًا غير معتاد أبدًا».

«آسف لأنني حين أفتح قلبي لا يكشف عن أي فضائح».

قالت له: «لا عيب في الحب».

صفَّق أحدهم.

عندئذٍ فقط أدركتُ أن ملك كانت تستعد في تلك الدقائق القليلة، فبدلًا من الخوف أصبحت الآن منتعشة بالترقب، تهز كتفيها بدلال، مواجهةً أمي لتلتمس منها الإذن. في الخارج، أوشكت الشمس على المغيب ملقيةً على الجدار بعضًا من ضوئها المنعكس. وبهذا هبَّ النسيم بوفرة.

قال أحدهم: «ستفعلها».

وكز وليد فخذي بظهر يده. ظهرت عليه ملامح مَن أصاب توًّا هدفًا غير متوقع. ولم يكن وحده. الهواء نفسه في الغرفة تغيَّر. بدا أن الجميع كان يعرف هذا عنها؛ أنها قادرة على الإتيان بهذه التحولات، وللحظة حتى أنا اعتقدت أنني أنتمي إلى جماعة مصطفاة من النفوس الرفيعة التي وُهِبت نعمة الوجود بقربها.

قالت ملك متفكِّرةً: «رجلي المثالي. لست على يقين مما يعنيه ذلك. لا أريد المثالي. أريد التعقيد. أريد الشغف.

أريد النقصان. رجلي المثالي ليس مثاليًا. لكن»، قالت وهي تميل إلى الأمام، «سأخبركم عنه».

كانت أمي تبتسم. ساد الغرفة كلها صمت متنبّه.

«الها وين نلقى كفاف، نوت الخلاف، تنوح على كامل الأوصاف، نلقى هدّاي، يكون معاي يساعدني حتى في الراي. نبيه قرَّاي، حكيم ودَبَّار وورَّاي. نبيه حكَّاي على حسابي ديما يالاي».

سكتت، وتورَّدت وجنتاها قليلًا، مستمتعة باهتمام من في الغرفة، غير أنها ارتدَّت أيضًا إلى الداخل، مدركة حماستها، وربما متعجبة كذلك، مكتشفةً وهي تتكلَّم ما كانت تريده حقًا. وبعد ذلك، كأنها ترد على متهم صامت بداخلها، قالت: «نعم، أعتقد أنني طمَّاعة»، وكانت عيناها تنظران إلينا جميعًا. في تلك اللحظة، بدا وجهها كوجه شخص يشارك في أنبل المعارك، حينما يسعى المرء في سبيل ما يحلم به ملقيًا بالحذر في مهب الريح.

«نبيه سهراي وعالة ومركاب وشوهاي».

«جميل»، قالت أمي، وقالته لنفسها أكثر.

«نبيه غنَّاي وفرقة بالعود وبالناي. نبيه بكَّاي، وطار وعدَّاد وشالاي. نبيه عزَّاي، يعزِّيني في أصحاب غلاي. نبيه داواي وصاحب خبرة يبري داي. نبيه كواي بناره قدامي ووراي. نبي شرَّاي...».

ردَّدت أمي: «نبيه شرَّاي».

«نويت بيع القلب الغواي. نبيه دعَّاي...».

«نبيه دعَّاي»، ردَّد كثيرون كأنهم اتفقوا على أن كلمات ملك انطلقت في هيئة الشعر.

«يعاوني ما جاب دعاي. نبيه مولاي...».

«نبيه مولاي».

«يشيل أرياف عزيز ربيعه دوبه صاف. عييت من الماشي والجاي. بديت نخاف عليها من طعم المنداف. الها وين، نلقى كفاف، تنوح على كامل الأوصاف. نلقى صبَّار يبرِّد نار عزاز عليهم دار الدار. يقيم نهار...».

«يقيم نهار».

«وليلة يعطيها مشوار. علي نقمار...».

«علي نقمار».

«لهيب ركابه دار شرار، يمين يسار. يشلق ويدير على الجار. إن فز وطار، يريح نعاله والمسمار، علي أم حوار...».

«علي أم حوار».

«يديّر لا جاها غدَّار».

حينها فقط أدركت أنني كنت وحدي مرة أخرى، الوحيد الذي لم يتذكَّر القصيدة الشهيرة التي كانت تقتبس منها، أو التي خلطت بها كلماتها، قصيدة مألوفة للحاضرين، لأنهم هم أيضًا بدأوا يهمسون بالأبيات معها. ولأنني أنا الذي كنت غائبًا، فقد كنت الوحيد الذي لم يستطع المشاركة، فاحمرّ وجهي قليلًا، وبدا الأمر كأنني كنت أنا المقصود بكلمات ملك.

وثم، أريده أن يعود إليَّ،
أن يزدهر بجواري، أريد أن آخذه
إلى أصفى نبع، لا يعرف طريقه أحدٌ سواي،
وهناك أروي عطشه.
أريده أن ينظر إليَّ بين حين وآخر
كأنه يجهلني
لكنني أريده أن يألفني دومًا، مهما حدث،
أن يميِّزني بين الحشود، حين نجتمع، بعد ذاك العبور.
أريده أن يراني إذا لم أستطع أن أرى نفسي.

انفجر الجميع بالهتاف. كثيرون صفَّقوا. جذبت أمي ملك إليها وقبَّلتها، وقد كانت الدموع تنهمر من عينيْ أمي الآن. «مذهلة!»، قالت وكررت الكلمة ثلاث مرات.

قالت لها ملك: «لكن يا خالتي، أرجوكِ لا تبكي».

لوَّحت أمي بيدها وقالت: «أنا لا أبكي».

فضحك الجميع.

قال وليد: «وتُسمِّين ذلك غير مثالي؟» ولم تستطع ملك إلا أن تبدو سعيدة.

بعد هدوء الجميع بوقت يسير، مال وليد نحوي وقال في أذني: «أليست رائعة؟» وحينها فقط وقعت عينا ملك الواسعتان والذكيتان عليَّ.

٩٧

لم يصلني شيء من مصطفى حتى ذلك الحين. تابعت ما استطعت جمعه من أخبار من وسائل التواصل الاجتماعي والمدونات الصوتية ومحطات الإذاعة الليبية المستقلة العديدة التي ظهرت في ذلك الوقت. حاولت باستماتة الوصول إليه، راجيًا أن يحلَّ سماعُ صوته التناقضَ الذي شعرت به بين الرجل الذي عرفته يومًا والرجل الذي كنت أقرأ عنه. لم يردّ على أي رقم من الأرقام التي اتصلت منها. عدت إلى مهاتفة والدته وقالت إنها ستبلغه باتصالي.

سألتني: «هل الأمر عاجل؟».

ترددتُ، ثم قلت: «نعم، هو عاجل».

بعد بضعة أيام، وجدت مكالمة فائتة من رقم ليبي. اتصلت ورد مصطفى فورًا.

قلت: «أسمع أشياء عظيمة عنك».

«إننا نحرز تقدُّمًا»، قال، وكان صوته متعبًا ومتغلغلًا في أعماقه. أردت أن أعرف المزيد، لكنه قال: «لا يمكنني أن أطيل الكلام. هذه الخطوط مراقبة. سمعت أن الأمر عاجل».

لم أعرف ما أقول. خجلت وشعرت بأني عقبة.

قلت: «ذلك اليوم تذكرت ما قلتَه لي يومًا منذ زمن بعيد، إننا حين نتقدم في العمر وينتهي كل شيء يجدر بنا ألا نتكلم إلا عن الأفكار والطعام والأحلام» توقفت، وحين لم يقل شيئًا تابعت: «موضوعاتك الثلاثة المفضّلة، أتذكر؟».

«هل قلتُ ذلك؟».

أجبت بحماسة: «نعم». رأيتُ الفضاء الصغير بيننا ينفتح، مشمسًا ودافئًا، فجعلني هذا متفائلًا وجعلني حزينًا، لأنني أدركتُ مقدار الجهد الذي سيتطلّبه توسيع ذلك الفضاء، وجعله مضيافًا مرّةً أخرى.

قال: «لا أذكر أني قلت ذلك يومًا. على كل حال، لست عجوزًا وقطعًا لم ينتهِ كل شيء بعدُ».

أصبح الصمت غير محتمَل.

«كنت أتساءل فقط إذا كان بوسعي فعل شيء، أي شيء على الإطلاق».

«باهي، كما قلت، الخطوط مكشوفة. مكشوفة ومتقطعة. هواتف الأقمار الصناعية ستكون مفيدة. أكبر عدد ممكن. اتصل بهذا الرقم عندما تكون مستعدًّا»، قال وأغلق السماعة دون أن يقول وداعًا.

قضيت عدة أيام أبحث. اشتريت اثنين بثلاثة آلاف باوند. كان ذلك تقريبًا كل مدخراتي. فكّرت في سحب سلفة وشراء

المزيد، لكنني عدلت عن ذلك. هاتفته وتسارع نبض قلبي. إلَّا أن شخصًا آخر أجاب، كان فظًّا ورسميًا، وقال إن مصطفى لا يستطيع الكلام.

قلت: «قل له إني مستعد».

سألني الرجل عن اسمي مرة أخرى، ثم طلب مني الانتظار. سمعته ينقل الرسالة، ثم سمعت مصطفى إلى جانبه يقول: «أبلغه أننا سنرسل أحدًا».

بعد أسبوع أو نحو ذلك، وصلني اتصال في العمل. اتصلت بالرقم فأجاب رجل بلكنة طرابلسية. سألني عن حالي ثم عن حال أهلي. بعد ذلك، وبسبب إيقاع المحادثة البطيء، فوجئت عندما علمت أنه كان ينتظرني في مقهى غير بعيد من محطة مترو شيبردز بُش.

«قال مصطفى إنك تسكن قريبًا من هنا».

«نعم، لكنني في العمل الآن».

قال الرجل: «لا مشكلة».

«أخشى أنني لا أستطيع الخروج».

«لا مشكلة».

«ولن أتمكن من ذلك مدة ثلاث ساعات على الأقل».

سكت ثم قال مرة أخرى: «لا مشكلة».

كان الظلام قد حلَّ لما وصلت إلى البيت. جلبت الهاتفين وأسرعت إلى المقهى. كان المكان ممتلئًا، لكنني عندما دخلت رفع يده، وحتى هذا اليوم لا أعرف كيف عرفني. جلست معه إلى طاولة صغيرة. بدا متوترًا وطيلة الوقت يهزّ ساقه. ناولته الحزمة فوضعها على الطاولة.

سألته: «كيف ستوصلها إليه؟».

قال: «عندنا وسائلنا. أناس طيبون كثر يساعدوننا». وبابتسامة عريضة قال: «سامحني من فضلك، لكن عليَّ الذهاب الآن».

خرجنا معًا، ورأيته يتجه إلى المحطة حاملًا الحزمة إلى جانبه بسهولة كأنها كانت حزمة كتب مستعارة ينوي إعادتها إلى المكتبة.

٩٨

في رسالة أخرى بالبريد الإلكتروني، كتب حسام:

لم تسامحني أمي قطّ على مغادرتي. كثيرًا ما أراها تراقب ردود أفعالي. خادمتها تعرف عنها أكثر مما يمكنني أن أعرف. هذه المرأة اغتُصِبت، وتبرَّأت منها عائلتها، فوجدت ملاذًا هنا مع أمي. في وجهها حزن العالم. أنت تحسب أن الناس لا يلاحظون إلا أن كلّ شيء مكشوفٌ للعيان. وأعلم أن ذكاء أمي حادٌّ كالنَّصل. لا تعجبها انطوائيتي. صمتها يكون صمت غضب كلما ذكرتُ خططي للعودة إلى إنجلترا. تعتقد أن الثورة هي لحظة حياتها الذهبية.

اليوم بلغ السَّيل الزُّبى. كانت تجلس هي وخادمتها تنزعان نوى الزيتون، مُنحَنِيَتي الظهر مُطْرِقَتَي الرأس، وقد بقَّعت قشور الزيتون السوداء أطراف أصابعهما. كنت مارًّا مرورًا سريعًا فحسب، لكن شيئًا في المشهد بدا لي تراجيديًّا. أعلم أن التفكير هكذا خاطئ. ليس الحب والشفقة سواء. أحيانًا يبدو لنا أن الحب الذي نشعر به سيسهل حمله إذا تحوَّل إلى شفقة، في حين أن هذا يقتله فحسب.

بعد وقت قصير، نادتني أمي إلى غرفتها. «اجلس»، قالت وهي تمشط شعرها الأبيض الطويل أمام المرآة. قالت: «إياك أن تنظر إليَّ تلك النظرة مرة أخرى، لا سبب يدفعك لذلك. إن كان هناك من يستحق الشفقة فهو ليس أنا، ولا حتى خادمتي البائسة بكل متاعبها وحظوظها السيئة، متاعب وحظوظ سيئة لم تجد بعد الكلمات لوصفها. لا، لسنا نحن، بل أنت، من عشت خارج بلادك زمنًا طويلًا حتى إن مسافة حزينة، تصفها أنت بالموضوعية وفق مثلك العليا، امتدت وطالت بينك وبين وطنك وناسك وأهلك، حتى صرت تجرؤ على النظر إلى أمك تلك النظرة».

بوغتُ وقد شعرتُ بذلك وبدا عليَّ.

قالت: «لا يجدر بالرجل أن ينظر إلى عائلته بموضوعية. ليس فقط لاستحالة تلك المهمة استحالة تامة، بل لأن هذا الطموح وحده يخرق العهد بين الأقارب. الفكرة كلها، أيها الطفل السخيف، هي أن تحب بلا حدود. حيث تتشابك الكراهية والمودة، والحيرة والوضوح، بقوة فتُشكِّل حبلًا لا ينقطع، حبلًا قادرًا على السُّموّ بأمَّة. هذا ما فعله أسلافك. وأنت؛ ليس تلاعبك بالحقيقة ولا استخفافك بالله وبالتقاليد ما يشعل النيران في عروقي، بل هذا، هذا فوق كل شيء: أن تجلس كما يجلس غريب، كفرد من الجمهور، تراقب، مانحًا نفسك المساحة التي تتيحها موضوعيتك تلك، وما هي إلا ساحة مدرسة باردة وفارغة في الليل، مكان حزين ومهجور، لكي تراقب من بعيد. فلتراقب إذًا، ونحن ننوء

بأثقالنا، كأنك السيد ونحن العبيد. لأن هدف هذه الحياة، يا بنيَّ، ليس أن تكون صالحًا ولا حكيمًا، بل أن تكون إنسانًا، لا أن تحرج بقيتنا».

التفتت وواجهتني. سألتني عن رأيي في ملك، ولما رأت وجهي تبسَّمت. إن المرء ليجد بهجة في والدته المُسِنَّة. بهجة في رؤيتها. بهجة في رؤية قوتها. إن ذلك ممكن حتى مع مرور الوقت. مهما بلغنا من هشاشة. ثم ابتسامتها يا خالد، بعد كل ما قالته، حطمتني. أذابت قلبي. رأتْ ذلك أيضًا وضحكت. ضحكنا معًا.

قالت: «أنت عيوني. جميل أن يكون للمرء أبناء».

قلت لها: «مخيف».

أدهشني أنها لم تجادلني في ذلك. بل قالت: «في البداية، ظننت أنني لأكون أمًّا ينبغي أن أكون مثالية. ثم تعلمت أن المرء ليكون والدًا ينبغي أن يواجه باستمرار كل ما ليس مثاليًا فيه».

٩٩

بعد ذلك بوقت يسير، بدأ الجميع ينسحبون. فجأة وجدتُ وملك فرصًا كثيرة لنكون وحدنا، مَنْسِيَّين في المطبخ أو في غرفة المعيشة أو تحت الكَرْم في الحديقة. أحد الموضوعات المتكررة كان عن الكلمات. أبحث أنا في هاتفي عن ترجمة الكلمات التي لا تخطر ببالي إلا بالإنجليزية، وتطلب هي مني نقل مفردة عربية قديمة عزيزة عندها إلى الإنجليزية. وهكذا مضى الحال، كل واحد منَّا ينقل كلمة إلى لسان الآخر، وكلَّ مرة كان الأمر كأن فجوة تُردَم وكَسْرًا يُجبَر. حماستها وهي تسألني عن كلمةٍ ما، عيناها وهي تسأل. كم هو غريب، كما قالت مرّةً، أن لا توجد كلمة في الإنجليزية للظُّلْم مثلًا، وأن حالة الظلم، بالنسبة إلى تلك اللغة، ما هي إلا عكس العدالة أو غيابها. أما كلمة «ظُلْم» العربية التي تشاطر جذرها كلمة «ظلام»، فهي أعمق بكثير. وافقتها في ذلك. تابعت قائلة إن «فؤاد» أيضًا لا توجد كلمة ترادفها. يعرِّفها القاموس بكلمة «قلب». لكنَّ الفؤاد ليس القلب، إنما هو فضاء بيني، تراسل أو تواصل بين القلب والروح والعقل، ومن ثم فهو لا يتعلق بالجسد

البشري، بل بما وراء الطبيعة. قالت إنه يصعب فهم كيف تستغني اللغة الإنجليزية عن كلمة كهذه. وجدتُ كذلك أن طبيعة الإنجليزية الخالية من تحديد الجنس تجعل الأسماء «تعقيميَّة»، تلك كانت الكلمة التي استعملتها، مجرِّدةً الأشياء الحية من شخصيتها. عندما اعترضتُ قالت: «لو لم يكن للقمر والشمس جنس لَتُهتُ».

قلت لها: «قال شاعر إنجليزي مرةً إن الجدال لا يقنع أحدًا. وأعتقد أنه لا ينبغي أن يكون هناك جدال في هذا الأمر».

ضحكتْ ضحكة رائعة، واستمتعتُ بإضحاكها. كانت تحاول الانتصار للغتنا، فقلت لها إنني أجد متعةً في تعريف الكلمات بعضها ببعض، وأن نضع مرادفيْ كلمة بالعربية وبالإنجليزية جنبًا إلى جنب، أن نلاقي بينهما، حَجَرَان يتلامسان. وقد بدت الكلمات هكذا: منيعة. ثم نظرت إليَّ وسألتني لماذا توقفت عن الكتابة؟ أخبرتها أن صديقًا عزيزًا جدًّا يسألني السؤال ذاته، فأرادت أن تعرف عنك كل شيء. أخبرتها كيف التقينا. لم تكد تصدِّق. قالت إن صداقتنا كانت مقدَّرة، وإنها إرادة الله، وإن على المرء أن يصون هذه الهبات دائمًا. قلت لها إن من أحب الأشياء إلى نفسي هو التحدث إليكَ. وهنا طلبت مني أن أتوقف، وقالت: «وإلَّا فإني قد أغار».

لا بد أنني أبدو كفتى عاشق. إنني كذلك. والرجل الذي بداخلي يعلم أنني كذلك، ويعلم أن الشغف سيزول، وسأرى عيوبها، ثم سأصدِّق حينها أنني أرى بوضوح. لكنني اليوم شجاع. لم يكن قلبي أقوى من اليوم.

البارحة، غرستُ ووليد شجرة في الحديقة. كنا ـ نحن الاثنين ـ نفكر في أبي ونحن نغرسها، حتى لو لم نذكر ذلك فعلًا. مرَّ أربعون يومًا على وفاته. اليوم لبست أمي وأخواتي ثيابًا ملونة. بعد ذلك جلستُ في الظل تحت الكرْم، وانضمتْ إليَّ مها زوجة وليد، وعيناها على زوجها.

قالت وعيناها تتبعان وليد: «لا أعلم لماذا يصرُّ أخوك على حمل المجرفة هكذا».

وضع المقبض تحت ذراعه، والعصا الطويلة بارزة منها، وكان النصل المغطَّى بالتراب مصوَّبًا إلى الأمام.

«يتقدم إلى الأمام في ساحة المعركة»، قالت وضحكت. «وليد»، نادته بصوت باسم، وركضت إليه وساعدته على غسل النصل.

جلوسي ومها في الظل، تحت برودة الكرم، وقولها كلماتها، ولا سيَّما عبارة «يتقدم إلى الأمام»، التي داهمتني بقوة غامضة، كل هذا غيَّر الهواء بداخلي. كان صدري يحوي هواءً خفيًّا بدأ الآن يتحرك. نشَّف وليد يديه وأقبل نحوي. أدخل يده في جيب قميصه وأخرج سيجارتين. أشعلناهما، وحتى عندئذٍ، آتيةً من أعماق عذابي، داهمتني الفكرة، بخفَّةٍ كضوء منعكس: إنها لرحمةٌ أن تعلق في شباك مخططات الآخرين. لكنَّ الأوان كان قد فات. فقد كنت قد استسلمت لما بدا، بفعل قوةٍ أجهلها، أمرًا حتميًّا تمامًا. يجب أن أغادر وأنضم إلى الجبهة. كانت تلك الكلمة، «الجبهة»، قد امتلأت بقصدها الخاص، كأنها حتى ذلك الحين كانت

تقف في مكانها مفرغةً من المعنى فحسب، تنتظر أمر الانطلاق. فكرت أن جميع الكلمات هكذا حالها، جنود بانتظار الحشد، والغرض من العيش هو إحياء الكلمات التي تعلمناها، والناس يموتون أو ينتحرون حين تخذلهم الكلمات. وحينئذٍ أردت أن أخبر أخي بما لم أستطع إخباره به، غير أن ما أستطيع قوله لك الآن أن لقائي ملك، ما أيقظته فيَّ، هما ما انتهيا بي إلى هذا القرار. لقد بدَّدتُ كل شكوكي في الإقدام على الفعل. لم يبقَ إلا هذه الإرادة، التي أعلم أنها ستكفيني بطريقة ما.

أعلم أن هذه الكلمات ستقلقك. لعلك متفاجأ حتى أو خائب الظن. ربما لا توافقني. لكن هذا ما يجب أن أفعله.

١٠٠

هاتفتُ حسام ولم يُجِب. عاودت مهاتفته فردَّ. عرفت من صوته أنه كان مع آخرين. تظاهر بأنه لم يعرف عما كنت أتحدث، وأنه لم يكتب رسالة البريد الإلكتروني التي أرسلها قبل يوم. ابتعد فدخل غرفة هادئة وأغلق الباب.

قال هامسًا: «لم أخبر أحدًا».

قلت: «أنت لا تفكِّر بجديَّة في هذا الجنون! أعني أنك، أولًا، كبير في السن».

قال: «باهي. ألم ينضم مصطفى؟».

قلت: «صحيح، لكنك تكبره بستة أعوام».

قال: «معك حق. خطة حمقاء. فكرة مجنونة لا أكثر. يثيرها هذا المكان». حاول أن يضحك.

«لا أنت في سنٍّ مناسبة ولا طبعك يلائم الحرب».

عرفتُ أنني خسرت الجدال حتّى حين وافقني، قلت الكثير إلى حد أنني لو أمسكت لساني لربما اقتنع. وفي الليالي القليلة

التالية كنت أستيقظ في الظلام فأجد تلك الكلمة، «ط ـ ب ـ ع»، معلَّقة فوق رأسي، تُنطَق كأنها سلسلة من أحجار يمشي عليها المرء: «طب ـ ع». ثم أسمعه يقول ما قاله مجيبًا: «أعرف».

انقطع عن التواصل معي بعد ذلك. حاولت التركيز على عملي بكل ما أوتيت من إرادة. بدأتُ مرة أخرى أبتهج بالتدريس. كذلك عاد إيماني بالأدب. لم يسبق للكتب، ولا سيَّما الروايات العظيمة، أن بدت أكثر عملية في شؤون العيش من الآن. تبدَّد كل شكٍّ في ذلك.

بعد انتظارها لي، تزوجت هانا رجلًا آخر. إنجليزيًّا اسمه ماثيو. دعتني إلى الزفاف. استقبلني أبوها استقبالًا رسميًّا، وبدا مدهوشًا قليلًا من وجودي هناك. صافحني أخوها هنري كأنه يهنئني على روحي الرياضية الجيدة. أمها كانت مشغولة جدًّا ولا أعتقد أنها لاحظت وجودي. كانت هناك وجوه عديدة قديمة من بيركبك، وكان من الجيد لقاؤهم مرة أخرى. عندما تبادل العروسان القُبَل، شعرت كأنهما كانا ينظران إليَّ. لم أكد أرى هانا بعد ذلك.

أنجبتْ وماثيو طفلين، ولدًا وبنتًا، جاك وليلى، واحدًا بعد الآخر. بعد ولادة ليلى بأعوام قليلة افترقا وخرج ماثيو من البيت. كانت الأشهر القليلة الأولى صعبة. كانت هانا غاضبة، ولم تبدُ غاضبة على ماثيو فقط. لكنَّ ذلك سرعان ما انتهى، وحتى الحزن أيضًا. بدت غير مستقرة أكثر من أي شيء آخر، كأنما يتهدَّدها

خطر فُقْدان اتزانها. استأنفت العيش وحدها هي وجاك وليلى، في البيت الذي اشترته وماثيو في كامدن، لتتأقلم شيئًا فشيئًا مع الوضع الجديد. عندما بدأت الأحداث في ليبيا، هاتفتني ودموع الفرح في صوتها.

في الأيام الأولى للثورة. لم أذهب إلى كامدن. كنا نتحدث بالهاتف كل بضعة أيام. كانت تخبرني بما يحدث معها وكنت أخبرها بأخبار الوطن المستجدة. في النهاية عدنا إلى الالتقاء، نخطو خطوات صغيرة. ما فتئت أسمع صوتًا يقول لي: «افعلها بطريقة صحيحة هذه المرة». ظلت ممتلئة بأسئلة لطيفة وحذرة عما يحدث في ليبيا. كانت أكبر سنًا وأجمل، وظهر عليها إرهاق امرأةٍ منحها استسلامها لمصيرها شرفًا رفيعًا. ومع أن مطالب هذه الحياة الجديدة لم تُتِح لها وقتًا كافيًا لنفسها، بدا أيضًا أنها أعانتها، على نحوٍ غريب، على إبراز ذاتها، وإكرامها، وإظهار حاجاتها. نظرت إليَّ بذلك كله، وأحببتها لذلك.

أحببت طفليها أيضًا. أعجبني كيف كانت معهما وكيف استمتعتْ بوجودي معهما. كانت حريصة على ألا يريانا نتبادل القبل أو يمسك أحدنا بيد الآخر، وعلى أن يستمرا في الاعتقاد بأننا صديقان لا أكثر. كانت هناك قوة مغناطيسية بيني وبين جاك وليلى، كأنهما كانا ولديَّ، ولكن على سبيل الترجمة. أحرجتني الفكرة، فهما لم يكونا ولديَّ، وحقيقة أنهما ما كانا ولديَّ كانت واضحة للعيان، ومع ذلك، لم أستطع إلا أن أشعر بأنهما قاما مقام

الطفلين اللذين كان ممكنًا أن أنجبهما أنا وهانا. كنت موقنًا بأنها سمّت البنت اسمًا عربيًا بسببي. ومثلما يبدو أن جميع الأطفال ينتمون إلى الكون نفسه من البراءة غير المصطنعة، فإن وجودهم وأفواههم وأصابعهم وشعورهم وروائحهم وأصواتهم، نسجت بألمٍ ما هو موجود مع ما كان يمكن أن يكون.

١٠١

انقضى أسبوعان، وأردت أن أعرف إذا كان هاتفا الأقمار الصناعية قد وصلا مصطفى. كنت قد دوَّنت الرقمين. هاتفت أحدهما وكان الخط مشغولًا. أما الآخر، فلم يكد يرن حتى ردَّ مصطفى.

قال: «أخي»، واستأنف كلامه بطريقة رسمية معتادة. من الواضح أنه كان محاطًا بآخرين.

قلت: «وصلتك الهواتف إذًا».

قال: «نعم، كم هاتفًا أرسلت؟».

«اثنان».

«لقد وصلا».

لم يشكرني، ولم يقل إنهما كافيان، ولم يقل إنهما غير كافيين. لست متيقنًا من السبب، لكنني سألته إن كان قد سمع عن حسام.

«حسام»، قال بحنان، كأنه كان اسمًا كُتِب بألوان زاهية.

أسأت فهمه، فظننتُ أنه مسرور بتذكيره بحسام، ومتشوِّق لسماع آخر أخباره، وأنَّ ذكر صديقنا أيقظ ذكريات سعيدة

عن حياة تشاطرناها نحن الثلاثة في لندن. أخبرته بأن سِيدي رجب زوة قد توفي.

قال: «أعرف. الله يرحمه». ثم انتعش صوته مرة أخرى وقال: «لكن، اسمع، لن تصدق هذا. خمِّن أين صديقنا القديم الآن؟».

باغتني السؤال بخوف غامض. قلت: «ماذا تقصد؟».

«حسام زوة، الكاتب العظيم ورجل المبادئ»، ـ واضحٌ أن مصطفى لم يكن يخاطبني وحدي ـ «يثبت نفسه بشجاعة في الميدان. هذا هو المسرح الذي ينبغي أن تُجَسَّد عليه قصة تاريخنا. لم نختره، لكن ساحة المعركة هي الميدان، وحسام نَسْر».

كنت جالسًا إلى طاولة المطبخ فشعرت بالغرفة تدور حولي.

كان مصطفى يضحك ويكلِّم من كانوا بقربه. قال: «صَمَتَ تمامًا، لا يصدِّقني. هل تأتون بحسام من فضلكم؟ هل رآه أحدكم؟ خبِّروه بأن عندي مفاجأة له». ثم عاد إليَّ قائلًا: «كان هنا منذ لحظات». ثم قال للآخرين: «ماذا قلتم؟ هل أثق به؟ اخرسوا. في مظاهرة لندن وقفنا معًا وسقطنا معًا. أنتم أصغر وأغبى من أن تتذكروا. خالد»، قال: «آسف، لكن يبدو أن حسام قد ذهب إلى مكان ما».

«حسام هناك معك؟» سألته بصوت مرتاب جدًا وساذج.

ضحك مصطفى. ضحكة رجل راشد. ضحكة رجل شهد الموت، وقرر، في ضوء تلك الحقيقة، أن على المرء أن يضحك بحذر.

عندما انتهت المكالمة كنت أهذي من الحيرة والغيرة، متمنيًا لو كنت هناك، متمنيًا لو كانا ما يزالان هنا. ذرعت شقتي جيئة وذهابًا، ولم تبدُ بهذا الضيق من قبل. خرجت أمشي ولم أعرف كم مشيت حتى أدركت بغتةً أنني كنت أعبر حديقة ريجنتس متوجهًا شمالًا صوب كامدن. أردت أن أكون مع شخص يتذكرني.

كنت مصدومًا. حسام ومصطفى، أقرب صديقين إليَّ، جمعتهما الحرب، بطبعيهما المختلفين، ليقاتلا جنبًا إلى جنب، ولا شك أنهما شعرا بأنهما متقاربان أكثر من ذي قبل، أحدهما أقرب إلى الآخر من أي رجل من الرجال الآخرين، أحدهما أقرب إلى الآخر من أي امرئٍ على وجه الأرض، لأنَّ كلَّ واحد منهما يحمل بين يديه حياة الآخر وموته. ومع ذلك، كان هناك جانب سِرِّيٌّ فيَّ لم يفاجئه الأمر، بل توقَّعه بطريقة ما، وهذا جعل شعوري بأني مهجور، متروك في الخلف، أسوأ.

ارتأيت أن كلمة «نسر» التي استعملها مصطفى لوصف حسام كان من مقاصدها انتقادي، ولذلك استهزأتُ بها وحكمت بأنها مبالغة رجوليّة. إلّا أن استهزائي كان صامتًا وداخليًّا، فلم يكن له أي تأثير ولم يَعْنِ شيئًا. كنت أعرف كذلك أن مصطفى قصدها بصدق، وأن ذلك دليل على شفائه من كراهيته القديمة لحسام، أو من كراهية حاجته إلى الإعجاب به، ولا بدَّ أن هذا في حدِّ ذاته كان راحةً له. كان في صوته، عندما قالها، إحساس عميق وارتياح.

ارتياح مَن استطاع أخيرًا التَّخلُّص من ثقلٍ حمله زمنًا طويلًا. قلت لنفسي: إنها لندن. المكان موبوء بالتَّهكُّم. السخرية هنا ليست مقبولة فحسب، بل هي ضرورة لبقاء المرء. لقد اتهمتُ لندن بهذا وبعلل أخرى، وزادت الاتهامات من غضبي. حتى إنني لما وصلت إلى بيت هانا كنت مستعدًّا للعراك.

قرعتُ جرس الباب، ورفعتُ غطاء فتحة الرسائل المعدني وخبطته خبطتين، فأرسل صوتًا أعلى مما توقَّعْتُ. فتحتِ الباب وقد فوجئتْ برؤيتي، ثم فرحتْ لذلك بوضوح، مع أنه، كما فكَّرت في نفسي، من المستحيل ـ وسيبقى مستحيلًا أبدًا ـ معرفة كيف يشعر أي شخص نحو أي شخص آخر.

«ادخل»، قالت برفق، ثم فطنتْ لشعور جديد في ملامحي فسألتني: «هلا دخلت؟».

دخلت ماشيًا وراءها.

همست قائلة: «توقيت مثالي. توًّا أدخلتهما ليناما».

بهدوء تبعتها إلى المطبخ. سألتني إن أردت شايًا. كان المكان دافئًا، تفوح منه رائحة الجبن المشوي والبطاطا والأطفال. أخذت تقول كم كانت سعيدة برؤيتي. تساءلتُ إن كنتُ قد وتَّرتُها. لعلني أخفتُها بظهوري هكذا. قالت لي إنه ينبغي لي أن أرافقهم يومًا إلى بحيرات هامبستيد وأشاركها السباحة.

قالت: «جميلٌ رؤية الأشجار من الماء».

قلت شيئًا عن كرهي للمياه الباردة. ثم اعتراني إحساس بالتعب، وعرفت أن كل ما كنت أفكّر فيه في طريقي إلى هنا لا علاقة له بالأمر، لا علاقة له بالمرض الحقيقي، وأن المرض الحقيقي لم يكن له اسم ولا علاج، فأشعرني هذا بضيق في النَّفَس. سالت دموعي. قالت: «ما الخطب؟» قلت إني قلق على صديقَي، إن حسام ومصطفى في الحرب الآن. دُهِشَتْ وكانت عيناها حانيتين وفضوليتين ومهتمتين. فكرتُ في تلك الكلمة مرة أخرى «نسر»، فوجدتها قد تغيَّرت وأُعِيدَ تأهيلها، وعرفت أن هذا كان بسبب وجودي مع هانا. بينما كانت تنظر إليَّ، أيقنتُ أن «نسر» ستكون هي الكلمة الصحيحة في بعض السياقات.

أحضرتْ الشاي وجلست مقابلي. كانت وجنتاها محمرتين من تعب أعمال البيت. بينما كنت أنظر إليها فكَّرت في أن الإنجليز يعجبونني. أحبهم. أكره إمبرياليتهم وتحيزاتهم المتزمتة، لكن، بغض النظر عن ذلك... وفورًا سمعت التوبيخ: «بغض النظر عن ذلك» يتردَّد بسخرية في رأسي. فكَّرتُ: هذا صحيح، أنا لا أحب الإنجليز. لا يمكنك أن تحب شيئًا مجرَّدًا. غير أنني أحب هانا. على راحة يدي استراح كل طرفٍ من أطراف أصابعها.

قلت: «هلَّا ذهبنا إلى الفراش».

تعجَّبتْ، وضحكتْ، وأدركتُ أنني لم أكن أمزح، فأمسكت يدي ومشينا على أطراف أصابعنا إلى الطابق العلوي. بصمتٍ

مارسنا الحب. ثم تشبَّثتُ بها ودفنت وجهي في شعرها. أردت أن أقول لها ألا تتكلم عن الغد ولا عن الأمس. لكنني كنت أختنق، ففكرت أنه خير لي أن أبقى هادئًا وأتظاهر بالنوم. أردت أن أقول لها: أريدك أن تعتمدي عليَّ. لكنها تحركت بعد ذلك.

قالت: «آسفة يا حبيبي. ليلى تراودها أحلام مزعجة. دائمًا تتسلَّل إلى السرير معي».

١٠٢

كل يوم كنت أقلّب صفحات وصفحات من منشورات وسائل التواصل الاجتماعي. أصبح فيس بوك خصوصًا المكان الذي يلجأ إليه الليبيون لمشاركة الأخبار أو قراءتها أو التعليق عليها. كان هناك ما لا يحصى من صور قتلى وأجساد مشوهة وأناس محترقين تُرِكوا متفحمين على قارعة الطريق. أول مرة صادفت ذكرًا لمصطفى وحسام لم أصدِّق عينيَّ. ثم وجدت روايات عديدة عن شجاعتهما وكيف أصبحا لا يفترقان. مثلما قال أحدهم: «إنهما يجسدان الروح النبيلة للأخوَّة الثورية خير تجسيد». وافقه آخر مضيفًا تعليقًا في الأسفل: «أينما وجدت أحدهما عرفت أن الآخر قريب منه».

ثم ظهرت صورة لهما وهما في طرف غرفة طويلة خالية. ضوء يتدفق من نافذة أو من باب خلف المصوِّر. ضوء صباح باكر، ضوء بحر. ربما كانت الغرفة في شاليه مهجور امتلأ يومًا بالأطفال في الصيف. يفيض الضوء ويغيِّر الجدران التي طُلِيَ نصفها السفلي ذات مرة بالوردي وأعلاها بالأصفر. كل الألوان

تلاشيةٌ الآن والشمس تُبرز الخلفية البيضاء، حتى ليبدو الطلاء كأنه يختفي أمام عينيك. مع أن الغرفة خالية، يجلس حسام ومصطفى معًا متقاربين على فراش رقيق بُسِطَ على الأرض. بشرتاهما سمراوان، ولحيتاهما كثّتان وشعثاوان، يخالطهما لون رمادي، وجسداهما يتمتعان باللياقة. عينا مصطفى مغمضتان ويبدو أنه ينام بعمق، شفته السفلى منفرجة. أمّا حسام، فهو مشغول بالكتابة في مفكّرة صغيرة تسع راحة يده. أكبّر الصورة فأرى قلم الرصاص بين أصابعه. شُحِذ بسكين، طرفه طويل ونحيل، وهو أقصر من إبهامه.

كان من المزمع أن أقابل كلير ذلك المساء. فقد تأجل اللقاء وقتًا طويلًا. حاولنا وضع خطط من قبل، لكن لسبب من الأسباب كان من الصعب دائمًا تحديد وقت يلائم كلينا. لكننا اتفقنا الآن، وعلى سبيل العادة أكثر من الذكرى، اقترحت المكان نفسه الذي اعتدنا اللقاء فيه سابقًا؛ كافيه سيرانو بشارع هولاند بارك. لم تبدُ متحمّسة. قلت لها إنني سأسعد بلقائها في أي مكان آخر. إلا أنها قالت بعد ذلك لا بأس بسيرانو. كان الحديث متعسّرًا. لم يكن عندنا الكثير لنتحدث عنه. كان واضحًا أن حسام قطع اتصاله بها هي أيضًا. وكان واضحًا أنها مضت قُدُمًا، أو على الأقل بدأت تفكّر كيف يمكنها فعل ذلك. أخرجت هاتفي وأريتها صورة حسام ومصطفى. نظرتْ إليها بضع ثوانٍ وكبّرتها بأطراف أصابعها.

«يبدو بخير»، قالت أخيرًا، وهي تعيد إليَّ الهاتف.

شعرتُ بأن تعليقها هذا غريبٌ جدًّا، إذ كان واضحًا أنه لم يكن بخير بتاتًا. كان متعبًا ويخوض حربًا خطرة.

ثم تبدَّلت عيناها واستقر نظرها على كتفي اليسرى. قالت: «سأعود إلى دبلن. لقد قررت. حصلت على عمل. والداي يتقدمان في السِّن. وأشتاق أصدقائي».

فكرتُ في ثنيها عن قرارها، ثم خذلتني قوتي عندما أدركتُ أنني إنما أفعل ذلك لمصلحتي؛ وفي الغالب لأنني سأتعزَّى بمعرفة أنه ما زال هنا من يعرفني، من أيام عيش مصطفى وحسام هنا، شخصٌ رآني معهما.

«اعتقدتُ فعلًا...»، قالت وسكتت حين اغرورقت عيناها بالدموع. «إن هذا... وما لبث أن تركني وراءه بعد ذلك».

سكتت قليلًا ثم أضافت: «لا ينبغي أن يُعامَل أحدٌ بهذه الطريقة».

شعرت بأني مسئول، لا عن تصرف صديقي فحسب، بل أيضًا عن بلادي. قلت: «ذاك المكان بمقدوره أن يبتلع المرء حقًا».

قالت مرة أخرى: «لا ينبغي أن يُعامَل أحدٌ بهذه الطريقة».

قبل أن نفترق سألتني عن خططي، باغتني السؤال. قالت: «هل تفكر في العودة؟».

قلت: «لا أعرف. أشكُّ في ذلك».

سألتُ عن هانا، ثم قالت: «فلنلتقِ مرة أخرى من فضلك. أمامنا على الأقل ثلاثة أشهر قبل أن أنتقل».

وعدتها أن نتفق على موعد.

تعانقنا، وقبل أن تهمَّ بالخروج قالت: «إذا سمعتَ من حسام». صدمتني كيفية نطقها اسمه؛ بطريقة لم تتغير، حميمة ومتوقعة، كأنه سيظهر في أي لحظة. «من فضلك لا تبلغه بأخباري. فقط قل له أن يعتني بنفسه». تهدَّج صوتها.

تعانقنا مرة أخرى وسمعتُني أقول: «أنا آسف جدًّا».

١٠٣

بعد بضعة أيام، نُشِرت مقاطع فيديو قصيرة، مصوَّرة بهاتف محمول، تداولها كثيرون على فيس بوك وتويتر. في المقطع الأول، يواجه مصطفى الكاميرا لحظة، ووجهه غامض الملامح لكن يمكن تمييزه. يلتفت بسرعة ويتقدم إلى الأمام بعزم لا يلين. تحاول الكاميرا مواكبته وهي تهتز خلفه على بعد ما يقارب ثلاث أقدام أو نحو ذلك. يحمل مصطفى بندقية بيده اليسرى. ظهره مشهد يعجُّ بالنشاط؛ الفراغ الذي بين عظمتيْ كتفيه ينشد يدًا تحطُّ عليه، أو يبدو عرضة للاستهداف: برصاصة، أو ضربة فأس. يذكرني هذا به وكيف وضع يده على ذلك الموضع عينه في ظهري قبل سبعة وعشرين عامًا في مظاهرة ساحة سانت جيمس، عندما كنا في الثامنة عشرة من عمرينا فحسب، قبل إطلاق النار علينا بلحظات، وتمامًا في اللحظة التي فكرتُ فيها في المغادرة، وإدارة ظهري للمظاهرة والسير إلى لندن، المدينة التي لم أكد أعرفها، حيث كان من السهل أن يفقد المرء نفسه وينسى، وحيث أتحرَّك الآن مقتربًا من الشقة الكائنة في شيبردز بُش، التي أصبحت وطني الوحيد، وحيث أعجز عن النسيان.

عن يسار مصطفى، رجل آخر، أطول قامة منه بقليل، يتحرك معه في اتساق، ويبدو نصفه خارج إطار الصورة. ما إن أفكِّر أني أستطيع تمييز خفَّة المِشية، حتى يلتفت الرجل إلى مصطفى فأتيقَّن أنه حسام. بيده اليمنى، تلك اليد المألوفة، اليد التي صافحتُها مرات لا حصر لها وضربتُها موافقًا بحماسة، يحمل مسدسًا أسود غليظًا تلفُّهُ أصابعه بقوة، وإصبعه متأهبة في أي لحظة. يتراجع المصوِّر خطوة إلى الوراء. تتأرجح الكاميرا من جانب إلى آخر. الريح تصفر. نرى السماء لحظةً خاطفة، شاسعةً وبلا نهاية، تلك الزرقة الخاوية التي أعرفها من طفولتي. هناك أصوات طلق ناري بعيدة. حبات كستناء تتكسَّر. ثم تثبت الكاميرا ونرى منزلًا. بحذرٍ يقترب منه مصطفى وحسام. ينظر مصطفى وراءه آمرًا رجاله بخفض رؤوسهم. لحظةً تقع عيناه على الكاميرا ثم عليَّ. فيهما موافقة مترددة، موجهة إلى المصوِّر، ومن هذا أفترض أنه يقصد أن يكون هذا الفيلم وثيقة من نوع ما. الكاميرا الآن قريبة من الأرض. الظل القصير لأشجار حديقة. الشمس شبه عمودية.

يقتربون من المنزل. يجثمون تحت النافذة. ببطءٍ ينهض حسام.

أسمع مصطفى يهمس: «احذر».

يكوِّر حسام يديه على النافذة لينظر إلى الداخل ويقول: «إنه فارغ».

ترتفع الكاميرا، تدنو من زجاج النافذة المغبرّ وتستقر هناك. نرى ما يراه حسام. ستائر شفافة، هيئة شبحية لغرفة، أثاث، والضوء المنبعث من الخلفية. في ذلك الطرف القصي من المنزل، قد تكون جميع النوافذ مفتوحة، حياة تحدث هناك، غداء يُطهى ربما.

فكرت وأنا أشاهد: الراحة نائية، والبيوت أصبحت سحرية.

بحذر يتحركون، خافضين رؤوسهم تحت كل نافذة، لكنهم يقفون جميعًا منتصبين عندما يرون جانب المنزل الخلفي. ما عادوا يتهامسون.

أسمع حسام يقول: «كأن فيروسًا دمَّره».

يقول له مصطفى: «الأوغاد».

يأتي المصوِّر إلى جانب حسام، ولحظةً أرى وجه صديقي، جانبه، وقد لوَّحته الشمس، شعره الطويل ولحيته الطويلة يجعلان أذنه تبدو أكبر وكذلك كأنها ينقصها شيء، تجاعيد عند زاوية عينه كأنها سهام نارية. تلين هيئته، فأعرف، بطريقة ما، أن بينه وبين مصوِّر الفيلم مودَّة.

«فليرَ العالم»، يقول مصطفى، فتتوجه الكاميرا إلى حفرة في الأرض، ثم ترتفع لتُظهِر واجهة المنزل الخلفية التي فتَّتها الانفجار. «هذا»، يقول مصطفى فترتفع الكاميرا إلى وجهه مرة أخرى. عدا اللحية، لم يتغير وجهه على نحو لافت، إلا أنه

متحفِّظ. أُسدِل عليه حجاب. يقول مرة أخرى، مشيرًا إلى المنزل العاري من الجدران، «هذا، هو ما يفعلونه بعائلات أولئك الذين يرفضون الانحناء».

ثم يشيح بوجهه، إما لأن العاطفة غلبته وإما لانصرافه إلى شأن آخر.

«هذا بيت مبارك»، يقول وصوته لا يكاد يُسمَع. تهتز الكاميرا ثانيةً، يظهر وميض من السماء، ثم فجأةً ينتهي الفيلم.

مدة الفيلم كله ٢٦ ثانية وستة أجزاء من الثانية تمامًا. أشاهده مرارًا وتكرارًا، متفحّصًا كل لقطة.

بعد بضعة أيام يظهر مقطع آخر، مستمرًا من حيث انتهى الأول. تغيَّر الضوء، أصبحت الظلال طويلة ومنخفضة. حركة الكاميرا أقل اهتزازًا. شيئًا فشيئًا يُعرَض لنا ما وقع من أضرار. شقَّت القنبلة المطبخ شقًّا مستقيمًا، تاركةً طاولة الإفطار بلا ضرر، وقد تعلَّقت إحدى قوائمها الأربع في الهواء كحيوان متأهِّب للقفز ومباغتة فريسته. المصباح المعلَّق في الأعلى سليم. يريد مصوِّرنا أن نرى هذا كله. يتحرك بحذر وهدوء. ينتقل إلى خزائن الحائط التي سقطت جوانبها كاشفة محتوياتها المضطربة: علب تونة، برطمانات توابل، زجاجة ماء زهر من النوع نفسه الذي نشأتُ عليه. في الخزانة السفلية، شوال أرز كبير. ممزَّق، وتنتثر حمولته بيضاء لامعة حيث كانت الأرضية من قبل. يقترب المصوِّر، وتصير حبات الأرز فضية تحت ضوء المساء.

يتوقف التصوير ويبدأ مرة أخرى في وقتٍ لاحقٍ من المساء. الجميع مجتمعون في الغسق حول طاولة المطبخ، أمامهم عدَّة علب تونة فارغة.

يقترح أحدهم إشعال نار.

يقول له مصطفى: «لا تكن أحمق».

يوضِّح حسام: «هذا سيكشف موقعنا. ومن فضلكم يا شباب، لا سجائر أيضًا».

يتوقف الفيلم ويبدأ ثانيةً. تجول الكاميرا في الخارج وتحوم حول الحفرة. في الجانب، هيئة رجل يجلس على الأرض وظهره متكئ على الجدار، في الأغلب يراقب المكان، لأنه يواجه معبر الحديقة الذي وصلوا عن طريقه. تتجه الكاميرا إلى الأعلى وبسرعة نرى أن الشمس قد غابت. مرةً أخرى، صوت طلقات نارية من بعيد، أقرب قليلًا الآن. تدور الكاميرا فنرى مصطفى يخرج حاملًا مرآة كبيرة بلا إطار، لكنها مكسورة الحافات. يسارع المصور للمساعدة، لكن مصطفى يهزّ رأسه. يبدو متعبًا، مرهقًا. يتراجع الرجل الذي يحمل الكاميرا إلى الوراء وينتظر بإعجاب. المرآة التي يحملها مصطفى بين ذراعيه، تزيل بطنه، تستبدل به السماء التي بدأت تظلم، وقد توهجت الآن بلون أرجواني، وتحتها أرى المصوِّر. يناديه مصطفى فأفطن للاسم: «علي»، وأفكر في نفسي: فعلها مصطفى؛ لقد عاد وكان يحرس

أخاه الأصغر، واقفًا بينه وبين العالم قدر استطاعته. يلتفت علي ويوجِّه الكاميرا إلى الرجل الذي يراقب، ذاك الذي يحرس معبر الحديقة، وقد عرفته حتى في ضوء الشفق: حسام، يكاد ينحني على الأرض متَكِئًا بمرفقه على صخرة بمحاذاة الجدار. يلتفت إلى مصطفى وعلي بنظرة خالية من الأسئلة، وبذلك أحسب أنه هو من اقترح الفكرة في المقام الأول: أن توضع المرآة في موقعه، وتُسنَد إلى الحائط، وبذلك يمكنهم مراقبة المدخل الوحيد من أمان طاولة المطبخ.

١٠٤

بعد بضعة أسابيع، في صباح الحادي والعشرين من أكتوبر ٢٠١١، بينما كنت في طريقي إلى العمل، رأيت من زاوية عيني، وأنا أمشي إلى محطة الحافلات، الصفحة الأولى لصحيفة الجارديان. أظهرتْ صورةً كبيرة غير واضحة لرجل محاط بأشخاص، ترفعه أيديهم من ظهر قميصه المبلَّل بالدماء. وجهه، الملوَّن بظلال وردية وأرجوانية فاتحة، متعب وهو يرقد في حِجْر أحدهم، عينه اليسرى تنظر إلينا مباشرةً، فمه مظلم ومفتوح كأنه في منتصف الكلام. كان عنوان الخبر ـ لكن قبل أن أقرأه وفي جزء من الثانية قبل ذلك، ظننت أنني عرفت الرجل الذي في الصورة، وكنت موقنًا أنني أعرفه، وأنه لم يكن معروفًا لي فحسب بل كان مألوفًا كذلك، ربما كان صديقًا أو حتى واحدًا من عائلتي ـ كان العنوان مكوَّنًا من كلمتين فقط: موت طاغية.

مرَّ اليوم في حالةٍ من ضباب. هاتفتني كلير بضع مرات. كانت هناك مكالمة من هانا أيضًا. ثلاث من سعاد. واحدة من أبي. دعتني المديرة إلى مكتبها وسألتني إن كنت مستعدًّا لتقديم

عرض للطلاب عن الربيع العربي في اجتماع المدرسة القادم. رفضتُ، قائلًا لها إني لا أعرف عن السياسة إلا القليل. خاب أملها، لكنها لم تُلِحّ.

تلك الليلة، بعد مرور نحو ستة أشهر لم أسمع خلالها شيئًا من حسام، وصلتني منه رسالة بالبريد الإلكتروني. أرسِلَت في الثانية صباحًا بتوقيتي والثالثة صباحًا بتوقيته.

عزيزي خالد،

لقد كنتَ معي طيلة هذه الشهور الماضية، وقد تلاحمت فيها الأيام التي سُبِكَت من لحظةٍ واحدة. أحيانًا كنت أعتقد أنك تستطيع سماعي، تستطيع تخيُّل مكاني على نحوٍ أفضل من أولئك الذين بجانبي. حملتك معي في كل مكان، متمنيًا لو أستطيع إخبارك بما لا أستطيع قوله إلا لك، أنت الذي طالما فهمتني. لكن لعلك اليوم ستحاسبني.

إنني أطبع على هاتفي في الظلام، في غرفة مستعارة بمنزل يعود إلى أناس لم أقابلهم من قبل. ألبس الثياب نفسها والحذاء العسكري نفسه. لكن لا مكان آخر نهرب إليه الآن. بلغنا النهاية. نحن في مصراتة. بالأمس وصلنا. لا شك أنك قرأت الأخبار ورأيت الصور.

انضممت إلى المقاومة المسلحة منذ خمسة أشهر ونصف شهر. وقد أُلحِقتُ بمعسكر تدريب مؤقت. فوضى، لم يكونوا يعرفون ما يفعلون، لكن، بعد ذلك ظهر صديقك القديم. بحلول ذلك الوقت، كان مصطفى قد اكتسب شيئًا

من الخبرة القيِّمة، وتمكّن من فرض بعض النظام. غير أنه عندما رآني أول مرة، انهار، وغطى وجهه وبكى. حينها لم أستطع فهم ذلك، لكنني أفهمه الآن. في الحرب، لستَ في أي مكان، فلا أنت تنتمي إلى الماضي ولا إلى المستقبل، وهذا يفتح في داخلك جوعًا يتمدَّد بمرور كلّ يوم. حتى لا يبقى فيك شيءٌ سواه. قد يبتلعك بسهولة. لقد رأيت ذلك يحدث. في بعض الأحيان، ظننت أنني أرى الحياة على حقيقتها، عارية، فهزَّ ذلك روحي. إنه لأمر فظيع أن ترى.

منذ ذلك الحين لم نفترق أنا ومصطفى. هو وأخوه الأصغر، علي، نائمان على الأرض بجانبي. بغض النظر عن التعب الشديد والخطر، والتوتر اللا نهائي الذي يشحذ عقلك ويجعل منه نصلًا، كانت هناك أيام مع هؤلاء الرجال اعتقدت خلالها أنني سأستغني بسعادة عن حياةٍ من أيام الراحة، وأهدم البيت الذي أحمله على ظهري، البيت الذي يحمله كل واحد فينا، حتى أولئك الأشخاص مثلي الذين لم يجيدوا العيش قطّ.

ومع ذلك، في الأحلام، الأحلام التي كانت تراودني في الأشهر القليلة الماضية، التي تظهر بقوة في نومي القصير، دائمًا ما أجد نفسي أسافر وحدي، مضطرًّا إلى الاتكال على غرباء، أناس لا يتحدثون لغتي ولا تربطني بهم روابط خاصَّة. في هذه الأحلام أحاول أن أكون مُسليًا ولطيفًا، مع إدراكي لفقر حياتي وبؤسها. لا أفهم هذا. في غمرة هذه الأخوة الحميمة وحماسة قضيتنا، التي أشعر بأنها تربطني

باستمرار بشغف وطني وناسي، كيف يمكن لأحلامي أن تكون موحشةً هكذا؟

ومع ذلك، يمحو الصباح كل شيء. حتى دويّ الرصاص المتصل يختفي لحظةً ما، وأفكر؛ فيما كان سيحل بالبشريَّة دون صباح؟ حتى أعنف الحاجات يهدِّئها الفجر، وتكاد تستطيع شَمَّ عبق الأمل المنعش. اليومُ طفلٌ قبل أن يكبر، وهو يكبر بسرعة فائقة هنا، فيجعل تلك الساعات الباكرة أروع.

بالنسبة إلى مصطفى، فقد تلاشى الماضي وجميع السنوات التي قضاها في الخارج في الضباب. يقول لي إن الثورة طهَّرته من المنفى. كثيرون هنا يشعرون بهذا، بأن حياتهم الماضية لم تعد لهم. أما أنا، فليس الأمر كذلك لي. لا خلاص في الحرب. بل بالعكس. كل ما حدث يبقى دائمًا معي، ظاهرًا على السطح، على نحو لا يُطاق. جميع الأماكن والأوقات، التفاصيل، التفاصيل الكثيرة والحيوية، أنت، كلير، ملك.

وجه ملك أبقاني صامدًا. كلما وهنت عزيمتي وأُغريتُ بالاستسلام - فالموت يحيط بي من كل جانب، وكلما أصبح مألوفًا زادت رغبتي فيه - جاءت ذكراها لنجدتي، وارتفعت مشرقة كمنارة. خالد، أعتقد أني أريد أن أنجب منها أطفالًا، وأن أعيش وأكتب الكتب بجوارها، وأن يكون وجهها أول وآخر ما تراه عيني. أن أعرفها أفضل مما عرفت أي شخص آخر وأن تعرفني بالطريقة نفسها. أريد أن أفقد الحدود كلها، فلا أعرف أين أنتهي وأين تبدأ هي. شعرتُ بهذا أكثر

ما شعرتُ به في خضم المعارك. كان هذا أحد الأسباب، ربما السبب الأكثر إقناعًا، لعدم رغبتي في الموت.

كان اليومان الماضيان قاسيين جدًّا. كنا منهكين، لكن كان علينا الاستمرار. انتشرت شائعة تقول إن القذافي تراجع إلى مسقط رأسه، سِرت. الحرب تجعل الزمن مادة قابلة للتشكيل، تشدّه، وإذا تعلَّمتَ كيف تقرؤه، أن تستشعر أين يشتد وأين يرتخي، فبإمكانه أن يساعدك على تمييز المخاطر من الفرص. أو أنك، على كل حال، توهم نفسك بأنك تستطيع ذلك. البارحة، ونحن نقترب من مشارف سِرت، رأيت النسر الذي كان يتبعنا طيلة الصباح، محلِّقًا أمامنا، حائمًا في منتصف الطريق بيننا وبين سرت.

كان هناك أشخاص في المكان، وقد أطلقوا النار علينا مرارًا. ثم توقفوا. هل كانوا يستدرجوننا أم أن ذخيرتهم نفدت؟ اقتربنا. كان هناك أنبوب أسمنتي، جديد تمامًا، لم يُستعمَل من قبل قطّ، نصفه مدفون في الرمال. أتذكَّر أنني فكرت ونحن نقترب: الشكل الدائري لفمٍ يعوي. مؤكد أنه كان كبيرًا بما يكفي ليختبئ فيه أحد. هنا أصبحت الأمور في غاية الغرابة. كنت على يقين بأنني أوشك أن أُقتَل. في نوبة جنون، اندفعت إلى الأمام وغصت داخل الأنبوب. وهناك كان. وجهه ذاهل. صدَّقتُ عينيَّ ولم أصدِّق عينيَّ. كان كلُّه بين يديَّ، من الشاب المثالي إلى الفاسد المجنون بالعظمة، وكل الأطوار التي كانت بينهما. الطفل الذي فيه كان يسقط طوال الوقت نحو هذه اللحظة، إلى هذا الأنبوب وبين يديَّ.

عندما خرجت، حاولت أن أحميه، أن أعلن النبأ بهدوء. لوَّحت لمصطفى وعلي. أخرجته ممسكًا بمرفقه، وقد دُهِشتُ كيف تحرَّكَ طوعًا إلى جانبي. أمسكه مصطفى وعلي، وعندما رأى الباقون من هو الرجل الذي أسرناه، بدأ بعضهم بالعواء والبكاء. ما لبث أن زاد العدد. أسرعتْ إلينا كتائب أخرى، فأصبح من الصعب جدًّا التحكم في الوضع. أطلِقَت النيران في الهواء ابتهاجًا. كثيرون بدأوا في الصراخ، وكان صراخهم مروِّعًا. لم يصدِّقوا أعينهم. لم يصدِّق أيٌّ منَّا. من حين لآخر كان أحدهم يخترق الحشد ويضربه. بذلت ومصطفى ما بوسعنا لردعهم. أردنا محاكمته. لم نكن وحدنا من أراد ذلك. وضعناه على مقدمة السيارة وأحطنا به لحمايته. في لحظة من اللحظات، نظر إليَّ مباشرة، عينه اليسرى مغمضة وتنزف، وسأل: «لكن ما الذي ارتكبته أنا بحقهم يومًا؟» أردت أن أجيب. لكن لم يكن هناك وقت للإجابة.

قليلون لم تصبهم عدوى ذلك الجنون. على كل حال، ذاك كان هو، أصل عذابنا، الذي لم يكن أحد فوقه، الشخص الذي انبثق منه كل شيء. لقد قبضنا على روح الأشياء، على جوهر حياتنا، المصدر، خالق واقعنا، الذي فرَّقنا وجمعنا، الذي أخذ وأعطى، الذي عاقب وعفا. كان أبانا، شئنا أم أبينا. حتى مَن كانوا مثلي ومثل مصطفى، مَن كانوا يحاولون كبح جماح الآخرين، لم يستطيعوا مقاومة محاولة مدِّ أيديهم إليه من حين لآخر، وهو مدسوس في وسطنا، لرفعه وإعادة

وضعه على مقدمة السيارة، ليس لمعاقبته بقدر ما كان ذلك لطمأنة أنفسنا بأنه كان هو حقًّا، وأنه كان موجودًا حقًّا.

مع أننا صرخنا فيما بيننا، ومع أنه كان هناك صراع دائم بين من أرادوا حمايته ومحاكمته والحصول على ما استطعنا من إجابات، وبين من أرادوا أكله حيًّا، أصبحنا في تلك اللحظة، على اختلاف ألواننا وخلفياتنا، مخلوقًا واحدًا، وحشًا يمزِّق وينهش، جوعه كان نَهِمًا، ولم يكن لفريسته إلا مصير واحد مؤكَّد. لهذا لم يكن بوسعنا إنهاء الأمر برصاصة نظيفة في الرأس. أريدك أن تعرف هذا. في حال أعطتك الصور انطباعًا خاطئًا. أنا وأنت لطالما كرهنا العنف. لكنَّ ما مزق القذافي هو ما مزقنا نحن. غضبنا وخلافاتنا أيضًا. مَن طلبوا العدالة بالقانون ومَن طلبوها بالثأر.

بحلول الوقت الذي دخلنا فيه مصراتة، كان الأمر قد قُضِيَ. من غرائب الانتقام أنه يتركك مهزومًا. كل ما كان بين أيدينا الآن كان جثة عاجزة عن الاعتراف، عاجزة عن الندم. أراد الناس أن يروا بأعينهم، أن يصدقوا، وأن يؤكَّد لهم الأمر. عندما أخذوه، كانت يداي وثيابي ملطخة بدمه. هويت على الأرض. رفعوني وحملوني إلى غرفة استقبال في بيت أحدهم. ظن كل الناس المجتمعين أن دموعي كانت دموع فرح.

أرقَـدَ الجثمان على فراش قديم متسخ على أرض مستودع كبير مهجور. تكوَّن صفٌّ طويل. رجال وصبية داخلون خارجون، يدورون حوله. ربما صدَّقوا أنه كان هو

حقًا، وربما لم يصدِّقوا. ما زال بنطالي ملطخًا بدمه الذي أصبح الآن جافًا وشمعيًا، ولأن جلودنا مسامية كالثياب التي نلبسها، فقد تسرَّب الدم إلى داخلي.

أُخِذَ مني الكثير. لستُ أنا نفسي، ومع ذلك فأنا أنا نفسي، ولست على يقين أيهما أسوأ. أينما ذهبتُ من هنا، عليَّ أن أحمل معي كل ما رأيت. أعلم أني منتصر. أشعر بذلك وأصدِّقه. والنصر شرف. لكن قلبي مترع بالخوف. الثورة تستدعي قدرًا كبيرًا من الخيال، ولهذا فإنها غالبًا ما تُحيِّر خيال من يشتركون فيها فتفضي بهم إلى طرق مسدودة. وربما هذا جزء من غرض كل ثورة: أن تدفع أبطالها إلى المتراس، أن ترغمهم على اختراقه لبلوغ الجانب الآخر. وصدِّقني يا خالد، لقد هاجمتُ تلك العقبة بإيمان رهيب. رهيب لأنه جميل، جميل لأنه، كأهم أشكال التعبير عن الخيال، لم يُعِر المصالح الشخصية أدنى اهتمام. وقد فعلناها، واخترقنا المتراس. لكن لا يكفي أن تهزم عدوَّك. أعرف هذا الآن، وأخاف على الغد. لكنني أعرف أيضًا أن العمل يبدأ الآن.

صديقك أبدًا،
حسام

١٠٥

منذ ذلك الحين، غرق حسام في دوامة تأسيس برلمان جديد، وفي الانتخابات. شغل منصب وزير الثقافة مدةً قصيرة. بدأت أرى فيه، وفي الخطب التي ألقاها - وكثيرٌ منها تداوله الناس بحماسة على الإنترنت - مقوِّمات رجل دولة، موظفًا حكوميًا يؤدي عمله بالتزام وفخر كبيرين، تحيط به في الغالب حاشية من الشباب والشابات الذين - من الواضح - أنهم رأوا فيه قدوتهم. في نهاية المطاف، وبتزايد الانقلابات والانقلابات المضادة وانزلاق البلاد إلى الفوضى والحيرة، انسحب من الحياة العامة.

حتى اليوم، إذا ظهرت لقطات جديدة عن القبض على القذافي وقتله، أتفحَّصها بدقَّة، آملًا تمييز حسام أو مصطفى بين الحشود.

العام الماضي، أكملتُ أخيرًا ترجمة مجموعته القصصية. وجدتُ ناشرًا لها، بعد الحصول على إذنه. جاء لحفل النشر. أُقيمت أمسية، جزء من مؤتمر في أدب ما بعد الاستعمار في جامعة SOAS. لم أسمعه يقرأ من قبل. قرأ قصة «الممنوح

والمأخوذ» بنصِّها العربي الأصلي، القصة التي جلبته إلى حياتي أول مرة. بوتيرة غريبة أخذ يقرأ جُمَلَه القصيرة المقطَّعة، التي كثيرًا ما تنتهي حيث لا تتوقعها، متحرِّكًا بسرعة لكنه يتوقف عند كل نقطة ثانيةً أطول من اللازم، ثم يهاجم السطر بقوة قبل أن ينخفض صوته شيئًا فشيئًا مرة أخرى. فيعطيك انطباعًا بأنه كان يقرأ مواجهًا عقبات مُلِحَّة. بعد ذلك، سُئل عن المعنى الكامن وراء أفعال الرجل في القصة أو امتناعه عن الفعل.

أجاب: «طالما كنت واعيًا بالموت ورأيته شخصًا، حين يصل، سيأتيني من الجانب، بزاوية ٩٠ درجة، ولن يظهر في طرف عيني إلا بعد فوات الأوان. جانب مني لم يتوقف قطّ عن انتظاره، وترقُّبه، مهما بدا ذلك عبثيًّا. لكن ذلك كان في السابق. أما الآن، فإني أفكر تفكيرًا مختلفًا».

كان ذلك هو السؤال الأدبي الوحيد، إن جاز لنا تسميته هكذا. أما بقية الأسئلة فقد كانت عن الوضع الحالي في ليبيا، وقد تحدث عنه على نحو جيد جدًّا وإن كان بصوت أقل تفكُّرًا وأكثر تعجُّلًا.

قررنا أن ننسلَّ ونذهب للعشاء وحدنا في سوهو. بدلًا من الإثارة التي شعر بها عندما عاد من باريس أول مرة، أو التعب الذي بدأ يتسلل إليه ببطء فيما بعد. نظر إلى لندن بلا مبالاة ظريفةٍ كزائرٍ. أخبرني أنه ومصطفى، بعد مصراتة، لم يلتقيا إلا نادرًا. بينما انتقل حسام إلى طرابلس سعيًا إلى تقلُّد دور

في البرلمان الجديد، اعتقد مصطفى أن الحرب لا بد أن تستمر، وأنه ما زالت هناك عناصر مناهضة للثورة يجب اجتثاثها. عاد شرقًا إلى بنغازي، ليصبح قائد إحدى الميليشيات التي تقاتل جنرالًا أراد إعادة فرض حكم الرجل الواحد. سئمتِ البلادُ القتال والفوضى، وتاق كثيرون إلى أيام الدكتاتورية. حصل الجنرال على الدعم، وفي النهاية ظفر ببنغازي.

«لكن ليس قبل تدمير وسط البلاد كله»، قال حسام. «ذهب حيُّنا القديم. أحصت ميليشيا مصطفى خسائرها وانسحبت إلى أعماق الجبال القريبة من درنة. ثم انقطعت أخباره. حتى إنني تساءلت إن كان ما يزال حيًّا. ثم سمعت شائعة تقول إنه تزوج»، قال حسام وصمت.

لعلَّه هو كذلك كان يفكر في الشيء نفسه، أو لعلَّه لم يفكِّر، بل رأى، وليس ذلك حتى، بل شعر بما تعنيه هذه الكلمات في الواقع: «تدمير وسط البلاد كله». بيوتنا دُمِّرت. رفض والداي العيش تحت حكم الجنرال فانتقلا إلى طرابلس.

فجأة قال: «أمك وأبوك بخير. زرتهما فور معرفتي بقدومي إلى هنا».

قلت له: «قالا إنهما سيستأجران منزلًا في الضواحي».

قال: «نعم، منطقة جميلة. أشجارها سامقة وليست بعيدة عن البحر. استأجراه مفروشًا».

قلت: «تلك فكرة غريبة».

«نعم، لكنهما أحسن حالًا من غيرهما».

سألته: «هل ضاعت مكتبة أبي؟» ذاك هو السؤال الذي لم أجرؤ على سؤاله أهلي.

«أخشى ذلك. معظمها. حتى تلك الموجودة في المدرسة. تمكَّن من إنقاذ كتب قليلة. طلابه القدامى يحضرون له كتبًا. أشتري له بعض الكتب أيضًا كلما زرتهما. عمَّا قريب ستصبح مكتبةً أكبر مما كانت». سكت ثم قال: «فرحا كثيرًا عندما عرفا أنني سأزورك. أمك تريدك أن تعود. قال أبوك: «لا ألومه على عدم رغبته في أن تطأ قدمه هذا المكان مرة أخرى».

قلت: «لكن الأمر ليس كذلك».

قال: «اذهب لزيارتهما. الوضع آمن. سيفرحهما ذلك كثيرًا. وربما أنت أيضًا».

لسبب ما، عندما قال هذا، فكرت في ولبروك. قبل عام، تقاعد واشترى كوخًا في كورنول، ومنذ ذلك الحين أرادني أن أزوره. فكرت في أني قد أزوره الآن وأمكث بضعة أيام، ثم أزور والديَّ كذلك. احزمْ حقيبة لعطلة نهاية الأسبوع واذهبْ بتلك الروح الخفيفة، وابقَ بضعة أيام ثم عُدْ.. عُدْ. طالما كانت تلك الكلمة مُدَّخَرة لزيارتهما.

١٠٦

عندما جاء حسام لحضور حفل نشر كتابه، لم يمكث سوى يومين. بعد بضعة أعوام، قرَّر هو وملك الهجرة إلى أمريكا. وقبل أن يغادر البلاد، ذهب شرقًا وتمكَّن من لقاء مصطفى. الليلة الماضية، عندما وصل وتعشينا في شقتي، أخبرني عن تلك الزيارة.

قال: «مشكلة الحرب أنك إذا بقيت فيها مدة طويلة فإنها تُقَسِّي قلبك. كان مصطفى رسميًّا ومقتضبًا في الكلام. تبيَّن أنه لم يتزوج فحسب، بل له ثلاثة أطفال: بنتان وولد. وقد أسماهم أسماء تقليدية: خديجة وجعفر وعائشة. غير أنه لم يرد الحديث عنهم أكثر إلا بقول عبارات معتادة: «الحمد لله»، وعن زوجته قال: «إنها امرأة صالحة تتقي الله»، ونحو ذلك. إلا أن هذا كان في حضرة أشخاصٍ آخرين. لم أعرف أحدًا من رجاله. جميعهم جُدُد وليسوا كمن قاتلنا معهم سابقًا. كانت الحرب، لهؤلاء الشباب، مهنة، لا وسيلة مشؤومة لتحقيق غاية. لكننا، أنا وهو، في النهاية انسللنا، برفقة رجلين من رجاله يحرسانا من مسافة.

كثيرًا ما كانا قريبين جدًّا حتى إننا نضطر إلى الهمس. كنا في أعالي الجبال والوادي ممتدٌّ أمامنا. وقد أحضرت منظاري. كان الجمال متاحًا للعين بقدر ما كان متعذرًا الوصول إليه مشيًا على الأقدام، وكانت السفوح المتدرِّجة تعانق منحنيات الجبل، ترتفع وتنخفض. تراجع الاخضرار في بعض الأماكن وحلَّت محلّه كهوف: أفواه صخرية فاغرة، مواضع جيدة للاختباء. استأنفنا الحديث، عن الاضطرابات الحالية. لام البرلمان ولمتُ أنا الميليشيات. سألته عن عائلته مرة أخرى. قال إن العيش هكذا شاقٌّ جدًّا. بحثنا بأنظارنا. لم يتحرك شيء، وكل شيء كان ساكنًا. ثبَتَتْ عيناه على شيء بعيد في الأفق. مدَّ يده مفتوحةً إليَّ، ومثلما كان الحال في الأيام التي قاتلنا فيها جنبًا إلى جنب، عرفت تمامًا ما كان يريد. ناولته المنظار. حمار أو بغل كان يتحرَّك ببطء على حافة ضيقة عند منخفض شديد الانحدار.

«سيسقط»، قال مصطفى بهدوء، كأنه يحدِّث نفسه. «إنه يحمل شيئًا. انظر»، قال وناولني المنظار.

كان بغلًا. راقبته يتحرك حركةً متقلقلة. أخذ يتوقف محاولًا التراجع. لكنه كان عالقًا، غير قادر على الالتفات ولا على الاستمرار في أي اتجاه إلَّا إلى الأمام. كان مصطفى محقًّا: كان يحمل متاعًا. شوال طحين أو أرز. أين كان صاحبه؟ ثم تحرك الشوال قليلًا. أوشك على السقوط. توقف البغل. تحرك متاعه ثانية ورأيت أنه كان طفلًا مستيقظًا. «بنت»، قلت فأخذ مصطفى

مني المنظار. لوَّحنا بأيدينا وناديناا صائحَين بأعلى صوت. لكن كلماتنا ارتدت وتردَّد صداها في أنحاء الوادي. كانت الطفلة فزعةً حائرة، تتلفت هنا وهناك محاولة معرفة مكانها، ومن أين أتت تلك الأصوات اليائسة وغير المفهومة. ارتفعت حافة التلة والتفَّت حول نقطة عالية، وببطءٍ تلاشت الطفلة والبغل وراء تلك الزاوية».

١٠٧

أوشكُ على الوصول إلى البيت، أتذكَّر حلمًا رأيته ليلة البارحة، خلال الساعات القصيرة التي تمكنت فيها من النوم. أمشي برفقة أمي. تتبعنا امرأة إيطالية متشحة بالسواد. تعتقد أمي أنني أعرف المرأة. الآن تصل الإيطالية إلى جانبي وتقول وفي عينيها شغفٌ وحزن: «صديقك بحاجة إليك». أعرف من تقصد. حينها فقط عرفتها. كانت حبيبة مصطفى التي عرفها وقتًا قصيرًا بعد انفصاله عن شارلوت. كان اسمها صابينا أو صابرينا. بدت عليها خيبة أمل مبهمة، كأن جزءًا منها كان دائمًا ما يخشى أن الأمور قد لا تسير على خير ما يرام. ثم أصبحتُ في بيت مصطفى. كوخ صغير في الجبل الأخضر. غرفتيْن. إحداهما حيث يأكل هو وزوجته، والأخرى حيث ينامان، ومطبخ متوارٍ في الزاوية. لكنَّ فراشهما كان يستلقي عليه رجل ميِّت. لا مكان آخر لإيواء الجثة. لكنَّ الرجل، مع أنه ميت، يستطيع الكلام. مصطفى مشغول بأعمال البيت، يسارع إلى المطبخ وما إلى ذلك. ليس واضحًا ما الذي يفعله تحديدًا. إنه متوتِّر ويبدو أن غاية مشاغله

الأساسية هي تخفيف توتُّره. زوجته غير موجودة في أي مكان، لكنني أستطيع أن أشعر بوجودها وبشيء من رائحة عطرها قديم الطراز، المسك والعود واللبان. ليس لدى الجثة ما تقوله حقًا، ويبدو أنها لا تتحدث إلا من باب التهذيب لتسليتي. الغرفة دافئة جدًا. مدفأة في الزاوية تعمل بأقصى طاقة. أقول لمصطفى إنه يجدر به أن يطفئها، وأن يجلب بدلًا منها مكيف هواء، وإلَّا فإن ذلك سيعجِّل بتفسُّخ الجثة. أهمس بهذا مراعاة للجثة. مصطفى لا يوافق. يقول إن زوجته أخبرته أن هذا يساعد أعضاء الرجل الميت على الاستمرار في العمل. الطريقة التي يذكر بها زوجته توحي بأنها الآن هي الصوت الذي يثق به أكثر من أي صوت. أُقرِّر ألَّا أجادله وأقول لنفسي: فليكن، البيت بيته.

عندما استيقظت، افتقدته كثيرًا وشعرت كأنني رأيته حقًّا.

١٠٨

سأزور والديَّ. سأزورهما في منزلهما المؤجَّر. سأُقبِّل أيديهما وجبهتيهما. سأعانق سعاد وزوجها. سآخذ أطفالهما إلى البحر، وإذا كان أحدهم لم يتعلم السباحة بعدُ فسأعلِّمه. وسأحضر معي كتاب «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، الذي أعطاني إياه أبي، أغلى ما أملك، لأعيده إليه. سيقاوم وسألح عليه وسينتصر، وسأدعه ينتصر. لكن صباحًا قبل أن أغادر، سأتركه في مكتبه أو أينما يجلس الآن لقراءة الكتب القليلة التي نجت من الحرب، مع ملحوظة أخبره فيها بأنني سأعود لأخذه.

أصل إلى شيبردز بُش جرين. يصدر هاتفي صوتًا. رسالة من حسام. صورة من داخل محطة قطارات جار دو نورد: غائمة، صُوِّرت على عجل، مغمورة بأضواء خضراء وزرقاء. مُرفَق بها كلمة واحدة: «وصلتُ». آخذ صورة مشابهة للاخضرار، والسماء فوقي تمتلئ بضوء الليل الكبريتي، وأمامها تقف الأشجار عارية. لكنني لا أرسلها. أواصل المشي إلى البيت. فجأةً تسيطر عليَّ الرغبة في أن أكون في البيت، أن أدخل شقتي، أخلع معطفي

وأجلس في الجو الدافئ الأليف. وأعلم، حتى قبل أن أصل إلى هناك، أن الأمر سيكون ككتاب يُغلَق، نهاية غير درامية، وأنني سأنام الليلة وسأصحو وسأستمتع بهدية يوم الأحد، يوم راحتي، فهو حقًا هدية. أولج المفتاح في بابي. المكان كما هو. خرجنا على عجل. آخذُ كوبَي القهوة التي شربتُها وحسام وأضعهما في حوض المطبخ. أطوي لحافه. وقبل أن أخلع معطفي، أهيِّئ فراشي.

شكر وتقدير

هذا كتابٌ كنت أفكر فيه منذ الربيع العربي في عام ٢٠١١. أو هكذا اعتقدت، إلى أن اكتشفتُ مؤخرًا ملحوظةً مكتوبةً على ظهر ظرف في عام ٢٠٠٣، حيث كنت قد دوَّنتُ، على عجلٍ، فكرةً لرواية عن أصدقاء يعيشون في الغربة، وعن الوطن العاطفيِّ الذي يمكن أن تشبهه بعضُ الصداقات العميقة. إني مدينٌ لجميع صداقاتي، تلك التي استمرَّت، وتلك التي انتهت لأي سبب من الأسباب. وإذا كانت الصداقة تعليمًا، فهي تشبه الأدب، على الأقل في هذا الجانب.

إنَّ ترجمة هذا الكتاب، إضافةً إلى جميع كتبي المترجمة إلى العربية، تدين بالفضلِ الكبير لأحد عمالقة عالم النشر؛ الأستاذ الكريم إبراهيم المعلّم، فلولا صداقته، ومؤازرته، وهمَّته التي لا تنثني، ما كان لهذه الكتب أن تخرج بأحسن مما خرجت. خالص الشكر له وللزملاء في دار الشروق كافة، ولا سيَّما العزيزة أميرة أبو المجد، والعزيز أحمد بدير. من دواعي سروري كذلك أن أشكر المترجمة القديرة زوينة آل تويّه جزيل الشكر على تفانيها، ونباهتها، وموهبتها. وفي هذا المقام، لا يسعني ومترجمتي إلّا أن نتقدم بعظيم الشكر إلى العزيز إبراهيم الشريف على كرمه، وجهده، وعنايته بمراجعة الترجمة بعين فاحصة.

وقد يكون غريبًا أن أشكر مدينة، لكنَّ لِلَندن فضلًا كبيرًا على هذا الكتاب، مثلما لها فضلٌ عليَّ.

وشكرٌ بلا حدود لأمي لأسباب لا يمكن حصرها، ولشقيقي لأنه أول أصدقائي وأقدمهم.

هذا الكتاب، كما هو حال كل ما كتبتُهُ ذات يوم وما سأكتبه دائمًا، يدين أكثر ما يدين لرفيقة قلبي وأقرب أصدقائي إليَّ؛ ديانا.

هشام مطر؛ وُلِدَ في نيويورك لأبوين ليبيَّيْن. عاش طفولته بين طرابلس والقاهرة، ويقيم في لندن. كتب ثلاث روايات، هي: «في بلد الرجال» التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر، و«اختفاء»، و«أصدقائي» التي فازت بجائزة «أورويل»- فرع الرواية السياسية. وله سيرتان هما: «العودة» التي حصدت عدة جوائز: منها جائزة بوليتزر، جائزة پن/جين ستاين للكتاب، جائزة راثبونز فوليو، جائزة سلايتلي فوكست لأفضل سيرة ذاتية، جائزة الكتاب الأجنبي مع فرانس إنتير وصحيفة الأحد في فرنسا، وجائزة غيشويستر شول الألمانية، ثم سيرة «شهر في سيينّا». يعمل أستاذًا في كلية برنارد بجامعة كولومبيا. وهو زميل الجمعية الملكية للأدب، وزميل فخري في الأكاديمية الملكية للفنون. تُرجِمَت كتبه إلى أكثر من ثلاثين لغة.

أصدقائي

مرة جديدة، يعود إلينا هشام مطر برواية آسرة ترسّخ موهبته، فتفوز بالجوائز، وتجتذب ثناء النقاد، وتنال إقبال القراء في أكثر من ٣٠ لغة.
«أصدقائي» لهشام مطر، رواية بديعة تجول بصوت حنون وأسلوب بديع في أشخاص أبطالها، وتنتقل ببراعة بين معاني المنفى والصداقة والأسرة والحبّ والألم، رسمتها ريشة فنان مرهف وأديب من أهم الأدباء المعاصرين.

***

«بدقة الحسّ ورهافة القلم التي اعتدناها منه، يصطحبنا هشام مطر، في «أصدقائي»، في رحلة ليلة واحدة في شوارع لندن لنعبر ثلاثين عامًا، ونعي كيف ترسم الظروف والأحداث السياسية حيوات الأفراد وتقتحم أدق تفاصيلها».

أهداف سويف

«طالما كنتُ معجبةً بصوت هشام مطر؛ صوتٍ حنون وعطوف ولكنه قويٌّ وآسرٌ بالدرجة ذاتها».

أليف شافاك

«هذه رواية مسكونة بالشهادة وبالذاكرة المحتشدة بمشاهد حية، تتحرك خلال مقاطعها بحريّة واسعة، تستكشف وتكشف الأيادي الطويلة، المرئية وغير المرئية، للسلطات القامعة، وممارساتها التي تلقي بظلالها الثقيلة على الروابط الإنسانية، وتصوغ مشاهدها التي تستعصي على التجاهل، وتستعصي أيضًا على النسيان».

د. حسين حمودة

9 789770 940228

دار الشروق
www.shorouk.com